دراسات تربوية

من

واحة الظلال

سورة الفاتحة - سورة البقرة

بقلم

غيثاء محمد أحمد

جميع الحقوق محفوظة

الطبعة الأولى
١٤١٩هـ - ١٩٩٨م

دراسات تربوية

من

واحة الظلال

بسم الله الرحمن الرحيم

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على سيد المرسلين، وإمام المربين، وعلى آله وصحبه أجمعين، وتابعيه بإحسان إلى يوم الدين.

عن عبد الله بن عمر رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم:

«كلكم راعٍ، وكلكم مسؤولٌ عن رعيته، والأمير راعٍ، والرجل راعٍ على أهل بيته، والمرأة راعيةٌ على بيت زوجها وولده، فكلكم راعٍ، وكلكم مسؤولٌ عن رعيته»[1].

(١) صحيح البخاري كتاب النكاح، رقم ٤٨٠١.

الإهـــداء

رب اغفر لي ولوالديّ، ربِّ ارحمهما كما ربياني صغيراً.

إلى الوالدين المخلصين.

إلى المربين الصادقين.

إلى المرابطين على ثغور هذا الدين.

إلى الحافظات والحافظين المتشوقين.. إلى ركب العاملين.

إلى أحرار هذه الأمة المجاهدين الصابرين.

إلى أهل الله وخاصته، أهل القرآن العظيم.

إلى هؤلاء جميعاً نمد أيدينا لتتضافر الجهود، وننال المقصود، وننقذ فلذات أكبادنا وأنفسنا من أن نخوض مع الخائضين، ولئلا نكون عن كتاب ربنا من المعرضين.

أم محمد

تمهيد

في هذه الدراسة، تعميق لمعاني الربوبية، والتي اشتُقَّت منها التربية، ومعاني العبودية، والتي هي أسمى معاني التكريم لهذه البشرية، وتعميق لمعنى العبادة وتخصيصها، وإيقاظ للحس، حتى يحصل التفاعل المطلوب بين المخلوق ومنهج الخالق العظيم، وإيجاد التوازن المفقود. وعودة إلى الوفاء بالعهود..

تقديم

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على المبعوث رحمة للعالمين، وعلى آله وصحبه ومن سار على دربه إلى يوم الدين. . وبعد.

فالحياة مع كتاب الله عز وجل هي حياة مع كلام رب العالمين. يُعطي الله فيضاً من لدنه لمن يعيش هذه الحياة السعيدة، فيكون ممراً لبؤرة النور التي تشع على العالمين.

إنه عِلْم لدني من رب السماوات والأرض يعطيه الله تعالى من أحب من عباده كلاً على قدر جهده، وعلى قدر عطائه، وعلى قدر خلوص نيته. وتمر الأعوام والقرون والناهلون من معين كتاب الله يصدرون بعد هذا النهل، ويسقون العطشى من الناس، والمعين لا ينضب فهو من عند الذي لا تنفذ خزائنه ولا ينقطع فيضه ومدده.

وفي كل جيل وفي كل قبيل نشهد مفسرين لكتاب الله بالمأثور أو الرأي، ويضيفون جديداً إلى المكتبة القرآنية، ويحس أبناء هذا الجيل أنهم أوفوا على الذروة، ولكن يشاء الله تعالى أن يبقى لكل جيل ذروته، ولكل قبيل مفسروه وسدنته، فيتابعون من جديد النهل من كتاب الله ويُخرج الدُرَّ من الكنوز الخالدة التي لا تفنى أبد الدهر حتى يرث الله الأرض ومن عليها.

وهذه المحاولة الجديدة من الأخت الداعية المربية غيثاء محمد جزء من هذا الجهد البشري، وجزء من هذا الفيض الرباني في خطواتها الأولى من خلال سورتي الفاتحة والبقرة.

إننا - في الحقيقة - لسنا أمام تفسير لكتاب الله عز وجل. فهذا علم له جهابذته وعلماؤه الكبار، ولكننا أمام فهم لإيحاءات النصوص في مجال الدعوة وفي مجال التربية، ملأت كيان هذه الأخت فأحبَّت أن تسطرها في يراعها، وتقدمها للناس وقد غمرتها هذه المعاني، فما تستطيع إلا أن تطلقها من إسارها، فتنداح في القلوب، وتشرق في الأفئدة.

إنها تملك دفئاً في الكلمة، وحرارة في العاطفة، وسلاسة في التعبير، وتسلسلاً في العرض. فتقدم هذه المعاني من خلال هذا اللباس القشيب الذي اختارته.

وتكاد تحس أن الحرارة لا تفارقها لحظة إلا عندما تريد أن تقدِّم للقراء الفوائد التربوية، وتعيش مع الأرقام المتسلسلة، فتعود مُدَرِّسة في فصل، أو موجهة تربوية في مدرسة، تُعلِّمُ طالباتها أو المتدربات عندها خلاصة هذا الدرس. فهي لم تستطع أن تخرج عن كيانها كأنثى في انطلاقاتها في الحديث التربوي المستمر الحي الدافىء، وليس الفلسفي الغائص في المصطلحات. ولا تستطيع أن تخرج عن كيانها كداعية، تود أن ترى أثر دعوتها في المستمعات المتلقيات العلم بين يديها، ولا تجد صعوبة في استدعاء كل ما في جعبتها من مفاهيم تربوية معاصرة قرأتها أو اطلعت عليها ثم اختزنتها ثم عادت لتبثها حرفاً في قرطاس وكأنما تطلقها شمعة في ظلام.

ولا شك أنها حين أقدمت على كتاب الله تهيبت من هذا الأمر الخطير، فلم تقدم إلا وقد اطلعت على ما وصل إليها من أمهات التفاسير المعروفة. لكن روح - ظلال القرآن - للشهيد سيد قطب هي التي كانت تملك عليها كيانها، ولم تفارقها، ونكاد نقول أنها تعيش تلميذة في ظلال القرآن تلميذة في هذه المدرسة كما عاشها صاحب الظلال.

إننا لسنا أمام عالمة مفسرة للقرآن، وإنما كما قلت أمام دعوة صادقة إلى الله، وحرقة على الطفل المسلم، والمرأة المسلمة من أن تسقط في براثن الشيطان وجنده في كل مكان، وروحاً ثابتة تدعوها إلى السمو والرفعة

عن سفاسف الأمور، إننا أمام روح الأنثى التي تعرف لهجة مخاطبة أخواتها، والتي لا يملكها الرجال دائماً في هذا المجال.. والحمد لله رب العالمين.

الأستاذ

محمد منير الغضبان

تقديم

إن الحمد لله وحده لا شريك له، والصلاة والسلام على رسوله..
وبعد:

فإن التربية سبيل المسلمين الوحيد نحو إقامة المجتمع المسلم، فالتربية تصقل الفرد المسلم وتجعله لبنة صالحة لبناء المجتمع، كما أعد رسول الله ﷺ المهاجرين والأنصار ثم أسس المجتمع المسلم الأول.

والتربية الإسلامية الحقة تنبع من كتاب الله عز وجل وسنة رسوله ﷺ، ومن هذين المصدرين يتأكد لنا أهمية دور البيت في التربية، فهو المؤسسة التربوية الأولى يتلقى الطفل منذ الولادة ليحافظ على الفطرة التي أودعها الخالق سبحانه وتعالى فيه، والبيت مسؤول أمام الله عز وجل عن تربية أولاده وإعدادهم للمجتمع المسلم.

والأم هي المسؤولة التربوية الأولى في البيت، لأن الطفل قطعة منها ولأنها أعطيت الحنان لترعى الأطفال وتصبر على تعبهم، ولأن البيت ميدان عملها الأساسي، فيه تلازم الأطفال وتسهر على تربيتهم.

وعلى ضوء ما تقدم تتضح لنا أهمية هذا البحث، لأنه من إعداد أم مارست التربية والدعوة، دفعتها الغيرة على أولادها وأولاد أخواتها المسلمات إلى البحث عن الفوائد التربوية في كتاب الله عز وجل، مسترشدة بالظلال التي رسمها الأستاذ الشهيد سيد قطب يرحمه الله.

والله نسأل أن ينفع المسلمين بهذا الكتاب، فيستفيد منه الآباء

والأمهات في تربية أولادهم، وأن يجعله في صحيفة الكاتبة ينفعها يوم لا ينفع مال ولا بنون.

والحمد لله رب العالمين

ذو القعدة ١٤١٧ هـ

خالد أحمد الشنتوت
ماجستير في التربية
من جامعة الملك عبد العزيز

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

الحمد لله رب العالمين، نعبده وحده، وبه نستعين، والصلاة والسلام على سيد المرسلين، وخاتم النبيين، سيدنا محمد ﷺ، وعلى آله وصحبه أجمعين.

إن الذي ينعم الله عليه بنشأةٍ إسلامية، وأُسسٍ تربوية، فينمو ويترعرع سويَّ النفس، راقي التفكير، صادق الأحاسيس، دقيق التوازن، وكأنه على صراطٍ مستقيم، عليه أن يستشعر هذه النعمة، ويقول: الحمد لله الذي هدانا لهذا وما كنّا لنهتدي لولا أن هدانا الله.

ومن شكر نعمة الله على العبد، أن يشمّر عن ساعديه، ليكون في ركب الداعين إلى الله، العاملين المخلصين، وأن يعترف بالفضل لأهله، فيكون حلقة خيرٍ، تصل فضل السابقين بجهود اللاحقين، وهكذا تمضي سلسلة الخير إلى يوم الدين، من غير تبديلٍ ولا تحريف.

إن الرحلة القرآنية، رحلةٌ ممتعة، ولكنها شاقة وطويلة ﴿إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا ۝٥﴾[1] تحتاج إلى دأبٍ وصبرٍ ومصابرة حتى تؤتي أكُلها، وتطيب ثمارها، ولقد منّ الله عليَّ بهذه الرحلة، فعرّجتُ على التفاسير،

(١) المزمل ٥.

وجلست بين يدي المربين، ونهلت من معين المخلصين، ثم أويت إلى الظلال، أرشف الرحيق، برفقٍ وعمق، فأحسست التناسق الجميل، بين حركة الإنسان وحركة الكون الذي أبدعه الله، فأدركت جلال التوحيد، ودلفت كجرم صغير، يرتفع بالعبودية، ويفخر بالنسب العريق، لذاك الموكب الكريم، يقود خطاه ذلك الرهط الرشيد؛ نوح وإبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب ويوسف وموسى وعيسى ومحمد صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين.

تدبّرت كتاب الله، فوجدت أنّ هذا الكون، لا مكان فيه للمصادفة العمياء، ولا للفلتة العارضة، وليس فيه مجالٌ للتذمر والفرح ﴿لِّكَيْلَا تَأْسَوْا عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ﴾[1] وإنما هي الأقدار الربّانية، والاستسلام المطلق للعليم الخبير.

انطلقت خلال رحلتي أتحسس في المدينة أثر الصحب الكرام وهم يتحركون وعليهم السكينة والوقار، وجبريل الأمين يرعى الصلة بين السماء والأرض، والنبي الكريم ﷺ يرسم معالم الطريق، ويحقق المثل العليا للتربية الربانية والحركة القرآنية.

عقلٌ يعمل مستسلماً، وقلبٌ يخفق جيّاشاً، وجوارح تتحرك متأنيةً خاضعة، وهدفٌ واحد لا يحجبه شيء، وهمةٌ عالية، وعزيمةٌ حرة، تنطلق في كنف الله ورعايته، وحفيفٌ يهز جنبات الكون.

﴿الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُن مِّنَ الْمُمْتَرِينَ ﴿٦٠﴾﴾[2].

﴿وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰ أَمْرِهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾[3].

﴿أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ وَيُخَوِّفُونَكَ بِالَّذِينَ مِن دُونِهِ﴾[4].

---

(١) الحديد ٢٣.
(٢) آل عمران ٦٠.
(٣) يوسف ٢١.
(٤) الزمر ٣٦.

﴿وَمَن يُهِنِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن مُّكْرِمٍ﴾[1].

إنه المعنى الحقيقي للجهد النبوي، أن لا يكون في قلبك إلا الله.

وتابعت رحلتي القرآنية، فأيقنت أن لا صلاح للبشرية، ولا طمأنينة إلا بالرجوع إلى الله، والعودة الصادقة إلى كتاب الله، والتوجه الكلي إلى الله، وأيقنت أن العبودية لها طريقٌ واحد، وحقيقةٌ واحدة هي: إخضاع الحياة كلها، وبكل ما فيها لمنهج الله الذي أنزله في كتابه الكريم على نبيِّه المخلص الأمين.

إن الاحتكام إلى كتاب الله ليس نافلةً، ولا تطوعاً، وليس فيه مجالٌ للاختيار، فإمّا البصر والبصيرة، واتباع الحق المبين ﴿ثُمَّ جَعَلْنَٰكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ فَٱتَّبِعْهَا﴾[2] وإمّا الانحراف، والضلال البعيد.

فالأمر لا يحتمل التعدد، ولا الخلاف، ولا تشابه الأهواء، ولا سلامة الغايات، ولا التلاعب بالألفاظ، إنما الأمر أمر العقيدة، الأصل الثابت الذي تُسعد به البشرية، فتسترد إنسانيتها الضائعة، وآدميتها المهدورة بقوانين ما أنزل الله بها من سلطان.

وجدت في الرحلة القرآنية، أنَّ جميع أسباب الهداية واضحة، وأنّ هذه الأمة نيط بها ما لم يُنط بباقي الأمم، فالخير الذي أصاب السابقين هو الخير الذي يناله اللاحقون. ﴿فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُۥ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ ۖ وَمَا بَدَّلُوا۟ تَبْدِيلًا﴾[3] فالصورة واحدة، وما بدّلوا تبديلا، والرسالة باقية، والهداية مستمرة، والخيريّة موجودة، واتخاذ الشهداء حقٌّ باقٍ بقاء هذه الأمة ﴿وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَآءَ﴾[4] فالتبليغ واجب، والدعوة فريضة، والعمل مرفوع، والجهد مشكور ويوم الجمع لا ريب فيه؛ يوم مشهود.

---

(١) الحج ١٨.

(٢) الجاثية ١٨.

(٣) الأحزاب ٢٣.

(٤) آل عمران ١٤٠.

بهذا اليقين جاهد المجاهدون ومضوا إلى الله، ولا زالوا يمضون، وبصماتهم واضحة على الطريق، وشذا دماؤهم يعطر التاريخ، والحق يظهر كلما زادت محاولة الإطفاء لنور الله. ﴿يُرِيدُونَ لِيُطْفِئُوا۟ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ وَٱللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾[1]. والله تعالى يعلم ما تقوله الأفواه، وما تنطوي عليه السرائر. ﴿لِّيَجْزِىَ ٱللَّهُ ٱلصَّٰدِقِينَ بِصِدْقِهِمْ وَيُعَذِّبَ ٱلْمُنَٰفِقِينَ إِن شَآءَ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٢٤﴾﴾[2].

غيثاء محمد أحمد

---

(١) الصف ٨.

(٢) الأحزاب ٢٤.

الهدف من هذا الكتاب:

١ ـ إرشاد الأمة الإسلامية، للعودة إلى كتاب ربها.

٢ ـ التركيز على فهم الآيات وتطبيقها، وإدراك الحقيقة، التي من أجلها أُنزل هذا القرآن.

٣ ـ التحذير من الغزو الاستعماري الثقافي، ورواسبه، التي اجتالت الأُسس التربوية الإسلامية.

٤ ـ إبراز المعاني التربوية، التي نهض بها المجتمع المدني، وما تحتاجه من جهدٍ ومجاهدة.

٥ ـ إحياء معنى العبادة، التي بُترت عن أصلها القرآني، وتحولت إلى شعائر تُقام، وآياتٍ تُتلى.

٦ ـ إحياء المسلمين، الذين يعيشون أمواتاً أذلاء، رغم ممارسات الحياة.

٧ ـ الدفع إلى خطواتٍ إيجابية تربوية، وربط الآيات بالحياة اليومية، والتنبيه إلى اللمسات الوجدانية، سواءً في الآيات الكريمة، أو في أسباب النزول، أو السنة النبوية الشريفة.

خطة العمل في هذا الكتاب:

١ ـ توضيح معاني الآيات الكريمة.

٢ ـ تتبع أسباب النزول، والوقوف على تربوياتها في الصحاح.

٣ ـ البحث في أمهات كتب التفسير، وفي علوم القرآن للزرقاني عن كل قولٍ مختلفٍ فيه، لإثبات ما رجّحه أفاضل هذه الأمة.

٤ ـ عدم الخوض في الخلافات الفقهية، والقولية، والكلامية، والفلسفية، فلها كتبها ومراجعها.

وما أنا إلا طالبة علم، باحثةٌ عن الحق، دالّةٌ على الخير، لمن أحببتهم في الله، أقول كما قال فقيه الأمة؛ عبد الله بن مسعود ﷺ:

«ما كان من صوابٍ وخيرٍ فمن الله ورسوله، ومن ثَمّ فضل أهل العلم علينا، وما كان من خطأ، فمن النفس، ومن الشيطان».

والله أسأل أن يجنبنا الخطأ، ويدفع الزلل، ويسدد الخطا، ويتقبل العمل.

لمحة موجزة عن القرآن المكي والقرآن المدني:

القول المشهور:

أن القرآن المكي: هو ما نزل قبل هجرة الرسول ﷺ إلى المدينة، وإن كان نزوله في غير مكة.

وأما القرآن المدني: فهو ما نزل بعد هجرة النبي ﷺ إلى المدينة، وإن كان نزوله في المدينة، أو غيرها.

من فوائد معرفة القرآن المكي والمدني:

١ ـ تمييز الناسخ والمنسوخ، حيث المدني ناسخٌ للمكي، إن كان الحكم فيهما مختلف، لأنّ المدني هو الذي نزل آخراً. والطريق إلى معرفته هو ما ورد عن الصحابة الكرام، كما وصف ذلك عبد الله بن مسعود ﷺ

وقال: (والله الذي لا إله غيره، ما نزلت سورة من كتاب الله إلا وأنا أعلم أين نزلت، ولا نزلت آية من كتاب الله إلا وأنا أعلم فيم نزلت، ولو أعلم أنَّ أحداً أعلم مني بكتاب الله تبلغه الإبل، لركبت إليه). وسأل رجل عكرمة رضي الله عنه عن آية من القرآن فقال: نزلت في سفح ذلك الجبل، وأشار إلى سلع.

وهناك ضوابط يُعرف بها المكي من المدني.

ضوابط القرآن المكي:

١ ـ كل سورة فيها (كلاّ)، فهي مكية.

٢ ـ كل سورة فيها سجدة، فهي مكية.

٣ ـ كل سورة بدأت بحروف الهجاء، فهي مكية، سوى البقرة وآل عمران؛ فهما مدنيّتان بالإجماع، والرعد فيها خلاف.

٤ ـ كل سورة فيها قصص الأنبياء والأمم السابقة، فهي مكية، سوى سورة البقرة.

٥ ـ كل سورة فيها قصة آدم وإبليس، فهي مكية، سوى سورة البقرة أيضاً.

٦ ـ كل سورة فيها يا أيها الناس، فهي مكية، سوى سورة البقرة.

٧ ـ كل سورة من المفصَّل[1] مكية.

أما ضوابط القرآن المدني فهي:

١ ـ كل سورة فيها يا أيها الذين آمنوا، فهي مدنية.

---

(١) المفصَّل هو: أواخر القرآن، واختلفوا في تعيين أوله، وهو ثلاثة أقسام: طوال، وأوساط، وقصار، فطواله: من أول الحجرات إلى سورة البروج، وأوساطه: من سورة الطارق إلى البيّنة، وقصاره: من سورة الزلزلة إلى آخر المصحف. من مناهل العرفان للزرقاني، ج١.

٢ ـ كل سورة فيها إذن بالجهاد، وأحكام الجهاد، فهي مدنية.

٣ ـ كل سورة فيها الحدود والفرائض، فهي مدنية.

٤ ـ كل سورة فيه ذكر المنافقين، فهي مدنية، سوى سورة العنكبوت فهي مكية، إلا الآيات الإحدى عشرة الأولى منها فهي مدنية. وهناك بعض السور المختلف فيها فليس هنا مكان البحث فيها.

فلا بدَّ لنا ونحن نُقبل على دراسة كتاب الله أن نكون على يقينٍ ثابت أن هذا القرآن منزلٌ من عند الله، عن طريق الوحي الأمين جبريل عليه السلام، على سيد المرسلين محمد ﷺ، وأنه لا نجاة لنا وللبشرية عامة إلا في فهمه، وتدبره، وإحلال حلاله، وتحريم حرامه، والاحتكام إلى شرائعه، وقد كفر كل من ردَّ آية في كتاب الله، وضلَّ كل من شكَّ وارتاب، وقد أعظم الفرية من ظنَّ بأن رسول الله ﷺ كتم شيئاً مما أُنزل عليه من ربه، ونشهد بأنَّ الصحابة الكرام عدولٌ ثقات، شهد الله لهم بذلك، وأثنى عليهم بقوله ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ ۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ ۖ﴾[1] وقال: ﴿وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ ۚ﴾[2]. وقال في أهل القرآن عامة: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ﴾[3] فهم رضوان الله عليهم، المشافهون بهذا الخطاب، والداخلون في مضمونه، وقد أحبَّهم الله ورسوله، وشهد لهم بالفضل، وإنّ الله اختارهم لصحبة نبيّه، وليبلغوا عنه، ويجاهدوا تحت رايته رضي الله عنهم وأرضاهم أجمعين.

---

(١) الفتح ٢٩.

(٢) الحشر ٩.

(٣) آل عمران ١١٠.

سورة الفاتحة

فاتحة الكتاب

﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ ﴿١﴾ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٢﴾ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ ﴿٣﴾ مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ ﴿٤﴾ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴿٥﴾ اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ﴿٦﴾ صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ ﴿٧﴾﴾ آمين.

فاتحة الكتاب:

أسماؤها وفضلها:

فاتحة الكتاب مكية، وآياتها سبع، وفضلها عظيم، ومن فضلها تعدد أسمائها، مما يدل على شرفها، فهي: فاتحة الكتاب، وأُمّ القرآن، والسبع المثاني، والقرآن العظيم، والشفاء، والرقية، والوافية، والكافية، والأساس، والحمد، وسمّاها الله عز وجل في الحديث القدسي الصلاة.

وقد ورد في صحيح مسلم، من حديث العلاء بن عبد الرحمن عن أبيه عن أبي هريرة ﷺ، عن رسول الله ﷺ: يقول الله تعالى: (قسمتُ الصلاة بيني وبين عبدي نصفين، فنصفها لي، ونصفها لعبدي، ولعبدي ما سأل، إذا قال العبد: الحمد لله رب العالمين، قال: حمدني عبدي، وإذا قال: الرحمن الرحيم، قال الله: أثنى عليّ عبدي، وإذا قال: مالك يوم الدين، قال الله: مجّدني عبدي، وإذا قال: إيّاك نعبد وإيّاك نستعين، قال: هذا بيني وبين عبدي، ولعبدي ما سأل، فإذا قال: اهدنا الصراط المستقيم

صراط الذين أنعمت عليهم غير المغضوب عليهم ولا الضالّين، قال: هذا لعبدي، ولعبدي ما سأل)[1].

وكما جاء في الصحيحين: أن لا صلاة لمن لم يقرأ بفاتحة الكتاب[2].

فاتحة الكتاب والمفردات:

الحمد لله: الثناء الجميل الذي يليق بجلاله سبحانه وتعالى.

رب: مشتق من التربية، وهو الذي ربّى عباده بنعمه، وقائمٌ على شؤونهم بالإصلاح والتدبير.

العالمين: اسم لا مفرد له، وهو دليل على المخلوقين من كل جنس.

الرحمن: عظيم الرحمة، بصيغة المبالغة، وهو اسم خاص بالله عز وجل، ولا يُطلق على سواه، وقيل: هو صفة الرحمة الشاملة للكون كله كافره ومؤمنه.

الرحيم: صفة الرحمة الدائمة، وهي خاصة بالمؤمنين.

الدين: الجزاء والحساب.

نعبد: نخضع ونتذلل.

الصراط المستقيم: الطريق السوي لا عوج فيه.

أنعمت عليهم: هديتهم وتوليتهم.

المغضوب عليهم: اليهود ومن فعل فعلهم.

الضالّين: التائهين المنحرفين، وقيل هم النصارى، وكل من انحرف عن دينه.

آمين اللهم استجب لنا.

---

(١) صحيح مسلم كتاب الصلاة، رقم ٥٩٨.

(٢) صحيح البخاري كتاب الأذان عن عبادة بن الصامت، رقم ٧١٤.

الدراسة التربوية للآيات:

بسم الله الرحمن الرحيم:

البدء باسم الله هو الأدب المطلوب، الذي أوحى به الله لنبيه ﷺ في أول ما نزل عليه بقوله تعالى: ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ①﴾ وهذا ما يتفق مع الحس المسلم، المستسلم لله، أنه لا بد من ذكر اسم الله قبل كل حركة وكل اتجاه، حتى تستقيم الأمور، وتُحدد الاتجاهات.

فما أكرم هذه السورة، وما أعظم مكانتها عند الله، حتى جعلها تُقرأ ويُثنى بها عليه وتُكرر في كل صلاة، وكل اسم لله تبارك وتعالى له وقعه التربوي على الإنسان، ولكل اسم من أسماء اللهَ الحسنى جولة في الضمير الإنساني تزيده ارتباطاً بخالقه، ويبَقى الاسم الذي يملك نياط القلوب ﴿رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ﴾ فالوقوف على كلمة رب، بأنها ربوبية نعمة وربوبية إطعام وشراب وربوبية صحةٍ وعطاء، فليس هو المعنى الكامل لها، وإن كان هو من بعض معانيها، فمعنى كلمة رب العالمين أعمق وأجل وأعظم مما انحط إليه المفهوم العصري الحاضر، رب العالمين ربوبية السيادة المطلقة، وربوبية القوامة التي لا تغيب ولا تفتر، ربوبية تنظيم البشرية، وشمولية هذه الربوبية لجميع مناحي الحياة هي قاعدة التصور الإسلامي، وبقي القرآن يجلوها في الضمير، ويوقظها في الحس مرةً بعد مرة، فلا تعدمها الألفة والتكرار فاعليتها، ولا تُفقدها الفلسفة مراميها، فهي أمرٌ عظيم له أثره الكبير في الضمير الإنساني، والسلوك البشري سواءً بسواء، ولو أدرك كل مصلٍ معنى ما يردد لسانه ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ②﴾ لأدرك لصلاته معنى، ولنظر بعين الإنسانية والرحمة إلى الخلائق، والعوالم التي تشاركه التوجه إلى ربه ﴿وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ﴾[1] تصله بهم صلة الحب والخضوع لله رب العالمين، إنها الربوبية الحانية التي تكفلت بتربية النفس والعقل بالإيحاء والعرض والتفكر والنظر والاعتراف والإقرار والترغيب والترهيب والقصص

---

(١) الإسراء ٤٤.

والأمثال، وجعلت النفس تؤدي المواثيق، وتبذل العهود والشهود، وتعبّد اللسان الشرود، ليقرّ في الخفاء والعلن، وفي حديث السر والجهر الحمد لله رب العالمين، ولو كان الأمر أمر نعمة معدودة، لقال الشكر لله، ولكن نعمٌ معدودة وغير معدودة، وأفضالٌ محسوسة وغير محسوسة، تستحق الحمد باللسان، والشكر بالجَنان، والسجود والاستسلام بالعقل والإرادات.

ثم يُعقب بضمير التعيين ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۝٥﴾، فما هي العبادة التي يُعطى عليها العهد بذلاً وإلزاماً؟؟ يبذله إقراراً، ويلتزم به التزاماً، إنها العبودية التي أعلنت ميلاد التحرر البشري الكامل الشامل التحرر من عبادة الهوى، ومن عبادة الأموال والشهوات، وعبادة النظم واستذلال الأشخاص والأوضاع وإخضاع الإرادات، عبودية تحدد معاملة الخلائق التي حادت عن السير في ركب الخضوع لربوبية رب العالمين.

إنَّ شمولية العبودية ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝١٦٢﴾[1]، بهذا المفهوم القرآني تميّز الإنسان عن العوالم الأخرى من غير البشر، التي خضعت بتكوينها لله رب العالمين، وأما الإنسان ذلك العاقل هو وحده الذي يملك أن يشذّ، فينقلب إلى قوةٍ ضالة تفتقد صداقة الكون، وإن من شيءٍ إلا جنديٌّ لله سيحارب هذا المتمرد، وسيميل على من شذَّ ميلةً واحدةً متى أُمر ﴿وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ﴾[2]، فلا بدَّ لهذا الإنسان من أن يستقيم، ويستخدم عقله، ليكون قوةً مهتدية تؤمن بالله وتتبع منهج الله وتنتبه أن الأمر لها بالصلاة والمناجاة إنما هو موقف بين يدي الله، تُعطي فيه العهود وترفعه الملائكة الشهود وتُزكّى به النفوس.

﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۝٥﴾، عهودٌ ومواثيق نكررها ونثني بها، وهي في كل مرة تعني «اللهمَّ منا العبادة، ومنك العون وبك الاستعانة»، ونحن مسؤولون عمّا نقول. وللعبد بين يدي ربه موقفان: موقف الدنيا في كل صلاة، وموقف الآخرة يوم الحساب، فمن صدق الله

---

(١) الأنعام ١٦٢.

(٢) المدثر ٣١.

في الموقف الأول، أحسن الله إليه في الموقف الثاني.

(احفظ الله يحفظك)[1] المعادلة النبوية التي لقّنها رسول الله ﷺ لابن عمه عبد الله بن عباس رضي الله عنهما، فحريٌّ بالإنسان العاقل أن يتفكر في قدرة الله عليه، وأن لا يشذ عن نواميس الكون في خضوعها لله.

﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِىَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ٱئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ﴾[2].

فالإنسان هو الذي يطغى ويظلم وينسى أنّ ربه عليه قادر وأنّه سبحانه رب المظلوم كذلك، وغاب عن إدراكه أنَّ الله أهلك طغاة البشر ببعوضة تطن وبموجةٍ تلطم[3].

لو ثبت في تصورنا هذا المعنى في كل مرةٍ نقيم فيها الصلاة، ونقرأ بفاتحة الكتاب لأدركنا المفهوم الشامل لقول: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٢ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝٣﴾ سبحانه رحمٰن الدنيا والآخرة ورحيمهما، تتراحم الخلائق بجزءٍ من رحمته.

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: **«جعل الله الرحمة مائة جزء، فأمسك عنده تسعة وتسعين جزءاً، وأنزل في الأرض جزءاً واحداً، فمن ذلك تتراحم الخلائق، حتى ترفع الدابّة حافرها عن ولدها خشية أن تصيبه»**[4].

وقد ذكر الله عز وجل اسم الرحمن ومشتقاته في القرآن خمساً وثلاثين وثلاثمائة مرة، والخلائق كلها تفتقر إلى رحمته جل وعلا.

﴿مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ ۝٤﴾، فهو ملك الموقف، وهو المالك لهذه

---

(١) مطلع حديث رواه ابن عباس في سنن الترمذي في كتاب صفة القيامة والرقائق والورع، ٢٤٤٠.

(٢) فصلت ١١.

(٣) ورد أن النمرود الملك في زمن إبراهيم عليه السلام، أهلكه الله ببعوضة دخلت في أذنه، فما زالت به حتى أهلكته. وفرعون موسى أهلكه الله بموجة من أمواج البحر.

(٤) صحيح مسلم، كتاب التوبة، رقم ٤٩٤٢.

الرقاب الذليلة بين يديه، رقابٌ لا تملك الفرار، ولا يُقبل منها الفداء.

﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۝٥﴾، شهادة إقرار وتأكيد، فلنستحضر أن المحكمة قائمة، وجيء بنا لندلي بالشهادة، ونوقّع المواثيق في آية ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۝٥﴾، فالله حاضر والملائكة شهود والعبد يقول والقول مرفوع، إنها ضوابط للنفس البشرية، جعلها الله في أسرار فاتحة الكتاب، لتؤتي الصلاة أكلها ﴿إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ﴾[1] وتبرز صفات المصلين في المجتمع المسلم.

إنّ هذا التهذيب الرفيع هو الذي خرّج الصحابة الكرام، وها هو أُبي بن كعب رضي الله عنه يقول: (كنت أُصلي في المسجد، فدعاني رسول الله ﷺ فلم أُجبه، وفي رواية فلم آته حتى صليت ثم أتيته، فقال: «**ويحك ما منعك إذ دعوتك أن لا تجيئني؟ أو ليس تجد فيما أوحى الله إليّ أن استجيبوا لله وللرسول إذا دعاكم..؟**» فقلت: بلى يا رسول الله، لا أعود إن شاء الله، قال: «**لأعلمنّك أعظم سورة في القرآن قال: الحمد لله رب العالمين، هي السبع المثاني، والقرآن العظيم الذي أُوتيته**»)[2].

فأُبي رضي الله عنه يصلي، والمعلم المخلص الصدوق يناديه، فلم يُجب منعه من الإجابة الوقوف بين يدي الله عز وجل، لم يصرفه عن نبيه دنيا يصيبها، ولا امرأةٌ ينكحها، ولا ولدٌ يرجوه، وإنما منعته من الإجابة الصلاة، والتوجيه النبوي التربوي يعجب!!

كيف يا أُبي تقف بين يدي الله ولا تجيب رسوله؟؟ تناقض لن يسكت عنه المربي المبعوث رحمةً للعالمين، أو ليس تجد فيما أوحى الله إليّ أن استجيبوا لله وللرسول إذا دعاكم؟؟

تقريع نفسي، وتأنيب نبوي، فما كان من المؤمن إلا أن يقول بالإقرار والوعد بعدم العودة إلى هذا «ولا أعود إن شاء الله» إننا لا نفتقد الأسس

---

(١) العنكبوت ٤٥.

(٢) رواه البخاري في كتاب تفسير القرآن، رقم ٤١١٤.

التربوية، ولكننا نفتقد المربي، نفتقد الأُم التي تربّت على هذه المعاني، لتقوم بدور المذكِّر والمؤنِّب وهي راعيةٌ في بيت زوجها ومسؤولة عن رعيتها. إنّ الخطأ في فهم آية في كتاب الله، عرّض أُبيّ ﷺ لهذا الموقف، موقف الاعتراف بالذنب، والتوبة منه(١).

إن دراستنا للمواقف القرآنية، وأسباب النزول هي الطريق الوحيد، لإيجاد الجيل الربّاني المفقود، وهذه الدراسة تكشف لنا مدى تبلد الحس عندنا، والهوة الساحقة بيننا وبين التوحيد الحق والعبودية الحقة.

﴿ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ۝ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ ۝﴾.

رجاءٌ واحد وغايةٌ عُليا وهدفٌ يشغل البال اهدنا الصراط المستقيم، صراطٌ غير مقطوع ولا متعرج، وهدايةٌ لا تضل ولا تنقطع، صراط أمة الحق الذين حازوا على النعمة، نعمة الاستقامة بغير شطط ولا غلوٍ ولا تحريف، صراطٌ مستقيمٌ يبدأ بلا إله إلا الله محمدٌ رسول الله، وينتهي في الجنة، ومن ثبت على صراط الدنيا جاز صراط الآخرة، وقد مثّل لنا رسولنا الكريم ﷺ الصراط بقوله عن النواس بن سمعان ﷺ عن رسول الله ﷺ أنه قال: **«ضرب الله مثلاً صراطاً مستقيماً، وعلى جنبتي الصراط سوران فيهما أبوابٌ مفتحة، وعلى الأبواب ستور مرخاة، وعلى باب الصراط داعٍ يقول: يا أيها الناس ادخلوا الصراط جميعاً ولا تعوّجوا، وداعٍ يدعو من فوق الصراط، فإذا أراد الإنسان أن يفتح شيئاً من تلك الأبواب، قال: ويحك لا تفتحه، فإنّك إن تفتحه تلجه، فالصراط الإسلام، والسوران حدود الله، والأبواب المفتحة محارم الله، وذلك الداعي على رأس الصراط كتاب الله، والداعي من فوق الصراط واعظ الله في قلب كل مسلم»**(٢).

---

(١) كانوا في أول الأمر إذا عرضت لهم حاجة في صلاتهم يتكلمون حتى نزلت ﴿وَقُومُوا لِلَّهِ قَـٰنِتِينَ﴾ فسكتوا، فلعل تأنيب الرسول ﷺ لأبي كان من هذا القبيل.

(٢) رواه أحمد في مسنده وأخرجه الترمذي والنسائي، واللفظ لأحمد في كتاب مسند الشاميين، رقم ١٦٩٧٦.

فالمربّي هو الذي يهيء هذا الواعظ ليبقى حيّاً قائماً.

﴿ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ ۝٦﴾، والهداية منها ما يوجد مع الفطرة ويدور مع قطرات الدم في الإنسان، وقيل إنّ كل إنسان يولد ومعه قدرٌ من الهداية، هذه هي المبادرة الربّانية، فكما يهتدي الطفل إلى مص أصبعه، وإلى التقام ثدي أمه، وهو لا يعرف من قبل أنَّ فمه هو طريق طعامه، وكما يعبّر عن جوعه وألمه بالبكاء والحركات، فبمثل هذا القدر من الهداية عنده لمعرفة خالقه. وأثبتت الدراسات أنَّ المولود لو أُخذ بعيداً عن كل المؤثرات لنشأ موحداً لله، متطلعاً إلى خالقه، مشيراً إليه في السماء، هذه هي الهداية الفطرية، التي حدثنا عنها النبي ﷺ عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**كل مولودٍ يولد على الفطرة فأبواه يهوّدانه أو يُنصّرانه أو يمجّسانه**»[1].

فالهداية الربانية هي: فطرة الله التي فطر الناس عليها، ثم يأتي دور الوالدين، فإما أن يطمسانها، أو يصبغانها باليهوديّة أو النّصرانية أو المجوسيّة، وإما أن يصقلاها ويرشّداها، فتستقيم على صراط الله، ولم يقل يسلمانها لأنّها مسلمة، وإنما تحتاج إلى إرشادٍ وتهذيبٍ ومتابعة ومراقبة، تبدأ بذكر اسم الله في أُذن المولود وإسماعه الأذان منذ لحظات قدومه إلى الدنيا، وتتوالى رعايته باسم الله مع أنفاس أمّه وهمساتها، تذكر الله عز وجل عند كل إرضاع ومع كلِ حركة، ترقده باسم الله وتحمله باسم الله، فينمو الوليد وتنمو مداركه، فتألف ذكر الله ثم تبدأ رحلة التلقين والتعليم يوماً بيوم وشهراً بشهر، وتتجسد في مخيّلته شخصية المربّي القائم عليه، فإذا نطق لقنه لا إله إلا الله، وإذا أثغر علّمه الصّلاة ـ أي بدّل أسنانه اللبنية، وهو كناية عن سن السابعة، حيث يُؤمر بالصلاة ـ وقد قُسّم عمر الإنسان التربوي إلى ثلاثة أقسام؛ سبعٌ للملاعبة والتوجيه، وسبعٌ للتربية والتقويم والتأديب، وسبعٌ للمؤاخاة والتهذيب، فبعدها يستوي العود، وينضج الفكر، ويتسع الأُفق، وتثبت القدم ويتقبل الله العمل، ويجب أن تتوفر في المربي كلُّ مقومات التربية من الخشية من الله، إلى الوقوف عند آيات الله، إلى الحرص على

(١) أخرجه الشيخان واللفظ للبخاري في كتاب الجنائز، رقم ١٢٩٦.

الاقتداء برسول الله ﷺ، لأنّ الطفل شديد الإحساس دقيق المراقبة، فالحذر الحذر من أن يخالف العملُ القول، فإنّه النفاق.

إنّ التربية جهدٌ يحتاج إلى علم وذوقٍ ومتابعة حتى ينتج ذلك التوازن في العلم والعمل، وعندها لا بدّ من الدعاء والرجاء، والرغبة الصادقة إلى الله عز وجل في طلب الهداية، لأنه مهما تكاملت الجهود، فلا بدَّ لها من توفيق الله ورعايته للوصول إلى صراط السعداء المهتدين، ومن ثم الثبات عليه ثم التأمين على هذا الدعاء، الذي يعمُّ بطلبه المؤمنين، والذي صدر بضمير الجماعة اهدنا، فالهداية الفردية قد تأتي، وأمّا الثبات عليها فلا يكون إلا بالجماعة التي لا يكون الفرد الصالح إلا بها، فالمؤمن يتطلع إلى جماعة المؤمنين في الأرض فيلحق بهم، ويحرص ليوافق الملائكة في تأمينها على دعائه ورجائه، فينخلع من الثّقل الأرضي ليتطلع إلى السماء، فهو أداة اتصالٍ بين الأرض المعبّدة لخالقها، والروح التي تسمو في مدارج الكمال، بين الكرام البررة الطائعين. وقد تواتر النقل في استحباب قول آمين بعد الفاتحة، وكان يرتج المسجد لتأمين الصحابة، وآمين: أي استجب لنا على خلاف بين اللغويين، وفي الأثر عن ابن عباس رضي الله عنهما أنّه قال: (ما حسدكم أهل الكتاب على شيء، كما حسدوكم على قولكم آمين).

الفائدة التعبّدية للفاتحة

١ ـ التفكر في معانيها يجلب الخشوع في الصلاة.

٢ ـ تُعين على أداء الصلاة بحقها، وتعلم آداب الدعاء.

٣ ـ العمل بها يجعل الصلاة تؤدي وظيفتها، فتنهى عن الفحشاء والمنكر.

الفائدة التربوية:

١ ـ تعويد اللسان على الحمد الدائم لله رب العالمين.

٢ ـ الارتباط بالبشرية ارتباط جنس، وبالمؤمنين ارتباط إخاء وود ورحمة.

٣ ـ استشعار الرحمة والتخلق بها، فقد بلغت الرحمة بالرسول ﷺ أن شكت إليه الحمامة فجيعتها بأفراخها، وبكى له الجمل يشكو الجوع والتعب، وأثمرت الفاتحة في تربية الصحابة، حتى أعتق أبو بكر رضي الله عنه الرقاب، وبذل المال على الدعوة وهي في مهدها ابتغاء رحمةٍ من الله يرجوها، وبلغت الرحمة بعمر رضي الله عنه حتى صار لا ينام بالليل ولا يهدأ بالنهار، يقول: إن نمت في الليل ضيّعت حق الله، وإن نمت في النهار ضيّعت حق الرعية، فسطّر التاريخ آثارهم وعدلهم ورحمتهم بالإنسانية بماء الذهب.

والله أعلم بأسرار كلامه، فلذلك أمرنا أن نكررها، ونثني بها، فكأنها سرٌّ من أسرار التربية الربّانية.

٤ ـ **إيّاك نعبد وإياك نستعين**، تحديد الهدف وعدم الفوضى.

٥ ـ **اهدنا الصراط المستقيم**، رجاءٌ واهتمام وأولويات في الدعاء.

٦ ـ **صراط الذين أنعمت عليهم**، تحديد الوجهة وإعطاء الولاء لجماعة الصراط المستقيم صراط الطائفة المختارة. وبذل الجهد في معرفة أهل الحق.

٧ ـ والصلاة تكليف فرديٌّ يقوم بروح الجماعة.

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**إذا قال الإمام غير المغضوب عليهم ولا الضالّين، فقولوا آمين، فمن وافق قوله قول الملائكة، غفر الله له ما تقدم من ذنبه وما تأخر**»[1].

(١) رواه البخاري في كتاب الأذان، رقم ٧٤٠.

سورة البقرة

سورة البقرة

﴿بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾

﴿الٓمٓ ﴿١﴾ ذَٰلِكَ ٱلۡكِتَٰبُ لَا رَيۡبَۛ فِيهِۛ هُدٗى لِّلۡمُتَّقِينَ ﴿٢﴾ ٱلَّذِينَ يُؤۡمِنُونَ
بِٱلۡغَيۡبِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ يُنفِقُونَ ﴿٣﴾ وَٱلَّذِينَ يُؤۡمِنُونَ بِمَآ
أُنزِلَ إِلَيۡكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبۡلِكَ وَبِٱلۡأٓخِرَةِ هُمۡ يُوقِنُونَ ﴿٤﴾ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدٗى مِّن
رَّبِّهِمۡۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ ﴿٥﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ سَوَآءٌ عَلَيۡهِمۡ ءَأَنذَرۡتَهُمۡ أَمۡ
لَمۡ تُنذِرۡهُمۡ لَا يُؤۡمِنُونَ ﴿٦﴾ خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ وَعَلَىٰ سَمۡعِهِمۡۖ وَعَلَىٰٓ أَبۡصَٰرِهِمۡ غِشَٰوَةٞۖ
وَلَهُمۡ عَذَابٌ عَظِيمٞ ﴿٧﴾ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ وَمَا هُم
بِمُؤۡمِنِينَ ﴿٨﴾ يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَمَا يَخۡدَعُونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمۡ وَمَا يَشۡعُرُونَ
﴿٩﴾ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٞ فَزَادَهُمُ ٱللَّهُ مَرَضٗاۖ وَلَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمُۢ بِمَا كَانُواْ يَكۡذِبُونَ
﴿١٠﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمۡ لَا تُفۡسِدُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ قَالُوٓاْ إِنَّمَا نَحۡنُ مُصۡلِحُونَ ﴿١١﴾ أَلَآ إِنَّهُمۡ
هُمُ ٱلۡمُفۡسِدُونَ وَلَٰكِن لَّا يَشۡعُرُونَ ﴿١٢﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمۡ ءَامِنُواْ كَمَآ ءَامَنَ ٱلنَّاسُ قَالُوٓاْ
أَنُؤۡمِنُ كَمَآ ءَامَنَ ٱلسُّفَهَآءُۗ أَلَآ إِنَّهُمۡ هُمُ ٱلسُّفَهَآءُ وَلَٰكِن لَّا يَعۡلَمُونَ ﴿١٣﴾ وَإِذَا لَقُواْ
ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوۡاْ إِلَىٰ شَيَٰطِينِهِمۡ قَالُوٓاْ إِنَّا مَعَكُمۡ إِنَّمَا نَحۡنُ مُسۡتَهۡزِءُونَ
﴿١٤﴾ ٱللَّهُ يَسۡتَهۡزِئُ بِهِمۡ وَيَمُدُّهُمۡ فِي طُغۡيَٰنِهِمۡ يَعۡمَهُونَ ﴿١٥﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشۡتَرَوُاْ
ٱلضَّلَٰلَةَ بِٱلۡهُدَىٰ فَمَا رَبِحَت تِّجَٰرَتُهُمۡ وَمَا كَانُواْ مُهۡتَدِينَ ﴿١٦﴾ مَثَلُهُمۡ كَمَثَلِ ٱلَّذِي

ٱسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّآ أَضَآءَتْ مَا حَوْلَهُۥ ذَهَبَ ٱللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِى ظُلُمَٰتٍ لَّا يُبْصِرُونَ
﴿١٧﴾ صُمٌّۢ بُكْمٌ عُمْىٌ فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ ﴿١٨﴾ أَوْ كَصَيِّبٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فِيهِ ظُلُمَٰتٌ وَرَعْدٌ
وَبَرْقٌ يَجْعَلُونَ أَصَٰبِعَهُمْ فِىٓ ءَاذَانِهِم مِّنَ ٱلصَّوَٰعِقِ حَذَرَ ٱلْمَوْتِ ۚ وَٱللَّهُ مُحِيطٌۢ بِٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٩﴾
يَكَادُ ٱلْبَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصَٰرَهُمْ ۖ كُلَّمَآ أَضَآءَ لَهُم مَّشَوْا۟ فِيهِ وَإِذَآ أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُوا۟ ۚ وَلَوْ شَآءَ
ٱللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَٰرِهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٠﴾﴾.

سورة البقرة:

مدنية، وآياتها مائتان وست وثمانون آية، ومما ورد في فضلها، في بعض الآثار، ما رواه الإمام أحمد في مسنده عن أبي هريرة ﵁ عن النبي ﷺ أنّه قال: «**لا تجعلوا بيوتكم مقابر، فإن الشيطان يفر من البيت الذي يقرأ فيه سورة البقرة**»[١].

وما رواه مسلم في صحيحه عن أبي أمامة الباهلي ﵁ قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول[٢]: «**اقرؤوا القرآن، فإنه شافعٌ لأهله يوم القيامة. اقرؤوا الزهراوين[٣] (البقرة وآل عمران) فإنهما يأتيان يوم القيامة كأنهما غمامتان أو غيايتان[٤]، أو كأنهما فِرْقَانِ[٥] من طيرٍ صوافّ، يحاجّان عن أهلهما يوم القيامة، ثمّ قال: اقرؤوا البقرة، فإنّ أخذها بركة، وتركها حسرة، ولا تستطيعها البطلة[٦]**».

لقد تمت هجرة النبي الكريم ﷺ إلى المدينة بعد تمهيدٍ ثابت وإعدادٍ محكم، وكان الجهد المبذول والبحث المتواصل عن قاعدةٍ أخرى غير مكة

---

(١) في كتاب فضائل القرآن ـ الفتح الرباني ـ ج١٨، رقم ـ ١٦٢ ـ.
(٢) رواه أبو أُمامة في صحيح مسلم في كتاب صلاة المسافرين وقصرها، رقم ـ ١٣٣٧ ـ.
(٣) المنيرتين.
(٤) ما يظل من فوق.
(٥) القطعة من الشيء.
(٦) السحرة.

قاعدة تحمي هذه العقيدة وتكفل لها الحرية بعدما جمّدها المشركون كلياً.

فكما كان معسكر الشرك يعطل الدعوة بثقله، كان المعسكر الإسلامي؛ يبحث عن مخرج يخرج إليه وينطلق منه، وكان للقاء رسول الله ﷺ، بجماعة الخزرج وعرض الدعوة عليهم؛ أثرٌ كبيرٌ في فتح آفاقٍ جديدة، أمام الدعوة الناشئة، وذلك بعدما ضاقت مكة بأبنائها لا لعقوقٍ اقترفوه، وإنما لأنهم رأوا نوراً يتجلى فعشقوه ﴿وَمَا نَقَمُوا مِنْهُمْ إِلَّآ أَن يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ ⑧﴾[1]، وتعاقب الخزرج والأوس عامين متتاليين على خيرٍ أراده الله لهم، وقد تواتر خبر البيعة فكان منها لقاؤه ﷺ، مع نقباء الأنصار حيث اشترط لربه ولنفسه إذ قالوا: يا رسول الله اشترط لربك ولنفسك ما شئت، فقال: أشترط لربي أن تعبدوه ولا تشركوا به شيئاً، وأشترط لنفسي أن تمنعوني مما تمنعون منه أنفسكم وأموالكم، قالوا: فما لنا إذا فعلنا؟ قال: الجنة، قالوا: ربح البيع، لا نقيل ولا نستقيل.

عهدٌ وميثاقٌ وتجردٌ، وهكذا يكون أخذ الأمر بقوة، وما كان للدعوات أن تقوم على هشاشةٍ من الناس، وإنما التوجيه القرآني يقول: ﴿خُذُوا مَآ ءَاتَيْنَٰكُم بِقُوَّةٍ وَاذْكُرُوا مَا فِيهِ﴾[2]، وكذلك مضت سنة الله، فكل وحيٍ لا بدّ له من صفيٍّ من أصفياء الرحمن، وكل نبيٍ لا بدّ له من أنصار يفتدونه بالنفس والمال والولد، وكل دعوةٍ لا بدّ لها من فداء. لسانٌ يصدعُ بالحق، ويدٌ تعقد صفقة البيع، وعزيمةٌ لا تعرف الذل والهوان، ونفوسٌ أبيةٌ لا ترضى الدنيّة في دينها.

وهذا حقٌّ باقٍ إلى يوم الدين ﴿مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَٰهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُۥ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلًا ㉓﴾[3].

ومن مثل هؤلاء برزت تلك النخبة المختارة من المهاجرين والأنصار،

---

(١) سورة البروج: الآية ٨.
(٢) سورة البقرة الآية ٦٣.
(٣) سورة الأحزاب: الآية ٢٣.

ومنهم تكونت طبقة ممتازة من المسلمين نوّه الله بها في مواضع عديدة في القرآن الكريم، طبقة مثّلت مقومات الإيمان كاملة، ومثّلت صفة المؤمنين الصادقين، فكان لهم وقعٌ إصلاحي في كل مكان رضي الله عنهم وأرضاهم، وبصفاتهم افتتح ربنا سورة البقرة.

المفردات:

لا ريب: لاشك. **الغيب**: الإيمان بالله والملائكة والجنة والنار...

ما أنزل من قبلك: الكتب السماوية.

ختم: طبع.

غشاوة: غطاء. **يعمهون**: يترددون.

صم: لا يسمعون. **بكم**: لا ينطقون.

الصيب: المطر الغزير. **الصواعق**: جمع صاعقة وهي النار المحرقة.

الدراسة التربوية:

﴿الٓمٓ ۝١ ذَٰلِكَ ٱلۡكِتَٰبُ لَا رَيۡبَۛ فِيهِۛ هُدٗى لِّلۡمُتَّقِينَ ۝٢﴾.

﴿الٓمٓ﴾ تلك الحروف، التي صيغ منها هذا الإعجاز العلمي والعالمي، والباقي أبداً ليقول للبشرية ﴿وَفَوۡقَ كُلِّ ذِي عِلۡمٍ عَلِيمٞ﴾. ﴿ذَٰلِكَ ٱلۡكِتَٰبُ لَا رَيۡبَۛ فِيهِۛ﴾، تأكيدٌ وتكرارٌ يفيد التثبيت، وتكاد كل آية في كتاب الله تشير إلى صدق هذا الكتاب دون ريبٍ ولا شك، فيه الهداية وفيه الخير وفيه الرحمة وفيه البشارة، ولكن لفئةٍ معينة إنّها الفئة المهتدية فئة الفطرة السليمة والعقول السوية فئة الأتقياء، فئة القلوب المؤمنة الوجلة المتلهفة التي ألقت سؤالاً حيّر المخلصين وأرّق عيون العاملين، من هم هؤلاء المتقين؟ قال: ﴿ٱلَّذِينَ يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡغَيۡبِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ يُنفِقُونَ ۝٣ وَٱلَّذِينَ يُؤۡمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبۡلِكَ وَبِٱلۡأٓخِرَةِ هُمۡ يُوقِنُونَ ۝٤ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدٗى مِّن رَّبِّهِمۡۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ ۝٥﴾، هـي

أربع آياتٍ لا غير، جمعت خيري الدنيا والآخرة. يؤمنون بالغيب ينطلقون من الحيّز الصغير الذي تدركه الحواس إلى الكون الكبير الذي يدركه العاقل ببديهته وبصيرته فيرى دلالاته واضحة بيّنة، يؤمنون بأنّ هناك قوةً أوسع من الإدراك، وحقيقةً أكبر من العقول، إنها حقيقة الذات الإلهية التي لا تدركها الأبصار ولا تحيط بها الألباب، فيصطلح العقل مع هذه القدرة، ويستسلم لها دون جدال ولا نقاش، فيحفظ طاقته الفكرية من التبدد والتمزق، ويحمي رأسه من أن يتحطم على جدار الحقيقة، قوةٌ لا يناهضها أحدٌ ولا ينجو منها إلا مستسلمٌ خاضعٌ ساجدٌ مقرٌّ بألوهية عظمى، وربوبيةٍ غالبة، أوجدت الكون ومن فيه، ولذلك فمن الهدي النبوي الشريف والتربية النبوية، أن يتفكر الإنسان في خلق الله عز وجل، وإبداعه في هذا الكون الفسيح والانصراف الكلي عن التفكر في ذات الله العلية لئلا نقع فيما وقعت فيه يهود، فقال الله عز وجل فيهم ﴿وَمَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ﴾[1].

إنّ محاولة إدراك ما وراء الواقع ضربٌ من المستحيل، ولا بد من اليقين بوجود إله مدبر يحيط بنا وهو محبٌّ لنا، عطاؤه لا ينفد، ولا مفر لنا منه إلا إليه، فلم لا نؤمن بهذا الإله القوي العزيز؟ ﴿ثُمَّ لَنَنزِعَنَّ مِن كُلِّ شِيعَةٍ أَيُّهُمْ أَشَدُّ عَلَى ٱلرَّحْمَٰنِ عِتِيًّا ﴿٦٩﴾﴾[2]، ولم لا نرضخ ونطيع ونحظى بالحب والود الرفيع ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ ٱلرَّحْمَٰنُ وُدًّا ﴿٩٦﴾﴾[3] ومن ثمّ العطاء والولاية والمغفرة والرحمة وسلامة المصير، إن الاستسلام للعليم الخبير والخضوع للقوي الكبير يُقرُّ في النفس أنّ الله على كل شيءٍ قدير. وهذه الآية هي المفتاح للارتقاء بمدارج الإيمان بالغيب، والتصديق بما وصف الله نفسه من صفاتٍ عليا، تليق بجنابه وكماله، سبحانه وتعالى عما يصفون، ومن أصدق من الله قيلا؟ ولنبحث بما فيه العمل ولنا في رسول الله ﷺ أسوةٌ حسنة. وأخرج ابن أبي حاتم بسنده عن عبد الله بن

---

(١) سورة الحج: الآية ٧٤.

(٢) سورة الحج: الآية ٧٤.

(٣) سورة مريم: الآية ٩٦.

عمرو عن النبي ﷺ قيل له: يا رسول الله إنا نقرأ القرآن فنرجو، ونقرأ من القرآن فنكاد أن نيأس أو كما قال. قال: **«أفلا أخبركم عن أهل الجنة وأهل النار؟ قالوا: بلى يا رسول الله. قال: الم ذلك الكتاب إلى قوله تعالى المفلحون. هؤلاء أهل الجنة، قالوا: إنا نرجو أن نكون هؤلاء. ثم قال: إن الذين كفروا سواءٌ عليهم. . . ولهم عذابٌ عظيم. هؤلاء هم أهل النار، قالوا: لسنا هم يا رسول الله. . قال: أجل»**[1].

وعن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده قال: قال رسول الله ﷺ: **«أي الخلق أعجب إليكم إيماناً؟ قالوا: الملائكة، قال: وما لهم لا يؤمنون وهم عند ربهم؟ قالوا: فالنبيون، قال: وما لهم لا يؤمنون والوحي ينزل عليهم؟ قالوا: فنحن، قال: وما لكم لا تؤمنون وأنا بين أظهركم؟ قال: فقال رسول الله ﷺ: ألا إنّ أعجب الخلق إليّ إيماناً؛ لقومٌ يكونون من بعدكم يجدون صحفاً فيها كتاب يؤمنون بما فيها»**[2]. قال ابن كثير: قال الحاكم: صحيح الإسناد، ولا يعني ذلك أن من جاء بعد الصحابة أفضل منهم، كلا، بل من جاء من بعدهم أعظم أجراً من هذه الحيثية لا مطلقاً. فالإيمان بالغيب يوطّد علاقة الحب بين العبد وربه وعلاقة البر والشوق لمناجاةٍ علوية، وطاعةٍ لتحقق الاستقامة الربانية. ﴿يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡغَيۡبِ﴾، وهو الحق الذي أنزله الله العزيز الحكيم على نبيه الصادق الأمين، فإذا آمنوا أقاموا الصلاة، والإقامة غير الأداء، فالإقامة توقظ الحس وتنهض بالمشاعر وتطرح أسئِلةً خفية، لمن تصلي؟ ولِمَ تصلي؟ وبين يدي من تقوم؟ ومن يحصيها عليك؟ ومن يجزيك عليها؟ إنها إقامة الصلاة، فهي شرطي الردع القائم على النفس الأمّارة بالسوء، ﴿وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ فتقوم ولها ذاتٌ تنهى عن الفحشاء والمنكر، تؤدي مهمة يعجز عنها آلاف الوعّاظ، إنها الواعظ الحي في القلب الحي، فإذا استقر اليقين في القلب وسجد العقل وأسلمت الجوارح، عندئذٍ يسهل قياد هذه النفس، فتفعل ما تؤمر، وتنتهي

---

(١) الأساس في التفسير، ج ١، ص ٨٥.

(٢) المرجع السابق.

عما تُنهى، وتتحقق الإنسانية الراقية، فترعى الحقوق وتؤدي الواجبات، ومن برَّ ربه سهل عليه بر الناس، فإذا ارتقى للوقوف بين يدي ربه، ليحمده ويثني عليه ويسترحمه ويستهديه، فتفيض عليه الرحمة فيرحم، وتترعرع الهداية في قلبه فيأخذ بيد البشرية التائهة إلى الله. ﴿وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ﴾ يُنفقون علماً ورحمةً ومالاً فضلاً من الله ومنَّة، يرزق عباده تفضلاً، ثم يطلبه منهم قرضاً وزكاةً وصدقة ليجزيهم بأحسنِ ما كانوا يعملون. ﴿وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ وَبِالْأَخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ﴿٤﴾﴾؛ إنّ الإيمان بما أُنزل إلى الرسل الكرام قبل النبي ﷺ يزيد القلب سكينة، والعقل حجة وبصيرة، إن رعاية الله للبشرية على تطاول أجيالها وتباعد أحقابها وتوالي هؤلاء الرسل الكرام برسالاتٍ، دينهم واحد ودعوتهم واحدة، ومصير المؤمنين بهم واحد، ونهاية الجاحدين المكذبين واحدة، هذا كله من دواعي الإيمان والثبات والإخلاص إلى مرتبة اليقين. ﴿وَبِالْأَخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ﴾؛ واليقين بنهاية المطاف هو مفرق الطريق بين الحس المغلق والحس الرحيب، وأنَّ كل حياة على هذه الأرض مردَّها للحي القيوم، وكل نهاية مآلها إلى الباقي الذي لا يموت، والإيمان بالغيب هو المؤشر على إنسانية الإنسان الذي يعرف قدره، وتنزاح عنه حجب الجهل، فيعلم أنه ذرةٌ صغيرةٌ في رحاب الكون، فيعترف بجميل العطاء ويشعر بالوفاء، وبوشائج العقيدة التي آخت بين المهاجرين والأنصار، وكوّنت ذاك المجتمع الإسلامي الفريد، الذي فاز بشهادة رب العالمين ﴿أُوْلَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿٥﴾﴾ فالهدى هُديان: هدى فطري مخلوق في قلب الإنسان مع خلقه الأول، وهدى إرشاد، ففي الهداية الأولى يتعلم الأسس التي سيُقيم عليها حياته، فالوليد معه علمٌ قليل يعبّر به عن حاجته للطعام والشراب، ولكنه بحاجةٍ إلى علم أكثر، يعرف دقات قلب أمه ولكنه بحاجة إلى قدرٍ أكبر من المعرفة، ينزل إلى الدنيا معلماً عملية التقام الثدي ومعه قسطٌ من الصبر، ولكنه يحتاج إلى صبرٍ أكبر، فيصبر حتى يتذوق لبن أمه، ثم يصبر ليتذوق لذة الإيمان، ثم يصبر ليفوز بالجنة، ويتعلم أنه لا بد لكل ثمرةٍ من جهد، فهو يجهد في رضاعته،

ويتعرّق ليشبع، فهو سيجهد في سبيل الله لينال هداية الإرشاد ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا﴾[1]، فإذا ما جُهِدَ هذا الإنسان وجاهد وأُوتي رشده واكتمل عقله واندفع بدافعِ رباني وإلهام رحماني ليلحقَ بالموكب الإيماني موكب المؤمنين العاملينَ ﴿يُضِلُّ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي مَن يَشَاءُ﴾[2] فقد اهتدى والصادقون هم المفلحون.

فالمؤمن له صفاتٌ تفتح العين وتريح النفس، والكافر له صفات تُعتم العين وتغم النفس، فالأُفق المشرق والفكر الواسع في شخص المؤمن، يكون قاتماً ضيّقاً في شخص الكافر، فهو مقطوع الوشائج مبتور الجانب سواء عليه ءأنذرته أم لم تنذره، ءأسمعته أم لم تُسمعه، فهو مطموسٌ مغمور لا يرى ولا يسمع ولا يدرك.

﴿خَتَمَ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ ۖ وَعَلَىٰ أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٧﴾﴾ هكذا وبغير ما تفصيل، فئةٌ حكم في أمرها، وانكشف سوؤها، وجملة واحدة تقرر أمرهم وتفصل فيه ﴿أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾، أما الصورة الثالثة التي عرّتها الآيات، في ثلاثة عشر آية متوالية، إنّها صورة الحرباء الملونة، تبدو وتغيب وتتلوى في الحس، نطقٌ معسول وقلبٌ غشوش ﴿وَإِن يَقُولُوا تَسْمَعْ لِقَوْلِهِمْ ۖ﴾[3] فيهم علتان مستعصيتان، اللسان والقلب، فاللسان انفلت رباطه، والقلب انتكس كالماعون المقلوب، إنّها صورة النفاق البغيضة، يقولون ما لا يفعلون، ويعتذرون عمّا يقصدون، ويهمزون ويلمزون، يقولون آمنا وما هم بمؤمنين.

وقد وصفهم رسول الله ﷺ كما في صحيح مسلم: عن ابن عمر رضي الله عنهما أن النبي ﷺ قال: **«مثل المنافق كمثل الشاة العائرة «المترددة ـ الحائرة» بين الغنمين تعير إلى هذه مرة وإلى هذه مرة»**[4]. وقال: **«إنّه**

---

(١) سورة العنكبوت: الآية ٦٩.

(٢) سورة النحل: الآية ٩٣.

(٣) سورة المنافقون: الآية ٤.

(٤) صحيح مسلم، كتاب صفات المنافقين، رقم ـ ٤٩٩٠ ـ.

ليأتي الرجل العظيم السمين يوم القيامة لا يزن عند الله جناح بعوضة»[1].

إن للمنافقين شخصيات متكررة، ونفسيات متشابهة، سمتهم الخداع، وآيتهم الكذب، يتعالون وهم وضعاء، إنهم نماذج متكاثرة، يظنون أنهم أذكياء ودهاة، يخادعون المؤمنين، ويهزؤون بالمتقين، ولكنهم لا يفقهون، يقولون أصلحنا وهم المفسدون، ويصفون المؤمنين بالسفاهة، ويقرون بأنهم مستهزؤون، قالوها ولم يخطر ببالهم أنهم استُجروا إلى غضب الجبار فلا فواصل ولا تعقيب، وإنما هي المواجهة، الله يستهزىء بهم ويمدهم في طغيانهم يعمهون ويترددون.

فالمؤمنون في صفٍ يقوده الله عز وجل، فيتولّى عنهم المعركة، وإنّ قلة الفقه وعدم الفهم يفرز هؤلاء المنافقين في كل زمان ومكان وصفهم رسول الله ﷺ وقال: **«آية المنافق ثلاث: إذا حدّث كذب، وإذا عاهد غدر، وإذا اؤتمن خان»** وفي رواية **«إذا خاصم فجر»**[2].

إنّ هذه المؤثرات ما كان الصحابة رضوان الله عليهم يمرون عليها دون عناء، قال ابن أبي مليكة: أدركت ثلاثين من أصحاب رسول الله ﷺ كلهم يخاف النفاق على نفسه، وقال الحسن البصري: ما خاف النقاق إلا مؤمن ولا أمنه إلا منافق. إنّ هذه الآثار لها مردود تربوي يجب علينا أن نتتبعه، كان الصحابة صادقين لا يكذبون؛ خوفاً من النفاق، حريصين على عهودهم وأماناتهم خوفاً من النفاق، يتهمون أنفسهم لتسلم. قال مالك: المنافق على عهد رسول الله ﷺ هو الزنديق اليوم. وقال قتادة في نعت المنافق: (خنع الأخلاق يصدق بلسانه، وينكر بقلبه، ويخالف بعمله، وينكفىء تكفأ السفينة، كلما هبت ريح هبّ معها).

إنّ النفاق مرضٌ وداءٌ عضال، فمرض الجسد يكفر الخطايا، ويستجلب الرحمات، ومرض النّفاق يقرّب الشياطين ويستحضر اللعنات، إنّه

---

(١) صحيح البخاري عن أبي هريرة، كتاب تفسير القرآن، رقم ـ ٤٣٦٠ ـ.

(٢) صحيح البخاري عن أبي هريرة، كتاب الإيمان، رقم ـ ٣٢ ـ.

مرض يجرُ مرضاً، وزلةٌ تؤدي إلى انزلاق، ومن أمن على نفسه منه وقع فيه، إنّه الخبط بين يدي الجبّار، واللعب بالنار ﴿قُلْ أَبِاللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ وَرَسُولِهِۦ كُنتُمْ تَسْتَهْزِءُونَ﴾[1]. ﴿اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ﴾، استهزاؤهم معلوم، واستهزاؤه ترتجف له القلوب، إنهم تجارٌ مغفلون، ﴿أُولَٰٓئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الضَّلَٰلَةَ بِالْهُدَىٰ فَمَا رَبِحَت تِّجَٰرَتُهُمْ وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ ﴿١٦﴾﴾.

لقد كان للمنافقين ولا زال دورٌ ضخمٌ في إيذاء الجماعة المؤمنة، سواءً في المدينة أولاً أو على مدار العالم الإسلامي ثانياً، فهم أداة إفساد في الصف المسلم، فالكافر واضحٌ بيّن، والمؤمن واضحٌ بيّن، وأما هؤلاء المتلونون، فإن كان هناك مصالحٌ ومنافعٌ فهم المؤمنون الصائمون المصلون، وإن كانت هناك التضحيات والبذل والألم؛ فهم الشامتون المتكلمون يتشدقون ويحدّثون ويُخَطّئون ويُقرّعون، يفرحون بمصائب المسلمين ويعدونها ضريبة مخالفتهم، ويحمدون الله أن لم يكونوا معهم، إنهم رؤوس الفتن، وفتيل الفرقة والضعف، إنّ المنافقين كُثر وإنهم أكثر من في الأرض، وهم أصحاب أكبر لافتة إفساد وأضخم عريضة إضلال، وأخطرهم من تزيّا بزي الدين، وحاكى صفات المؤمنين، واخترق صفوف المجاهدين، ولا يُخترق الصف المسلم إلا بهم وعن طريقهم، وهذا عبد الله بن أُبيّ بن سلول يحضر الجمع والجماعات، ويصلي خلف رسول الله ﷺ يعود بثلث الجيش يوم أُحد، ويخذل رسول الله ﷺ في مواقف كثيرة، ويبني مسجد ضرار ليحيك المؤامرات ﴿وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ ءَامَنُوا قَالُوٓا ءَامَنَّا﴾.

قال ابن عباس رضي الله عنهما: نزلت هذه الآية في عبد الله بن أُبيّ وأصحابه، وذلك أنّهم خرجوا ذات يوم، فاستقبلهم نفرٌ من أصحاب رسول الله ﷺ، فقال عبد الله بن أبيّ، انظروا كيف أرد هؤلاء السفهاء عنكم، فذهب فأخذ بيد أبي بكر فقال: مرحباً بالصدّيق، سيد بني تميم، وشيخ الإسلام، وثاني رسول الله في الغار الباذل نفسه وماله، ثم أخذ بيد عمر فقال: مرحباً بسيد بني عدي بن كعب، الفاروق القوي في دين الله،

---

(١) سورة التوبة: الآية ٦٥.

الباذل نفسه وماله لرسول الله، ثم أخذ بيد علي فقال: مرحباً بابن عم رسول الله، وختنه، سيد بني هاشم، ما خلا رسول الله ثم افترقوا، فقال عبد الله لأصحابه: كيف رأيتموني فعلت؟ فإذا رأيتموهم فافعلوا كما فعلت، فأثنوا عليه خيراً، فرجع المسلمون إلى رسول الله ﷺ، وأخبروه بذلك، فأنزل الله هذه الآية[١].

إنّهم صورة الكذب القبيحة، وهيئة الغش المفضوحة، يواسينا الإمام سفيان الثوري ويقول: لو أُمرنا بهجر المنافقين لأوحشت بنا الدروب، هذا في زمن التابعين، والنفاق بضاعةٌ مزجاة، تقضي المصالح، وتقوي الضعفاء، وتغني الفقراء، وترفع الوضعاء، إنّها وسيلة الوصوليين، ولذلك تتجلى فيهم عقد النقص، فتزداد محن المسلمين، ويُختبر صبرهم، ويُصقل معدنهم. وكلما اشتدت المحن أكثر؛ تمسّك المؤمنون بحبل الله المتين، لأنّ القاعدة الأساسية، أنّ هذه الدنيا لا تصفو لمؤمن، فالمنافق منتفخ الأوداج مصعّر الخد وهو فارغ القلب، إذا اعتز المؤمن بالله ورسوله وبسيَر الصالحين، اعتزّ المنافقون بالأرض والوطن، واغتروا بالمال والجاه، استجلبوا الدنيا فأعرضت عنهم الآخرة، فهم يتخبطون في ظلمات هذه الدنيا الغادرة وهم خائفون أبداً، يتحسسون الأمن فلا يجدونه، فالخوف والهلع والقلق والشح أبعدهم عن الحي القيوم، فتعلقوا بالفاني اللدود، فهم يتخبطون قائمين وقاعدين. بينما صورة المؤمن مشرقة، فهو متواضعٌ ودود تهمّه الدعوة ومصالحها، وإن كان ذلك يُلغي ذكره في النّاس، يُجمّع ولا يفرّق، يحب الله ويحبّبه إلى عباده، وأما المنافق صلفٌ متكبر له قانون لا يُخطئه خالف تُعرف وانقد وجرّح لتقوّض البناء وتصرف الناس.

﴿أَوْ كَصَيِّبٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فِيهِ ظُلُمَٰتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ﴾ إنّها صورةٌ رهيبة لهؤلاء المنافقين، ومشهدٌ حيٌّ يوحي بحركة التيه والاضطراب التي يعيشها أولئك المتخبطون، الخوف من الموت يجعلهم يهربون من واقعهم، فيجعلون أصابعهم في آذانهم لئلا يسمعوا وقع الصواعق الحارقة، إنسانٌ

---

(١) أسباب النزول للواحدي.

خوّار تعرّض لحرب الجّبار، فلا محالة إنّه هالك يلتقون بالمؤمنين، فيضيء الإيمان السبيل، فيقومون قومة المتشكك المتردد فيهوون في الظلام.

﴿يَكَادُ ٱلْبَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصَٰرَهُمْ ۖ كُلَّمَآ أَضَآءَ لَهُم مَّشَوْا۟ فِيهِ وَإِذَآ أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُوا۟ ۚ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَٰرِهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٠﴾﴾.

إنّ المنافقين متقلبون أبداً بين ضدين، بين نورٍ وظلمة، بين إيمانٍ وكفر، وما أقبح مضغ الشوك بعد العسل، إنّ وجود هذا الصنف من البشر في عهد رسول الله ﷺ، أحد المواد التربوية في المدرسة المحمّدية، وأول فوائده، إيقاظ الحس المسلم، لئلا يقع المسلم في النفاق أولاً، ولئلا يفاجأ به المسلمون فيما بعد ثانياً، ولنتعلم كيفية التعامل مع هذا الصنف، على ضوء الهدي النبوي الشريف، وليُعبد الله على بصيرة، ويدرك كل مؤمن معنى «أنت على ثغرةٍ من ثغر الإسلام، الله الله أن يُؤتى من قبلك».

وللمنافقين في كتاب الله صورٌ وصور، ولكتاب الله عز وجل معهم جولاتٌ وجولات، والحصن الحصين من هذا الداء الخبيث، هو التربية القرآنية التي خرّجت عمر وعثمان وعلي والزبير رضي الله عنهم، كان عمر رضي الله عنه يلاحظ بعض ولاته، حولاً كاملاً يراقبهم ويختبرهم قبل أن يولّيهم، وإذا سئل عن ذلك قال: حذرنا رسول الله ﷺ كل منافقٍ عليم اللسان.

وأحياناً لا يكون المؤمن منافقاً، ولكنّه ضعيفٌ فيُخدع بالمنافقين، فيتسبب بكارثة في صفوف المسلمين، والنفاق أنواع: فقد يكون بالعقيدة وصاحبه أميل إلى الكفر من الإيمان ويتلفظ بالشهادتين، ومرة يكون النفاق عملاً يُصنع، وكثيراً ما يقع في الأقوال، فدراسة أحوال المنافقين تربي فينا القلوب التي هي مقر العقائد والتصديق والتسليم، وتربّي فينا تحديد الهدف، فلا عمل إلا بجماعة المسلمين ولا قول باللسان دون نظر، وكما روى أبو هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ أنه قال: **«وإنّ العبد ليتكلم بالكلمة من سخط الله، لا يُلقي لها بالاً يهوي بها في جهنّم»**[١].

---

(١) صحيح البخاري كتاب الرقاق، رقم ـ ٥٩٩٧ ـ.

الفوائد التربوية:

١ ـ تتدرج الأم أو المربي بالطفل في مراتب الأتقياء، لأنّ التقوى لا يحمل أحدٌ عليها أحداً. ولكن بتحبيب سير المتقين وهذا يكون بعد سن السابعة.

أما الإيمان بالغيب، فيلقّن منذ الصغر، وقبل السابعة، وحسب مدارك الطفل، ويحتاج هذا الأمر من الأم أو المربي إلى إيقاف الطفل مواقف التسليم، فينبّه عند سماع الرعد ورؤيا البرق، ويؤخذ بين الحين والحين لملاحظة شروق الشمس وغروبها، ويفسح له ليجرب استنبات نبتة حتى يستقر في نفسه وجود خالقٍ مدبرٍ لا نراه.

يُلفت انتباهه إلى لون الفاكهة، وتغيّر طعمها، مع أنّها ثمرةٌ واحدةٌ. ثم يُسأل من الذي صنعها؟ ويُنتظر منه الجواب، ولا يمل المربي، وهكذا حتى تستقر العقيدة في قلب الطفل، قطرة قطرة وبهدوء.

٢ ـ يوحى للطفل عن طريق القصص، بأنّ الله يعلم كل شيء ويرى كل شيء، ويسمع كل شيء، كما يُعوّد الطفل على الإنفاق والسخاء، وتبدأ تلك اللفتة التربوية ببذل أكلته التي بيده، لمن يراهم من الأطفال، ويبذل لعبةً بيده لطفلٍ آخر. وإذا طلب الطفل القصة (الحكاية) فتُحكى له قصص الأنبياء، بشكلٍ مبسّط يتناسب مع عمره، ويكون التركيز في كل مرة أنّ كل نبيٍ هو من خيرة الناس، وأنّه لا يكذب ولا يسرق، وهذا سبب حب الله له، فهو يحب الله ويُطيعه، ويركّز في القصة أنّ النبي يُصلي ويشكر الله ويحب الناس ويعلمهم الخير.

٣ ـ التركيز على الطفل ليدرك بأننا سنعود إلى الله بطريقةٍ شيّقة بعيدة عن التخويف ووصف الموت والقبر والدفن والنار، بل يُقتصر بأنّ الموت عودةٌ إلى الله لأننا نحب الله وهناك نحظى برضاه ويكافئنا بالجنة.

توصف الجنّة ونعيمها حسب مدارك الطفل.

٤ ـ عدم تخويف الطفل بالنار، لئلا تنمو عنده عقد الخوف، فتطمس

شخصيته، ويخبو ذكاؤه، وقد يولّد عنده عادات سيئة مثل التبول الليلي أو التلعثم في الكلام أو الجبن الشديد، فيلتصق بأمّه ويخاف الانفصال عنها، والطفل قبل السابعة من العمر، لا يستطيع أن يُقدّر نعم الله حتى يقرّ أنّ النار للعصاة جزاءاً وفاقاً.

٥ ـ يُعرض على الطفل أنّ هناك فئة كافرة، لا تلتزم بأوامر الله والله لا يحبهم، ولكنّ الله كريمٌ ورحيم يُطعمهم ويسقيهم ويعافيهم حتى يتوبوا، وإلا فسيطردهم من الجنّة عندما يعودوا إليه.

وإنّ هذه الفئة لن تحظَى بحفظ الله في الدنيا، ولن ترى رسول الله ﷺ في الآخرة، فيعتقد أنّ رؤيا رسول الله ﷺ أمنية وحلم لا يتحقق إلا باتباع سنته، وتطبيق سيرته، والتفاني في حبه.

والطفل لا يستطيع أن يدرك معنى النفاق الاعتقادي والعملي والقولي فلا ينبّه إليه، لئلا تُشغل طاقته الفكرية بما لا ينفعه، والواجب في هذه الفترة الزمنية من العمر أن يُنفّر من سلوك المنافقين، ويُلفت نظره إلى كل تصرفٍ مشين، وقد ثبت أنّ الأم أو المربي هما المعلم الأول للكذب عند الطفل، وبالتالي فهما المدرب الحصيف على النفاق، وقد ورد في الأثر أنّ الصحابة رضوان الله عليهم كانوا يضربون أولادهم على الصلاة وعلى العهد، لما له من أثرٍ تربوي.

٦ ـ تنفير الطفل من صفات الكبر والتعالي على الناس والاستهزاء بالآخرين.

٧ ـ ربط المشاهد الكونية المخيفة بغضب الله تصديقاً لقوله تعالى: ﴿وَمَا نُرْسِلُ بِٱلْآيَٰتِ إِلَّا تَخْوِيفًا﴾[1] وشيءٌ مهم جداً؛ أن يركز الوالدان والمربون، في الأطفال على تحقيق صفة ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾.

حتى تستقر هذه الصفة في القلب والعقل، وتُستبعد أفلام الرسوم المتحركة (الكرتون) التي تعتمد على الخوارق والأوهام، فيحتار الطفل بين

---

(١) سورة الإسراء: الآية ٥٩.

القدرة الكاذبة لهؤلاء والتي تسيطر على مشاعره، والقدرة الحقيقية لله عز وجل والتي لا يستطيع الطفل ملاحظتها مباشرةً لصغره وسطحية تفكيره وعدم استطاعته ربط الأمور السابقة باللاحقة، فلنتق الله في عقائد أبنائنا.

ومن صفات المنافقين كما وصفها الله عز وجل في محكم آياته:

١ ـ الكذب. ٢ ـ الخداع والمكر.

٣ ـ الركون إلى الكافرين. ٤ ـ الإعجاب بالكافرين وتقليدهم.

٥ ـ ادّعاء الإصلاح والصلاح.

٦ ـ حب الحمد وحب الظهور ﴿وَيُحِبُّونَ أَن يُحْمَدُوا بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا فَلَا تَحْسَبَنَّهُم بِمَفَازَةٍ مِّنَ الْعَذَابِ﴾(1).

٧ ـ الاستهزاء بالمؤمنين ﴿اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ﴾.

٨ ـ الكبر والتعالي على المؤمنين.

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿٢١﴾ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ فِرَاشًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَأَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَّكُمْ فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٢٢﴾ وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿٢٣﴾ فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا وَلَن تَفْعَلُوا فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ ﴿٢٤﴾ وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ كُلَّمَا رُزِقُوا مِنْهَا مِن ثَمَرَةٍ رِّزْقًا قَالُوا هَٰذَا الَّذِي رُزِقْنَا مِن قَبْلُ وَأُتُوا بِهِ مُتَشَابِهًا وَلَهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَهُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٢٥﴾﴾.

المفردات:

خلقكم: أوجدكم من العدم. **فراشاً**: مهاداً ووطاءاً.

مطهرة: لا يُصيبها شيء من دنس الدنيا.

---

(١) سورة آل عمران: الآية ١٨٨.

بناءً: شبه السماء بالبناء المرتفع، ولكنه بغير عمد.

أنداداً: جمع ند وهو الكفء والمثيل وتعالى الله عن الكفء والمثيل.

وقودها: الوقود هو الحطب، وفي الآية الوقود هم الناس والحجارة.

وأتوا به متشابهاً: ثمار الجنة لها جنس ثمار الدنيا وتشاركها بالاسم، إنما الكيفية لا يعلمها إلا الله لأنها من النعيم الذي أعدّه الله للمؤمنين.

الدراسة التربوية:

نداءٌ حانٍ وتوجيه تربوي، يا أيها الناس، كل الناس، أبيضكم وأسودكم، عربكم وعجمكم، مدعوون لسماع النداء الخالد، اعبدوا ربكم الذي خلقكم والذين من قبلكم لعلكم تتقون.

دعوة للعبادة دعوة للدينونة الشاملة، للرب الذي لا تأخذه سنة ولا نوم ولا يغفل ولا يغيب، دعوة لعبادة الذي أوجدك يا ابن آدم، عبادة الذي خلقك بيديه وخلق الذين من قبلك، وهو الخالق أبداً كان ولا يزال، إنّ في عبادته عزة، وفي الاستسلام له قوة، وفي التوجه إليه حرية، وفي الخوف منه أمان، وفي رجائه الخير والعطاء فهو الأول، وهو الآخر، ولا مفرَّ منه إلا إليه، هذه الحقائق تجلب التقوى وتصقل النفس وتهذبها، وما يُصلح الأمر إلا صانعه، وما يُربي النفس إلا خالقها، الذي أعطاها كل أسباب البقاء، ومسببات الحياة، مقابل أن تعبده ولا تشرك به شيئاً.

﴿ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ فِرَٰشًا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْ ۖ فَلَا تَجْعَلُوا۟ لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٢٢﴾﴾.

إنَّ الحياة على هذه الأرض يسيرة سهلة، فالأرض ممهدة ومريحة، والسماء بناءٌ محكمٌ آمنٌ، فالحرارة والضوء والجاذبية والأجرام السماوية والتوازن الكوني الدقيق كله يمهد لقيام الحياة على هذه الأرض، فلا عجب بتذكير الناس بقدرة الخالق، وحقه في عبادة العبيد من المخاليق.

وتتكامل النعمة، ويتناسق العطاء، فماءٌ ينزل، وثمرةٌ تنبت، والماء

عصب الحياة يروي الأرض فتتفجر عيوناً، وتصب أنهاراً ويُختزن آباراً، وقصة الماء لا تحتاج إلى كثير عرض، فهي نعمةٌ ألفها الإنسان فنسي شكرها، وينبغي للمرء أن يستحضر نعمة الله وقدرته كلما تناول الماء ليروي ظمأه، فيحمد الله الذي جعله عذباً فراتاً برحمته، ولم يجعله ملحاً أُجاجاً بذنوب عباده، لفتةٌ تربوية متكررة، أليس الله بقادر؟؟ إن الذي جعل الماء دماً في يد فرعون قادرٌ على أن يجعله ملحاً أُجاجاً في يد العصاة ولكنه الرحمن الرحيم. ﴿فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾.

والأنداد التي عالج القرآن الخلوص منها لتصفو عقيدة التوحيد وتبقى نقيةً واضحة، قد لا تكون آلهة تعبد أو أصناماً تنحت، فقد تكون بشراً أو أفكاراً أو أي شيءٍ خفي يعلّق الإنسان عليه رجاءه أو يخافه أو يتكىء عليه في طلب نفعٍ أو دفع ضرٍ.

قال ابن عباس رضي الله عنهما: «الأنداد هو الشرك الخفي، أخفى من دبيب النمل على صفاة سوداء في ظلمة الليل، وهو أن يقول «والله وحياتك يا فلان وحياتي» ويقول: لولا كلبة هذا لأتانا اللصوص، وقول الرجل لصاحبه «ما شاء الله وشئت»، فهذه كلمات كلها تجرح جناب التوحيد، وهو صمّام الأمان في الدنيا والآخرة». وأخرج الشيخان عن ابن مسعود ﷺ قال: (قلت يا رسول الله أيُّ الذنب أعظم عند الله؟ قال: **«أن تجعل لله نداً وهو خلقك»**)[1]. وفي الصحيح أن رجلاً قال لرسول الله ﷺ: ما شاء الله وشئت، قال: **«أجعلتني لله نداً»**.

هكذا تربّت هذه الأمة وبهذا سمت روحها حتى بلغت بها الشفافية أن تزن الكلمة وتعرف مرامي الحروف، فأين نحن من حقيقة التوحيد التي هي عماد الأمر كله؟.

إن الوقوف على هذه الأحاديث، التي وجّه بها رسول الله ﷺ أصحابه تعطينا صورة التجرد الحقيقية إذ ليس فيها للنفس نصيب، وإنما هو حق الله

(١) أخرجه الشيخان بلفظ البخاري في كتاب تفسير القرآن، رقم ـ ٤١١٧ ـ.

أن يُنزّه عن الكفء والمثيل، ﴿وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ (٢٣)﴾.

إن صفة العبودية هي صيغة التكريم اللائقة بهذا النبي الكريم ﷺ، ولو كانت العبودية هي الصلاة والزكاة، لكانت الأنداد هي الحجارة والأخشاب، ولكنّ الأمر أعمق من ذلك، فالعبودية أن تعبّد نفسك وجوارحك لله في جميع أحوالك، فإذا تمّ الأمر للعبد بدأ بتعبيد ما حوله ومَن حوله لله رب العالمين، ولا تزال الدائرة تتسع، حتى يعبّد لله كل شيء ولو كانت الأنداد الحجارة والأخشاب لهان الأمر عند أول لفتة ولاستبان للعقل سخفها كما وقع لبعض الصحابة الكرام رضوان الله عليهم، ومنهم عمرو بن الجموح رضي الله عنه، ولكن توالي الآيات ومعالجة الأمر بهذه الدقة وتلك الحساسية ومغايرة الأساليب القرآنية في ترسيخ معنى العبودية وحماية التوحيد من كلمة طائشة أو همزة أو لمزة حتى صيانة المشاعر الداخلية، هذه كلها تشي بأنَّ الأمر ليس أمر حجارةٍ منحوتة، ولا أخشاب منقوشة، ولكن الأمر أمر اعبدوا الله ولا تشركوا به شيئاً، فالعبادة تعني الطاعة والمحبة والتعلق والخضوع والتذلل والانقياد وتحريم ما حرّم الله وتحليل ما أحله الله بتواضعٍ جم وتحميدٍ وشكرٍ وثناءٍ على الله عز وجل.

﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٦٢)﴾[1].

فهل يحق للعبد أن يصرف شيئاً من صلاته لغير الله؟ وكذلك لا يحق له أن يجعل شيئاً من ليله أو نهاره لغير الله، فالحياة كل الحياة بأفراحها وأحزانها، بليلها ونهارها، بسرها وعلنها مُعبّدة لله رب العالمين، والله جعل هذا القرآن تبياناً لكل شيء، لئلا يعتذر عبدٌ عن غفلة ثانية، ويقول لم أجد حدّها في كتاب الله. ولذلك نقلت لنا السيرة العطرة حال رسول الله ﷺ، وهو في مسجده وهو في سوقه، وهو زوجٌ في بيته وأبٌ وجدٌ ومعلمٌ وداعية. وفي حمّامه وغسله ووضوئه وصلاته وحال نومه وصومه ومداعبة نسائه وفي مواقف الفرح والبشارة، وفي مواقف الحزن والوداع، وفي

---

(١) سورة الأنعام: الآية ١٦٢.

الحرب والسلم، وفي النصر والهزيمة، وفي الخلوة حيث تُرخي ستور البيوت ويغيب الرقيب إلا رقابة الله عز وجل، هذه هي العبودية التي لا يغفر الله أن يشرك بها غيره. العبادة أن لا تحتكم إلا إلى شرع الله، ولا تنتظم الحياة فيها إلا وفق الحلال والحرام، فكما أنّ ميزان التوحيد لا إله إلا الله. وميزان الشرك: لو و لولا. فالإشارة إلى أي قدرة على أنها ممكن أن تدفع قدراً عن الإنسان، قدّره الله عليه، فتكون هذه القدرة نداً لقدرة الله، وكل قانون يُلزم الإنسان بطاعة غير الله، فهذا القانون ندٌّ لتشريع الله وأي خوفٍ من عبدٍ في غير ما أمر الله، فهذا العبد يكون نداً لله، وهكذا فالشرك ليس كلمة تقال فقط، وإنما هي أعمالٌ وأقوال وحركات ومشاعر وحبٌّ وبغض لا يكون إلا لله وفي الله.

هذه المفاهيم كانت واضحة في أحاسيس سلف هذه الأمة، فتذوقوا حلاوة الإيمان وعاشوا حرية التوحيد، وتواترت أخبارهم رضوان الله عليهم، خضعوا لله فأخضع لهم كل شيء، وخافوا الله فخافهم كل شيء، وهذه المشاعر الدقيقة لا بد من غرسها منذ اللحظات الأولى في حياة الطفل، حتى ينموَ وتنموَ معه هذه الحقائق. وهذه الحقائق يجرحها الشك، ويجلوها اليقين، ولذلك تحدّى الله الناس أن يأتوا بمثل هذا الإعجاز ولو بسورة، فإن لم يفعلوا ونفى عنهم الاستطاعة فوجههم ليتقوا النار، وما يقي من النار شيء مثل أن يتمثل العبد بالعبودية الخالصة لله عز وجل، ويقول في آيةٍ أُخرى: ﴿قُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ وَأَهۡلِيكُمۡ نَارٗا وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلۡحِجَارَةُ﴾[1].

إن المألوف في حسِّ البشر وتجاربهم أنَّ الحطب هو وقود النار ولكن إذا اختلفت الموازين ووضعت الموازين الحق فتتقد النار بالأجساد البشرية، وبالحجارة الصلدة، فتصهر العظام وتشوي الجلود، كما وصفها جبريل عليه السلام بقوله: «إنها سوداء لا ينطفىء لهيبها يا محمد»، وقال الله عز وجل: ﴿وَمَا هِيَ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ بِبَعِيدٖ﴾[2]. هذه صورة قائمةٌ مخيفة، تقابلها الصورة

---

(١) سورة التحريم: الآية ٦.

(٢) سورة هود: الآية ٨٣.

المشرقة فيها البشارة وفيها الطُمأنينة والمؤمن بحسه المرهف تكفيه آية ﴿وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾، فيقع في حسه النَّعيم الذي لا يستطيع أن يتخيله فيجد ويسعى ويشمّر للصالحات تحدوه الغاية ـ رضوان الله والفوز بالجنة ـ.

والجنة والنار غيبٌ من الغيبيات التي حدثنا الله عنها، ووصف المؤمنين بأنهم يؤمنون بالغيب، فترويض النفس عند كلمة «وبشِّر» يكون قد ملك الإنسان جُماح نفسه وأحسن قيادها فتذوب شوقاً لما بشَّر به رسول الله ﷺ، وترتعد خوفاً لقوله: ﴿فَفِرُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِۖ إِنِّي لَكُم مِّنۡهُ نَذِيرٞ مُّبِينٞ ٥٠﴾[1] أيقن بالبشارة، فقال: الحمد لله رب العالمين وصدّق بالنذارة، فقال: ﴿رَبَّنَا ٱصۡرِفۡ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَۖ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا﴾[2].

هذه هي أُصول تربية النفس التي استغرقت ثلاثة عشر عاماً في مكة بجهدٍ دؤوب وقلب رؤوف ويدٍ حانية حتى تربّت تلك العصبة المؤمنة على المنهج الربّاني الذي أنزله الخبير العليم. (فكل من له دراية بتذوق أساليب الأداء، وكل من له خبرة بتصورات البشر، والنظريات النفسية، والاجتماعية لا يخالجه شكٌّ بأنّ هذا القرآن ليس من صنع البشر، إنما هو الكمال الذي لا ينشأ عنه نقص، والحق الذي لا يلابسه باطل)[3].

﴿وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمۡ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُۖ كُلَّمَا رُزِقُواْ مِنۡهَا مِن ثَمَرَةٖ رِّزۡقٗا قَالُواْ هَٰذَا ٱلَّذِي رُزِقۡنَا مِن قَبۡلُۖ وَأُتُواْ بِهِۦ مُتَشَٰبِهٗاۖ وَلَهُمۡ فِيهَآ أَزۡوَٰجٞ مُّطَهَّرَةٞۖ وَهُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ٢٥﴾.

فهي جنات وجنات معروشات وغير معروشات وأنهارٌ تجري بلا توقف، وثمارٌ تشابهت أشكالها بالمعروف والمألوف ولكنها فارقتها باللون والمضمون، والأزواج المطهرة التي لم تدنسها المعاصي الحسية ولا المعنوية، ومن ثَمّ الخلود الأبدي في النعيم المتجدد الذي لا ينقضي ومنه المزيد، وصدق نبيّنا الكريم ﷺ بوصفه البلاغي الجميل، إذ قال: **«في الجنة**

---

(١) سورة الحجر: الآية ٥٠.

(٢) سورة الفرقان: الآية ٦٥.

(٣) سيد قطب، في ظلال القرآن، ج١ ص ٤٩.

ما لا عينٌ رأت، ولا أذنٌ سمعت، ولا خطر على قلب بشر»[1].

الفوائد التربوية:

١ - بنداء يا أيها الناس اعبدوا ربكم، يترتب على الأم أو المربي، أن يعبد ويُعبّد بهذا النداء كل من له عليه حق لله رب العالمين.

٢ - ومن مفاهيم العبودية، ربط أحوال الطفل كلها بالله، فيُعلَّم كيف يتقي الله في ألعابه فلا يكسرها، ويسمح للآخرين مشاركته اللعب، لأنَّ هذه نعم من الله حصل عليها بفضل الله فيؤدي شكر الله عليها ببذلها للآخرين.

٣ - من العبودية أن يتلفظ بكلمات الحمد والشكر والثناء على الله، فيُعرب عن إعجابه بسبحان الله، وعن فرحه بالحمد لله، وعن حزنه بحسبي الله، وإذا ظُلم يحتسب مظلمته عند الله، ويدرَّب على التسامح، وعدم الانتقام.

٤ - يُرغَّب ويمنّى بما عند الله من خيرٍ أعده للمتقين.

٥ - ويذكّر بين الحين والحين بقدرة الله عن طريق مشاهدة الآيات من شمسٍ وقمرٍ ومطرٍ وريحٍ، ويُستحسن من الأم أن تمسك كأس الماء من ولدها الظمآن وتقول له من سيسقيك يوم العطش الأكبر؟ هذه الأسئلة لها وقعها التربوي، وبالوقت نفسه فعندما يقرأ القرآن فيذكر الماء والعطش والأرض ومن مهّدها والسماء ومن رفعها فتعود المسيرة ويوجد الجيل القرآني الربّاني الذي يربط حياته بكل كلمةٍ في كتاب الله، فلا يمر على الآيات وهو أعمى أصَم كحال كثيرٍ من المسلمين اليوم.

٦ - يسعى الزوج وهو ربُّ البيت أن يجعل زوجته مطهَّرة تشابه نساء الجنة، فلا يساهرها على عرض المحرّمات، ويُمتّع ناظريها تحت سمعه وبصره بأجساد الرجال مما تعرضه الشاشة التلفزيونية أو الشاشة الفضائية. وإنّ زوجته المؤمنة الطاهرة المطهّرة في الدنيا، خيرٌ ألف مرة من الحور

(١) رواه أبو هريرة في صحيح مسلم.

العين، لأنَّ الأولى «حفظ أمانة الله فيها» وأما الثانية؛ فهي ملائكية خُلقَتْ للطاعة والنعيم. والقاعدة (احفظ الله يحفظك) احفظ نعمة الطهر والعفاف في أهلك في الدنيا، لتنعم بحور الجنّة في الآخرة.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَسْتَحْيِۦٓ أَن يَضْرِبَ مَثَلًا مَّا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا ۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ ۖ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَيَقُولُونَ مَاذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِهَٰذَا مَثَلًا ۘ يُضِلُّ بِهِۦ كَثِيرًا وَيَهْدِى بِهِۦ كَثِيرًا ۚ وَمَا يُضِلُّ بِهِۦٓ إِلَّا ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٢٦﴾ ٱلَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مِيثَٰقِهِۦ وَيَقْطَعُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿٢٧﴾ كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِٱللَّهِ وَكُنتُمْ أَمْوَٰتًا فَأَحْيَٰكُمْ ۖ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢٨﴾ هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَسَوَّىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ ۚ وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿٢٩﴾﴾.

المفردات:

لا يستحيي: الحياء: إنكسار يصيب الإنسان خوفاً من أن يُعاب أو يُذم، وتعالى الله عما يعتري البشر، والمعنى أن الله يضرب المثل بأحقر ما خلق، فالصغير والكبير عنده سواسية.

ينقضون: يفسخون ويُفسدون، وينقضون عهد الله: أي لا يلتزمون به.

استوى: ارتفع وعلا سبحانه وتعالى عن الشبيه والمثيل.

الدراسة التربوية:

كانت اليهود تبذر بذور الشك والريبة مما يزيد الكفار عناداً إلى عنادهم، ويزيد المنافقين ريبةً ونفاقاً. ولا زالت يهود هذا هو ديدنها، وقال ابن عباس رضي الله عنهما: لما ضرب الله تعالى مثلين للمنافقين ﴿مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ ٱلَّذِى ٱسْتَوْقَدَ نَارًا﴾[1] وقوله ﴿أَوْ كَصَيِّبٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾[2] قالت يهود:

---

(١) سورة البقرة: الآية ١٧.

(٢) سورة البقرة: الآية ١٩.

الله أجَلُّ وأعلى من أن يضرب الأمثال، وقال الحسن وقتادة: لما ذكر الله الذباب والعنكبوت وضرب بهما المثل، ضحكت يهود، وقالوا: ما يشبه هذا كلام الله، فأنزل الله عز وجل ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَسۡتَحۡيِۦٓ أَن يَضۡرِبَ مَثَلٗا مَّا بَعُوضَةٗ﴾[1] إنَّ الله رب الصغير والكبير، وهو الخالق لهذا وذاك، فالمؤمن ينظر إلى نفسه نظرة العجز، إنّ هذه البعوضة بصغرها وضعفها لا يملك أن يردَّ لها جناحاً سقط بله أن يخلقه، بينما مريض النفس يظن سخفاً في المثال، ﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَيَقُولُونَ مَاذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِهَٰذَا مَثَلٗاۘ﴾، وهذا سؤال المحجوب عن نور الله، المقطوع عن سنة الله وتقديره، إنه سؤال من لا يرجو لله وقاراً، ومن ساء أدبه مع الله يعترض ويستنكر، ومن سنن الله أن يبتلي عباده ويمتحنهم، فالمؤمن تزيده العبرة قرباً من الله، والشدة التجاءً إلى الله، وأما الفاسق والمنافق فتزلزله العبر وتفتنه المحن فتزيده بعداً عن الله، فتخرجه من الصف إخراجاً، والله يبتلي عباده أحياناً بالرخاء والنعم، فالمؤمن تزيده النعمة إحساساً وحذراً، وأما الفاسق والمنافق فتبطره النعمة ويتلفه الرخاء فيسقط حيث يصعب النهوض وهو الخسران الذي لا ربح فيه.

﴿ٱلَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهۡدَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعۡدِ مِيثَٰقِهِۦ﴾ إنه التلون القبيح والخور المشين، فعهد الله ينطوي تحته عهودٌ كثيرة، فمنه عهد الفطرة المركوز في طبيعة كل حي، أن يعرف خالقه فيعبده ولا يشرك به شيئاً. ومنه عهد الاستخلاف ﴿إِنِّي جَاعِلٞ فِي ٱلۡأَرۡضِ خَلِيفَةٗۖ﴾[2] فهو حمل الأمانة، ومنه عهد اتباع المنهج الرباني، وعهد الصلات الإنسانية، ومنه صلة الرحم، هذه العهود ينقضها الفاسقون الذين خرجوا عن طاعة الله ويقطعون ما أمر الله به أن يوصل، ويفسدون في الأرض، والرحم لها حجة عند الله كما جاء في صحيح مسلم عن أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «**إنَّ الله خلق الخلق حتى إذا فرغ منهم قامت الرحم فقالت: هذا مقام العائذ من القطيعة،**

---

(١) أسباب النزول للواحدي.

(٢) سورة البقرة: الآية ٣٠.

قال: نعم ما ترضين أن أصل من وصلك، وأقطع من قطعك؟ قالت: بلى، قال: فذاك لك»[1].

إنّ نقض العهود هو مفتاح الفساد، حيث الميل عن المنهج الربّاني والخسران المبين.

﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِٱللَّهِ وَكُنتُمْ أَمْوَٰتًا فَأَحْيَٰكُمْ﴾.

فالموت شائع ومتواصل لا ينقطع في الإنسان والحيوان والنبات، فكيف يكفر بالله من تلقّى الحياة من الله، والحياة لا تعني الشهيق والزفير فحسب، وإنما هي الحياة التي تقوم بغير تصادم مع نواميس الكون، حيث كلها تدور في فلك العبودية لواهب الحياة، فإنّه إليه الرجوع وإليه المآب.

﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَسَوَّىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿٢٩﴾﴾.

هذا التأكيد والتكرار على مدى آيات الله، بأنَّ الله هو الذي خلق لكم الأرض وكل ما في الأرض، ألا يعني ذلك أنَّ من معاني الحياة تعبيد هذه الأرض واستخراج كنوزها وما أودعه الله فيها من نعم، لتكون قوةً للمسلمين يُقيمون عليها حكم الله، ذللها لهم وسخرها لتكون مركز انطلاقة المسلم، أليس الضرب في أعماق الأرض من واجبات المسلم؟ فإن تخلَ عنها كانت بيد غيره ليحصد ضعفاً في الدنيا ومسؤوليةً في الآخرة يوم لا ينفع الاعتذار ولا يُقبل الفداء.

إنّ عدم التفكر الصحيح في هذه الآية وغض الطرف عنها جعل المسلمين يُنحّون عن الريادة، والسبق لمن سبق، فكان ما كان من تفريطٍ وهوان، نحصد مُرَّه اليوم، ونلوك حنظله، فهو بعض الجزاء والموقف بين يديّ الله أدهى وأمر.

ولقد كثر الكلام، والخلاف عن القبلية والبعدية، وأيهما خلق الله

---

(١) صحيح مسلم، كتاب البر والصلة والآداب، رقم ـ ٤٦٣٤ ـ.

أولاً، إنّ مثل هذا الجدل هو الذي أذهب ريحنا وفرّق صفنا والتقطها أعداؤنا بذوراً يذرُوها بين حينٍ وآخر، هذه أمورٌ مضت في زمنٍ ظهرت فيه تلك الفرق التي قصدت إشغال الناس وتمزيق جسد الأمة، فهذا يطعن في ذاك وهذا يجادل هذا، ونحن إزاء أمرٍ أعظم ومصيبةٍ أكبر وأمام الجدل يجد الإنسان نفسه قد افتقد شفافية روحه وسمو تفكيره، إنّ الإنسان أمام آيات الخلق والقدرة ينظر إلى نفسه وكأنّه ذرة رملٍ في صحراء مديدةٍ واسعة، إنّ جلال الله لا يخضع لموازين البشر القاصرة، فقد خلق ثم استوى واستعلى استعلاءً فوق حدود تخيّل البشر، فارتفع ارتفاع مُلكٍ وسلطان لا ارتفاع علوٍ وزوال، سبحانه وتعالى عمّا يخطر بالبال، سبحانه وتعالى عن كل ما لا يليق بجلاله، فلا نخوض كما خاضت اليهود والنصارى، فنفسد جمال العقيدة وبهاء التوحيد، نحن نقف مذهولين حائرين أمام عملية الخلق وتطوره نقطة الماء المهين تتحول إلى إنسانٍ له قدراتٍ هائلة يستطيع أن يقلب بها الموازين، وحبةٌ ضئيلة، تُخرج شجرةً ظلها وارف وأُكلها طيب، وغيمةٌ تُساق فتسقي العباد والبلاد ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِۦٓ إِلَّا بِمَا شَآءَ﴾ فرحم الله امرءاً عرف قدره فوقف عنده، والحمد لله حمداً يليق بجلاله إذ لم يكلفنا ما لا نُطيق ونقف عند قول إمام دار الهجرة الإمام مالك رحمه الله إذ قال: (الاستواء معلوم، والكيف مجهول، والإيمان به واجب، والسؤال عنه بدعة).

الفوائد التربوية:

١ ـ حمل الطفل على التفكر في خلق الله، فالإعجاز في البعوضة، هو الإعجاز في الفيل، وفي النبتة الصغيرة، والشجرة الكبيرة.

٢ ـ الأدب مع الله ورسوله مطلب أساسي في التربية.

٣ ـ احترام العهود، خُلق يحتاج إلى متابعة منذ الصغر، ويُعوّد الطفل الإحسان إلى إخوته ويعلّم أنّ لهم عليه حقاً.

٤ ـ إذا بلغ الطفل سن العاشرة أو بعدها، وذلك حسب مدارك

الطفل، تقرّب إلى مخيلته حقيقة الموت ـ غير خبر الموت ـ فهذا يسمعه منذ الصغر فلان مات، وفلانة ماتت ولكنّه لا يدرك شيئاً، أما حقيقة الموت فشيءٌ مختلف، ويحتاج إلى جلساتٍ عديدة ويُفهَّم دون تخويف أنَّ الموت نهاية كل حي، وتُعرض عليه ورقة النبات ويُطلب منه أن يعتني بها، ولكن لا بدَّ لها من ذبولٍ واصفرار وسقوط وشيئاً فشيء حتى يتقبل الموضوع بفهم وتدبر لا بخوفٍ وفزع، وحسب طبيعة الطفل يمكن اصطحابه ليرى ميتاً فيتأثر ويعتبر، ثمَّ يرافق جنازة ويرى عملية الدفن فلها وقعها التربوي في نفسه.

٥ ـ يركز عليه أنّ الموت لا يُفجع إلا العصاة وتاركي الصلاة، بينما المؤمن يكون برعاية الله فينتقل من ضيق الدنيا إلى سعة الآخرة.

٦ ـ يُلقَّن التوحيد بأدبٍ جم وأنَّ الله ليس كمثله شيء، ولا يُفتح له المجال ليُكثر السؤال، ويجب عدم التطرق لإيمان مركوز في الفطرة، حتى لا يعوّد الجدل وكثرة الكلام في ذات الله مما يُذهب الهيبة من قلبه، بل يُقفل عليه الموضوع ويُطبع بطابع الجد بأنّ الله أكبر من كل كبير، وأعظم من كل عظيم، وأسمع من كل سميع، وأبصر من كل بصير، وأعلم من كل عليم، وخلاصة القول أن تستقر في جوارحه وعقله وقلبه، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾.

﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً ۖ قَالُوٓا۟ أَتَجْعَلُ فِيهَا
مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ ۖ قَالَ إِنِّيٓ أَعْلَمُ مَا
لَا تَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾ وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ فَقَالَ أَنۢبِـُٔونِى
بِأَسْمَآءِ هَٰٓؤُلَآءِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٣١﴾ قَالُوا۟ سُبْحَٰنَكَ لَا عِلْمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَآ ۖ إِنَّكَ
أَنتَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٣٢﴾ قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ أَنۢبِئْهُم بِأَسْمَآئِهِمْ ۖ فَلَمَّآ أَنۢبَأَهُم بِأَسْمَآئِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُل
لَّكُمْ إِنِّيٓ أَعْلَمُ غَيْبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ ﴿٣٣﴾ وَإِذْ
قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَٱسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ
﴿٣٤﴾ وَقُلْنَا يَٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا
هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٣٥﴾ فَأَزَلَّهُمَا ٱلشَّيْطَٰنُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ

وَقُلْنَا ٱهْبِطُوا۟ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ۖ وَلَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَـٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ ﴿٣٦﴾ فَتَلَقَّىٰٓ
ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَـٰتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٣٧﴾ قُلْنَا ٱهْبِطُوا۟ مِنْهَا جَمِيعًا ۖ
فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى فَمَن تَبِعَ هُدَاىَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٣٨﴾
وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَآ أُو۟لَـٰٓئِكَ أَصْحَـٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَـٰلِدُونَ ﴿٣٩﴾﴾.

المفردات:

خليفة: الخلائق من آدم وبنيه، حيث يخلف بعضهم بعضاً في تبليغ أمر الله ونشر الدعوة. وفي قول آخر: إن آدم هو خليفة الله، فهذا لا يصح؛ لأنَّ الآيات اللاحقة تفسر أن المراد بالخليفة هو آدم وذريته فهم يخلفون بعضهم بعضاً، ولا يخلف الله عز وجل أحد. ومنها قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَكُمْ خَلَـٰٓئِفَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ﴾(١).

فأزلهما: زلت القدم أي انزلقت وأزلهما أي انزلقا بوسوسة من الشيطان، من الاستقامة الفطرية إلى ارتكاب الخطيئة.

يسفك الدماء: يصبها ويريقها. **نسبح بحمدك**: نقدسك ونمجدك وننزهك.

رغداً: سعة العيش. **متاع**: ما يتمتع به الإنسان لإقامة الحياة.

مستقر: موضع الاستقرار. **فتلقَّى**: استقبل كلمات الله وقبلها وعمل بها.

تاب عليه: تقبّل توبته. **هدىً**: الرسل والكتب والتشريع الربَّاني.

الدراسة التربوية:

فهذه أول القصص القرآني، وكثيرٌ من الناس يحسب أنَّ القرآن فيه تكرار وإنما أساليبُ عدة تُعرض فيها القصة الواحدة حسب الموقف، وما يحتاجه من جانبٍ من جوانب القصة، فالقرآن كتاب دعوة، ومنهج حياة، وأداة تربية، ففي كل موقفٍ تربوي يحتاج لذكر جانب من مواقف القصة،

---

(١) سورة فاطر: الآية ٣٩.

فتُذكر في كل سورة على نحو مختلف عما هو في سورةٍ أُخرى ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾، فهذا أدبٌ رباني رفيع يعرضه الله ليعلّمه لعباده، إنّه بعيد جداً عن منطق الطواغيت والتصرف دون التفاته إلى أحد، والله هو الغني عن العالمين.

إنَّ أول ما يستوحيه الإنسان مع بدء هذه القصة أنَّ الإنسان سيد هذه الأرض ومن أجله خلق الله كل شيءٍ فيها، أما قول الملائكة «أتجعل فيها من يُفسد فيها ويسفك الدماء؟» فكأنَّ لهم شواهد أو كمن مرَّ بتجارب سابقة أو من إلهام البصيرة أتجعل فيها من يفسد فيها، فالإفساد متوقع من هذا المخلوق، وسفك الدماء شيءٌ من سيرته، بينما غابت عنهم الحكمة العليّة وهي عمارة الأرض وتنمية الحياة فيها، وتحقيق إرادة الخالق العظيم ليوجد هذا الخير الشامل والتطور الراقي العجيب، فأجابهم العليم الخبير ﴿إِنِّيٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ ألا له العلم المطلق وإنَّ الغاية كانت إعلامهم وليست مشورتهم، والله هو الغني الحميد.

والله خلق آدم بيديه، كما ورد في صحيح البخاري عن أبي هريرة مرفوعاً **«إن الله خلق آدم من تراب فجعله طيناً ثم تركه، حتى إذا كان حمأً مسنوناً، خلقه وصوّره ثم تركه، حتى إذا كان صلصالاً كالفخار، كان إبليس يمر به فيقول: لقد خُلقتَ لأمرٍ عظيم، ثمَّ نفخ الله فيه من روحه، وكان أول ما جرى فيه الروح بصره وخياشيمه، فعطس فقال: الحمد لله، فقال الله: يرحمك ربك»**.

وقيل: اسمه آدم لأنه خُلق من أديم الأرض، والصلصال هو الطين يُخلط بالرمل فيصلصل، فإذا نقرته صلصل، وورد **«أن آدم عندما كان صلصالاً كالفخار جعل إبليس يُطيف به ثمَّ نقره فسمع صلصلة فعرف أنه أجوف لا يتمالك»**[1].

---

(١) رواه مسلم وأحمد، واللفظ لمسلم عن أنس بن مالك رضي الله عنه في كتاب البر والصلة والآداب، رقم ـ ٤٧٢٧ ـ.

وفي حديث أبي هريرة ﷺ عن النبي ﷺ أنه قال: «**خلق الله آدم، وطوله ستون ذراعاً ثم قال: اذهب فسلم على أولئك من الملائكة فاستمع ما يحيونك، تحيتك وتحية ذريتك فقال: السلام عليكم فقالوا: السلام عليك ورحمة الله، فزادوه ورحمة الله، فكل من يدخل الجنة على صورة آدم، فلم يزل الخلق ينقص حتى الآن**»(١).

وقول إبليس: لقد خلقت لأمرٍ عظيم؛ يفيد أن إبليس أدرك المهمة التي خُلق آدم من أجلها، ولا زال يطوف حوله خائفاً متفكراً حتى مسّه فوجده أجوفُ لا يتمالك. إنّ هذا الكلام الذي نطق به لسان النبوة ليس عبثاً، وإنما هو نقاط تربوية. إنّ اكتشاف العدو ومقدراته أول خطوة يجب أن يتعلمها المتعلم، وقد أدرك ذلك عدونا الأول بإبليسيته، وتعلمها منه عدونا اللاحق، فأعداء الله درسوا ديننا ليعلموا من أين نُؤتى، لم يدرسوه لتتفتح قلوبهم لذاك النور، بل طمست العداوة قلوبهم، وقد كشف ذلك أحد القساوسة الذين تخرجوا من كلية اللاهوت في مصر، فقال: تفرغت لدراسة الحديث لسنوات، وتفرغ غيري لدراسة القرآن حتى وجدنا بأنّ الرياضة منفذ، ودخلنا على المسلمين بالكرة حيث أثبتت الدراسة أنّ هذه الكرة ستشغل الناس من الصغير ابن الرابعة، حتى الكهل إلى ما بعد الستين، وتستهلك النساء والرجال، حدّث القس بهذا بعدما أسلم وأصبح داعياً إلى الله، وهذا الذي كشفه هذا الرجل غيضٌ من فيض، فبينما إبليس يخطط للعداوة، إذ يوجّه الله تبارك وتعالى آدم ليذهب ويسلم على من حوله يعلمه الأدب والتحية، وأُصول التعامل، حتى مع الذين ليسوا من جنسه، فكلما سار الإنسان بالهدي الرباني كان أداة سلام، وسبباً لنشر الرحمة الربّانية، وإن نزع إلى إبليس كان منه المكر والخديعة والتخطيط الخبيث، ثم بدأت رحلة التعليم.

﴿وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا﴾، قيل: المراد بالأسماء أسماء ذريته، وقيل أسماء الملائكة، وقيل أسماء كل ما في الأرض، وقيل أسماء كل شيء حتى

---

(١) البخاري، كتاب أحاديث الأنبياء، رقم ـ ٣٠٧٩ ـ.

القصعة، هكذا ورد في فتح الباري ـ باب التفسير ـ، والأظهر أنها أسماء كل شيء، كما ذكر ذلك ابن عباس رضي الله عنهما.

إنه التكريم في أسمى صوره، يصدقه قول العليم الخبير في كتابه الكريم ﴿وَيُعَلِّمُكُمُ ٱللَّهُ﴾[1] فقد أفاض العليم على هذا الإنسان من علمه، ونفخ فيه من روحه بما رفعه على الملائكة. لقد وهب له سر المعرفة كما وهب له سر الإرادة المستقلة التي تختار الطريق، ثم حصّل تمام الخير عندما حمل أمانة الهداية ﴿إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ﴿٧٢﴾﴾[2]، فالملائكة لا حاجة لهم لهذا العلم لأنهم غير مكلفين بالدور الذي كُلف به آدم وبنوه، إنّ الملائكة خلقت للتسبيح والتقديس، وجُبلت على الطاعة المطلقة ﴿وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾[3] والملائكة لا تملك الإرادة التي فُضِّل بها الإنسان على كل خلق الله عز وجل، وما زالت رحلة التعليم مستمرة بما فيها من ارتفاع وهبوط وبما فيها من بشارات ولوم وتأنيب، وقبل ابتداء الرحلة ينتهي الموقف مع هؤلاء المسبّحين المتعجبينَ من أمر هذا المخلوق العجيب. فقال يا آدم أنبئهم بأسمائهم فلما أنبأهم بأسمائهم وكان قد وقع التسليم منهم بادىء ذي بدء، عندها قالوا: سبحانك لا علم لنا إلا ما علمتنا. قال ألم أقل لكم إني أعلم غيب السموات والأرض وأعلم ما تبدون وما كنتم تكتمون فهذا تلقينٌ ربّاني غير مباشر، وهكذا يكون الأدب يا آدم والتسليم المطلق لله، والعلم أنَّ خالقك الذي أوجدك عنده علم الغيب فلا يُطلع على غيبه أحداً إلا من ارتضى، فاعلم قدرك وقف عند حدّك واستعد لتلقي الدروس.

كما أشار الله عز وجل لعلمه بما يدور في نفس إبليس من المكر والعداوة لهذا الإنسان الذي خلقه الله بيديه، وأعلم ما تبدون، وما كنتم

(١) سورة البقرة ٢٨٢.
(٢) سورة الأحزاب: الآية ٧٢.
(٣) سورة التحريم: الآية ٦.

تكتمون، فالكتمان ليس من جبلة الملائكة الطائعين. وكما جاء في صحيح البخاري عن أبي هريرة ﷺ قال: سمعت النبي ﷺ يقول: «**احتج آدم وموسى، فقال له موسى: يا آدم أنت أبونا خيبتنا وأخرجتنا من الجنة؟ قال له آدم: يا موسى اصطفاك الله بكلامه، وخطّ لك بيده أتلومني على أمرٍ قدّره الله عليّ قبل أن يخلقني بأربعين سنة؟؟ فحجَّ آدم موسى، فحجَّ آدم موسى، ثلاثاً**»(١).

فقول آدم يا موسى اصطفاك الله بكلامه وخطَّ لك بيده أتلومني، إنه معين الأدب الرباني، إنّ الملامة على قدر العلم، فأنت موسى الكليم ومن أولي العزم من الرسل، أتعترض على قدر الله، وهل عمل آدم هو الذي غيَّر الخطة الإلهية التي خططها الله للبشرية، ولكنه العليم الخبير، الذي خلق هذه الأرض، وجعلها محور التربية ومركز التلقي والعطاء، تجمع أسرار ابن آدم، وتنعم بتعبيدها لله، وتشهد على حركات هذا الإنسان وسكناته ثم تضمه في بطنها، حتى إذا جاءها الأمر لفظته وكشفت أسراره، عرَّته وجرَّدته، ونبذته لتشهد عليه، إن خيراً فخير وإن شراً فشر. ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَٱسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٣٤﴾﴾.

وكان هذا أول خيرٍ مجسّدٍ أمام آدم، وهو الطاعة اسجدوا فسجدوا، وأول شرٍّ مجسّدٍ هو عصيان الجليل والاستكبار عن معرفة الفضل لأهله والعزة بالإثم والاستغلاق عن الفهم، هذه هي عناصر الشر الثلاثة والتي لا زالت ولا تزال قائمة يُميّز الله بها البشر، وهي مدار الأعمال. ومن هناك بدأت المعركة الخالدة التي ينتصر فيها الخير ما حكّم الإنسان إرادته المستقلة وينتصر الشرُّ فيها ما استسلم الإنسان لشهواته.

وبدأت الرحلة رحلة الدروس والعبر، المدرسة الربّانية، وتلميذها آدم عليه السلام، والمعلم الجليل القدير هو الله رب العالمين.

وإبليس لم يكن من الملائكة على قول أكثر المفسرين، وإنما كان

---

(١) صحيح البخاري كتاب القدر، رقم ـ ٦١٢٤ ـ.

معهم ولو كان من الملائكة لما عصى لأنهم لا يعصون الله ما أمرهم.

﴿وَقُلْنَا يَٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٣٥﴾﴾.

لقد أُبيحت لهما كل ثمار الجنة إلا شجرة واحدة، ربما كانت ترمز إلى المحظور في التشريع، وتقرر القاعدة الربّانية لبني البشر، حيث أن الأصل في الأشياء الإباحة إلا ما حرَّم الله بنص ﴿وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ﴾، كلا منها كلها إلا شجرة.

وبغير المحظور لا تتكون الإرادة، والله قادر على أن لا يجعل حراماً ولا ممنوعاً، ولكن بم سيتميَّز هذا الإنسان، إن لم يدع ما بين يديه وأحياناً ما يشتهيه طاعةً واستسلاماً فلا يُمتحن إلا بالإرادة، ولا يتعلم الصبر والوفاء والثبات إلا بالإرادة، وأما الاستمتاع بلا محظور، فهو خُلُقُ البهيمة وإن بدت في شكل آدمي.

إنّه تلقي فن التربية فالعطاء أولاً، والفضل ثانياً. خلقه فسوَّاه فعدله، ثم أسجد له ملائكته. والرخصة والحلال الطيّب في الموقف كله، والتكريم في السكن والإقامة، ثم جاء تعيين المحظور لتكون الطاعة والمطالبة بالحق مطلبٌ قائم على الامتثال للأمر دافعه الحب والتقدير والاحترام.

لا طاعة الإكراه والشدة، بل الطاعة من مخلوقٍ قاصر لخالقٍ متفضل، ومن ضعيفٍ مستكين لقويٍّ عزيز.

الطاعة من محبٌ لحبيب كريم، ومن مفهوم ذلك كله انبثقت كلمة الإسلام، الاستسلام، والسلم والأمان، استسلامٌ لله وسلمٌ وأمان، ورحمةٌ للبشرية جمعاء.

إنّ قصة الشجرة المحرمة، ووسوسة الشيطان باللذة، ووعده بالخلود ونسيان العهد بالمعصية، والصحوة بعد الغفلة، والندم وطلب المغفرة، وعقوبة المعصية وما كان من تجردٍ وعري وإزاحة ستر الله، هذه الجمل السبع هي تجربة البشر المتجددة في كل لحظة.

إنَّ خلق آدم وإسكانه الجنة ثم إهباطه إلى الأرض كانت عملية مقدَّرة لتزويده بهذه التجربة استعداداً للمعركة الدائبة، ودرساً قائماً لقوافل التائبين.

إن للقرآن جوهراً وغاية، فجرهرهُ كلام الرحمن، وغايته صياغة البشرية على منهج الله، والالتفات عن هذه الحقائق تضيّع على الإنسان فرصتُه، وتزجه فيما دون ما خلق له، فالبحث عن الجنة وأين كانت وكيف عاش آدم وزوجه وكيف التقيا بإبليس وكيف رأى الملائكة وما هي الشجرة المحظورة، إن هذه التساؤلات وأمثالها في كتاب الله ليست الجوهر التربوي الذي نبحث عنه، وإنما هو الجمال اللغوي في حبك القصة، وهو جانبٌ من الغيب المحجوب الذي يعلِّم الإنسانَ أن يلتزم حدَّه ويبحث فيما يُفيده ويدركه بعقله المحدود، وقد ظهر أثر هذه التربية في حال الصحابة الكرام رضوان الله عليهم، حيث كانوا لا يبحثون إلا عما فيه العمل، خوفاً من أن يجعلوا الله حجةً عليهم، فالإنسان يبحث في كل ما يُقيم خلافته في الأرض التي هي قصد وجوده، ثمَّ أداء الأمانة التي حملها جاهلاً قدرها، وهذا ما قاله العلاّمة ابن جرير الطبري رحمه الله، وعليه منهج الأستاذ سيد قطب في ظلال القرآن.

والقاعدة المنهجية السليمة: أن نسلط البحث والجهد على ما سخر الله للإنسان من نواميسٍ كونية وأسرارٍ ومعارفٍ نستخرج بها كنوز الأرض لنعبدها لله فتقوى بها شوكة الإسلام والمسلمين. وليبق الحد التربوي قائم أمام هذا الإنسان بأنَّ هناك غيباً وحجباً لا يستطيع اختراقها، ليلازمه الشعور بأنّه صغير وأنه يجهل أخصَّ ما يخصه، فهو إن أخرج نَفَسَه من فمه لا يدري أهو آخر أنفاسه أم أنه سيعود مرةً بعد مرة.

إنّه بعض الغيب المحجوب وليس من اختصاصات الخلافة في الأرض، ولو حاول الإنسان أن يخوض ويبحث، فجهده ضائع ومحاولته فاشلة لا ثمرة لها ولا جدوى، إنّ أول أُسس العقيدة الصحيحة، أن يرتفع الإنسان إلى المستوى الرفيع الذي رفعه الله إليه وأن يعرف قدره وحدوده فيستحق حمل «لا إله إلا الله محمد رسول الله».

إنّ الإنسان سيد هذه الأرض، ومن أجله خلق الله كل شيءٍ فيها، فهو صاحب الدور الأول في الارتقاء بكل القيم الروحية، والطهارة البشرية وصيانة العهد مع الله.

إنَّ هذا الإنسان سيفٌ ذو حدَّين، يملك الاستعلاء على الغواية والارتفاع عن الدنايا فيسعد ويرقى.

ويملك أيضاً الخضوع للشهوات والانحطاط إلى أسفل، فيشقى ويهبط بعد رفعة.

إنّ آدم عليه السلام أخطأ ولحظ نتيجة خطئه، حيث بدت سوءته، فندم وردَّ القدم بعد الزلة، إنه لم يتوقع أنه هكذا تكون الخطيئة، فهو أول ضحيّة لإبليس فعوقب فرجع وندم ﴿فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَٰتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ ﴾، علّمه كيف يتوب المخطىء فقبلها آدم دون تردد، لأنّه ارتكب الخطيئة من غير قصد، ودون أن يُقدّر خطة عدوه ولهذا قال الله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلتَّوْبَةُ عَلَى ٱللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسُّوٓءَ بِجَهَٰلَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٍ فَأُوْلَٰٓئِكَ يَتُوبُ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١٧﴾﴾[(١)].

فالعبرة من هذا الدرس القرآني، أن آدم أخطأ ولم يكن يريد المعصية ولا أن يتجرأ على حدود الله، وإنما هوَّن إبليس عليه أمر الشجرة المحظورة، وبالتالي فآدم عليه السلام لا يعلم ماذا سيحصل لو أنّه نال من المحظور فأكل فأدرك أنّه وقع، وأنه أخطأ، ولن يتعلم ولن تتعلم ذريته إلا بالدرس العملي، فحزن وندم، وكان صادقاً في حزنه وفي ندمه، فتلقى كلمات التوبة فتاب وأناب، وسُطِّر الدرس وخُلِّد في كتاب الله، عبرةً للأجيال ومنهجاً للأمم.

إنّها معصيةٌ من غير إصرار، ولا سابق تخطيط، إنّها معصية لم تسبقها كتبٌ سماوية ولا نُذُر، إنّه الخطأ البريء الذي رُكِّب في الإنسان، وذكره رسولنا الكريم ﷺ بقوله: «**كل ابن آدم خطّاء، فخير الخطائين**

---

(١) سورة النساء: الآية ١٧.

التوابون»[1].

إن قصة آدم عليه السلام وزلته وزوجه ركيزة من ركائز التصور الإسلامي، ومفرق الطريق حيث أثبتت أن الخطيئة فردية، والتوبة فردية ومفرق الطريق في أن يسمع ويطيع لما أمره الله عز وجل، أو أن يسمع ويطيع لما يمليه عليه الشيطان.

إنّها الحقيقة الناصعة إما الله، وإما الشيطان، إما الهدى وإما الضلال، إما الحق وإما الباطل، إما الفلاح وإما الخسران، وهذه حقيقة ربّانية قرآنية، لا محاورة فيها ولا مداورة، ﴿فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى فَمَن تَبِعَ هُدَايَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٣٩﴾﴾.

يقول فتح الموصلي: (كنّا قوماً من أهل الجّنة فسبانا إبليس إلى الدنيا فليس لنا إلا الهمّ والحزن حتى نُردُّ إلى الدار التي أُخرجنا منها).

الفوائد التربوية:

١ ـ أدب التعامل مع من حولنا، فقد أعلم الله جل وعلا الملائكة ما هو فاعل وهو الغني عنهم.

٢ ـ إن الخطوات التربوية الربانية هي الأسلوب الأنجح في التربية ورأس الإخلاص رد العلم لله رب العالمين فهو العليم الخبير.

٣ ـ إن الملائكة غاية وجودها التسبيح والتقديس، بينما غاية وجود الإنسان العبودية المطلقة لله رب العالمين، ومن هذه العبودية بناء هذه الأرض وعمارتها، وإن استخراج كنوز الأرض بعض مهمة المسلم والكشف عما هو مسخر له غاية العبودية لله، ليبقى الإسلام هو الرائد في الدنيا إلى الآخرة.

---

(١) رواه أحمد والترمذي وابن ماجه والحاكم. واللفظ لأحمد، كتاب باقي مسند المكثرين، رقم ـ ١٢٥٧٦ ـ.

٤ ـ في حقبة من الزمن زيَّن إبليس للمسلمين التسبيح والتقديس دون العمل، فاقتصر المسلمون عليه وهم يحسبون أنّهم يحسنون صنعاً، فكانت النتيجة أن ملك الدنيا الكفار وصنّفونا من العالم الثالث وهذا يأباه الله ورسوله ﷺ.

٥ ـ التوازن ميّزة لا يملكها إلا الإنسان، ولا تكون إلا بالتربية الربانية، فالإنسان خُلق لهذه الأرض ليسبّح بها ويقدّس ويجاهد ويعمّرها بلا إله إلا الله سواءً بسواء، ويقيم المعاملات الإنسانية على مستوى عالٍ رفيع غير مرغمٍ، لأنه يملك الاختيار.

٦ ـ ليس الحرمان من معاني التربية وإنّما التربية وجود الشيء والترفع عنه طاعةً لله، وقد تُروّض النفس وتُربّى على ترك بعض الحلال وما لا بأس فيه، كما كان الصحابة يفعلون رضي الله عنهم وأرضاهم.

٧ ـ تعميق عداوة الشيطان للإنسان وأنَّها لا تكون دائماً وسوسة شر، بل قد تكون وسوسة لذة، أو وسوسة تهوين الذنب، أو مقارنة مع الأسوأ. فليست مهاجمة الشيطان دائماً للنقلة من الإيمان إلى الكفر، ولكن يكيد الشيطان ليرى المسلم ينحدر ويتراجع فيبرر له فعله ويثني عليه ويزيّنه له، فيتخلّى صاحب المبدأ عن مبدئه، ويتجاوب الداعية مع فتنةٍ تُحيط به وينحدر العالم فتتناقض أعماله مع أقواله.

٨ ـ إعلاء شأن الإرادة فهي مناط صيانة العهد مع الله، وتعويد الثبات عليها وغرس مبدأ التميّز مهمة الأم أو المربي، ويُدرّب الطفل على ترك الشبهات ترفعاً وحباً لله، وخير زادٍ في ذلك رؤية القدوة الصالحة أمامه وهي تحقر أمر الشهوات وتقدم عزائم الأمور.

٩ ـ من واجب المربي أن يؤكد بغير ملل أنَّ هناك طريقين لا غير، والتذبذب بينهما هو النفاق. لأن الإسلام بكليته وشموله هو الوسط، فلا شطط اليهود ولا غلو النصارى.

﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا﴾، وهذه القاعدة انبثقت عن اسجدوا فسجدوا، اسجدوا فأبى واستكبر أمر ـ طاعة ـ تنفيذ، أمر ـ امتناع ـ كبر.

١٠ ـ إبراز دور المرأة فالخطيئة كانت من الرجل والمرأة والعتاب كان لهما، والتوبة كانت منهما معاً والعقاب وقع عليهما معاً.

﴿قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿٢٣﴾﴾[١].

١١ ـ رفض نظرية دارون، حيث أن نظام الوراثة والشواهد والدلائل القرآنية كلها ترفض النظرية التي وراءها أصابع اليهود.

وعندنا ما يكفينا من الحق، فقد أخرج الترمذي عن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**إن الله عز وجل خلق آدم من قبضة قبضها من جميع الأرض، فجاء بنو آدم على قدر الأرض فجاء منهم الأحمر والأبيض والأسود وبين ذلك، والسهل والحزن والخبيث والطيب**»[٢] وقال الترمذي حديث حسن صحيح.

ومن آدم انحدر الإنسان ولم يتطور عن خلقٍ آخر.

١٢ ـ إيقاظ الحس والانتباه عند أول مخالفة، ليفزع للاستغفار والتوبة، والإكثار من العمل الصالح «**وأتبع السيئة الحسنة تمحها**»[٣].

١٣ ـ إنَّ كشف العورات وإبداء السوءات عقاب الأمّة المذنبة المطرودة من الجنَّة، ويحضرني ما روى ابن القيّم من الحديث القدسي «**يا ابن آدم لو عرفت قدر نفسك عندنا لما أهنتها بالمعاصي، إنّما أبعدْنا إبليس، إذ لم يسجد لك وأنت في صلب أبيك، فوا عجباً كيف صالحته وتركتنا، لو كان في قلبك محبةً لنا، لبان أثرها على جسدك**».

﴿يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَوْفُوا بِعَهْدِي أُوفِ بِعَهْدِكُمْ وَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ ﴿٤٠﴾ وَآمِنُوا بِمَا أَنزَلْتُ مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَكُمْ وَلَا تَكُونُوا أَوَّلَ كَافِرٍ بِهِ وَلَا تَشْتَرُوا بِآيَاتِي ثَمَنًا قَلِيلًا وَإِيَّايَ فَاتَّقُونِ ﴿٤١﴾ وَلَا تَلْبِسُوا الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْتُمُوا الْحَقَّ

---

(١) سورة الأعراف: الآية ٢٣.

(٢) مشكاة المصابيح سلسلة الأحاديث الصحيحة، رقم ـ ١٦٣٠ ـ.

(٣) سلسلة الأحاديث الصحيحة، الروض النضير، رقم ـ ٨٥٥ ـ.

وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٤٢﴾ وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱرْكَعُوا۟ مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ ﴿٤٣﴾ ۞ أَتَأْمُرُونَ
ٱلنَّاسَ بِٱلْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ وَأَنتُمْ تَتْلُونَ ٱلْكِتَٰبَ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٤٤﴾ وَٱسْتَعِينُوا۟ بِٱلصَّبْرِ
وَٱلصَّلَوٰةِ ۚ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى ٱلْخَٰشِعِينَ ﴿٤٥﴾ ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَٰقُوا۟ رَبِّهِمْ وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ
رَٰجِعُونَ ﴿٤٦﴾ يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتِىَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّى فَضَّلْتُكُمْ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ
﴿٤٧﴾ وَٱتَّقُوا۟ يَوْمًا لَّا تَجْزِى نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شَيْـًٔا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَٰعَةٌ وَلَا يُؤْخَذُ مِنْهَا
عَدْلٌ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿٤٨﴾﴾.

المفردات:

إسرائيل: اسم سيدنا يعقوب عليه السلام. **عدل**: فداء.

البر: اسم جامع لكل أعمال الخير. **يظنون**: الظن هنا بمعنى اليقين.

تلبسوا: اللبس وهو الخلط وهنا بمعنى التضليل.

الخاشعين: الخاشع الساكن القلب وهو الخائف.

أوفوا: فعل الأمر للوفاء، وهو أداء الشيء بتمامه وكماله.

الشفاعة: وهي أن ينفع غيره بجاهه وسلطانه وهي منزلة الشفيع عند المشفَّع، وهذه منزلة لا ينالها إلا من أذن له الله حيث لا وساطات عند الله يوم القيامة إلا لمن أذن وارتضى.

الدراسة التربوية:

إن بني إسرائيل صورة مجسدة لفعلة إبليس السابقة وهي المعصية مع العلم، والتخطيط لها مع الإصرار، وسياق الآيات يوحي بأنَّ الدرس العملي الذي مثّله آدم عليه السلام وعداوة إبليس للبشر يترجمها حال بني إسرائيل مع أنبيائهم ومع دعوات الله المتتالية لهم.

فخصَّهم الله بندائه كما كرَّم إبليس بإلقاء الأمر إليه، ولكن الجبلّة واحدة. وقال: يا بني إسرائيل اذكروا نعمتي التي أنعمت عليكم وأي نعمة توازي نعمة النبوة وتوالي الأنبياء، نعمة الاختيار والتفضيل، وكان هذا النداء

يعلن عن بدء الجولات القرآنية مع بني إسرائيل، الذين تجسَّد في أكثرهم شر إبليس وكبره أمام الأنبياء الذين تمثل فيهم طهر الملائكة وبشرية آدم عليه السلام.

إنّ إبليس ضرب برجله وجمع جنده وجنَّدهم للكيد بالمؤمنين ليتبوأ مكان الصدارة في جهنم، ويهود جلبت برجلها وجمعت الكفر والإلحاد وجنّدته للمكر والخديعة لتزاحم إبليس مكانه في جهنم وبئس المصير، وخاضت مسعورةً مهرجان السباق هي والشيطان، فيبدو أنها ستفوز لأنّ الله عز وجل قال: ﴿إِنَّ كَيْدَ ٱلشَّيْطَٰنِ كَانَ ضَعِيفًا ﴾، والشيطان ينخذل بذكر الرحمن، ويهود[1] لا يخذلها إلا مطرقة الجهاد في سبيل الله. وسيُخزيها الله في جهنم فتكون وقودها ولهيبها.

قامت يهود لتواجه الدعوة الوليدة مواجهةً نكرة قبيحة، مستعينين بما تبقَّى لهم من الكتاب، ليخلطوه بشهواتهم وضلالاتهم ليفضّوا القوم، وتزعّموا تلك الحملة على رسول الله ﷺ، فتارة يكذبوه، وتارة يشككون، ويهود هي يهود... فنار الغيرة والحسد التي أشعلوها مع بدء هذه الدعوة لن يخبُ أُوارها حتى آخر لحظة من بقاء هذا الدين. فيهود هي الأمة المشؤومة التي باءت بغضب الله وضرب الله عليهم الذلة والمسكنة، وما وقوف النصارى اليوم إلى جانب اليهود ليبقوا شوكة في حلق العالم الإسلامي إلا خوفاً من أن ترتمي الصهيونية الآثمة في أحضانهم وتستوطن بلادهم، بالإضافة إلى الدجل الذي لبَّسته عليهم بأنَّ حبهم يهود ونصرتهم لهم ستكون سبباً لدخول الجنة وجلب بركة الله عليهم.

إنَّ العهود التي أخذها الله عليهم كانت تؤهلهم للإيمان بما جاءهم في كتبهم، وكان المفروض أن يُصدّقوا البشارات والإيحاءات الموجودة في التوراة، والحقائق المذكورة عن بعثة النبي الكريم ﷺ، وهم أنفسهم الذين كانوا يستفتحون به على العرب، وكانت أحبارهم تخبر بأنه أطلَّ عليهم نجم

(١) يهود مجرّدة من (ال) التعريف لأنهم نكرات أعلنوا الحرب على الله ورسله، وهذا توجه الضلال.

النبي المنتظر، ولكن يهود لها كيدٌ وصفاتٌ خسيسة تسري في دمائها وتنبُض بها قلوبها.

يحذرهم الله العودة إلى سيرة الأجداد التي وضعها الله عز وجل بين يدي رسوله الله ﷺ والمؤمنين وكأنها واقع، وبيَّن لنا حالهم بثوابت دامغة لا يستطيعون الفرار منها، ولذلك أبغضوا رسول الله ﷺ وحقَّروا جبريل عليه السلام الذي ينقل أخبارهم.

طالبهم الله بالإيمان والتقوى، وحذّرهم التلاعب بكتاب الله، ولوّح لهم بالشراء والثمن لما يعلم من دناءة نفوسهم، ودعاهم لإقامة الصلاة علّها تردعهم عن غيِّهم كما دعاهم لالتزام الجماعة، حيث البركة والخير والركوع... ولكن دون جدوى ولا أمل في الاستجابة، فواجه النداء آذاناً صمّاء وقلوباً متحجِّرة، إنّ توالي الآيات عن بني إسرائيل ليست تعبيراً عن حب الله لهم، ولكن توجيه لهذه الأمة لتبتعد عن كبر إبليس وحسد يهود وخوَر النفوس المتردية في المعاصي والتي لا ترعى عهداً، ولا تفي بميثاق.

إنَّ الله عز وجل وضع يهود على مشرحة قد سُلِّطتْ عليها الأضواء، ووجهت إليها المكبرات ففضحهم الله لكل ذي بصيرة، لنعرف عدو الإنس الذي يتربص بنا فلا تطرده الاستعاذة ولا يهذبه الهجر، له أداة واحدة تربّيه وتؤدبه، إنّها مطرقة الجهاد والبصيرة الإيمانية. إنّ يهود لا يعرفون إلى الفضيلة طريقاً ولا إلى العزة باباً، وإنّهم بعيدون عن تلمّس العزة بجنب الله عز وجل فقال لهم الله: ﴿إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِءُونَ﴾ إنه ربحٌ خاسر وجاهٌ زائل، إنَّ أحبار اليهود كانوا يدَّعون تقديم الخدمات الدينية، ويصدّرون الفتاوى الكاذبة والمحرَّفة، ثم يتمسَّحون بمسوح الدين لاستبقاء هيبتهم ويصدّون عن سبيل الله... وحكاية لبس الحق بالباطل، هذا لا يقدر عليه إلا رجال الدين حيث الثقة فيهم، فيصدِّرون الفتاوى ويتكسَّبون بها المال والعطايا، ويهود بمسلكها هذا طغت في الأرض، ولا بد لكل طاغية من مثل هؤلاء... فالنفس الفارغة المقطوعة الصلة بالله، تكون فارغة من كل

خير مقطوعة عن كل أُنس، لا تساوي جناح بعوضة في ميزان الله، والداعية الحق هو الذي يزهد بما في أيدي الناس، ويتطلّع إلى وعد الله الحق والعاقبة للمتقين.

﴿أَتَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ وَأَنتُمْ تَتْلُونَ ٱلْكِتَـٰبَ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ (٤٤)﴾؟ ويعيب الله سبحانه على يهود آفاتٍ تلبّسوا بها، والعيب موجّه إلى طبقة أهل الدين والعلم التي تتلو الكتاب ثمّ تقول كلمة الحق التي يُراد بها باطل، والأصل أنّ الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر واجب الأمة كلها، كل على قدر علمه، ولكن الذين يتلون الكتاب عارٌ عليهم عظيم أن يأمروا بالمعروف وينسوا أنفسهم، فليس المحظور الأمر بالبر، ولكن المحظور هو إهمال النفس وإيرادها موارد الهلاك، وكما جاء في صحيح البخاري عن أُسامة بن زيد رضي الله عنهما قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**يُجاء بالرجل يوم القيامة، فيلقى في النار، فتندلق أقتابه في النار، فيدور كما يدور الحمار برحاه، فيجتمع أهل النار عليه، فيقولون: أي فلان ما شأنك؟ أليس كنت تأمرنا بالمعروف، وتنهانا عن المنكر؟ قال: كنت آمركم بالمعروف ولا آتيه، وأنهاكم عن المنكر وآتيه**»(١).

وكان بعض علماء يهود يفعلونه إذا استنصِحُوا، ويقولون دين محمد حق ولكنهم لا يتبعونه، لأنّ في اتباعه تعطيلٌ للمصالح... إنّهم مشغولون بعملية الإضلال، فماذا سيبدون؟ وماذا سيكتمون؟ إنّه التلاعب بالحق والغفلة عن لقاء الله، إنّها مؤامرات وفتن لا يصمد لها إلا مؤمنٌ صابرٌ محتسب فمن أعظم الزاد التربوي الصبر، وقد وصفه الإمام الشافعي رحمه الله بقوله: «واصبر فإنّ الصبر مثل اسمه في كل نائبةٍ، ولكن عواقبه أحلى من العسل» فالصبر عدة الطريق والزاد في الرخاء والشدة، وكان عمر رضي الله عنه يقول: (اللهم لا صبر لنا على ما زيّنت لنا إلا بك)(٢) فالصبر زاد الدعوة وزاد الجهادَيْن، جهاد النفس وجهاد العدو، والله عز وجل يصبّر نبيّه بقوله ﴿وَٱصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا

---

(١) البخاري كتاب بدء الخلق، رقم ـ ٣٠٢٧ ـ.

(٢) البخاري.

بِٱللَّهِۚ﴾[1]. فالصبر على وعورة الطريق وجمر الفتن يهدىء من لهيبه ركعاتٍ ترتاح بها النفس بمناجاة بارئها «**أرحنا بها يا بلال**» إنها الصلاة والسكينة والقرب، فهي ثقيلة ولها تكاليف إلا على قلوب الخاشعين فهي لهم روح وطمأنينة يتطلّعون بعين اليقين إلى لقاء العدل والرحمة ويتطلّعون إلى الوعد الحق في دار الحق... ويتكرر النداء... يا بني إسرائيل شيئاً من الوفاء وقليلاً من الصدق اذكروا النعمة والفضل واذكروا العفو والمغفرة، نداءٌ فيه تقريع لبني إسرائيل، وتعريض بهؤلاء الجاحدين، وموعظة للسامعين الذين تفضّل الله عليهم برسولٍ من أنفسهم فكذبوه وطاردوه، وهان عليهم فأخرجوه، إن الله على سلب النعم لقادر، وكل آية في كتاب الله تهز الضمير الحي وتوقظه ﴿وَإِن تَتَوَلَّوْا۟ يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوٓا۟ أَمْثَـٰلَكُم﴾[2].

﴿وَٱتَّقُوا۟ يَوْمًا ﴾ وكأنَّ هذا اليوم غني عن التعريف لكل أتباع نبي، ولكل أهل كتاب، يوم الفصل يوم يجمع الله الأولين والآخرين، الأغنياء والفقراء يوم يقف الملوك والعبيد سواسية، فلا تُجزىء قوة ولا ينفع فداء ولا تتقدم الشفعاء ويخنس الناصر والمعين، يا لهول ذلك اليوم، ويا لشقاء المفرّطون. إنّه الفيصل التربوي الذي يضبط النفوس وينبه العقول.

الفوائد التربوية:

١ ـ عدم اليأس وقد نادى الله عز وجل، الأحفاد من بني إسرائيل، كما نادى الأجداد، وذكّرهم بأنّهم أبناء نبيٍّ صالح وقد يُرجّى فيهم خير. حتى أقام عليهم الحجة.

٢ ـ ذكر لهم ما غاب عنهم في كتابهم المحرَّف حتى لا تبقى لهم حجة، وهي في الوقت نفسه دروس وعبر للمسلمين، ليتفكروا بنعمة الله عليهم عندما قال لهم ﴿وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَـٰمَ دِينًا ﴾[3].

---

(١) سورة النحل: الآية ١٢٧.

(٢) سورة محمد: الآية ٣٨.

(٣) سورة المائدة: الآية ٣.

٣ ـ تعريف الله للمؤمنين بعدوهم، فبدأ بعداوة الشيطان الذين لا نراه، ثم عقَّب باليهود الذي عادوا الله ورسوله، وإن كان إبليس عصى مرة فيهود عصت على فترات طويلة، وحجة الله عليهم في القرآن قائمة وما التعريض بهم في الآيات إلا ليثبت لنا عداوتهم، وأنّهم هم العدو إلى يوم الدين، ولئلا نقع فيما وقعُوا فيه من المعصية.

٤ ـ تذكير الله لهم دائماً بوفاء العهود يبيِّن مكانة العهد عند الله، وأنّهم نكثوا عهد ربنا وكادوا لنبيّنا، وذلك ليشحن نفوسنا بعداوتهم، ونحظى بولاية الله التي لا تكون حتى نبغض من يبغض الله، ونحب من يحب الله.

٥ ـ إنّ تعميق معنى الحب لله ورسوله والمؤمنين، لا يتحقق إذا لم نعمّق معنى البغض في الله ورسوله والمؤمنين، وهذا أول ميزان التوازن في شخصية المسلم.

٦ ـ إن سبب هذه التعمية هو رجال الدين الذين يعلمون كيف يحاورون ويداورون، وهم الذين يكتمون الحق ويتلاعبون بالنصوص فلزم التنبيه والحذر.

٧ ـ إنَّ الآيات تريد منّا أن نقبض على ديننا بعيون مفتوحة وحسٍّ بصير، حتى لا نُخدع من عليم اللسان المتستر بعباءة الدين.

٨ ـ إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة زادٌ روحيٌّ يحتاجه المؤمن كلما كوته نار الكفر وكيده، وكان رسول الله ﷺ يقول: **«أرحنا بها يا بلال»**.

٩ ـ العلم والعقل نعمتان فلا يحق للعبد إغفالهما، أو تعبيدهما لغير الله، أو لغير صالح جماعة المسلمين. وأن الله يعاقب العلماء على ما لا يعاقب عليه الجهّال، وأخرج الإمام أحمد عن النبي ﷺ قال: **«مررت ليلة أُسري بي على قوم تُقرّض شفاههم بمقاريضٍ من نار، قال: قلت: من هؤلاء؟ قالوا: خطباء أمتك من أهل الدنيا، ممنْ كانوا يأمرون الناس بالبر، وينسون أنفسهم، وهم يتلون الكتاب، أفلا يعقلون؟»**(١) وقال أيضاً: **«إن الله**

---

(١) رواه أنس بن مالك في مسند أحمد في كتاب باقي مسند المكثرين، رقم ـ ١٢٣٩١ ـ.

يغفر للجاهل سبعين مرة حتى يغفر للعالم مرة واحدة وليس من يعلم كمن لا يعلم».

١٠ ـ المسؤولية فردية، فحبّذا لو يعوّد الطفل أن يعدد نعمة الله ويستعرض رحمة الله ليتعوّد الشكر، ويُذكّر دائماً أن يهود لا تشكر الله فبذلك نرسّخ عداوتهم في نفسه، ونعمّق حب الله في قلبه ونعوّده أن يشكر الله، لأنّه مسؤول عن حق الله بشكل فردي فيتعلم حمل المسؤولية.

١١ ـ تعميق معنى الوقوف بين يدي الله عز وجل، يوم لا تخفى على الله خافية، وإعطاء الموضوع حقه، والإجابة على كل الأسئلة، حتى يُسلّم الطفل بأنّه لا مفر له من الله إلا إليه، ونعوّده أن المخرج من كل فزعٍ أو خوف هو الصلاة والدعاء.

﴿وَإِذْ نَجَّيْنَٰكُم مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ يُذَبِّحُونَ أَبْنَآءَكُمْ
وَيَسْتَحْيُونَ نِسَآءَكُمْ ۚ وَفِى ذَٰلِكُم بَلَآءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ ﴿٤٩﴾ وَإِذْ فَرَقْنَا بِكُمُ ٱلْبَحْرَ
فَأَنجَيْنَٰكُمْ وَأَغْرَقْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ ﴿٥٠﴾ وَإِذْ وَٰعَدْنَا مُوسَىٰٓ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ثُمَّ
ٱتَّخَذْتُمُ ٱلْعِجْلَ مِنۢ بَعْدِهِۦ وَأَنتُمْ ظَٰلِمُونَ ﴿٥١﴾ ثُمَّ عَفَوْنَا عَنكُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ لَعَلَّكُمْ
تَشْكُرُونَ ﴿٥٢﴾ وَإِذْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْفُرْقَانَ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿٥٣﴾ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ
لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنفُسَكُم بِٱتِّخَاذِكُمُ ٱلْعِجْلَ فَتُوبُوٓا۟ إِلَىٰ بَارِئِكُمْ فَٱقْتُلُوٓا۟
أَنفُسَكُمْ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ عِندَ بَارِئِكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٥٤﴾ وَإِذْ
قُلْتُمْ يَٰمُوسَىٰ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى ٱللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْكُمُ ٱلصَّٰعِقَةُ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ
﴿٥٥﴾ ثُمَّ بَعَثْنَٰكُم مِّنۢ بَعْدِ مَوْتِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٥٦﴾ وَظَلَّلْنَا عَلَيْكُمُ ٱلْغَمَامَ
وَأَنزَلْنَا عَلَيْكُمُ ٱلْمَنَّ وَٱلسَّلْوَىٰ ۖ كُلُوا۟ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ ۚ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَٰكِن كَانُوٓا۟
أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٥٧﴾﴾.

المفردات:

آل فرعون: كل ملك عند العمالقة كان لقبه فرعون، وآل هي الأهل وكان كل فرعون بمثابة الإله، وأهله وحاشيته الطغاة المتحكمون في العباد.

يستحيون: يُبقونهم على قيد الحياة للسبي والخدمة. **الغمام:** السحاب.

المن: نوع من الحلوى يتجمع على أطراف الشجر. **الصاعقة**: العذاب.

فرقنا: فصلنا وفلقنا أي شُقَّ فيه طريقاً يابساً. **بارئكم**: خالقكم.

السلوى: طائر لطيف طري اللحم. **يسومونكم**: يُذيقونكم.

الدراسة التربوية:

وتتوالى المواقف التربوية والجولات الربانية، إنها دروسٌ وعبر في تقويم النفوس ومعالجتها، فنداءٌ ثم تذكير ثم تحذير ثم هداية ونصح ثم تذكير ثم تحذير وإقامة حجة.

وإذ نجيناكم من آل فرعون، مَن الذي نجاكم؟ ونصركم عند ضعفكم؟ من الذي آواكم بعد تشريدكم؟ ومن الذي أغرق عدوكم؟ إنَّ فرعون وملأه عاثوا في الأرض فساداً، سبُوا النساء واستخدموهن، وذبحوا الذكور أو استعبدوهم، وطغوا في الأرض بغير الحق، حتى كانت الوقعة الأليمة والأخذ الشديد، إذ فرَّ موسى بالمستضعفين ولكن إلى أين يا موسى؟ باتجاه البحر، ولكنّها طُمأنينة اليقين، إنَّ معي ربي سيهدين «**احفظ الله يحفظك**»، وكانت المعجزة وتجلّت القوة وفلق الله البحر (نهر النيل العظيم) ومضى في الطريق اليابسة، إنّها ولاية الله مصداق قوله تعالى: ﴿وَهُوَ يَتَوَلَّى ٱلصَّٰلِحِينَ﴾[1] وانطلق فرعون الإله الطاغية، وهو وليُّ جنده اليوم اقترب ونظر، فاندفع ليقضي الله أمراً كان مفعولاً.

غفل فرعون عن قدرة الله وأنّ كل ما في هذا الكون مسخرٌ لله عز وجل ﴿وَلِلَّهِ جُنُودُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾[2] وأطبق البحر، وأصبح فرعون وجنوده أثراً بعد عين، وهلك الإله الأسطورة، وبقي الجبّار فإلى أين الفرار من جبروته؟ هذه آية بني إسرائيل شهدتموها وإن طمست في توراتكم فها أنا أبلغكم إياها اليوم، لتنخلع يهود من إرث الأجداد، وتقبل على الله من

---

(١) سورة الأعراف: ١٩٦.

(٢) سورة الفتح: الآية ٧.

جديد وعلى يديّ نبيٍّ كريم، ولكن الحس المطموس تناساها والنفوس الماكرة ليست خيراً ممن قبلها، فهي أشدّ شراسة وأخبث طوية، إنّ آية نجاة موسى عليه السلام ومن معه معجزة عظيمة وداعية من دواعي الإيمان ولكن لقوم يعقلون، وروى ابن عبّاس رضي الله عنهما أن النبي ﷺ حين قدم المدِينة فرأى اليهود تصوم يوم عاشوراء، فقال: **«ما هذا؟»** قالوا: هذا يومٌ صالحٌ، هذا يومٌ نجّى الله بني إسرائيل من عدوهم فصامه موسى. **«قال: فأنا أحق بموسى منكم، فصامه وأمر بصيامه»**(١).

إنّ الإنسان ينظر في العالم الإسلامي المتهالك اليوم وهو يتشدد ويتمسك ببعض هذا الدين كما تشددت يهود بعدما كفرت وقتلت أنبياء الله وتمسكت بصوم عاشوراء، وموسى منهم بريء والتوراة بين أيديهم الآثمة لن تغني عنهم من الله شيئاً. إنّ الأمة التي تؤمن ببعض الكتاب وتكفر ببعض ليست من الله في شيء.

كثير من المسلمين اليوم يصومون الاثنين والخميس، ويتمسكون بالنوافل حباً برسول الله ﷺ وتأسياً به عليه الصلاة والسلام، ولكنّهم هجروا هديه في قيادة البشرية والجهاد في سبيل الله، وسنته في الإخاء، واستبدلوا بها القومية النتنة، ففي هؤلاء يقول رسول الله ﷺ يوم القيامة وقد أُخذوا يا رب أمتي فيقال: إنّك لا تدري ما غيروا بعدك وبدّلوا فيقول: سحقاً سحقاً. إنّ أمةً تولّت يهود أمر إثبات شخصيتها فلو صامت الدهر كله، وحفظت القرآن حرفاً حرفاً وهي تؤمن ببعضه وتعطل بعضه، هذه أمة لن تغني عنها أعمالها من الله شيئاً، وفي مثل هذا قال عليه الصلاة والسلام لزياد بن لبيد الأنصاري رضي الله عنه: **«ثكلتك أمك يا زياد، إن كنت لأعدك من فقهاء المدينة، هذه التوراة والإنجيل عند اليهود والنصارى فماذا تغني عنهم»**(٢).

إنّ الدين ليس شعائر ومظاهر سلبية، وعاطفة وحنين فحسب، وحالة التناقض التي يمارسها المسلمون اليوم تدمي العين، وتجرح القلب.

---

(١) صحيح البخاري كتاب الصوم، رقم ـ ٢٠٠٤ ـ.

(٢) قسم من حديث صحيح رواه الترمذي عن أبي الدرداء في كتاب العلم، رقم ـ ٢٥٧٧ ـ.

يا بني إسرائيل لقد تولاكم الله ورعاكم في مواقف عديدة، فماذا أفدتم من هذه الرعاية الربّانية؟ وماذا عملتم مقابل انتصار الله لكم وإهلاك عدوكم؟ إنها مواقف تعلم الصبر على الطاعة والصبر عن المعصية، والصبر على المحن والابتلاء، ثم الصبر على النصر وتوالي النعم، وماذا بعد الدروس والعبر؟ بعد هذا كله كان الوعد بالتمكين والتلقي للمنهج الربّاني الذي يصلح العباد والبلاد، وذهب موسى عليه السلام لتلقي الألواح فيها هدىً ورحمة، كان المتوقع أنَّ الأمة قد استغرقت في صلاةٍ وشكرٍ ودعاءٍ وصفاءٍ حتى يعود إليها نبيُّها، ولكن الأمر كان على غير ذلك، إنّها طبيعة يهود وقد قيل (أبت النفس الخبيثة إلا أن تسيء لمن أحسن إليها). لقد استبطؤوا موسى عليه السلام فعبدوا العجل كما سيأتي، عبدوه هكذا بعد كل الذي لمسوه من قدرة الله، مالوا عن ربهم الحق إلى العجل، وكانوا ظالمين. وأي ظلم أشد وأنكى من هذا الظلم؟؟!

إنه ظلم الإنسان لنفسه التي بين جنبيه، يهينها بالميل عن عبادة خالقها وبارئها، وعاد موسى عليه السلام بالتوراة فيه فرقانٌ بين الحق والباطل لعلهم يهتدون، وفيه أخبر الله موسى عليه السلام عن شنيع فعلتهم التي فعلوها في غيبته وفيها توبتهم الرادعة لعلهم يرشدون ﴿وَٱسْتَعِينُواْ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِۚ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى ٱلْخَٰشِعِينَ ﴿٤٥﴾﴾.

وقد أمرهم موسى عليه السلام بالتوبة، ومال على أخيه باللّوم والتعنيف، وأسف على فعلتهم تلك وبين أظهرهم نبي وهو هارون عليه السلام، إنّ يهود عقّت ربها وهي بين نبيين يسوسانها ويرشدانها، لقد مالوا عن هارون عليه السلام وكادوا يقتلونه لو منعهم مما يريدون، وليس هذا عنهم ببعيد، فالأمة التي قتلت زكريا ويحيى عليهما السلام وهمّت بقتل عيسى عليه السلام، ودسّت السُّم لسيدنا محمد ﷺ، إنها تحمل اليد الآثمة التي تمتد إلى هارون ﴿إِنَّ ٱلْقَوْمَ ٱسْتَضْعَفُونِى وَكَادُواْ يَقْتُلُونَنِى﴾[1].

(١) سورة الأعراف: الآية ١٥٠.

إنّ أمة هذا شأنها الله أعلم بطبيعتها فتاب عليهم، ولكن كيف! إنها توبةٌ قاسية وتطهيرٌ عنيف.

اقتلوا أنفسكم هكذا ليقتل الطائع منكم العاصي، ليطهره ويطهر نفسه، إنّ النفس التي فقدت شفافية العبودية لله، وتلطخت بعبادة العجل لنفس تحتاج إلى قتلٍ وإيلام وتكليفٍ شاق، فالتربية لا بد لها من قسوة، تتناسب مع قسوة القلب ووضاعة النفس.

فقلوب بني إسرائيل كانت صلدة جافة، ونفوسهم خسيسة وهي «جينات» متوارثة عندهم، فما يفعلونه اليوم هو بفعل «جيناتهم» الوراثية من قبل فهم بين نفسٍ هوت إلى عبادة العجل، ونفسٍ خوّارة سكتت ولم تتناهى عن المنكر، ولو تناهوا عن الظلم ما عبدوا العِجل، وإن لم يُجدِ الكلام فليبرز الحسام، ومن لم يرتدع بالحسام فلتطهره آيات رب العباد، ومن لا يخاف الوعيد فموعده جهنم وبئس المصير.

إنَّ في قصصهم عبرة لكل معتبر ولذلك كانت يهود وراء إضعاف اللغة العربية وتنشيط اللهجات العاميَّة، وإبراز الدين بأنَّه عبادات وصلوات فحسب، واستطاعت يهود بمكرها ودهائها أن تجعلنا وإيَّاها سواسية في تعطيل كتب الله، حتى غدا المسلمون اليوم يتلون القرآن أمانيّ ولا يفقهون ما يتلون وما يُردّدون، لقد غابت عنّا العبر في قصصهم، ولقد قصَّها الله علينا لا حباً بهم وإنما تحذيراً لنا وتبياناً حتى لا تنزلق أقدامنا في مزالقهم، ولكن كثيراً من المسلمين أبَوا إلا الانزلاق. أفسدوا المرأة المسلمة فتزيّنت للمساجد وتبرّجت للرجال وعدمت الجديّة بالقول والعمل وأصبحت دمية تظهر بالقصير الفاضح، وتغيب بالبنطلون غير الساتر، وتفنّنت بإبراز مفاتن جسدها، وهيهات هيهات لمثل هذه أن تربي، وأن تُخرّج رجالاً. إنّ عالمنا الإسلامي يعجُّ اليوم بالظالمين الذين يعبد بعضهم بعضاً من دون الله حتى خبت جذوة الدين وذهبت ريح المسلمين قتلت يهود أنبياءها وقتلنا دعاتنا، قرأت يهود توراتها أماني، فقرأنا قرآننا للبركة وفي المآتم والتعازي، اتخذت نساءهم وصلة الشعر كذباً وتدليساً، واتخذت نساؤنا شعراً وظفراً وعيناً وثدياً

وأهداب العيون، وما أكثر أوجه الشبه، غير أن الرعاية الإلهية اختلفت، تعهَّد الله بحفظ قرآننا، وبشّرنا بأنّه لا تزال في أمتنا طائفة قائمة على الحق لا يضرها من خالفها، فعندنا نساء بعن نفوسهن لله، كما باعت نسيبة رضي الله عنها من قبل، وأنجبن رجالاً يقذفن بهم في ساحات الجهاد وفي رحاب المساجد، وعندنا مجدّدون يُجدّدون لنا ديننا، ويمسحون عنه الزيف والجدل ويعيدون للنصوص بريقها ويزيحون رمال يهود التي تُذريها في العيون لتعمّي الرؤيا، ويمضي الحق والشعلة لا تنطفىء رغم النفخ المستمر ورغم الأبواق الناعقة ورغم المشانق المعدَّة، ولتعلم يهود وغلمانها أنَّ الأمر مختلف وأنَّ الدين عند الله الإسلام.

إنّ ذهاب ريح المسلمين اليوم، وإبعادهم عن دور الريادة، من المسؤول عنه أمام الله؟ كلنا مسؤولون، وكلنا محاسبون، إنّ بني إسرائيل لم يعبدُ كلهم العجل ولكن الضريبة الشاقة دفعها الجميع، فالساكت عن الحق شيطانٌ أخرس، إنّه لا بد من الأخذ على أيدي الظالمين، لتعود الأمور إلى نصابها.

ففي قتل بني إسرائيل بعضهم بعضاً، كان تعذيب جسدي ومعنوي، حيث أصبحت الأمة كلها بين قاتلٍ أو مقتول، حيث يقتل الأخ أخاه والولد أباه، وهكذا نزلت توبتهم عنيفةً عنف نفوسهم، ومُرةً كمرارتها.

وتطهرت يهود وزال عنصر الشر، وبقي التوّابون المتطهّرون، ولكن بني إسرائيل هم يهود، ويهود هم بنو إسرائيل، وهم أنفسهم بنو صهيون، تبلدٌ في الحس، وطمسٌ في الفكر، تخيَّر موسى عليه السلام منهم سبعين رجلاً لميقات ربه حسب الموعد الذي واعده إياه ليناجيه عند جبل الطور، ولكنّ التائبين الأطهار قالوا: لن نؤمن لك حتى نرى الله جهرة فأخذتهم الصاعقة، إنّه العنت والسوء الذي توارثه الأبناء عن الآباء، إنّ حياة الذل التي عاشوها تحت حكم الفراعنة الطغاة قد أفسدت فطرتهم فساداً عميقاً فغرست فيهم طباع العبيد، استخذاءاً تحت سوط الجلاد، وتمرداً حين يُرفع عنها السَّوط، وتبطّراً حين يُتاح لها شيءٌ من النعمة والقوة. وبهذه النفسية

وبهذه العقلية استقبلت يهود خاتم المرسلين ﷺ وكادت له ولدعوته الكيد اللئيم، ولن تشذّ عن هذه القاعدة. فإبليس أقسم أن لا يسلم أحدٌ من غوايته، ويهود أقسمت أن لا تترك أحداً من شرها، وما فعلته وتفعله في المسلمين، وفي بيوت الله شاهدٌ صدق لكل ذي بصيرة، ولا يؤدبها إلا ضربات المجاهدين في سبيل الله، إنهم هناك مرابطون في بيت المقدس وأكناف بيت المقدس، إنّهم الطائفة المختارة التي بشّر بها رسول الله ﷺ المؤمنين ليلحقوا بهم، وأخبر عنهم لكيلا تُطمس هويتهم وتضيع رايتهم، وقد علم عليه الصلاة والسلام أن الرايات كثيرة وأنّ دعاةً من أبناء جلدتنا ويتكلمون بألسنتنا دعاةٌ على أبواب جهنم، يستترون بآية أو حديث، ويختفون وراء عمامةٍ أو جلبابٍ وحجاب. إن يهود تقلّبت وتلوّنت أمام ضربات الله عز وجل، فأخذتهم الصاعقة ووقع بهم الهلاك لولا أمر الله، ثم بعثناكم من بعد موتكم لعلكم تشكرون، إنّها المواقف التربوية والإعذار الربّاني ﴿لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةٌۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِ﴾[1]. ثم بعثهم وظلّل عليهم الغمام ووقاهم هجير الصحراء وحرَّ الشمس المحرقة وأخرج لهم المنّ يجدونه على الشجر حلواً كالعسل، وسخر لهم السلوى طائر السُمّاني يحط ويرتفع، قريب المنال، فتوافر لهم المقام المريح والطعام اللذيذ، أتُراهم شكروا النعمة؟ واهتدوا إلى العبودية الحقة لله رب العالمين!!

كلاّ ما اهتدت يهود ولن تهتدي، إنّ من الناس من يقرأ هذه العبر وفي نفسه اعوجاجٌ مشابه، ولكنه فقد الشفافية والإحساس المرهف الذي يجعله يقف من نفسه موقف المعاتب لها، ومن أجل هذا فرض الله عز وجل التدبر في القرآن، وقال: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ ﴿٢٤﴾﴾[2]. كان أصحاب رسول الله ﷺ، يقرؤون القرآن فيتلاومون هذا يقول: أنا المقصود بهذه الآية وآخر يقول فيَّ والله نزلت، وكل واحدٍ منهم يظنُّ أن جهنَّم سُعّرت له، وأنَّ الصراط ضرب له وحده، وهذا شأن أصحاب الضمائر الحية.

---

(١) سورة آل عمران: الآية ١٦٥.

(٢) سورة محمد: الآية ٣٤.

كان عمر ﷺ يقول: (لو نادى منادٍ أن كل الناس يدخلون الجنة إلا واحداً لظننت أنّي ذلك الواحد). نفوس أيّد الله بها هذا الدين، وخرَّج من أصلابهم رجالاً بهم تتواصل حلقات الخير إلى أن تقوم الساعة.

الفوائد التربوية:

١ ـ إنَّ مما يُفسد التربية كثرة الضرب وإذلال الطفل وتأنيبه أمام الناس يُتلف شخصيّته.

٢ ـ على الناس أن يربُّوا أنفسهم ومن تحت أيديهم، عند كل موقف نعمةٍ وفضل من الله، وما أكثر المواقف ﴿وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ﴾[(١)].

٣ ـ الفزع إلى التوبة بعد كل ذنب، وأداء الشكر لله عز وجل أن جعل توبتنا ركعتين نناجيه وندعوه ونستغفره، ثم نجدد العزيمة ونغذي الإرادة لتنهض من جديد.

٤ ـ عند قراءة القرآن ودراسة التفسير يُستحب للإنسان ولمن يُربّيه أن يعوّده النية والإخلاص، وسؤال الله الهداية والثبات، لأنه ثبت أنّ بالنيّات تتحول العادات إلى عبادات، فيؤجر الإنسان وتكون أرجى لإجابة الدعاء وأشبه بالإقبال على الله.

٥ ـ تعظيم أمر الله في نفس الطفل حتى تصفو نفسه، فيعظّم الله وينزهه، فيترفع حتى عن حديث النفس فتقع الخشية من الله في قلبه.

٦ ـ ربط الطفل بالقرآن، فكلما صدر منه سوء تصرف، يُربط بحال بني إسرائيل، وأنَّ الله غضب عليهم. أولاً: لبغضهم، وثانياً: لينفر من عادات السوء التي تمثَّلت بهذا العدو اللئيم.

﴿وَإِذْ قُلْنَا ٱدْخُلُواْ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةَ فَكُلُواْ مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ رَغَدًا وَٱدْخُلُواْ ٱلْبَابَ سُجَّدًا وَقُولُواْ حِطَّةٌ نَّغْفِرْ لَكُمْ خَطَٰيَٰكُمْ وَسَنَزِيدُ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٥٨﴾ فَبَدَّلَ ٱلَّذِينَ

---

(١) سورة إبراهيم: الآية ٣٤.

ظَلَمُوا قَوْلًا غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ فَأَنزَلْنَا عَلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا رِجْزًا مِّنَ السَّمَاءِ بِمَا
كَانُوا يَفْسُقُونَ ﴿٥٩﴾ ۞ وَإِذِ اسْتَسْقَىٰ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ فَقُلْنَا اضْرِب بِّعَصَاكَ الْحَجَرَ
فَانفَجَرَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْ كُلُوا وَاشْرَبُوا مِن
رِّزْقِ اللَّهِ وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٦٠﴾ وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَىٰ لَن نَّصْبِرَ عَلَىٰ
طَعَامٍ وَاحِدٍ فَادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُنبِتُ الْأَرْضُ مِن بَقْلِهَا وَقِثَّائِهَا وَفُومِهَا
وَعَدَسِهَا وَبَصَلِهَا قَالَ أَتَسْتَبْدِلُونَ الَّذِي هُوَ أَدْنَىٰ بِالَّذِي هُوَ خَيْرٌ اهْبِطُوا مِصْرًا فَإِنَّ
لَكُم مَّا سَأَلْتُمْ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ وَالْمَسْكَنَةُ وَبَاءُوا بِغَضَبٍ مِّنَ اللَّهِ ذَٰلِكَ
بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ الْحَقِّ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا
وَّكَانُوا يَعْتَدُونَ ﴿٦١﴾ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالنَّصَارَىٰ وَالصَّابِئِينَ مَنْ
آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ
وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُم
بِقُوَّةٍ وَاذْكُرُوا مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿٦٣﴾ ثُمَّ تَوَلَّيْتُم مِّن بَعْدِ ذَٰلِكَ فَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ
عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ لَكُنتُم مِّنَ الْخَاسِرِينَ ﴿٦٤﴾ وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ الَّذِينَ اعْتَدَوْا مِنكُمْ فِي السَّبْتِ
فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ ﴿٦٥﴾ فَجَعَلْنَاهَا نَكَالًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهَا وَمَا خَلْفَهَا
وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٦٦﴾﴾.

المفردات:

الطور: الجبل الذي كلّم الله عليه موسى عليه السلام.

تعثوا: تطغوا بالإفساد. **رغداً**: هنيئاً

خاسئين: ذليلين. **يفسقون**: يخرجون عن الطاعة.

نكالاً: عقوبة وجزاءً. **باءوا**: وقع بهم غضب الله.

القرية: بيت المقدس. **النصارى**: أتباع عيسى عليه السلام.

فومها: الفوم: الحنطة أو الحبوب. **هادوا**: اليهود.

استسقى: طلب الماء وسأل الله السقيا. **أدنى**: أحقر.

حطة: كلمة دعاء أي حطّ عنا خطايانا. **رجزاً**: عذاباً.

الصابئين: اختلف المفسرون فيهم وأظهر الأقوال أنهم أهل دين، وليس لهم كتاب ولا نبي ويصلون للقبلة.

الدراسة التربوية:

تعطشت اليهود للاستقرار وطلبت ذلك من موسى عليه السلام فقال لهم موسى عليه السلام: إن الله يأمركم أن تدخلوا مدينة بيت المقدس التي كانت مسكن العمالقة، وذلك بعد تلقي الدروس التربوية، ولكنَّ القوم هُمُ القوم جحدوا و ﴿قَالُوا۟ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّا لَن نَّدْخُلَهَآ أَبَدًا مَّا دَامُوا۟ فِيهَا ۖ فَٱذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَٰتِلَآ إِنَّا هَٰهُنَا قَٰعِدُونَ ﴿٢٤﴾﴾[1] فغضب الله عليهم وعاقبهم بالتيه أربعين سنة.

ومات موسى عليه السلام ولم ير منهم ما تقرّ به عينه، ما رأى وما سمع إلا التبجح، ومات موسى عليه السلام ودفن هناك قريباً من بيت المقدس، وقد عُمِّي عليهم قبره لأنهم ما برّوا به لا حيّاً ولا ميتاً. ونشأ جيلٌ جديد تولاّهم يوشع بن نون بعد موسى عليه السلام، وأُمروا بدخول القرية المقدسة مرةً أخرى، ولكن هل هناك تغاير بين الجيل القديم والجيل الجديد؟!!

كلا إنهم جبلةٌ واحدة، وذريةٌ واحدة، توارثوا الفسوق والجدل والعصيان ﴿وَإِذْ قُلْنَا ٱدْخُلُوا۟ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةَ فَكُلُوا۟ مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ رَغَدًا وَٱدْخُلُوا۟ ٱلْبَابَ سُجَّدًا وَقُولُوا۟ حِطَّةٌ نَّغْفِرْ لَكُمْ خَطَٰيَٰكُمْ ۚ وَسَنَزِيدُ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٥٨﴾﴾ ولكنهم دخلوا مغيّرين ومبدّلين، لم يدخلوا سجداً، ولم يقولوا بما أُمروا به، بل دخلوا كما جاء في صحيح مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**قيل لبني إسرائيل ادخلوا الباب سجداً وقولوا حطة يُغفر لكم خطاياكم فبدّلوا، فدخلوا يزحفون على أستاهم وقالوا: حبةٌ في شعرة**»[2] هكذا وبغير معنى إلا أنه العصيان والتمرد، ﴿فَأَنزَلْنَا عَلَى ٱلَّذِينَ

(١) سورة المائدة: الآية ٢٤.

(٢) صحيح مسلم، كتاب التفسير، رقم ـ ٥٣٣٠ ـ.

ظَلَمُوا۟ رِجْزًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ﴾ ونزل بهم الرجز والعذاب وكان عذابهم بالطاعون، وذكر بعض المفسرين أنه نزل بهم عذابٌ معنوي والأظهر أنه الطاعون حيث العذاب المادي المحسوس، لأنَّ يهود لا مشاعر لها حتى ترتدع بالعذاب المعنوي، ولذلك كان الأخذ الأليم، وقيل أنه مات منهم في ساعة واحدة سبعون ألفاً بالطاعون والله أعلم، وعن أسامة بن زيد ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: **«الطاعون بقية رجز أو عذاب أرسل على طائفة من بني إسرائيل، فإذا وقع بأرض وأنتم بها فلا تخرجوا منها فراراً منه، وإذا وقع بأرض ولستم بها فلا تهبطوا عليها»**(١).

﴿۞ وَإِذِ ٱسْتَسْقَىٰ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ فَقُلْنَا ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْحَجَرَ ۖ فَٱنفَجَرَتْ مِنْهُ ٱثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا ۖ قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْ ۖ كُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ مِن رِّزْقِ ٱللَّهِ وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٦٠﴾﴾.

إنّ الذي ظللهم بالغمام وسخّر لهم الطير وأنعم عليهم بالطعام هو الله الذي فجّر لهم من الحجر عيوناً، إنَّ عيناً واحدة تكفي، ولكن يهود لا تتآلف حتى مع بعضها، ففجّر لهم من الحجر عيوناً بعددهم، وكانوا اثني عشر سبطاً، فكان لكل فرقةٍ منهم عين يشربون منها، والأسباط هم أولاد يعقوب عليه السلام، وهم رؤوس قبائل بني إسرائيل، وكان للحجر أربعة أوجه. وفي كل وجه ثلاثة عيون لئلا يخالط بعضهم بعضاً، حيث شح النفس وضيق الصدر، وكم من مرة جدَّد الله لهم النعم ليرفعهم من المهانة والحقارة التي هي سمتهم وطبيعتهم، ولكن للحرية ثمن وللعزة تكاليف وللأمانة فداء، فهم ليسوا أهلاً لهذا كله إنهم غثاءٌ هابط، يتطلعون إلى العدس والبصل ويزحفون ولا يركعون، يعبدون العجل ويعدلون عن عبادة العزيز الجليل، يتنكرون للنعم والرزق والخير لأنهم ضجرين نكدين يعثون في الأرض مفسدين.

﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يَـٰمُوسَىٰ لَن نَّصْبِرَ عَلَىٰ طَعَامٍ وَٰحِدٍ فَٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا

(١) متفق عليه، سلسلة الأحاديث الصحيحة، رقم ـ ٣٩٤٥ ـ.

تُنۢبِتُ ٱلْأَرْضُ مِنۢ بَقْلِهَا وَقِثَّآئِهَا وَفُومِهَا وَعَدَسِهَا وَبَصَلِهَا ۖ قَالَ أَتَسْتَبْدِلُونَ ٱلَّذِى هُوَ أَدْنَىٰ بِٱلَّذِى هُوَ خَيْرٌ ۚ ٱهْبِطُوا۟ مِصْرًا فَإِنَّ لَكُم مَّا سَأَلْتُمْ ۗ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلذِّلَّةُ وَٱلْمَسْكَنَةُ وَبَآءُو بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ ۗ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَيَقْتُلُونَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ ۗ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا۟ وَّكَانُوا۟ يَعْتَدُونَ (٦١)﴾.

هذه لفتة تربوية أقرها الرسل الكرام ومنهم موسى عليه السلام، الذي قال الله له: ﴿وَٱصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِى (٤١)﴾[١] ﴿وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِىٓ﴾[٢] شاهدٌ على تبجّح بني إسرائيل وشططهم وسوء أدبهم في سياق الكلام، فهم لم يقدروا نعم الله الوافرة ولم يعتذروا عن الميل إلى سواها، ولكن بمنتهى السقوط يقولون ادع لنا ربك فهم يسخّرون نبيهم لما يريدون وليسأل ربه، وأما هم فلا شأن لهم بالله عز وجل، وكأنّ جبلتهم السافلة لا يليق بها الدينونة لهذا الرب الجليل، فهم نافرون أبداً فارّون إلى حيث لا لقاء مع الله ولا بالدعاء. وينظر إليهم موسى عليه السلام، ويخاطبهم مؤنّباً، ما هذا الحس المغمور والذوق المعدوم، أتستبدلون الذي هو أدنى بالذي هو خير، طبيعة تتطلع إلى الدنيء الممنوع رغم ما بيدها من الخير الرفيع، ولكن من كان هذا شأنه فلا يحتاج إلى دعاء، اهبطوا مصر ودعوا الأمور العظام التي انتُدبتم لها، وارجعوا إلى حياة الخنوع والذل.

إنها المحاولات التربوية، والمعالجات الربّانية، وإنَّ واحداً من البشر مهما أوتي من الحكمة والبصيرة لا يمكن أن يهتدي إلى تلك الأساليب التربوية التي سنّها الله رب العالمين ﴿فَسْـَٔلْ بِهِۦ خَبِيرًا﴾[٣] إنّ الأحداث في الآيات متوالية رغم أنَّ بينها فواصل زمنية من الناحية التاريخية. ما يُعطي المتأمّل مدى الصبر والإمهال الذي أمدهم الله عز وجل به والرقابة المستمرة، والعلم المحيط بهم، وصبَّر عليهم نبيه الكليم، إن اسم الله عز وجل الصبور يفيض بالصبر والمصابرة وكما ورد في الحديث (إن الله يمهل ولا يهمل).

---

(١) سورة طه: الآية ٤١.

(٢) سورة طه: الآية ٣٩.

(٣) سورة الفرقان: الآية ٥٩.

إنَّ ضرب الذلة والمسكنة على بني إسرائيل لم يكن إلا في نهاية المطاف، وعندما لم يعد يُرتجى فيهم بصيص أملٍ من خير، وكان هذا العقاب جزاءً موفوراً لكبائر الإجرام التي اقترفوها حيث أقدموا على قتل النبيين بغير الحق، ومعصية الله ورسوله بجرأةٍ وسوء طوية، والاعتداء على حدود الله.

إنَّ المتأمل في حال الأمم، لن يجد أمة بين الأمم جميعها مثل بني إسرائيل وما من أمة يحمل فيها الأبناء طابع الأجداد مثل بني إسرائيل، فالقسوة والجحود والاعتداء والتنكر والمكر والخبث والإساءة للهداة المصلحين، صفاتٌ طالعنا القرآن الكريم على صورٍ مخزية من تاريخ هؤلاء اليهود، فقد قتلوا وذبحوا ونشروا بالمناشير عدداً من أنبيائهم الذين صابروا على طول التجربة الدعوية التي أراد الله أن يفضّل بها بني إسرائيل، ولكن أبَوا إلا أن يرعَوا مع الهمل، وما من أذى يلحق بالدعاة اليوم والمصلحين إلا وليهود فيه سبب، وما من جريمةٍ تُرتكب إلا وفيها فتيلٌ من فعالهم.

ومع ذلك فهم أصحاب دعاوي عريضة، يتظلمون بأنّهم المظلومون، ويتمسكنون بأنّهم المحرومون، فلا شرف لهم ولا كرامة، يمتهنون نساءهم لتحقيق مآربهم الخسيسة، ثم يتعالون ويتشدقون بأنّهم شعب الله المختار، وأن الفضل لهم وحدهم، ولكنّ القرآن الكريم يكذبهم، ويقرر القاعدة الإيمانية العريضة بأن أهل الفضل هم الرسل الكرام ومن ورائهم الدعاة إلى الله، وأنَّ هؤلاء المفسدين هم دعاة جهنم وعليها يتواردون، والشياطين تؤزهم ومن والاهم، وفي دركات الجحيم هم خالدون. وعن عبد الله بن مسعود ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «**أشد الناس عذاباً يوم القيامة رجلٌ قتله نبي، أو قتل نبياً، وإمام ضلالة وممثلٌ من الممثلين**»[1] الممثل هو الذي يمثل في القتلى بعد قتلهم كجدع أنوفهم، وقد نهى رسول الله ﷺ عن المثلة.

(١) مسند الإمام أحمد، كتاب المكثرين من الصحابة، رقم - ٣٦٧٤ -.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱلَّذِينَ هَادُوا۟ وَٱلنَّصَٰرَىٰ وَٱلصَّٰبِـِٔينَ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾﴾.

ذكر الواحدي أنّ هذه الآية نزلت في سلمان الفارسي رضي الله عنه، عندما قدم على رسول الله ﷺ، جعل يخبره عن عبادة أصحابه واجتهادهم، وقال: يا رسول الله كانوا يصلون ويصومون ويؤمنون بك، ويشهدون أنك تبعث نبياً، فلما فرغ سلمان من ثنائه عليهم، قال رسول الله ﷺ، يا سلمان هم من أهل النار، فأنزل الله عز وجل قوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱلَّذِينَ هَادُوا۟ وَٱلنَّصَٰرَىٰ وَٱلصَّٰبِـِٔينَ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾﴾ إلى قوله ﴿وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾.

فالكرامة الربّانية ليست لجنس أو لون، وإنما الميزان العادل ميزان التقوى والصلاح، وفي القرآن الكريم أثبت الله عز وجل القاعدة الأصولية ﴿إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ﴾[(١)] وقال: ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ﴾[(٢)].

ثم تعود الجولة بمزيدٍ من العبر في صفحات بني إسرائيل.

﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ ٱلطُّورَ خُذُوا۟ مَآ ءَاتَيْنَٰكُم بِقُوَّةٍ وَٱذْكُرُوا۟ مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿٦٣﴾﴾.

يذكرهم الله بيوم الميثاق والعهود، ورفع أكف الضراعة عند الشدة والكرب والتوبة والأوبة، ولكن يهود بكفرهم وعنادهم يعودون إلى ما جبلوا عليه من العنت، يذكرهم بالطور والمعجزة الشاهدة هناك قريباً من الجبل الذي كلم الله عليه موسى عليه السلام، وكان التكليف ﴿خُذُوا۟ مَآ ءَاتَيْنَٰكُم بِقُوَّةٍ وَٱذْكُرُوا۟ مَا فِيهِ﴾ فإيجابيات التكليف الأخذ والذكر، فالأخذ يتطلب الفهم والعمل، والذكر يتطلب الثبات والإخلاص والتبليغ، وبهما تتحقق

---

(١) سورة آل عمران: الآية ١٩.

(٢) سورة آل عمران: الآية ٨٥.

التقوى ويكون التمكين، وفي كل مرة تُحمل شرائع الله بغير فهم وبدون فقهٍ تحيق سنة الله بالأمة ﴿فَحَقَّ عَلَيْهَا ٱلْقَوْلُ فَدَمَّرْنَٰهَا تَدْمِيرًا﴾[1]، وروى الترمذي عن أبي الدرداء ﷺ أنه قال: كنا مع النبي ﷺ فشخص ببصره إلى السماء، فقال: «**هذا أوانٌ يُختلس العلم فيه من الناس حتى لا يقدروا منه على شيء**»، فقال زياد بن لبيد الأنصاري: كيف يُختلس منّا؟ وقد قرأنا القرآن، فوالله لنقرأنّه، ولنقرئنّه نساءنا وأبناءنا، فقال: «**ثكلتك أمك يا زياد، إن كنت لأعدّك من فقهاء المدينة، هذه التوراة والإنجيل عند اليهود والنصارى، فماذا تغني عنهم!!**»[2] فلا بدّ من إحياء القاعدة الربّانية في كتاب الله «إيمان وإخلاص، ومدارسة وعمل، وشعور بمسؤولية التكليف، وحبٌّ عميق يحرك المشاعر ويطلق الجوارح».

ولكن يهود نكصت وتولت وأعرضت ﴿فَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ لَكُنتُم مِّنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ فلا زال هناك جولة، ولا زال هناك درسٌ تربوي، وعلاجٌ ربّاني، إنّ الله تجاوز عنكم وغمركم بفضله ورحمته حتى يبلغ أمره، ويكشف جوانب السوء فيكم، لئلا يسلب نعمة الرسالة منكم إلا بحق، ولا يحل غضبه عليكم إلا بما تعملون، وما يوم السبت منكم ببعيد، يوم تطلّعتم وتشوّقتم إلى يوم عبادة يوم عيد وقربى إلى الله، فأجابكم إلى طلبكم وأنعم عليكم، ولكنكم تنكبتم الطريق ونكثتم العهد وعصيتم، وما القصة عنكم غائبة والاعتداء طبعكم، ولذلك نزلت بكم البطشة الكبرى، ووقع المسخ واللعن. إنّ اليهود افتقدوا عنصرين تربويين من عناصر الدعاة العاملين؛ الإخلاص والثبات، وما تخلخل هذان العنصران في أحدٍ إلا سقط وكان من الخاسرين.

إنّ نفوس اليهود نفوس وضيعةٌ شحيحة تتطلع لما في أيدي غيرها، وتتطلع إلى المكرمات وهم ليسوا أهلاً لها. طلبوا العيد فامتحنهم الله عز وجل ليقيم عليهم الحجة، وجعل لهم يوم السبت يوم عيد، وأمرهم أن لا

---

(١) سورة الإسراء: الآية ١٦.

(٢) حديث صحيح، رواه الترمذي في كتاب العلم، رقم ـ **٢٥٧٧** ـ.

يصطادوا فيه ولا يمارسون شيئاً من أمور دنياهم، وأن يتفرغوا فيه للعبادة، تكليفٌ وتطويعٌ للنفس إلى خالقها، ولكن أنّى ليهود أن تسمع وتطيع، بل راغت روغان الثعلب واستحلت محارم الله بأدنى الحيل، فشدّد الله عليهم، وأقام عليهم الحجة والبرهان، فجعل الحيتان تأتيهم يوم سبتهم شرّعاً، فخارت يهود وانتهكت الحرمات وألقت شباكها على الحيتان يوم السبت لتستخرجها يوم الأحد.

إنّ الإنسان الذي لا عهد له ولا إرادة بهيمةٌ ترتع في عالم البهائم، ومن أجل ذلك وقع بهم العقاب الذي يُلائم تلك النفوس، ﴿**فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ**﴾ إنها عقوبةٌ وتنكيلٍ لمن كان حاضراً ولمن سيأتي بعدهم، وذكرى وموعظة للمتقين الذي أُنزل عليهم هذا القرآن، إنّ الموعظة هي الغاية من سرد القصة وهي الهدف التربوي من قصص بني إسرائيل، إنّ ما وقع لبني إسرائيل نتيجة حتمية في كل مرة يغيب الإخلاص ويُفتقد الثبات، وكذلك عندما تنعدم رياض العلم عند المربين الثقاة، ويحصل التفلت من زمام الجماعة، فيتحرك نذير الخطر بسوء العاقبة، ومؤشر الاقتراب من النهاية. وروى عمران بن الحصين ﷺ عن النبي ﷺ أنه قال: «**سيكون في أمتي خسفٌ وقذفٌ ومسخ**»، قيل: يا رسول الله متى؟ قال: «**إذا ظهرت المعازف والقيان، واستحلت الخمور**»[(١)].

وقد ورد في الأثر: أنّ الممسوخ لا ينسل، ولا يأكل، ولا يشرب، ولا يعيش أكثر من ثلاثة أيامٍ، والله أعلم.

الفوائد التربوية:

١ ـ الطاعة ثمرة إيمانية تجلب المغفرة وهي دليل المحبة.

٢ ـ كثرة السؤال وكثرة التذمر والشكاية وإظهار الملل، هذه كلها مقومات العسر في الخُلق، والعسر طبعٌ يبغضه رسول الله ﷺ وينفِّر منه

(١) سنن الترمذي كتاب الفتن، رقم ـ ٢١٣٨ ـ، وقال حديثٌ صحيح.

وأوصى صاحباه بقوله: «**يسِّرا ولا تعسِّرا**».

٣ ـ اليسر في الأمور قد يكون طبعاً في الإنسان، وإن لم يكن فيُهَذب الإنسان عليه، فيُعين الرجل زوجته ليكون اليسر هو الأصل في شؤون حياتهم، وكذلك الزوجة لزوجها، وتُعوِّده الأم والمربون لأطفالهم، ويُعلَّم الطفل والكبير اليسر في الحياة حتى يرضى بالقليل ويشكر عليه.

٤ ـ من المبادىء التربوية أن يستعرض الإنسان نعم الله عليه، وتسأل الأم أطفالها ما جزاء هذه النعم الكثيرة؟ حتى يُقر الطفل بأنّ جزاءها الشكر، ومعنى الشكر طاعة الله، ونقول لهم: إنّ يهود لا تشكر الله فغضب الله عليهم.

٥ ـ ربط كل سلوكٍ مشين من كثرة سؤال أو إعابة الطعام أو إفسادٍ في أثاث البيت والألعاب أو بعثرةٍ في الطعام، ونثر الأوساخ بسلوك اليهود، ويُنبهوا عليها الأطفال بقول: ﴿وَلَا تَعْثَوْاْ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴾[1] وهذا التأنيب يربط الطفل بالقصص القرآني، وعقاب هذا السلوك الحرمان من شيء يحبه ويتمناه.

٦ ـ لا بأس أن يُعاقب الطفل بالحرمان إن لم يرض بالقليل، فكيف بالطفل الذي لا يرض بالكثير المتنوع؟ ويجدر بالأم أو المربي أن يقرر الطفل ويسأله لماذا عوقب بالحرمان؟ حتى تكون إجابته واضحة وتُعلمُه أمه أنّها حرمته لتؤدبه، وهو خيرٌ له من حرمان الله له في الآخرة، وتحكي له كيف حرم الله اليهود شرف النبوة، ومن ثَمَّ حرَّم عليهم الجنَّة نتيجة اللجاجة التي كانت خُلقاً لهم.

٧ ـ الإسلام يكره العصبيات والقوميات بين المسلمين، فتنبه الأم أولادها لأن يكون حبهم للناس على أساس التقوى، وتغرس فيهم مبدأ لا تصاحب إلا مؤمناً ولا يأكل طعامك إلا تقي.

٨ ـ الحيلة والتلاعب دليل خبث طوية وفساد قلب، والحيلة في تلوين

---

(١) سورة البقرة: الآية ٦٠.

الحرام بالحلال كانت سبباً في مسخ بني إسرائيل إلى قردة وخنازير. وهذا الخُلق ـ خُلق التحايل ـ يكتسبه الطفل غالباً من أهله ويُشكر عليه، فيتعلمه ويُجيده، وتُطلق عليه الأم الجاهلة ذكاء أو دهاء أو حسن تصرف، وهذا كله ليس من التربية في شيء، فالاحتيال خلقٌ سيء وهو ضد الاستقامة التي أُمرنا بها في صريح الآيات ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَـٰمُواْ﴾[1] وقد سقطت المرأة المسلمة في مسرحية الاحتيال في حكم تنميص الحاجب، وما شابهه من أحكام تتعارض مع الشهوات.

٩ ـ إنّ الأم أو المربي هو المسؤول الأول عن ممارسة الحيلة في حياة الأطفال، وتبدأ باحتيال الأم على الأب وعدم التعامل في البيت باستقامة، وهذه الفتاة أو الابن الذي يتربى في مثل هذا الجو لن يكون ولداً صالحاً يدعو لأهله. فالوالدان هم الإدارة التربوية في البيت، وإذا وقع الاحتيال في أمر الدين كان ذنبه أعظم، والتعرض فيه لغضب الله أكثر، وهو الذي وُصف به بنو إسرائيل بأنهم اعتدوا على حدود الله العزيز الجليل.

١٠ ـ الحيلة تكون هداية ربانية للمجاهد في سبيل الله يهديه الله إليها لينصر جنده ﴿وَٱلَّذِينَ جَـٰهَدُواْ فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَاۚ﴾[2] وهذه لا تكون خُلق في المجاهد ولا سجيّة ولكن توفيق من الله ورحمة.

١١ ـ نلاحظ في سبب النزول إصغاء النبي ﷺ لسلمان رضي الله عنه حتى إذا فرغ من حديثه، بيّن له الحق، وهذا دليل أدب جمّ من النبي ﷺ في أدب الاستماع.

﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦٓ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تَذْبَحُواْ بَقَرَةًۖ قَالُوٓاْ أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًاۖ قَالَ أَعُوذُ بِٱللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْجَـٰهِلِينَ ﴿٦٧﴾ قَالُواْ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِىَۚ قَالَ إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَّا فَارِضٌ وَلَا بِكْرٌ عَوَانٌۢ بَيْنَ ذَٰلِكَۖ فَٱفْعَلُواْ مَا تُؤْمَرُونَ ﴿٦٨﴾ قَالُواْ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا لَوْنُهَاۚ قَالَ إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا

---

(١) سورة فصلت: الآية ٣٠.

(٢) سورة العنكبوت: الآية ٦٩.

بَقَرَةٌ صَفْرَآءُ فَاقِعٌ لَّوْنُهَا تَسُرُّ ٱلنَّـٰظِرِينَ ﴿٦٩﴾ قَالُوا۟ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا
هِىَ إِنَّ ٱلْبَقَرَ تَشَـٰبَهَ عَلَيْنَا وَإِنَّآ إِن شَآءَ ٱللَّهُ لَمُهْتَدُونَ ﴿٧٠﴾ قَالَ إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا
بَقَرَةٌ لَّا ذَلُولٌ تُثِيرُ ٱلْأَرْضَ وَلَا تَسْقِى ٱلْحَرْثَ مُسَلَّمَةٌ لَّا شِيَةَ فِيهَا ۚ قَالُوا۟ ٱلْـَٔـٰنَ جِئْتَ
بِٱلْحَقِّ ۚ فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُوا۟ يَفْعَلُونَ ﴿٧١﴾ وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا فَٱدَّٰرَْٰٔتُمْ فِيهَا ۖ وَٱللَّهُ مُخْرِجٌ
مَّا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ ﴿٧٢﴾ فَقُلْنَا ٱضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا ۚ كَذَٰلِكَ يُحْىِ ٱللَّهُ ٱلْمَوْتَىٰ وَيُرِيكُمْ
ءَايَـٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٧٣﴾ ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ فَهِىَ كَٱلْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ
قَسْوَةً ۚ وَإِنَّ مِنَ ٱلْحِجَارَةِ لَمَا يَنفَجِرُ مِنْهُ ٱلْأَنْهَـٰرُ ۚ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ
ٱلْمَآءُ ۚ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَـٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٧٤﴾».

المفردات:

لاشية فيها: لا بياض ولا سواد يخالف لونها.

فارض: الفتيّة الصغيرة.

عوان: وسط لا كبيرة ولا صغيرة.

فاقع: شدة الصفرة.

يشقق: **يتصدع طولاً وعرضاً.**

ذلول: مذللة للعمل.

مسلَّمة: **من السلامة خالصة من العيوب.**

هزوا: أتهزأ بنا.

ادّارءتم: تنازعتم واختلفتم أو تدافعتهم.

الدراسة التربوية:

إنَّ لهذا المقطع قصة وهي أنه وجد قتيل في بني إسرائيل ولم يُعرف قاتله، فتدافع الناس واختلفوا فيمن يكون القاتل، وكعادة الناس يلجؤون في شدائدهم إلى مصلحيهم، فلجأ القوم إلى موسى عليه السلام يناشدونه أن يكتشف لهم القاتل، وكالعادة يهود تريد الحلول الجاهزة بدون تكاليف.

وحسب الأصل القرآني هو عدم الجري حول ظاهر القصة، فمن القاتل وما اسمه؟ ومن هو القتيل ولِمَ قتل؟؟ هذه الشكليات للقصة، تشبع رغبة نفسية في حب الاستطلاع، وليس هذا المقصود في القصص القرآني، إنما للقصة وقعٌ تربوي وساق الله عز وجل القصة من أجله، فالهدف التربوي هو الغاية، والأثر في الردع والاستقامة هو المطلوب.

فالقتل وقع والقاتل مجهول، وابن أخيه يلح ليعرف قاتل عمه، وموسى عليه السلام معقد الأمل ليعرف لهم الخبر اليقين، فأوحى الله إليه يأمرهم أن يذبحوا بقرة، أي بقرة، وفي مثل هذا الموقف الحرج لا يحتاج العبد إلى تلكؤ، بل يجب عليه الاستجابة والتنفيذ حال الطلب، غير أنهم قالوا: أتتخذنا هزواً؟ هكذا كان جوابهم سفاهةً وسوء أدب، واتهاماً لنبيهم بأنه يهزأ منهم ويسخر بأمر الله، وهل يجوز لأحدٍ كائنٍ من كان أن يتخذ أمر الله مادة مزاح وسخرية؟ فضلاً عن أن الموقف ليس موقف مزاح، بل الموقف موقف قتل ودماء، وكان ردُّ موسى رادعاً لهم موجهاً إلى التزام الأدب الواجب، فاستعاذ بالله، وأنَّ ما ذكروه صفة الجاهلين ولا يليق هذا بالأنبياء المرسلين.

كان عليهم أن يبادروا إلى التنفيذ ويذبحوا بقرة، أي بقرة تناولتها أيديهم، ولكن طبيعتهم في التمرد والعصيان عقلت أيديهم، فإذا هم يسألون ما هي؟؟ اسأل ربك. إنها الخشونة وسوء الأدب أهو ربه وحده! وأنتم لا شأن لكم به، إنه قال في بادىء الأمر بقرة، ولكنّه العنت وخبث الطوية، ومرة أخرى يجيبهم موسى عليه السلام بصيغة الجد لا الهزل وشأن المربي المبتلى بسفهاءٍ يؤدبهم ويربيهم، قال: إنه يقول إنها بقرة لا فارضٌ ولا بكرٌ عوانٌ بين ذلك، فليست بالعجوز المسنة ولا الصغيرة، بل وسطٌ بين ذلك، ثم يردهم بأدب وحزم: فافعلوا ما تؤمرون. لقد ردَّهم إلى الصواب مرتين، ولكن شؤم يهود العصاة يبدو بغير حياء. قالوا: ادع لنا ربك يبيِّن لنا ما لونها!!

قال: إنه يقول: إنها بقرةٌ صفراء فاقعٌ لونها تسر الناظرين، وهنا تكون الخطوة التربوية، فكلما ازدادوا سؤالاً وتردداً زادهم الله تضييقاً على أنفسهم، شدّدوا فشدّد الله عليهم، ولقد عادوا مرةً أخرى للّجاجة، فقالوا: ادع لنا ربك يبيِّن لنا ما هي؟ وليخرجوا أنفسهم من التردي وسوء الطبع عقَّبوا وقالوا: إنَّ البقر تشابه علينا، وإنا إن شاء الله لمهتدون.

قال: إنه يقول: إنها بقرةٌ لا ذلولٌ تثير الأرض ولا تسقي الحرث

مسلّمة لا شية فيها، ولكن يهود لها ظهر سوء تقرعه عصا التأديب، فلا يرعوي ولا يستجيب، وبدت علامات الشدة والتضييق والحصر وقد جلجل بها صوت الحق، إنها بقرة غير مذللة ولا مدرَّبة على سقي ولا حراثة، خالصة اللون لا تشوبها شائبة، وهنا فقط قالوا: الآن جئت بالحق فذبحوها وما كادوا يفعلون.

فللقصة جانبان، جانب تربوي يوضح لنا عاقبة المتبجّح المراوغ في تنفيذ شرع الله وأوامره، وجانبٌ آخر يرينا قدرة الله عز وجل وحقيقة البعث وطبيعة الحياة والموت لتقرَّ البشرية بأنَّ الله على كل شيءٍ قدير.

لقد كشف الله لقوم موسى عليه السلام عن الحكمة من ذبح البقرة، إنهم يلجأون إلى الله في الشدائد، ويعصونه عند الأوامر، يريدون أن يكون الله ورسوله ﷺ في خدمتهم، ولم يقدروا الله حق قدره فأراهم الله عجيب قدرته لعلهم يرجعون. إنّ القوم تدافعوا واختلفوا في إبعاد التهمة عن أنفسهم، القتيل في الأرض والعيون تدور والفزع جاثمٌ فوق الصدور، وابن أخي القتيل يخاصم ويجادل ثائراً غاضباً يُشير بأصابع الاتهام إلى القريب والبعيد، وتجلت قدرة الله ونطق القتيل، وتبارك الله الذي يُنطق كل شيءٍ متى أراد. وكان ذبح البقرة وسيلةً إلى إحيائه والله قادر على بعثه بغير وسيلة ولا بقرة إلا أن فتنة بني إسرائيل واختبار طاعتهم كانت بعض الهدف.

إنّ المسافة بين الموت والحياة مسافةٌ هائلة، ولكنها في حساب القدرة الإلهية لأمرٌ يسير، وما لا يمكن لأحدٍ إدراكه، إنّ الماهية والكيفية سرٌّ من أسرار الله الغيبيّة.

﴿وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا فَادَّارَءْتُمْ فِيهَا وَاللَّهُ مُخْرِجٌ مَّا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ ﴿٧٢﴾ فَقُلْنَا اضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا كَذَٰلِكَ يُحْيِ اللَّهُ الْمَوْتَىٰ وَيُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٧٣﴾﴾.

وهكذا وبأي جزءٍ من أجزائها لم يسمّ جزءاً بعينه ولم يسمّ من الذي يضربه بها، فهذا كله ليس من جوهر القصة، وليس الهدف التربوي منها، إنما هي المعجزة الحاصلة «عودة الحياة»، ما الذي خرج من الجثة الهامدة؟ وما الذي رجع إليها؟ الروح تلك اللطيفة التي هي من أمر الله، وهي سرٌّ لا

يملكه إلا الله، ولا يقدر عليه أحد إلا الله.

فاضربوه ببعضها، جزءٌ من البقرة الذبيح يُضرب به الرجل القتيل فتعود إليه الحياة، فيجلس ليخبر بلسانه ويشير بيده إلى ابن أخيه قاتله، وليجلوَ الشك الذي ثار بمقتله، وليصفع القاتل الذي يجيد التمثيل، إنها المعجزة وهي الحقيقة التي رأوها لتردهم إلى رشدهم، فيقدروا الله حق قدره، ولكن القرآن يُعقب على حالهم بأن لهم قلوب قاسية لا تلين لذكر الله ﴿ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ فَهِىَ كَٱلْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً ۚ وَإِنَّ مِنَ ٱلْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ ٱلْأَنْهَٰرُ ۚ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ ٱلْمَآءُ ۚ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٧٤﴾﴾.

ففي قصة البقرة عبرةٌ وعبر، وفي التعقيب القرآني تنبيه، والله مخرجٌ ما كنتم تكتمون. إن الإنسان يجعل من نفسه بئراً عميقةً يكتم فيها ما يكتم، ويُخفي فيها ما يُخفي فتناله الغفلة، فيحسب أنه قادر على التحكم بما يكتم وبما يُخفي، كلا إنها لحظة إنها ومضةٌ في موقف يُخرج الله ما كان في الكتمان، وينشر ما دار في الخفاء، ماذا تملكين أيتها النفس الجبّارة الأمّارة بالسوء، إن أنت إلا ذرة في قبضة الحي الذي لا يموت، فسلّمي واستسلمي لتسلمي.

إن الله عز وجل تعقيباً على قصة البقرة وعنت بني إسرائيل، ذكّرهم بالحجر الذي انبجست منه اثنتا عشرة عيناً والذي تفجّر من خشية الله، حيث أمره الله فأطاع، غير أن قلوب بني إسرائيل أجدب وأقسى وأعتى من الجبل الذي دُكَّ حين تجلى رب العزة له.

إن قلوبهم لا تندى ولا تلين، فهي مجدبة قاسية، كافرةٌ فاجرة والله لهم بالمرصاد وما الله بغافلٍ عما يعملون.

إن الرسول ﷺ تلا هذه الآيات ووعاها وربى أصحابه على نقيض ما كانت عليه بنو إسرائيل، فخرّج جيلاً أحبه الله ورعاه.

وبقيت الآيات وبقيت السيرة المطهّرة، ووقعت المسؤولية على المربين في البيت والمدرسة والعلماء في المساجد لتخريج جيلٍ يُعيد سير الصالحين،

يحب الله ورسله ويبغض يهود لغضب الله عليهم.

الفوائد التربوية:

١ ـ الأسلوب الأدبي في القصة وإبراز الغاية من ورودها يؤكد على إظهار العنت والجدل واللّجاجة عند اليهود، وهذه خصال ينفر منها الإنسان السوي، فضلاً عن أنها تستجلب غضب الله.

٢ ـ إنّ الله لم يقصّها علينا للتسلية، وإنما لنربي أنفسنا وأولادنا بها، فأولاً من باب أعرف عدوك، وثانياً لنرعوي عن مثل هذه الأخلاق.

٣ ـ إنّ قانون الله يمشي على الجميع، من شدّد شدّد الله عليه، ومن عسَّر عسَّر الله عليه، ولو أنّ يهود أطاعت لأجزأها أي بقرة.

٤ ـ كثير من المربين يقعون في حيرة، خاصةً أمام نوع العقاب، فلا يجدون إلا الضرب، وبعضهم يستنكرون التربويات لأنها تلوّح بالعقاب، فالضرب كما قال عليه الصلاة والسلام: «**آخر الدواء الكي**».

وهذه ألوان وأنواع من العقوبات عرضها الله عز وجل في الأسلوب التربوي ليتعلم منها الإنسان، فالطفل إذا جادل لا بدّ أن يُزاد له في التكليف، وإذا تعاسر مع إخوانه فيعاقب بالعمل كله، وهكذا.

٥ ـ إن القرآن ليس كتاب تسلية وإنما هو أداة تربوية، ومادة حية تعالج النفوس مهما عتت، ولو أنَّ الأم أو المربي يقصّ هذه القصص في أوقات التعليم والتأديب لتركت آثارها وقوّمت الاعوجاج لأنه في لحظات الغضب لا تُرسى مبادىء، ولا تُهذّب نفس.

٦ ـ تقريب مفهوم الإحياء والبعث، وتثبيت قدرة الله، مما يجعل المشاعر متفتحة، وقابلية التأثر عظيمة، فيستغل المربي هذه الفرص، ويقر في نفس المُتلقي ﴿وَٱللَّهُ مُخْرِجٌ مَّا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ﴾.

إنّ هذه الآية لها فعل عجيب، وأثر رفيع، في تربية المشاعر والارتقاء إلى منازل الإحسان والمراقبة.

٧ - إن من ثمار التربية الإيمانية الاستجابة السريعة، وكان من صفات الصحابة الكرام أنّهم إذا ناداهم رسول الله ﷺ قالوا: لبيك وسعديك، ومنهم من جلس في قارعة الطريق لسماعه رسول الله ﷺ يقول: اجلسوا.

٨ - يجب أن يُدرِّب المربي من يربيهم على السمع والطاعة ليُتقنوا طاعة الوالدين، وليبرعوا في طاعة الله، ومن لا يتربى على السمع والطاعة يبقى صاحب نفس خوّارة مغرورة، ولن يكون من أهل العزائم لذلك فالمبدأ «أنّه لا إسلام إلا بجماعة، ولا جماعة إلا بإمارة، ولا إمارة إلا بطاعة».

٩ - إن الإحياء والإماتة سرٌّ من أسرار الألوهية، ورغم ظاهرة ضرب الرجل ببعض بقرةٍ ذبيح رُدَّت إليه الحياة هكذا بيسر، مبعث تفكرٍ وتعقل، وتحجيم لهذا الإنسان الذي لا يدرك من أسرار الله إلا ظواهرها، فخيرٌ له أن يستسلم، ويوقن بأنه إذا جاء أمر الله بالبعث والنشور سيقوم بكلمة قم، حيث لا بقرة ولا ضرب ببعضها، وإنما كانت القصة إشهادٌ للإنسان على هذه القدرة التي تعجز أمامها قدرات البشرية كلها مجتمعة.

﴿۞ أَفَتَطْمَعُونَ أَن يُؤْمِنُوا لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلَامَ اللَّهِ
ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ مِن بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ (٧٥) وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا
آمَنَّا وَإِذَا خَلَا بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ قَالُوا أَتُحَدِّثُونَهُم بِمَا فَتَحَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ لِيُحَاجُّوكُم
بِهِ عِندَ رَبِّكُمْ أَفَلَا تَعْقِلُونَ (٧٦) أَوَلَا يَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا
يُعْلِنُونَ (٧٧) وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لَا يَعْلَمُونَ الْكِتَابَ إِلَّا أَمَانِيَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ
(٧٨) فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَٰذَا مِنْ عِندِ اللَّهِ لِيَشْتَرُوا
بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا يَكْسِبُونَ (٧٩)
وَقَالُوا لَن تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّامًا مَّعْدُودَةً قُلْ أَتَّخَذْتُمْ عِندَ اللَّهِ عَهْدًا فَلَن
يُخْلِفَ اللَّهُ عَهْدَهُ أَمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ (٨٠) بَلَىٰ مَن كَسَبَ سَيِّئَةً
وَأَحَاطَتْ بِهِ خَطِيئَتُهُ فَأُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (٨١) وَالَّذِينَ
آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (٨٢) وَإِذْ أَخَذْنَا
مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ
وَالْمَسَاكِينِ وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ إِلَّا

﴿قَلِيلًا مِّنكُمْ وَأَنتُم مُّعْرِضُونَ ﴿٨٣﴾﴾.

المفردات:

فتح الله عليكم: قضى وحكم في أحوالكم السابقة.

حسناً: اسم جامع لمعاني الخير والخلق الكريم. **ميثاق:** عهد.

ليحاجوكم به: ليكون لهم حجة عليكم أمام الله. **توليتم:** أعرضتم.

أمانيّ: الأوهام والظنون، وهي التلاوة دون فهم. **عقلوه:** عرفوه وعلموه.

أميّون: جمع أمّي وهو الذي لا يكتب ولا يقرأ.

خلا: التقى بعضهم ببعض سراً.

يحرفونه: والتحريف في كتاب الله هو تبديل الحلال حراماً والحرام حلالاً وإخراج النصوص عن مرادها.

الدراسة التربوية:

لا زالت الجولات في سورة البقرة تستعرض جدل بني إسرائيل، وحججهم ودعاويهم الباطلة، ويؤمر الرسول ﷺ أن يَفضح دعاويهم، ويكشف زيف ادّعاءاتهم، ويعرض الله السؤال على رسوله ﷺ وعلى المؤمنين في استنكار، أفتطمعون أن يؤمنوا لكم بعد كل ما عرفتموه من سيرتهم النكدة؟ وكيف يؤمنون لكم وهم أحفاد أمة كانت تسمع كلام الله فتملك الجرأة على أن تمد يدها إليه بالتحريف والتضليل وهم يعلمون، إنّها آفة رجال الدين عندما يشتروا بآيات الله ثمناً قليلاً، إنّه خراب الذمم وفقدان المروءة لأنّه لا يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون، فكتمان الحق كارثة، وتضليل الأمة مصيبة، والوقوف بين يدي الله أشدّ وأنكى، إنّه لا مطمع ولا رجاء في أن يؤمن أمثال هؤلاء، إنّ الطبيعة المؤمنة سمحةٌ ليّنةٌ هيّنة، وهؤلاء الميؤوس منهم هم يهود.

﴿وَإِذَا لَقُوا۟ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَا بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ قَالُوٓا۟

﴿أَتُحَدِّثُونَهُم بِمَا فَتَحَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمْ لِيُحَآجُّوكُم بِهِۦ عِندَ رَبِّكُمْۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ۝٧٦﴾.

إن صياغة القرآن لوصفهم وحالهم أصدق من ألف مرآة، إنّهم يتصنّعون العقل والتعقل، يراوغون ويداورون يراءون ويتلاعبون، يقولون آمنّا وما هم بمؤمنين، مواقف تربوية تلامس شغاف القلوب وهل الله غافل عن قولهم؟ وهل الله غائبٌ عن فعلهم؟ يا لسخف الإنسان عندما يتجاهل الذي أمدّه بالعقل وبلغة الكلام، أتحدّثونهم بما فتح الله عليكم؟ لقد غاب عنهم أن النبيّ المرسل يأتيه الوحي من عند الله، غاب عنهم أنّ الله يعلم ماضيهم وحاضرهم، وأنّه فاضحهم على رؤوس الأشهاد كيف تغيب هذه الحقيقة عن الإنسان ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾[(1)].

إنّ خيانة علماء بني إسرائيل جعلت الآيات تأتي بصيغة الاستنكار، وقد ذكر الواحدي قول ابن عباس ومقاتل في آية: ﴿أَفَتَطْمَعُونَ أَن يُؤْمِنُوا۟ لَكُمْ﴾؛ أنّها نزلت في السبعين الذين اختارهم موسى عليه السلام ليذهبوا معه إلى ميقات ربه، فهم الصفوة المختارة، فلما ذهبوا معه وسمعوا كلام الله عز وجل وهو يأمر وينهي، ثمّ رجعوا إلى قومهم، فأمّا الصادقون فأدّوا ما سمعوا، وقالت طائفة منهم: سمعنا الله من لفظ كلامه يقول: إن استطعتم أن تفعلوا هذه الأشياء فافعلوا، وإن شئتم فلا تفعلوا ولا بأس[(2)]. وعند أكثر المفسرين، أنّ هذه الآية نزلت في الذين غيّروا آية الرجم وصفة النبي ﷺ، وقد كان حكم الزناة المحصنين في التوراة الرجم فغيّروه إلى الجلد والتشهير.

وقوله: ﴿فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ يَكْتُبُونَ ٱلْكِتَٰبَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَٰذَا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ لِيَشْتَرُوا۟ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا ...﴾ إلى آخر الآية.

قال الكلبي بالإسناد السابق: (إنّهم غيروا صفة النبي ﷺ، وبدّلوا نعته، وجعلوه: آدم سبطاً طويلاً)[(3)]، وقالوا لأصحابهم وأتباعهم: انظروا

---

(1) سورة الحج: الآية ١٧.

(2) أسباب النزول للواحدي.

(3) آدم: أسمر شديد السمرة، ورسول الله ﷺ كان أبيض أزهر.
سبطاً طويلاً: ممتد في الطول، رسول الله ﷺ ما كان بالطويل البائن، ولا بالقصير الشائن، صلى الله عليه وسلم.

إلى صفة النبي الذي يُبعث في آخر الزمان، ليس يشبه نعت هذا، وكانت للأحبار والعلماء مأكله من سائر اليهود، فخافوا أن يُذهبوا مأكلتهم إن بيّنوا الصفة، فمن ثمَّ غيَّروا.

وأسباب النزول تزيد الأمر بيّنة، وهكذا تلاعبت الأحبار بالنص ولم يُداخلها رهبة في تغيير قول الله ذاته، ومن أين للعامة الأميين الذين يقرأون الكتاب أمانيّ أن تتفتح بصائرهم ويهتدوا لفعل هؤلاء، وهؤلاء الأحبار لبسوا جباب التقوى وتسربلوا لباس الزهد.

إنّ التوراة والقرآن من معين واحد، وموسى ومحمد صلاة الله وسلامه عليهما تربيا في ظل عناية واحدة، ومبلغ الرسالات هو روح القدس الأمين جبريل عليه السلام فعجب الله عز وجل لطمع رسول الله ﷺ وأصحابه في إسلام يهود، مما جعل القرآن يبيِّن علة فسادهم، إن العلة متأصلة، بدأت بفساد الأحبار وانتهت بعصيان الفجار حتى مُسخوا، إن الله عز وجل وضعهم على مشرحة القرآن تحت الكشّاف الرباني، إن هذه الأمة يا محمد قد ملكت الجرأة بعد ما سمعت كلام الله وعقلته ـ فهي ليست متهمة بالجنون ولا بالعاهات ـ وإنما سمعت وعقلت، ثم مدّت يدها إلى كتاب الله بالتحريف والتضليل، حيث اتفقت الأذن التي وعت واللسان الذي ذكر على التغيير والتبديل، مقابل الأتوات ـ الأعطيات ـ إنهم اشتروا بآيات الله ثمناً قليلاً، إن الإنسان الشريف لا يغير ولا يبدل ولو سيقت له الدنيا وما فيها، وما أنصع قول نبيِّنا الصادق المصدوق ﷺ: **«والله يا عم لو وضعوا الشمس في يميني، والقمر في يساري، على أن أترك هذا الأمر، حتى يظهره الله أو أهلك فيه»**[1].

إن خراب الذمم آفة رجال الدين، وفقدان المروءة سبب في دخول التيه، ويهود قوم بهت وقد جاء في صحيح البخاري «أن عبد الله بن سلام ﷺ، حين أسلم قال للنبي ﷺ: يا رسول الله إن اليهود قوم بهت، وإنهم

(١) تهذيب سيرة ابن هشام، ص ٥٨.

إن يعلموا بإسلامي قبل أن تسألهم يبهتوني، فجاءت اليهود، فقال لهم رسول الله: «**أي رجل عبد الله بن سلام فيكم؟**» قالوا: خيرنا وابن خيرنا، وسيدنا وابن سيدنا، قال: «**أرأيتم إن أسلم!**» قالوا: أعاذه الله من ذلك، فخرج عبد الله، فقال: أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله، فقالوا: هو شرنا وابن شرنا وانتقصوه، فقال: هذا الذي كنت أخاف يا رسول الله»[1].

إن علماء اليهود كانوا يستأثرون بعلم التوراة، ويحتكرون الدين عن العامة لتبقى لهم السيطرة على الناس، يسوسونهم بما يشاؤون، ويوزعون عليهم الفتاوى الجاهزة، يحرّمون فيها ما يشاؤون، ويحلّون فيها ما يريدون، إنهم اتخذوا تكذيب رسول الله ﷺ خطة وحبكوا لها الشواهد من جميع جوانبها، بدءاً بتحريف التوراة بتغيير صفة رسول الله ﷺ وبتجهيل الناس في دينهم، حتى جعلوهم إذا قرؤوا لا يفهمون، ثم بالتشكيك بما جاء به رسول الله ﷺ إلى إذكاء روح الفتن وتنشيط المنافقين إلى تهويد النصرانية بعد تغييب الإنجيل، إلى إحكام القبضة على مصادر المال في الأرض، فمنذ ظهور نبي الله ببعثة الإسلام ويهود تُجمع كيدها، وتخطط لتقويض هذا الدين، وذر بذور الفتن وصرف المسلمين على دينهم ليكون المسلمون وإياهم سواءً في غضب الله والطرد من رحمته، ولكن وإن تحقق لهم ما يريدون ردحاً من الزمن فالفرق كبير، والمراد بعيد، فكتابنا تكفَّل الله بحفظه، وتعهّد الله هذه الأمة بأن (يبعث فيها على رأس كل قرنٍ من يجدد لها أمر دينها)[2]، وقال فيما رواه ابن جرير في فوائده، وابن عدي، عن النبي ﷺ أنه قال: «**يحمل هذا العلم من كل خلَفٍ عدو له، يُنفون عنه تحريف الضالين، وانتحال المبطلين، وتأويل الجاهلين**»[3]. وخص الله هذه الأمة بالخيرية ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ

---

(١) صحيح البخاري كتاب تفسير القرآن، رقم ـ ٤١٢٠ ـ.
(٢) رواه أبو داود عن أبي هريرة في كتاب الملاحم، رقم ـ ٣٧٤٠ ـ.
(٣) ذكره الإمام ابن القيم في مفتاح دار السعادة، ج١/١٦٣.

﴿ٱلْمُنكَرِ﴾[١]. ولذلك ستبقى يهود ومن شاكلها وإبليس وجنوده أجمعين حزبين متقاربين متحابين، ويبقى حزب الله متميزاً منهم الطائفة المختارة التي ترابط في بيت المقدس، وأكناف بيت المقدس تقارع يهود حتى تقوم الساعة.

وفي كل مرة يُغيَّب الدين ويُعزل في زوايا المساجد، وفي كل مرة يُفصل الدين عن الدولة والحكم، يكون الحصاد المر ﴿وَإِن تَتَوَلَّوْا۟ يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوٓا۟ أَمْثَٰلَكُم﴾[٢].

كيف يتجاهل الإنسان أنه في قبضة العليم الخبير؟ فأين العقل والتعقل في رؤوس هؤلاء الأحبار، الذين كان الرسول ﷺ يدحضهم بالحجة تلو الحجة، إنهم فريقان، فريق يعلم واحتكر كتاب الله ليتلاعب فيه كيف ما شاء، وفريق أمي مغيّب يتلو الكتاب ولا يفقه معانيه، سيطرت عليه الأوهام والأماني، وزعموا أنهم أولياء الله وأحباؤه وأنهم المفضّلون على العالمين.

إن حال هؤلاء المتمنين على الله الأماني يحاكيه حال كثير من المسلمين الذين هم في غيّهم سادرون، وفي جهالتهم غارقون، يقرؤن كتاب الله بل ويستظهرونه ويضحكون ملء أفواههم يقولون إن الله غفور رحيم، يُزين لهم الشيطان حالهم ويُجمعون بأنهم أمة محمد ﷺ الأمة المرحومة، إن أمثال هذه العبارات تهدىء من روع المؤمنين الخائفين، وتُحقّر من أعمال المجاهدين.

إن فئة من رجال الدين تريد أن تبقى الأمة جاهلة لتروج بضاعتهم، فيستغلون جهل الأمة، ويلوون عنق الحقائق، ويتشدّقون ملء أفواههم بالحكم المنطقية، فتحميهم القوى ويأوون إلى ركن شديدٍ.

وإن تلاعب الناس والأحبار بالكتاب فتنة ليس بعدها فتنة، حيث تختلط الأوراق فيُكذّب الصادق ويُخوَّن الأمين، وقد ورد في الأثر التحذير

---

(١) سورة آل عمران: الآية ١١٠.

(٢) سورة محمد: الآية ٣٨.

من الفتن قيل (كيف أنتم إذا طغى شبابكم، وفسدت فتياتكم؟ قالوا: أو كائن ذلك؟ قال: نعم وأشد منه سيكون! كيف أنتم إذا لم تأمروا بالمعروف، ولم تنهوا عن المنكر؟ قالوا: أو كائن ذلك؟ قال: نعم، وأشد منه سيكون، كيف أنتم إن أمرتم بالمنكر ونهيتم عن المعروف؟ قالوا: أو كائن ذلك؟ قال: نعم، والذي نفسي بيده، لتكونَنّ فتنة يصير الحليم فيها حيران). يؤيده ما رواه أبو هريرة ﷺ أن النبي ﷺ قال: **«يخرج في آخر الزمان رجالٌ يختلون الدنيا بالدين، يلبسون للناس جلود الضأن من اللّين، ألسنتهم أحلى من السكر، وقلوبهم قلوب الذئاب، يقول الله عز وجل: أبي يفترون؟ أم عليَّ يجترئون، فبي حلفت، لأبعثن على أولئك فتنةً تدع الحليم حيراناً»**[١].

فالتّشدق في الكلام وتدبيج العبارات، والتفيهق على العامة السّذج الذين تبهرهم الحركات ليس تبليغاً لكتاب الله، ولا إخلاصاً في الدعوة إلى الله، كان رسول الله ﷺ يربّي ويخرّج كل فردٍ داعية حق وفقيه دين ومحدث صدق وناصح أمين، وكان إذا جمع الناس ليعظهم ما زاد عن قول عباد الله اعبدوا الله ولا تشركوا به شيئاً واتقوا الله، كلماتٌ يسيرة في لفظها ما أكثر ما نرددها اليوم ولكن غابت عنّا معانيها، والمراد منها كلماتٌ جمعت خيري الدنيا والآخرة. ويوم بويع عثمان بن عفان ﷺ بالخلافة، توجَّب عليه أن يصعد المنبر ويخطب، ولكن عثمان ما تعلم في مدرسة النبوة التشدّق في الكلام، وكثرة القيل والقال. وقد تعاظم الهمّ الذي حمله، والمسؤولية التي ألقيت عليه، فصعد المنبر، فارتُجَّ عليه، فحمد الله وأثنى عليه، ثم قال: (أيها الناس أنتم بحاجة إلى إمام فعّال أكثر من حاجتكم إلى إمام قوّال، وصلى اللهم على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه، ونزل)[٢]. إنّ الذي ربّى عثمان ﷺ، هو المنهج الذي ربّى

(١) رواه الترمذي في كتاب الزهد، رقم ـ ٢٣٢٨ ـ.

(٢) خطبة عثمان رضي الله عنه في كتاب الهداية للمرغيناني، ج ٢، باب صلاة الجمعة، ص ٦٠.

الأئمة الكرام ومنهم أبو حنيفة النعمان بن ثابت رحمه الله.

فكان يُضرب ويُعذّب ليتولّى القضاء وحُبس في ذلك، ومات في حبسه مظلوماً، وقيل أخرجوه من الحبس ودسّوا له السُّم، ومات ولم يجب رغبتهم خوفاً من الجَور ومن مسؤولية القضاء. وإنّ الإمام أحمد بن حنبل رحمه الله، ما كان يمشي في الطريق الذي يسكن فيه ولده لئلا توافق خطواته خطوات ابنه الذي كان يأكل من أُعطيات السلطان، وما سيرة سعيد ابن المسيِّب، وأبي حازم، والحسن البصري، وإخوانهم منا ببعيد، رحمهم الله وأحسن إليهم، كانوا عدلاً في القول، ونزاهةً في الحق، وقوةً بجنب الله دون العبيد، إنّها التربية الإسلامية الحرَّة على النّقيض تماماً من نفوس اليهود الخوّارة.

﴿وَإِذَا لَقُوا۟ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَا بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ قَالُوٓا۟ أَتُحَدِّثُونَهُم بِمَا فَتَحَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمْ لِيُحَآجُّوكُم بِهِۦ عِندَ رَبِّكُمْ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٧٦﴾﴾؟.

إنّ صياغة القرآن الكريم في وصف النموذج اليهودي، هو تصوير لنوع من البشر موجود على الأرض، وهو نوع متواجد في كل جنسٍ ولون، غير أنه يمثل الغالبية العظمى في بني إسرائيل. وهم الذين تميزوا بالاعتداء على منهج الله ورسله وكرّست يهود جهودها لتزرع هذا النوع البشري الموبوء بيننا، وأوجدته يُجيد الأدوار التي عُهدت إليه، فيبكي في موقف البكاء، ويرجو في موضع الرجاء، يتلاعب بمشاعر المسلمين الطيبين، ورسول الله ﷺ ما غفل هذا النوع بل وصفه بلفتةٍ تربوية تلامس شغاف القلوب، عن سفيان بن أسيد الحضرمي قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**كبرت خيانة أن تحدّث أخاك حديثاً هو لك به مصدّق، وأنت له به كاذب**»[(١)]. يخدعك متستراً بآية كريمة، أو حديث نبوي شريف، فينبهر عقلك بنبرة صوته وتدمع عينيك لحركاته، وإذا به وقد دلف بك بعيداً عن العبر القرآنية، وحاد بك عن السيرة النبوية، يخوفك بالنار إن أنت فكرت،

(١) رواه أبو داود في كتاب الأدب، رقم ـ ٤٣٢٠ ـ.

ويصور لك الجحيم إن اعترضت، ولكن الله ليس بغافلٍ عما يعمل الظالمون.

ما أسخف الإنسان عندما يتجاهل الذي أمدّه بالعقل واللسان، وعلمه لغة البيان. ﴿أَتُحَدِّثُونَهُم بِمَا فَتَحَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمْ﴾ إنّ طمس البصيرة وقلة الفقه تعمّي على الإنسان مواقع أقدامه، فقد ضلّت اليهود وأضلّت، وغاب عنهم أن النبي مرسل وهم أهل خبرة بالرسل، ويأتيه الوحي من ربه، لقد غاب عنهم أنه يُلقَّن ماضيهم وحاضرهم، وأنّ الله فاضحهم على رؤوس الأشهاد، لقد تعرض الأجداد إلى مواقف فاضحة، وتهديد أليم من الله عز وجل، وعاود الأحفاد الكرة ففضحتهم آيات بيّنات، ترددها الأجيال إلى قيام الساعة، وذلك لنعلم أنّهم العدو إلى أن يُرفع هذا القرآن من الأرض ومن صدور الناس.

إن الأمة فريقان: فريق يعلم ويحتكر كتاب الله ليتلاعب فيه كيف ما يشاء، والتلاعب في اللفظ أو الأحكام سواء، وذاك هو الفريق الوصولي، وفريقٌ أميّ مغيّب يتلو الكتاب ولا يفقه، سيطرت عليه الأماني والأوهام، لعقت يهود كلمة معسولة ﴿نَحْنُ أَبْنَٰٓؤُاْ ٱللَّهِ وَأَحِبَّٰٓؤُهُۥ﴾ ولعقنا ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ إنّ الأمية تفشّت اليوم وانتشرت انتشاراً كبيراً يُصعق العقلاء. والأمية اليوم ليست أميّة كتابة وقراءة، ولكنها أميّة فهم وإدراك واطلاع، لقد استطاعت يهود عن طريق الثقافة الغربية المتواردة علينا، أن تهدم فكرنا وتمسخ عقولنا، وتجعل فهمنا متّهم، ويقول محمد إقبال رحمه الله: «إنّ نظام التعليم الغربي؛ أضعف الروح المعنوية في الشباب المسلم، وجنى على رجولته، فأصبح شباباً رخواً رقيقاً مائعاً، لا يستطيع الجهاد، ولا يتحمّل المكروه».

أقول وما فعلوه في المرأة الأم أشدُّ وأنكى، حيث تحولت المؤتمنة على أغلى رصيد في العالم وهو الرصيد البشري، إلى دميةٍ مصبوغة بألوانٍ شتّى، تستعبدها آلهةٍ شتّى حتى وإن كثر الوعّاظ من حولها الذين يُميتون قلبها بأحوال القبر والقيامة، إنّ المرأة تحمل وتُنجب لتقيم الحياة، ولتتق الله

بمن هم تحت يديها، ولكن الحبكة اليهودية المجرمة، خططت لنا ما يُقال في ديننا وما يُكتم، فمن أراد الدين وآثره في حياته فعليه أن يعيش لقبره وكفنه فقط، فيشتري أكفانه ويضعها نُصب عينيه منتظراً لحظة لباسها، يعيش خائفاً مكسور الطرف دائماً، وأما إن أراد الدنيا فليترك هذا جانباً ويلحق بركب يهود، إلحادٌ في العبادة، وكفرٌ بالتطبيق، وعلمانيةٌ في الفكر، وشوكة في حلق الدعاة، مهمته إفساد جيل وتدمير أمة والقرآن يقول: ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٦٢)﴾ فهناك صلاة وتوجّه وعبادة، وزادٌ ولقاءٌ وموقفٌ مع الله عز وجل، فهي خمس مرات في اليوم إن لم يتنفل، ونسكٌ وطريقة ومنهج حياةٍ مرسومٌ بدقة، ومحياي ليست حياة خاصة بي فقط، وإنما محيا، تعاملٌ وأخذ وعطاء وخيرٌ عميمٌ معبّدٌ لله، مع استعدادٍ ورقابةٍ للقاءِ أبديٍّ محتوم. إنّه التوازن بين المحيا والممات.

والله عز وجل، جعل الدين ثلاثة أجزاء، كما ورد في فتح الباري، شرح صحيح البخاري في باب الإيمان؛ وعن عائشة رضي الله عنها قالت: قال رسول الله ﷺ: «**الدواوين عند الله ثلاثة: ديوانٌ لا يعبأ الله به شيئاً، وديوانٌ لا يترك الله منه شيئاً، وديوانٌ لا يغفره الله، فأمّا الديوان الذي لا يغفره الله؛ فالشرك بالله، وأما الديوان الذي لا يعبأ به شيئاً؛ فظلم العبد نفسه بينه وبين الله من صوم يوم تركه أو صلاة، فإنّ الله لا يغفر ذلك، ويتجاوز إن شاء، وأما الديوان الذي لا يترك الله منه شيئاً، فظلم العباد بعضهم بعضاً، القصاص لا محالة**»[١]. وفي هذا الحديث فهمٌ لمدلول لا إله إلا الله، ويهود ظلمت الأنبياء قبل أن تظلم الناس، وعرَّضت نفسها لغضب العزيز الجبّار، وعندما فتحت خيبر يقول أبو هريرة رضي الله عنه: (أُهديت للنبي ﷺ شاةٌ فيها سُم، فقال النبي ﷺ: «**أجمعوا إليَّ من كان ها هنا من يهود**» فجمعوا له، فقال: «**إنّي سائلكم عن شيء فهل أنتم صادقيّ عنه؟**» فقالوا: نعم، قال: «**من أبوكم؟**» قالوا: فلان، فقال: «**كذبتم، بل أبوكم فلان**» قالوا: صدقت، قال: «**فهل أنتم صادقيّ عن شيء إن سألت عنه؟**» فقالوا:

(١) رواه الإمام أحمد في مسنده.

نعم يا أبا القاسم، وإن كذبنا عرفت كذبنا، كما عرفته في أبينا، فقال لهم: «**من أهل النّار؟**» قالوا: نكون فيها يسيراً، ثم تخلفونا فيها، فقال النبي ﷺ: «**اخسؤوا فيها، والله لا نخلفكم فيها أبداً**»، ثم قال: «**هل جعلتم في هذه الشاة سُماً؟**» قالوا: نعم، قال: «**ما حملكم على ذلك؟**» قالوا: أردنا إن كنت كاذباً نستريح، وإن كنت نبياً لم يضرّك)[1]. هؤلاء هم علماؤهم وأحبارهم، فلا عجب من صهاينتهم وما يفعلون.

﴿وَقَالُوا۟ لَن تَمَسَّنَا ٱلنَّارُ إِلَّآ أَيَّامًا مَّعْدُودَةً﴾ فنقول لهم ما قاله النبي الكريم عليه الصلاة والسلام اخسؤوا فيها، إنّ التمييز العنصري الذي بدأ وهماً، ثمَّ ما لبثوا أن تلبّثوا به حقيقة، فأصابهم انفصامٌ في الشخصية حتى وقع في روعهم أنّهم يهود الدنيا وأحبار الآخرة، إنّه لا محاباة عند الله لأحد وإن كان نبياً مرسلاً ﴿وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ ٱلْأَقَاوِيلِ ﴿٤٤﴾ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِٱلْيَمِينِ ﴿٤٥﴾ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ ٱلْوَتِينَ ﴿٤٦﴾ فَمَا مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَٰجِزِينَ ﴿٤٧﴾﴾[2] وإن الجزاء من جنس العمل.

إنّ المعادلة الربّانية واضحة تماماً ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ﴾[3]، ومن أجل هذا نادى رسول الله ﷺ: يا صفية بنت عبد المطّلب اعملي فإنّي لا أملك لكِ من الله شيئاً، ويا فاطمة بنت محمد اعملي فإنّي لا أملك لكِ من الله شيئاً. هذه الموازين الحق التي قام عليها هذا الدين، وكل الأديان من عند الله، ولكنَّ النّصارى واليهود غيَّروا وبدّلوا ولا يُفتن إلا الجاهلون.

ولذلك تحرص يهود على تجهيل الأمم، وقطع خيوط الفهم وإشغال الناس بصغائر الأمور وتوافهها حتى لا تُفضح دسائسهم، ونحن اليوم في العالم الإسلامي نعاني من مكر يهود، ففي إضعاف اللغة العربية بين أهلها ليهود نصيب، وفي تغييب معنى الإسلام لها حبال، وفي خلل التوازن في العمل بكتاب الله لها يدٌ طولى، ومن أجل تغييب الحقائق والتدجيل نصبت

---

(١) صحيح البخاري كتاب الجزية والموادعة، رقم ـ ٢٩٣٣ ـ.

(٢) سورة الحاقة: الآية ٤٤ ـ ٤٧.

(٣) سورة الحجرات: الآية ١٣.

الشباك، حتى أصبح عددٌ هائل من المسلمين يؤمنون ببعض الكتاب ويكفرون ببعض، يُقيمون الصلاة ويُعطّلون الدعوة إلى الله، يُنفقون في بناء المساجد، ويُمسكون عن تجهيز الغزاة في سبيل الله، يُعطّل الكسب الحلال ورايات الربا مشرّعة، لقد استطاعت يهود أن تجنّد من أبنائنا من ينفّذ لها مآربها، وأوجدت بيننا بذور الشك والعصيان لله الواحد الديّان، وإنّ كثيراً من المسلمين اليوم يُجهدون بحفظ كتاب الله، حفظ الأماني وبهرج الأمنيات، وصدّق فيهم إبليس ظنّه وجاء في تقرير سنوي موجّه إلى المنظمات الماسونية في الشرق الأوسط يقول: (أخي الماسوني لا تحزن إن رأيت جموع المصلين يفدون إلى المساجد، فإنّا جعلناهم يصلّون بلا قلوب).

ولكننا نقول بيقين: إنّ يهود أخطأت التقدير، ونسيت أنّ روح التوحيد تسري في هذه الأمّة، وأنّ الخيرية فيها إلى يوم الدين وأنّ بين المسلمين ﴿رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلًا﴾[1].

إنهم زرع محمد ﷺ، والشجرة الطيّبة ضاربة في أعماق الأرض، وفرعها في السماء، وسقياها ذاك الدم العنبري شذى عطره متألقٌ في السماء، وروحه معلقة بقناديل تحت العرش.

إنّ الله سخّر لهذه الأمة، مقومات تحصنها من أن تنتهي إلى ما انتهت إليه يهود، فإفسادها مردود وكيدها مدحوض، فالكتاب محفوظ والمجدد لهذه الأمة مولود والخيرية باقية، وعلى رأس كل قرنٍ ستجود المرأة بمن يجدّد لهذه الأمة أمر دينها فلن تنقرض أمة الحق، ولن تغيب الأخت المسلمة سليلة نسيبة وهي تقول: قاتل يا رسول الله الذين يفرون عنك قبل الذين يقاتلونك، أدركت نسيبة رضي الله عنها بحسها الإسلامي الرفيع من هو العدو الحقيقي، وهي تحمي ظهر رسول الله وعند بذل الأرواح يفوح الطيب، فالركب سائر ولا تزال الأمة التي طيّبها الله بالتوحيد، وتخيَّر من

(١) سورة الأحزاب: الآية ٢٣.

شبابها الشهداء الذين عطّروا الدنيا بأريج دمائهم، وزيّنوا وجه التاريخ بعد كلوحه وشحوبه، نعم لا تزال هي الأمة التي ستقود الدنيا وتعبّد الأرض ومن عليها لله رب العالمين.

﴿بَلَىٰ مَن كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَاطَتْ بِهِۦ خَطِيٓـَٔتُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٨١﴾﴾ فالمعلوم أنّ السيئة خطيئة ترتكبها الجوارح، وأما أن يسميها الله عز وجل كسباً، فهي تصوير دقيق لكثير من الناس، فهناك من يجترح السيئة فيفرح بها، وتعتريه نشوة للوقوع فيها فلا يجد لها ألماً في الضمير، ولا لائمة بين الجوانب، بل يعتبرها خيراً فات غيره وربحاً جناه، أما والحال هذه فهو فَرِحٌ بها مختال بكسبها فهي كسبه وربحه، ولو أنّه كان يكرهها في حسه، ولو أنّ بقية من إيمان تخالج أحاسيسه لما اجترحها أولاً، ولهرب من ظلها ثانياً، ولوقف وقفة ندمٍ وتغيّظٍ مع نفسه، ولكن خطيئته تلك ملأت عليه نفسه، وأغلقت عليه حسه حتى أصبح حبيسها يعيش في إطارها، ويتنفّس في جوّها، عندئذٍ تغلق عليه منافذ التوبة ويخلد في سجن الخطيئة فهي تجارته وكسبه فهو مطمئنٌ إليها، حارسٌ لجنيها، وإذا بها أودت به إلى صحبة النّار، فهو صاحبها ومن أهلها خالدٌ فيها ملازمٌ لها، وصفها الله بقوله ﴿كَلَّآ ۖ إِنَّهَا لَظَىٰ ﴿١٥﴾ نَزَّاعَةً لِّلشَّوَىٰ ﴿١٦﴾﴾ على عكس الصورة المضيئة التي عليها أهل الإيمان والعمل الصالح، فأولئك أصحاب الجنة وأهلها ولكلٍ خلودٌ أبدي بما قدّمت يداه ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ﴾[1].

فلا إيمان بغير عملٍ صالح، ولا عملٌ صالحٌ مقبول بغير إيمان، وهذا يقينٌ لا ريب فيه، وأمّا ما نراه اليوم مسلمون نعرف منهم وننكر، تارةً يصلّون وأخرى يتباغضون يتلون آيات الله ويعطلون حكمها في الأرض، يصومون عن الطعام والشراب ويفطرون على أكل أموال الناس بالباطل، مسلماتٍ ومتبرجات، وكثيراً غيره من مظاهر التناقض الذميم، وما هذا إلا ثمرة الإفساد اليهودي التي أوجدت أناساً يؤمنون ببعض الكتاب ويكفرون ببعض.

---

(١) سورة الأنفال: الآية ٥١.

وقد يلاحظ القارىء أنّ هناك تكراراً، ولكن في الحقيقة ليس بتكرار، وإنما هو التأكيد الذي جاء تبعاً للآيات القرآنية التي تفيد الحذر والإلزام بفهم ووعي لما يدور حولنا، وأنّ هذا الفهم هو بعض مبادىء ديننا، والعمل على إحباط مخططات العدو هو بعض الجهاد المفروض علينا.

﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَانًا وَذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَقُولُوا۟ لِلنَّاسِ حُسْنًا وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِّنكُمْ وَأَنتُم مُّعْرِضُونَ ﴿٨٣﴾﴾.

وعودةٌ إلى الميثاق، وما أكثر المواثيق والعهود بين الله وبين بني إسرائيل، ويا كثرة ما ذكّرهم بالتوحيد الخالص وبر الوالدين، والإحسان إلى ذي القُربى واليتامى والمساكين، وكم وجّههم للكلمة الطيبة.

فالإيمان والإخاء ركيزتا الأديان جميعاً، والتوحيد وأداء الصلاة متلازمان، والإخاء وإيتاء الزكاة متلازمان، فهذه مواثيق الله للأنبياء والأمم جميعاً، والإحسان إلى الوالدين موقفٌ تربويٌّ ربّاني، فرضه الله على الأنبياء تجاه الآباء، وقد قيل: من عجز عن بر والديه فعن بر ربه أعجز، ومن لا يشكر الناس لا يشكر الله، لأنّه إذا انعدمت الأحاسيس المادية، فانعدام الأحاسيس المعنوية أولى وللإحسان معانٍ سامية جداً، ومفاهيم راقية، وهو ركنٌ مستقلٌ في أصول هذا الدين، والبر هو من معاني الإحسان وضده العقوق، وقد قرنه الله عز وجل بالشرك بالله، وجعله سبباً للخلود في النار، والإحسان كلمة البر الجامعة وله مراتب، والإحسان إلى الوالدين أرقى من الإحسان إلى ذوي القربى، وهم القرابة الأدنى فالأدنى، واليتامى هم الذين ابتلوا بفقد الآباء الذين فقدوا المربي والمعيل. وعن أبي هريرة ﵁ قال: قال رسول الله ﷺ: «**الساعي على الأرملة والمسكين، كالمجاهد في سبيل الله، وأحسبه قال: كالقائم لا يفتر وكالصائم لا يفطر**»[1]، وعن عبد الله بن مسعود ﵁ قال: (سألت النبي ﷺ أيّ العمل أحب إلى الله؟ قال: «**الصلاة على**

(١) صحيح مسلم كتاب الزهد والرقائق، رقم ـ ٥٢٩٥ ـ.

وقتها»، قال: ثمَّ أي؟ قال: **«بر الوالدين»**، قال: ثم أي؟ قال: **«الجهاد في سبيل الله»**، قال: حدَّثني بهنَّ رسول الله ﷺ، ولو استزدته لزادني)[١].

وتضمن ميثاق بني إسرائيل خطاب الناس بالحسن، الناس كل الناس وهـذا مـن آداب الأديـان، ﴿وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّواْ مِنْ حَوْلِكَ﴾[٢] والقول اللّين الطيّب مطلوبٌ من كل الناس لكل الناس عامة، ومن الدعاة إلى الناس خاصَّة، فليس القائل بأشرف من موسى وهارون عليهما السلام، وليس المخاطب أخسأ من فرعون وقال الله عز وجل: ﴿وَهُدُوٓاْ إِلَى ٱلطَّيِّبِ مِنَ ٱلْقَوْلِ وَهُدُوٓاْ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْحَمِيدِ ﴿٢٤﴾﴾[٣].

وفي الميثاق إقامة الصلاة، وهي الرقابة الدائمة، وهي أداء حق الله على العباد وإيتاء الزكاة التي هي حق العباد ﴿وَفِىٓ أَمْوَٰلِهِمْ حَقٌّ لِّلسَّآئِلِ وَٱلْمَحْرُومِ ﴿١٩﴾﴾[٤] فالميثاق كله أداءٌ للحقوق، وإعطاءٌ لكل ذي حقٍّ حقه، وفي السيرة التربوية، ما يثبّت الجَنان ويزيد الإيمان، وعن أبي جُحيفة رضي الله عنه قال: آخى النبي ﷺ بين سلمان الفارسي وأبي الدرداء، فزار سلمان أبا الدرداء، فرأى أمَّ الدرداء مبتذلة، فقال لها ما شأنك؟ قالت: أخوك أبو الدرداء ليس له حاجة في الدنيا، فجاء أبو الدرداء فصنع له طعاماً، فقال: كل، قال: فإنّي صائم، قال: ما أنا بآكل حتى تأكل، قال: فأكل، فلما كان من الليل ذهب أبو الدرداء يقوم، قال: نم فنام، ثم ذهب يقوم فقال: نم، فلما كان من آخر الليل، قال سلمان: قم الآن، فصليا، فقال له سلمان: إنّ لربك عليك حقاً، ولنفسك عليك حقاً، ولأهلك عليك حقاً، فاعط كل ذي حقٍّ حقه، فأتى النبي ﷺ، فذكر ذلك له، فقال النبي ﷺ **«صدق سلمان»**[٥].

---

(١) صحيح البخاري كتاب مواقيت الصلاة، رقم ـ ٥٢٧ ـ.
(٢) سورة آل عمران: الآية ١٥٩.
(٣) سورة الحج: الآية ٢٤.
(٤) سورة المعارج: الآيتان ٢٤،٢٥.
(٥) صحيح البخاري كتاب الصوم، رقم ـ ١٨٣٢ ـ.

هكذا يكون الإخاء، وهكذا تكون الزيارة، وهذه هي مقومات مجتمع الإيمان، يأخذ بيد أخيه يرده إلى الصواب برفق، إنّه التوازن في الفهم والتطبيق، وإنّ المخلصين اليوم قليل وهؤلاء هم نماذج هذا الدين، وإيجادهم يحتاج إلى تربية وجماعة تضمهم، وهؤلاء الذين أُمر رسول الله ﷺ أن يصابر نفسه معهم ﴿وَٱصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ﴾[1]، إنهم فقراء المهاجرين، وضعفاء المسلمين، الفارغة قلوبهم من متاع الدنيا، والمليئة بالإيمان والإخلاص، أُمر عليه الصلاة والسلام بمجالستهم، وفعل ذلك الخيّران كذلك «أبو بكر وعمر رضي الله عنهما»، وكذلك يفعل المؤمنون الصادقون في كل حين، يصابرون مع الداعية وهو مطارد، وينصرونه وهو مهاجر، يجهّزونه وهو غازٍ في سبيل الله، يتلاحمون معه وإن كان من الذين لا يُعرفون إذا وجدوا، ولا يُفتقدون إن غابوا، ولا يُشار إليهم بالبنان، إنّها صفات القلة التي تدخل الجنة قبل غيرها بخمسمائة عام، يموت أحدهم وحاجته في صدره لا يستطيع لها قضاء، بسطاء في عيشهم الأعلون في دينهم وبالحق الذي بأيديهم، لا تخدعهم الكثرة ولا يفتنهم عليم اللسان ﴿وَإِن تُطِعْ أَكْثَرَ مَن فِي ٱلْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾[2].

الفوائد التربوية:

١ ـ مهما تباعدت الأزمان، وتعاقبت الأجيال، فلن تتغيّر طبيعة يهود، ومهما سخّر الإعلام أدواته وقنواته، لإقناع الناس أنّ اليهود أهل حضارة وأصحاب دين، ومحبو سلام، فلن يفلح لأن الحقائق القرآنية هي الأصل، وهي الحق الذي لا يأتيه الباطل، وما سواه الكذب والخداع.

٢ ـ النفاق والرياء والكذب والتلاعب بالأحكام الربّانية، بعض شنشنة يهود.

---

(١) سورة الكهف: الآية ٢٨.

(٢) سورة الأنعام: الآية ١١٦.

٣ ـ قراءة القرآن بمشاعر باردة، وعدم التكلف لبذل الجهد لفهم الآيات، والوقوف على أسرارها، والاكتفاء بتطبيق أمرٍ دون أمر سببٌ لغضب الله واستبدال الأمم.

٤ ـ إن الخوف الأكيد، والتفكر في اليوم الآخر والنار التي أعدّها الله للمعرضين عن الحق يجعل أحاسيس المؤمن مرهفة، يبحث عن طوق النجاة بصدق وإخلاص.

٥ ـ الإصرار على الذنب والفرح بالمعصية والاجتماع عليها، يعرّض العبد لنيران الله ونار الله لا يستهان بها.

٦ ـ مهمة الوالدين التربوية إيقاظ ملكة التفكر عند الطفل والمقارنة والاستنباط، حتى لا يُضلّل ويُدرب الطفل على عرض كل شيء على كتاب الله، وأن لا يستجرّ وراء كل صيحة.

٧ ـ الإكثار من مدارسة السيرة النبوية، وأحوال الصحابة الكرام، فهي معالم الطريق في رحلة الحياة، وربط سلوكياته بها، اقتداء ومقارنة.

٨ ـ تعويد الأطفال على احترام العهود، وحملهم على الوفاء بها، والارتقاء بهم في مراتب الإحسان.

٩ ـ بر الوالدين والأجداد إن وجدوا، أول مراتب العبودية لله. فمن البر التسابق إلى مساعدتهما، وتلبية ندائهما، وعدم الارتفاع عليهم في المجالس، وعدم التقدم عليهم في المشي، وألا يصوّب بصره إليهم وتقدير مشاعرهم، ومشورتهم اعترافاً بفضلهم.

١٠ ـ يمنع الطفل من الجدل، ويعوّد على تنفيذ الأوامر دون اعتراض، حتى لو شعر بأنه مغبون. والجدل المرفوض غير إبداء الرأي، فلينتبه المربون.

١١ ـ تعويده الإنفاق والصدقة والتفكر في فقراء المسلمين ومجاهديهم وشهدائهم وأيتامهم، ويُتخذ له يتيم يقال له أخوك اليتيم، ليستشعر المسؤولية عنه.

١٢ ـ التوجيه التربوي ليس كلمة تقال، أو حملة أسبوعية أو اصطحاب إلى ندوات جماعية، كلا، إنما التوجيه التربوي يكون بالملاحظة والمتابعة، حتى يتحول الأمر إلى خُلُق وسجية.

١٣ ـ استدراج الطفل ليتحدث بكل ما جرى معه في المدرسة، ومع أساتذته وزملائه، فبعدما تستقبل الأم كل شاردة وواردة، تنبه على الخطأ وتبيِّن الصواب، وتشجع على المواقف الطيبة، وتستخلص طباع تكون في ولدها وتحتاج إلى تقويم غير مباشر.

١٤ ـ تعويده ومراقبته في اختيار الزملاء، كأن تبحث معه مسألة قدومه إلى المدرسة، فإن كانت أمه هي التي تستيقظ معه، وترعاه حتى ينصرف إلى المدرسة فهذا مؤشر خير، وإن كان حريصاً على رقم هاتفه مثلاً أو على أحوال بيته فهذا مؤشر خير، وإن كان لا يستطيع ضرب موعدٍ أو زيارة إلا بعد استئذان والديه فهذا خير، وإن كان لا يتبادل الكتاب أو أي حاجة إلا بإذن والديه ففيه خير، وهكذا فالطفل يستطيع اكتشاف كل هذا في الطفل الآخر قبل أن يتخذه صديقاً ثم يؤاخيه في الله.

١٥ ـ يعوّد على خلق التناصح فالكمال لله عز وجل، ولا بدّ من هفوات، فليدرب على تقديم النصيحة باللطف واللين. ويُعلَّم أن يكون اليد العليا اليد التي تعطي ولا تأخذ. ويقدّم الهدايا لإخوانه، فإنها من ذوقيات المسلم.

﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَكُمْ لَا تَسْفِكُونَ دِمَآءَكُمْ وَلَا تُخْرِجُونَ أَنفُسَكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ
ثُمَّ أَقْرَرْتُمْ وَأَنتُمْ تَشْهَدُونَ ﴿٨٤﴾ ثُمَّ أَنتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ تَقْتُلُونَ أَنفُسَكُمْ وَتُخْرِجُونَ فَرِيقًا
مِّنكُم مِّن دِيَٰرِهِمْ تَظَٰهَرُونَ عَلَيْهِم بِٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ وَإِن يَأْتُوكُمْ أُسَٰرَىٰ تُفَٰدُوهُمْ
وَهُوَ مُحَرَّمٌ عَلَيْكُمْ إِخْرَاجُهُمْ ۚ أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ ٱلْكِتَٰبِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ ۚ فَمَا
جَزَآءُ مَن يَفْعَلُ ذَٰلِكَ مِنكُمْ إِلَّا خِزْىٌ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يُرَدُّونَ
إِلَىٰٓ أَشَدِّ ٱلْعَذَابِ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٨٥﴾ أُولَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشْتَرَوُا۟ ٱلْحَيَوٰةَ
ٱلدُّنْيَا بِٱلْءَاخِرَةِ ۖ فَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ ٱلْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿٨٦﴾ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى
ٱلْكِتَٰبَ وَقَفَّيْنَا مِنۢ بَعْدِهِۦ بِٱلرُّسُلِ ۖ وَءَاتَيْنَا عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَيَّدْنَٰهُ بِرُوحِ

ٱلْقُدُسِۗ أَفَكُلَّمَا جَآءَكُمْ رَسُولٌۢ بِمَا لَا تَهْوَىٰٓ أَنفُسُكُمُ ٱسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا
تَقْتُلُونَ ﴿٨٧﴾ وَقَالُوا۟ قُلُوبُنَا غُلْفٌۢ ۚ بَل لَّعَنَهُمُ ٱللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَقَلِيلًا مَّا يُؤْمِنُونَ ﴿٨٨﴾
وَلَمَّا جَآءَهُمْ كِتَٰبٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا۟ مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى
ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَلَمَّا جَآءَهُم مَّا عَرَفُوا۟ كَفَرُوا۟ بِهِۦ ۚ فَلَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٨٩﴾
بِئْسَمَا ٱشْتَرَوْا۟ بِهِۦٓ أَنفُسَهُمْ أَن يَكْفُرُوا۟ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بَغْيًا أَن يُنَزِّلَ ٱللَّهُ مِن
فَضْلِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۖ فَبَآءُو بِغَضَبٍ عَلَىٰ غَضَبٍ ۚ وَلِلْكَٰفِرِينَ عَذَابٌ
مُّهِينٌ ﴿٩٠﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُوا۟ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُوا۟ نُؤْمِنُ بِمَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا
وَيَكْفُرُونَ بِمَا وَرَآءَهُۥ وَهُوَ ٱلْحَقُّ مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَهُمْ ۗ قُلْ فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنۢبِيَآءَ ٱللَّهِ مِن
قَبْلُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٩١﴾ ».

المفردات:

بغياً: ظلماً وتعدياً. **مهين**: مذل. **الكتاب**: التوراة.

لعنهم: طردهم من رحمته. **يستفتحون**: يستنصرون.

تسفكون دماءكم: يقتل بعضكم بعضاً. **قفينا**: أردفنا وأتبعنا.

تفادوهم: تدفعون المال لتخليصهم من الأسر. **البينات**: المعجزات.

بئسما: أصلها بئس ما؛ أي ساء ما فعلوا. **تظاهرون**: تتعاونون.

باءوا: رجعوا وقد نزل بهم غضب الله. **خزي**: ذلٌّ وهوان.

غلف: الغلاف هو الغطاء أي مستورة عن الفهم والتعقل.

الدراسة التربوية:

إن الميثاق هو ذلك العهد، الذي أخذه الله على بني إسرائيل في ظل الجبل (جبل الطور) وقال لهم: خذوا ما آتيناكم بقوة، وفيه القواعد الأساسية التي يقوم عليها وعلى مثلها أيّ دين من عند الله، فيهود نكثت مواثيقها، وحرّفت كتاب ربها، والمسلمون اليوم كتاب الله بين أيديهم، ولكن أين عهودهم ومواثيقهم؟

لقد جاء في ميثاق بني إسرائيل، أن لا يسفكوا دماء بعضهم، وهذا أصل في كل دين سماوي، فأبناء الدين الواحد لهم على بعضهم حقوق وحرمات، والقرآن يواجه يهود بما فعلوه من مخالفات، وهم يدّعون أنهم أصحاب دين ونظر.

وقد كان الأوس والخزرج مشركين، وكان الحيّان أعداءً، وكان اليهود في المدينة ثلاثة أحياء ترتبط بعهود مع هذا الحي أو ذاك من المشركين. كان بنو قينقاع وبنو النضير حلفاء الخزرج، وكان بنو قريظة حلفاء الأوس، فكانت الحرب إذا نشبت بينهم قاتل كل فريق مع حلفائه، فيقتل اليهودي أخاه اليهودي، وهذا حرام عندهم بنص الميثاق، ويخرجونهم من ديارهم، وينهبون أموالهم، وهذا حرام بنص الميثاق، فإذا انتهت الحرب، فادوا الأساري عملاً بنص التوراة الذي يقول: إنك لا تجد مملوكاً من بني إسرائيل إلا أخذته فأعتقته، إنه التناقض التطبيقي الذي وقعت فيه يهود فأهلكها الله، وهذا شأن الأمة التي تقرأ كتاب ربها أماني، واستطاعت يهود أن تستجر المسلمين لتوقعهم فيما وقعت فيه، حتى صرنا إلى الفصام النكد الذي نعيشه اليوم، ونتجرع مرارته، قال الله تعالى: ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ فصلينا، وقال: ﴿ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ﴾ فعطلنا الدعوة بل حاربناها، ولاقى الدعاة من سوء المصير ما لا يعلمه إلا الله. هذا بعض نقض المواثيق الذي هددهم الله فيه ﴿فَمَا جَزَآءُ مَن يَفْعَلُ ذَٰلِكَ مِنكُمْ إِلَّا خِزْيٌ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ يُرَدُّونَ إِلَىٰٓ أَشَدِّ ٱلْعَذَابِ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَـٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾.

إنه سياقٌ تربوي ذو مغزى عميق، لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد، فيعقّب الله عز وجل بعد العرض القصصي لبني إسرائيل فيقول: ﴿أُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشْتَرَوُا۟ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا بِٱلْـَٔاخِرَةِ ۖ فَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ ٱلْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿٨٦﴾﴾.

وقد ذكرنا من قبل الغاية والهدف من القصص القرآني. ولمّحنا إلى المغزى من قصص بني إسرائيل، وأنه الأسلوب التربوي الرباني.

فطريقة عرض القصة يأخذ بالعقول، ويملك نياط القلوب، فتكون أرقّ

للتلقي، وأرهف للعظة، إنّ ما وقعت به يهود ينطبق علينا وعلى حالنا اليوم، فأين نحن من المواثيق، ألم ينظر رسول الله ﷺ إلى الكعبة المشرفة فيناجيها «**ما أعظمك، وما أعظم حرمتك عند الله، وإنَّ المسلم لأشدّ حرمةً منك عند الله**». وقال الله عز وجل: ﴿فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِۦٓ إِخْوَٰنًا﴾(١). فأين ميثاق الإخاء الرباني؟ وأين ميثاق الإخاء النبوي؟ إن ما يلاقيه المسلم اليوم ممن يرفعون راية الإسلام أضعاف أضعاف ما يلاقيه من الكفار الملاحدة، دعواهم في ذلك لا تزيد عن دعوى فرعون، عندما خاف على قومه وحذرهم فساد موسى. ﴿إِنِّىٓ أَخَافُ أَن يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَن يُظْهِرَ فِى ٱلْأَرْضِ ٱلْفَسَادَ﴾(٢). فيجب على المسلم الحق الذي يرجو وجه الله أن يتجرد من الهوى ومن الإعجاب بالأشخاص، وأن يقبل على كتاب الله بعين الإنسانية المبصرة، وبالبصيرة الربانية بعيداً عن الأماني والأوهام، عندئذ سيجد الحقيقة مرّة، مرارة الحنظل، إن إبليس يبكي عند كل سجدة لله، ويجدد العزم على الإغواء، ويهود أشد حسداً من إبليس فعزيمتها معقودة وعقيرتها مرفوعة، لن تنفك عن هذه الأمة، حتى توردها موارد الهلاك التي عابها الله عليها في كتابه المنزل إلينا، وبلغتنا والله عز وجل لهم بالمرصاد ﴿وَلَا يَحِيقُ ٱلْمَكْرُ ٱلسَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِۦ﴾(٣)، حتى أوقعتنا في الخزي الذي وعدها الله إياه، وأوردتنا في غضب الله الذي باءت به من قبل، وقد وقف المربي الكريم وقفة عميقة مشيراً إلى القريب العاجل الذي سيكون مع برود الحس المعنوي للقاء الله، فقال عليه الصلاة والسلام فيما يروي ثوبان رضي الله عنه أنه قال: «**يوشك أن تداعى عليكم الأمم من كل أفق، كما تداعي الأكلة إلى قصعتها، قيل يا رسول الله: فمن قلة نحن يومئذ؟ قال: لا ولكنكم غثاء كغثاء السيل، يجعل الوهن في قلوبكم وينزع الرعب من قلوب عدوكم، لحبكم الدنيا وكراهيتكم الموت**»(٤)، وروى الترمذي بسند صحيح عن أبي

---

(١) سورة آل عمران: الآية ١٠٣.

(٢) سورة غافر: الآية ٢٦.

(٣) سورة فاطر: الآية ٤٣.

(٤) رواه أحمد في كتاب باقي مسند الأنصار وهو حديث صحيح، رقم ـ ٢١٣٦٣ ـ.

الدرداء ﷺ قال: كنا مع النبي ﷺ فشخص ببصره إلى السماء فقال: (**هذا أوانٌ يختلس العلم فيه من الناس حتى لا يقدروا منه على شيء**)، فقال زياد بن لبيد: كيف يا رسول الله؟ كيف يختلس منا؟ وقد قرأنا القرآن، فوالله لنقرأنه ولنقرئنه نساءنا وأبناءنا، فقال: «**ثكلتك أمك يا زياد، إن كنت لأعدك من فقهاء المدينة، هذه التوراة والإنجيل عند اليهود والنصارى، فماذا تغني عنهم!!**»[1] إن اليهود يتباكون بالتوراة عند حائط المبكى، وإن النصارى يترنمون بالإنجيل في الكنائس، وقد كفروا بما جاءهم من الحق، كفروا بالنبي الأمي الذي يجدونه مكتوباً عندهم، فالمتباكون هم اليهود، والمترنمون هم النصارى، والمسلمون يتباكون ويترنمون ويرتلون ويحفظون ومسجدهم الأقصى أسير ودعاتهم مقهورون، وعلماؤهم مغيبون، وفقهاؤهم معابون، وشهداؤهم متهمون.

لا نقول هلك المسلمون، كلا وألف كلا، ولكن نقول: إن الكون يموج تائهاً يقول: أين المسلمون؟ فنجيب بثقة الله إن شاء الله وبإيمان أرسخ من الجبال بأنهم قادمون. لأنّ أعداء الله لا يُنصرون، وإن كان جمعهم اليوم علينا واقع، فما ذلك إلا لأننا هجرنا بعض كتاب ربنا، واختلّ التوازن عندنا بين التلاوة والعمل، ولكن الحق قادم والطائفة موجودة وإنما هي كبوة الجواد، ويعود الحق إلى نصابه وصدق الله العظيم ﴿كَتَبَ ٱللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا۠ وَرُسُلِيٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴿٢١﴾﴾[2].

إن لليهود سيرة حافلة مع الأنبياء والمرسلين، يشهد الله عليهم بذلك، وقال: ﴿أَفَكُلَّمَا جَآءَكُمْ رَسُولٌۢ بِمَا لَا تَهْوَىٰٓ أَنفُسُكُمُ ٱسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ﴾.

كانت يهود تحتج بأن إعراضها عن الإسلام ما كان إلا لأنهم أهل كتاب وأصحاب دعوة، فرد الله عليهم كذبهم بأنهم استكبروا تارةً، وقتلوا

---

(١) سبق تخريجه في صفحة ٨٢.

(٢) سورة المجادلة: الآية ٢١.

تارةً أخرى، فكان ردهم المشين أن قالوا: قلوبنا غلف لا تنفذ إليها دعوة، ولا تستجيب لنداء بل هو الصلف اليهودي والكيد الخاسر والأيدي الآثمة التي امتدت للأنبياء، وقد ذكرت عائشة رضي الله عنها قوله عليه الصلاة والسلام في مرض موته «**يا عائشة ما أزال أجد ألم الطعام الذي أكلت بخيبر، فهذا أوان وجدت انقطاع أبهري من ذلك السم**»[1]، ولكن الله فضحهم ولعنهم بكفرهم. والكفر حالة لاصقة بهم، كانوا يستفتحون على المشركين ويقولون: غداً يُبعث النبي المنتظر فننتصر عليكم، فلما بعث نكثوا وكذبوا، فقال لهم سعد بن معاذ ﷺ: يا معشر يهود اتقوا الله وأسلموا، أما كنتم تستفتحون علينا بمحمد ﷺ؟ فقالوا: ما جاءنا بشيء نعرفه. إنها الجبلة الملتوية التي لا تثبت على حق، فلعنة الله على الكافرين، بئسما اشتروا به أنفسهم، أن يكفروا بما أنزل الله بغياً وحسداً، وقد توارث هذا البغي والحسد الأبناء عن الآباء، فأيديهم ملوثة بدماء الأنبياء والأبرياء، نشروا سيدنا زكريا عليه السلام وهو مختبىء في جذع شجرة، وذبحوا يحيى عليه السلام وقدموا رأسه لغانية، وهمّوا بقتل عيسى عليه السلام فرفعه الله إليه.

إن يهود رُفع منها الحياء فالكذب لها ديدن، والروغان لها طبع، تلبس المسوح وتتهادى بالطقوس وتتباكى على الأسطورة وتجمع الأعداء وتُجرِّع المسلمين الذل والهوان، وتُدنّس مسرى النبي الكريم وتنتهك حرمة الحرم، وتحول المساجد إلى خمارات ومراقص، وتزرع العلقم في حلوق الرضَّع.

الفوائد التربوية:

١ ـ تعميق معنى الإخاء في الإسلام، وهذا ركن مفقود بين المسلمين، ولذلك وجب التركيز عليه من قبل المربين، والاهتمام بأمور المسلمين واجب يلفت إليه انتباه الطفل.

٢ ـ جلب كل ما توفر من مجلة أو أي مطبوعة إسلامية لتبقى بين يدي الأطفال، فإنها توقظ حسَّهم الإسلامي.

(١) قول عائشة رواه البخاري في كتاب المغازي.

٣ ـ التربية على الاستقامة، وكثرة النظر والتفكر في الآيات، وربطها بواقع الحياة، وإشعار الطفل بأن كتاب الله هو الشغل الشاغل وهو محور الحياة. وهذا علاجٌ ناجع لما يسمونه بالمراهقة.

٤ ـ تعليم الطفل وتعويده الصبر على تلقي الفقه، ومجالسة الفقهاء.

٥ ـ الحسد صفة ذميمة، وعلى المربي أن يُعلّم الأطفال القناعة، وعدم التطلع إلى ما في أيدي الناس، وأن كل ما يفوت المؤمن في الدنيا يعوضه الله إياه في الجنة، وأن كثرة النعيم لا تدل على حب الله للعبد.

٦ ـ تربية الأطفال بمدارسة حياة الأنبياء وسيرهم، فهي زاد عظيم في التربية، وأسلوب شيق وتهذيب رفيع.

﴿۞ وَلَقَدْ جَآءَكُم مُّوسَىٰ بِٱلْبَيِّنَٰتِ ثُمَّ ٱتَّخَذْتُمُ ٱلْعِجْلَ مِنۢ بَعْدِهِۦ وَأَنتُمْ
ظَٰلِمُونَ ﴿٩٢﴾ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ ٱلطُّورَ خُذُوا۟ مَآ ءَاتَيْنَٰكُم
بِقُوَّةٍ وَٱسْمَعُوا۟ ۖ قَالُوا۟ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَأُشْرِبُوا۟ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْعِجْلَ بِكُفْرِهِمْ ۚ قُلْ
بِئْسَمَا يَأْمُرُكُم بِهِۦٓ إِيمَٰنُكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٩٣﴾ قُلْ إِن كَانَتْ لَكُمُ
ٱلدَّارُ ٱلْءَاخِرَةُ عِندَ ٱللَّهِ خَالِصَةً مِّن دُونِ ٱلنَّاسِ فَتَمَنَّوُا۟ ٱلْمَوْتَ إِن كُنتُمْ
صَٰدِقِينَ ﴿٩٤﴾ وَلَن يَتَمَنَّوْهُ أَبَدًۢا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٩٥﴾
وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ ٱلنَّاسِ عَلَىٰ حَيَوٰةٍ وَمِنَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ ۚ يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ
سَنَةٍ وَمَا هُوَ بِمُزَحْزِحِهِۦ مِنَ ٱلْعَذَابِ أَن يُعَمَّرَ ۗ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴿٩٦﴾ قُلْ
مَن كَانَ عَدُوًّا لِّجِبْرِيلَ فَإِنَّهُۥ نَزَّلَهُۥ عَلَىٰ قَلْبِكَ بِإِذْنِ ٱللَّهِ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ
وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿٩٧﴾ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّلَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَجِبْرِيلَ
وَمِيكَىٰلَ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَدُوٌّ لِّلْكَٰفِرِينَ ﴿٩٨﴾﴾.

المفردات:

البينات: الواضحات. **الطور**: الجبل الذي كلم الله عليه موسى عليه السلام.

أشربوا في قلوبهم العجل: فتنوا بحب عبادة العجل كما يفتن العطشان بالشراب.

جبريل: عبد الله وهو الملك الموكل بالوحي وهو الذي نزل بجميع الكتب السماوية.

الدراسة التربوية:

﴿وَلَقَدْ جَآءَكُم مُّوسَىٰ بِٱلْبَيِّنَٰتِ ثُمَّ ٱتَّخَذْتُمُ ٱلْعِجْلَ مِنۢ بَعْدِهِۦ وَأَنتُمْ ظَٰلِمُونَ ﴿٩٢﴾﴾.

إنها مواجهة بشعة وذكرى مخجلة، اتخذتم العجل، وموسى عليه السلام بين أظهركم وعلى العهد معكم، عدلتم عن الإله الخالق إلى عجل خوّار، إنها مواقف التمرد والعصيان، ويذكرهم الله بما وقع هناك عند الجبل، ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ ٱلطُّورَ خُذُواْ مَآ ءَاتَيْنَٰكُم بِقُوَّةٍ وَٱسْمَعُواْ قَالُواْ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَأُشْرِبُواْ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْعِجْلَ بِكُفْرِهِمْ﴾ فهذه صورة واقع وليست حكايةٌ تحكى ولا قصةٌ تسرد، إنها كلمة أتبعها عمل، قالوا سمعنا بأفواههم، وعصينا بأعمالهم، والواقع العملي أقوى من القول الشفوي، إنَّ الإسلام يقرر مبدأ الإشهاد والمسؤولية، وأنه لا قيمة لقولٍ بلا عمل. فالكلمة لها مسؤولية، والعمل محاسبٌ عليه، ولهذا قال النبي ﷺ: **«وإنَّ الرجل ليتكلم بالكلمة لا يريد بها بأساً يهوي بها سبعين خريفاً في النار»**(١).

وقال عز وجل: ﴿كَبُرَ مَقْتًا عِندَ ٱللَّهِ أَن تَقُولُواْ مَا لَا تَفْعَلُونَ ﴿٣﴾﴾(٢).

ولذلك فالقاعدة الثابتة في الإسلام، أنَّ الله يتقبل العمل إذا ارتكز على إيمانٍ صحيح، ويقبل الإيمان إن برهن العبد عليه بالعمل الصالح.

إنَّ الله تعالى يُلامس القلوب لتصلح وتخشع، فإذا سطعت الحقيقة سجد العقل وخشع القلب وطابت الجارحة.

---

(١) رواه الإمام أحمد عن أبي هريرة رضي الله عنه في كتاب باقي مسند المكثرين، رقم - ٧٦١٧ -.

(٢) سورة الصف: الآية ٣.

ولذلك كان أول هذا الدين؛ اقرأ، ثم اعلم أنه لا إله إلا الله، وكلاهما خطابٌ للعقل، وبصائر لقومٍ يعقلون.

إنَّ إشراب العجل محاولةٌ عنيفة، وصورةٌ ساخرة، صورة العجل يُدخَل في القلوب إدخالاً، وهي صورة مجسَّمة لحبهم الشديد للزيغ، فلا يلتفت عن الخالق إلى العجل إلاّ معتوه، فأوكلهم الله إلى الشياطين تُشربهم إيّاه، وتزيّنه وتفتنهم به، لقد أُشربوه إشراباً، وسرى حبه في دمائهم، جزاء كفرهم وتمردهم، ومع ذلك فدعواهم عريضة، وكلماتهم رنّانة بأنهم مؤمنون، بئس العبيد هؤلاء وبئس المعبود عجلهم وبئست الجاحدة نفوسهم.

﴿قُلْ إِن كَانَتْ لَكُمُ ٱلدَّارُ ٱلْآخِرَةُ عِندَ ٱللَّهِ خَالِصَةً مِّن دُونِ ٱلنَّاسِ فَتَمَنَّوُا۟ ٱلْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٩٤﴾﴾.

لقد نصب الله عز وجل لهم العداء، فهو يتحداهم أن يتمنّوا لقاءه، لقاء الله الذي يتبجحون بالإيمان به، ويتشدّقون بأنهم أهل المكانة والشرف، فنفى الله عنهم تمنّي الموت، وذلك لما يعلمون من السوء الذي قدّموه والخزي الذي ينتظرهم بلقاء الله، فهم أحرص الناس على حياة، أيُّ حياة حرص الذي يُلقي بنفسه أينما كان، فهو يعلم المقر والمصير، فلذلك أخذوا على أنفسهم عهداً، أن يُفسدوا علينا ديننا لكيلا يدخلوا النار منفردين، يريدون أن يصيّرونا إلى الكفر الذي صاروا إليه، فلذلك هم لا يطمعون بمغفرة ولا رحمة ولا رضوان، فوطّنوا أنفسهم لينالوا من دنياهم كل ما يستطيعون، ويُفسدون ولا يُصلحون، وإخوانهم الذين تولّوهم وناصروهم، معهم لا يُفارقونهم في ذل الدنيا ولا خزي الآخرة. ولا بدَّ ليهود من مؤدبٍ قائمٍ لا يفتر، عندها تتجلى الآية بوضوح كالشمس في وضح النهار، ويحرِصون على حياة، ولذلك إذا قامت مطرقة الجهاد في سبيل الله، نكّست يهود الرؤوس وعنت الجباه جبناً وحرصاً على حياة.

وهكذا تتزاوج النفوس، فيلتقي اليهود بالمشركين الذين لا يرجون لله وقاراً، فيتمنون لو طالت الحياة، وعُمِّروا في الأرض فراراً من المصير. وهب أنَّهم عمِّروا ألف سنة، فلن يزدادوا إلا بعداً عن الله، ونفوراً من

لقائه. ما أبأس الحياة التي لا تتصل بحياةٍ سواها. إنّ الإيمان باليوم الآخر نعمة وسعة من الله، ورحبٌ فيّاضٌ بالإيمان على قلب المؤمن. صحيح أن المؤمن يبقى وجلاً من لقاء الله، ولكنّ اليقين والثقة والتسليم تمنحه الرضى والطُمأنينة، ولذلك عندما سمع عمر ﵁ رسول الله ﷺ يصف فتنة القبر والسؤال تملّكه الخوف، ثم قال: أيكون عقلي معي عند ذاك؟ قال: «**نعم**»، قال: إذاً لا أخاف. إنّها طُمأنينة المؤمن، والثقة بعدل الله ورحمته، وقد حُرمت هذا الفضل يهود ومن والاها.

وتتوالى الآيات في الإخبار عن يهود، وتاريخهم البائس المهين، مما جعلهم يكرهون الحق والحقائق، ويبغضون الله ويعلنون عليه الحرب، وهذا في نصوص كتبهم لأنه كشف لسيرتهم، وأنزلها على محمدٍ ﷺ، ويعادون جبريل عليه السلام لكونه يطّلع على أسرارهم. وجاء في فتح الباري أن سبب نزول هذه الآية: ما رواه الإمام أحمد والترمذي والنّسائي عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: «أقبلت يهود على النبي ﷺ فقالوا: يا أبا القاسم إنّا نسألك عن خمسة أشياء، فإن أنبأتنا بها عرفنا أنك نبي، واتبعناك، فسألوه عمّا حرَّم إسرائيل على نفسه، وعن علامة النبوة وعن الرعد وصوته، وكيف تذكّر المرأة وتؤنث، وعمّن يأتيه بالخبر من السماء، فأخذ عليهم ما أخذ إسرائيل على نبيّه، فقال: «**عليكم عهد الله لئن أنا أنبأتكم لتبايعنّي**»، فأعطوه ما شاء من عهدٍ وميثاق، ولما سألوه عمّن يأتيه من الملائكة، قال: «**جبريل، ولم يبعث الله نبياً قط إلا وهو وليّه**»، فقالوا: عندها نفارقك، ولو كان وليّك سواه من الملائكة لبايعناك وصدّقناك قال: «**فما منعكم أن تصدقوه؟**» قالوا: إنّه عدونا، فنزلت الآية»[1]. وقال ابن عباس رضي الله عنهما إن حبراً من أحبار اليهود من فدك يُقال له عبد الله بن صوريا، قال للنبي ﷺ: إنّ جبريل عدونا لأنه نزل بالعذاب والقتال والشدة، وأن الله أنزل على نبينا أنّ بيت المقدس سيخرب على يدي رجلٍ يُقال له بختنصّر، وأخبرنا بالحين الذي يخرب فيه، فلما كان وقته بعثنا

(١) فتح الباري شرح صحيح البخاري، كتاب تفسير القرآن، ج ٨، ص ١٦٦.

رجلاً من أقوياء بني إسرائيل ليقتله فلقيه ببابل غلاماً مسكيناً ليست له قوة، فأراد صاحبنا قتله فدفع عنه جبريل وقال لصاحبنا: إن كان ربكم الذي أذن في هلاككم فلا تسلط عليه، وإن لم يكن كذلك فعلى أي حقٍّ تقتله؟ فصدّقه صاحبنا ورجع وكبر بختنصر وقوي وغزانا وضرب بيت المقدس، فلهذا نتخذه عدواً، فأنزل الله هذه الآية[١].

ومن الأدب النبوي نتعلم، فبعد كل الذي لاقاه رسول الله ﷺ منهم، نجده يُعطيهم فرصة، بل نظرة رؤوف رحيم. بل سجية خُلقٍ عظيم، لعله يُمسك منهم بخيط يرفعهم من لوثة الكفر اللاصقة بهم، بل يهود تختلق حمقاً يسوقه هذيان، قالت: إنها تعادي حتى الملائكة، إنها تُعادي جبريل عليه السلام وهو ليس ببشرٍ تتعامل معه أو تراه، إنّه عبدٌ من عباد الله يفعل ما يؤمر، والله عز وجل لن ينزل عند رغبات اليهود، ولن يرض لنبيه أن يلتفت إلى هذا الهراء واللغو، فلقّن نبيه ﷺ الحجة المطَمْئنة فإنه نزله على قلبك، وينزّل معه ما فيه هدى وبشرى للمؤمنين، وقد جمع الله في آية: رسله، وملائكته، وجبريل وميكال في زمرة عباده الذين يحبهم، والذين اصطفاهم بعلمه، ليكونوا عدواً واحداً للكافرين.

فالوحدة التي جمعت أمر الله، ما كان ليفرقها أهواء وضغائن مفتعلة، ونفوسٌ خبيثة تمكر بالنبوة، وتتطاول على الملائكة. إنّ القلب المؤمن والنفس الرضية والمشاعر المسلمة ليس لها رأي ولا خيرة في أمر الله، وكيف يتطاول المرء ليُبدي حباً وبغضاً لإرادة الله. إنّه قلبٌ تخلى عن الإنسانية فضلاً عن الهداية الإيمانية، إنّ الوحي بريد السماء إلى الأرض فما نزل إلا بخير، ولذلك ورد أنّ أبا بكر وعمر رضي الله عنهما دخلا على أم أيمن[٢] بعد موت رسول الله ﷺ فوجداها تبكي، فقالا: ما يبكيك؟ أما تعلمين أنّ رسول الله ﷺ عند ربه؟ قالت: بلى أعلم أن رسول الله ﷺ

---

(١) أسباب النزول للواحدي.

(٢) أم أيمن أسمها بركة مولاة رسول الله ﷺ وحاضنته، وأسلمت أول الإسلام، وقال عنها رسول الله هي أمي بعد أمي ـ أسد الغابة، ج ٥، ج ٥٦٧.

انقلب إلى خيرٍ عند ربه، ولكني أبكي الوحي، أبكي انقطاع خبر السماء. فالوحي رحمةٌ من الله بالناس.

الفوائد التربوية:

١ ـ إنّ طبيعة يهود طبيعة خسيسة والرقي النفسي يرقى برقي الإيمان، فرضاهم بعبادة العجل الحيوان دليل على قدر نفوسهم الممسوخة، وتشوّقهم للبصل والعدس عوضاً عن المن والسلوى دليل انطماس ذوقياتهم.

٢ ـ إنّ الذوقيات وسمو النفس له نصيبٌ كبير في المحصّلة التربوية، وأحياناً تكون له جذورٌ فطرية، فإن لم توجد في الفطرة فالتربية توجدها بالتعويد والمتابعة. وأكثر ما يفتقد المسلمون اليوم الذوقيات ودقة المعاملة والتوازن.

٣ ـ الوقاحة وسوء الأدب من صفات اليهود، واليوم وجدنا من يعدّها فصاحة وإبداء رأي، والطفل اليوم عندما يسيء أدبه على والده أو والدته أو على من هم أكبر منه سناً، يُشجَّع بأنه يُبدي رأيه ولا يستحي فهو غير معقّد. وهذا خطأٌ جسيمٌ في التربية، كان رسول الله ﷺ أشدَّ حياءً من العذراء في خدرها. وعن عمران بن الحصين رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: **«الحياء من الإيمان، والإيمان في الجنة، والبذاء من الجفاء، والجفاء في النار»**(١).

أما إدلاء الطفل بالحجة وحسن الفهم فله مدلولٌ آخر، فعندما فزع الصبيان لمرور عمر رضي الله عنه، ولم يفزع عبد الله بن الزبير رضي الله عنه، فسأله عمر فأجاب: لم أقترف ذنباً فأخافك، وليس في الطريق ضيق فأوسع لك. هذا ذكاءٌ وسعة نظر، أما أن يعترض الطريق ولا يوسّع لمن هو أكبر منه، ويقول: حقي وأنا أتيت قبلك، ومن أنت حتى لا تنتظر، إلى آخر ما

---

(١) رواه الطبراني في الكبير، وفي شعب الإيمان للبيهقي، انظر سلسلة الأحاديث الصحيحة.

أصبحنا نسمعه من مروّجي التربية الحديثة البعيدة عن الأدب النبوي الشريف. إنّ في ديننا قيمٌ وآداب، فالصغير يقوم للكبير ويسلّم عليه، وإن كان في مقام الجد والوالد والعالم يقبّل يده ورأسه، ويجلس بين يديه بتواضع ولا يتكلم، إلا إذا طُلب منه الكلام، ونبيّنا صلوات الله عليه موسوعةٌ تربوية لمن يريد المزيد.

إن النفس لتشمئز من صفاقة اليهود، فلا يقدرون لربهم قدراً، ولا لنبي مكانةً حتى الملائكة لم تسلم من عداوتهم.

٤ ـ الأنانية وحب الذات خلُق يهوديٌّ بحت يجب الإنسلاخ منه، وضده في أدبنا الإسلامي الإيثار ﴿وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ﴾[1].

٥ ـ الملائكة من الغيبيّات التي أُمرنا بالإيمان بها، فيجب تركيز الإيمان بهم دون الغلو في الوصف، ليتعلم الطفل الأدب أمام الغيب الذي ذكره الله في كتابه.

٦ ـ نحب الملائكة لحب الله لهم، ولأنّهم لا يعصون الله، ولأنّهم نزلوا على الأنبياء وناصروهم على أعدائهم، ومنهم موكّلون بحفظنا، فهم يحبّوننا ونحن نحبّهم وهُم الكتبة البررة والشهود الحفظة، من أحبَّ الله وأطاعه أحبُّوه واستغفروا له، ومن عصى الله تأذُّوا منه ونفروا عنه. والإيمان بهم أحد أركان الإيمان الستة.

﴿وَلَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ ۖ وَمَا يَكْفُرُ بِهَآ إِلَّا ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٩٩﴾
أَوَكُلَّمَا عَٰهَدُوا۟ عَهْدًا نَّبَذَهُۥ فَرِيقٌ مِّنْهُم ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٠٠﴾ وَلَمَّا
جَآءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ نَبَذَ فَرِيقٌ مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ
كِتَٰبَ ٱللَّهِ وَرَآءَ ظُهُورِهِمْ كَأَنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٠١﴾ وَٱتَّبَعُوا۟ مَا تَتْلُوا۟ ٱلشَّيَٰطِينُ
عَلَىٰ مُلْكِ سُلَيْمَٰنَ ۖ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَٰنُ وَلَٰكِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ كَفَرُوا۟ يُعَلِّمُونَ ٱلنَّاسَ
ٱلسِّحْرَ وَمَآ أُنزِلَ عَلَى ٱلْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَٰرُوتَ وَمَٰرُوتَ ۚ وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّىٰ

(١) سورة الحشر: الآية ٩.

يَقُولَآ إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِۦ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَزَوْجِهِۦ وَمَا هُم بِضَآرِّينَ بِهِۦ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ وَلَقَدْ عَلِمُوا۟ لَمَنِ ٱشْتَرَىٰهُ مَا لَهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنْ خَلَٰقٍ وَلَبِئْسَ مَا شَرَوْا۟ بِهِۦٓ أَنفُسَهُمْ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴿١٠٢﴾ وَلَوْ أَنَّهُمْ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّقَوْا۟ لَمَثُوبَةٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ خَيْرٌ لَّوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴿١٠٣﴾﴾.

المفردات:

نبذ: طرح وألقى. **تتلو**: تحدّث وتروي.

فتنة: ابتلاء واختبار. **مثوبة**: الثواب والجزاء. **خلاق**: نصيب.

السحر: الخداع، وإظهار الشيء على غير حقيقته وهو أنواع، وكله كفر.

الدراسة التربوية:

قال مقاتل: قالت اليهود: كان جبريل عدونا، أُمر أن يجعل النبوة فينا، فجعلها في غيرنا[1] فأنزل الله:

﴿وَلَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ وَمَا يَكْفُرُ بِهَآ إِلَّا ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٩٩﴾﴾، فالله هو الذي أنزل الآيات بأمره وإرادته، وما جبريل إلا ملك كريم وهو روح القدس الأمين، ولكن سفه اليهود الذين لا يرعون عهداً ولا يقيمون ذمة حتى صار الكفر والفسوق لهم ديدن، وما يؤمن منهم إلا القليل. والمتوقع أن تكون اليهود أشد الناس فرحاً برسول الله ﷺ لأنه جاء بالحق الذي صدَّق ما بين أيديهم من بقية كتاب وصدَّق دعواهم بأنهم بقايا مؤمنين، وأنَّ فيهم أصل انتماء إلى كتابٍ ورسول، ليجدّدوا على يديه العهد والتوبة، ولكن أنّى لهؤلاء أن يرتفعوا ولو مرة، وينسلخوا عن أصولهم الممسوخة، بل لهثوا وراء الشيطان والخرافة والكفر والضلال، فكانوا ولا زالوا روّاد السحر والكهانة والإيذاء والوقيعة بين الناس.

---

(١) أسباب النزول للواحدي.

﴿وَاتَّبَعُوا مَا تَتْلُوا الشَّيَاطِينُ عَلَى مُلْكِ سُلَيْمَانَ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ﴾. لقد اتهموا نبيهم سليمان عليه السلام بالسحر، فبرأه الله عز وجل، ﴿وَمَا أُنزِلَ عَلَى الْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَارُوتَ وَمَارُوتَ﴾، فالمفسرون فيها على مذهبين، فمنهم من قال: ما نافية ومنهم من قال: ما اسم موصول بمعنى الذي. فإذا قلنا ما نافية، تكون ما كفر سليمان، وما أنزل على الملكين، جملة معطوفة فتكون براءة لميكائيل وجبرائيل، الذين اتهمتهم يهود بتعليم السحر، ولكن الشيطانين هاروت وماروت كفرا، يعلّمان الناس السحر ببابل، هذا مذهب القرطبي في فهم الآية. وقد وجّه ذلك من حيث اللغة والإعراب، والقول الذي يعتبر ما نافية، وما أنزل على الملكين جملة اعتراضية، فيصير المعنى (ولكنّ الشياطين كفروا، يعلمون الناس السحر، يعلمون هاروت وماروت، وهاروت وماروت يعلمان الناس) وما يعلّمان من أحدٍ حتى يقولا: إنما نحن فتنة فلا تكفر، وتبقى العصمة للملائكة.

وأما القول على أن ما اسم موصول، يكون المعنى أنَّ الملكين نزلا ابتلاءً للناس فلا يعلّمان أحداً السحر حتى ينهياه عن ذلك، فإذا أصرَّ على التعلم، يكون قد اختار الكفر، فيستحق عذاب الله. واختلف المفسرون هل هاروت وماروت ملكين أُنزلا من السماء ليعلموا الناس السحر، فيفرّقون بين السحر والمعجزة، أم أنهما شيطانان!! والمفسرون في ذلك على أقوال، ولم يصح شيءٌ عن النبي ﷺ، ونستأنس بحديث إسحاق بن إبراهيم قال: حدثنا جدي قال: أخبرنا حصين بن عبد الرحمن، عن عمران بن الحارث قال: بينما نحن عند ابن عباس إذ قال: إن الشياطين كانوا يسترقون السمع من السماء، فيجيء أحدهم بكلمة حق، فإذا جرب من أحدهم الصدق، كذب معها سبعين كذبة، فيشربها قلوب الناس، فاطّلع على ذلك سليمان عليه السلام، فأخذها فدفنها تحت الكرسي، فلما مات سليمان عليه السلام، قام شيطان بالطريق، فقال: ألا أدلكم على كنز سليمان المنيع الذي لا كنز له مثله؟ قالوا: نعم، قال: تحت الكرسي. فأخرجوه، فقالوا: هذا سحر سليمان، سحر به الأمم، فأنزل الله عذر سليمان. واتبعوا ما تتلوا الشياطين على

ملك سليمان، وما كفر سليمان[1].

ولذلك أكثر ما يوجد السحر في اليهود. فالمفروض أن يستقر في حس المسلم عند تلاوة هذه الآية أنّ السحر حرام، وأنّ الأنبياء والملائكة مبرؤون منه، ونؤمن بما ورد في القرآن، وبما أراده الله تعالى والله أعلم بحقيقة ما أنزل.

وقد كثر لغط الإسرائيليات في هذه القصة، فالمؤمن يلتزم بالأدب النبوي، ويقف عند الحدود والهدف من الآيات.

والسحر من الموبقات السبع المهلكة، لا يلجأ إليه مؤمن رضي بالله ربّاً وبالإسلام ديناً وبالقرآن شريعةً وحكماً وبمحمدٍ ﷺ نبياً ورسولاً.

ولأئمة الفقه فيه أقوال. وكل ما في الموضوع هو جري بني إسرائيل وراء الأساطير ونبذ كتاب الله الذي فيه الخبر اليقين، ويجب أن نعرف السحر من عمل الشيطان وأنّه كفر يُدان به الإنسان، ويفقد في الآخرة كل نصيب وكل رصيد.

الفوائد التربوية:

١ ـ احترام الأنبياء عليهم السلام واجب، والتركيز على ذلك مسؤولية المربين.

٢ ـ السحر والسحرة، كلمات لها رنين في عالم الأطفال، وكثير من برامج الأطفال تُثير اهتمام الأطفال بالساحرة، ويجعلونها في محل إعجاب، وكأنّها ممن يعلم الغيب، أو من يأتي بما يعجز عنه الناس، فالتوجيه غير المباشر يستهدف أطفال المسلمين ويُلقي في روعهم براعة الساحر والساحرة.

٣ ـ هناك معادلة كأنها لا تُخطىء، كلما ابتعد الناس عن الله، وضعفت عقيدة الإيمان بالقضاء والقدر، كلما اتّجه الناس إلى السحرة أكثر، يستعيذون بهم لجلب الحظ والمحبة، أو الإيذاء والصرف وغير ذلك، أو

(١) أسباب النزول للواحدي.

يلجؤون لتسخير الجن لتحقيق مآربهم، حيث ضعفت دوافع الدعاء واللجوء إلى الله عز وجل.

٤ ـ السحر كفر، لا يُرجّى لصاحبه توبة، على قول بعض الفقهاء، وقد أمر رسول الله ﷺ بقتل الساحر. ومن واجب المربين ترسيخ الإيمان بالله، وشحن عقول الأطفال بأنَّ هؤلاء السحرة والكهنة هم أبرع الناس بالكذب على الله ورسوله ﷺ والمؤمنين، والمؤمن إذا حصّن قلبه باليقين، وجعل لسانه دائماً رطباً بذكر الله، وسخر نفسه وطاقته وكل ما يملك لله ربِّ العالمين، فيحصل على الحصانة الإلهية ﴿إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَـٰنٌ﴾[(١)] ﴿وَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِ حِجَابًا مَّسْتُورًا ﴿٤٥﴾﴾[(٢)] وكيف يُسحر من تعلم المعوّذتين، وكيف يقترب الجني من جسدٍ تكفل الله بحفظه ﴿لَهُۥ مُعَقِّبَـٰتٌ مِّنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦ يَحْفَظُونَهُۥ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ﴾[(٣)]. ورأس الأمر اليقين، ﴿وَمَا هُم بِضَآرِّينَ بِهِۦ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾.

٥ ـ إنّ أفلام الرسوم المتحركة هزّت العقائد في رؤوس الأطفال، وهاجمت الإيمان بالغيب، والمربّون مسؤولون أمام الله عن النتائج، حيث تؤثر على العقائد بطريقة سلبية جداً، وأصبح في معتقد الطفل أنّ الشيء الذي يعجز عنه الإنسان أو يفقده لن يوجده له إلا الساحر، أو لن يتحقق إلا بطريق السحر، وهذه بعض أضرار الخرافات والأوهام التي تراقبها العيون البريئة، والعقول المتفتحة.

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَقُولُوا۟ رَٰعِنَا وَقُولُوا۟ ٱنظُرْنَا وَٱسْمَعُوا۟ ۗ وَلِلْكَـٰفِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٠٤﴾ مَّا يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَـٰبِ وَلَا ٱلْمُشْرِكِينَ أَن يُنَزَّلَ عَلَيْكُم مِّنْ خَيْرٍ مِّن رَّبِّكُمْ ۗ وَٱللَّهُ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِۦ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ﴿١٠٥﴾ ۞ مَا نَنسَخْ مِنْ ءَايَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَآ أَوْ مِثْلِهَآ ۗ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٠٦﴾ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۗ وَمَا لَكُم

---

(١) سورة الحجر: الآية ٤٢.
(٢) سورة الإسراء: الآية ٤٥.
(٣) سورة الرعد: الآية ١١.

﴿مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿١٠٧﴾ أَمْ تُرِيدُونَ أَن تَسْـَٔلُوا۟ رَسُولَكُمْ كَمَا سُئِلَ مُوسَىٰ مِن قَبْلُ ۗ وَمَن يَتَبَدَّلِ ٱلْكُفْرَ بِٱلْإِيمَٰنِ فَقَدْ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ﴿١٠٨﴾﴾.

المفردات:

راعنا: كلمة سب وإيذاء في العبرية بمعنى الرعونة. **نصير:** معين.

ننسي: من النسيان أي نمحوها من الذاكرة. **يود:** يتمنى.

ننسخ: النسخ في اللغة الإبطال، وفي الشرع رفع حكم شرعي وتبديله بحكم آخر.

الدراسة التربوية:

ناداهم الله عز وجل بصفة الإيمان التي افتقدتها يهود، وبالنبرة الحانية المميزة لهم من قبل الله، لا تقولوا راعنا، وكانت اليهود تقولها شتيمةً لرسول الله ﷺ يقصدونها بلغتهم، والمسلمون حسبوها كلمة انتظارٍ وتوقير، أو ارعنا ونرعاك واحفظنا ونحفظك، ولكن العليم بالنوايا وما تكنّه الصدور نهى الطليعة المؤمنة أن تتشبه بيهود ولو بكلمةٍ مبهمة، وفي كثير من المواقف القرآنية، يجمع الله بين اليهود والمشركين ـ في الحالات النفسية، والتصرفات العدوانية، والأُمنيات الشيطانية ـ ﴿مَّا يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ وَلَا ٱلْمُشْرِكِينَ أَن يُنَزَّلَ عَلَيْكُم مِّنْ خَيْرٍ مِّن رَّبِّكُمْ ۗ وَٱللَّهُ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِۦ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ﴿١٠٥﴾﴾.

إنّ الله عز وجل شبَّه أهل الكتاب، اليهود والنصارى والمشركين بعضهم ببعض، ولكنه لن يرضى أن يتشبّه بهم المسلمون. فهؤلاء جمعتهم الأمنيات البغيضة، وأما المسلمون المتميّزون بالنداء ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ والمتميّزون بنبي الرحمة ﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢٨﴾﴾[1]، والمتميّزون

(١) سورة التوبة: الآية ١٢٨.

بالذكر المحفوظ ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ۝٩﴾[1]، والذكر هو القرآن والسنة، لأنّ حفظ القرآن يستلزمه حفظ السنة الشارحة له. الأمّة التي حباها الله بهذه المميزات وجعل فيها الخيرية دون كل الأمم ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ﴾[2]، وخصّ نبيّها بدرجة الشفاعة، بعد كل هذا ترتكس لتتشبّه باليهود والنّصارى، والتشبّه أمرٌ واضح وحسٌ متبلد، وقد نهى النبي ﷺ عن التشبه بالحيوان لتحقيق كرامة الإنسان، فنهى عن إقعاء الكلب في الصلاة، وافتراش الثعلب ونقر الديك وأن يتوطّن الإنسان في المسجد كما يتوطّن البعير، أي يلازم مكاناً معيناً، ونهى عن تشبّه الرجال بالنساء فيما هو من خصوصيات النساء، ونهى النساء عن التشبه بالرجال فيما هو من خصوصيات الرجال، ويكون التشبه في التصرف والقول والمشية واللباس والزيّ والتسريحة وقصة الشعر وكل ما أُضمرت له نية التشبّه، ونهى وشدّد في تشبّه المسلمين بالكفار فيما هو عَلَمٌ على الكفر، أو تشبّهٌ بالفاسقين فيما هو عَلَمٌ على الفسوق، وليس من تشبّه في أمورٍ تشترك بها المخلوقات كالنّوم والأكل والشرب والنكاح والتناسل. ولكن هناك تقليد طرق ذلك، وأعظم النهي يكون فيما يصطدم مع نصوص شرعنا، ولا يزال التقليد والتشبّه بالمرء حتى يتحول إلى اتّباعٍ وولاء، فتتولد المحبة ويختل الاتزان وتُشرخ العقيدة بطريقة غير مباشرة، لأنّ صفاء القلب يقوم على الحب والبغض، فإذا توجّه الحبُّ لمن يبغضهم الله ورسوله ﷺ اختل ميزان البغض، وتسلّطت النكت على القلب، ولا تزال به حتى ينتكس. ولذلك تواترت الأحاديث في الصحاح، تؤكد ذلك وتنفّر منه، وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**لتتبعنَّ سنَنَ الذين من قبلكم، شبراً بشير، أو ذراعاً بذراع، حتى لو سلكوا جُحر ضب لسلكتموه**» قالوا: اليهود والنصارى قال: «**فمن؟**»[3]. وقال عن ابن عباس رضي الله عنهما عن النبي ﷺ:

---

(١) سورة الحجر: الآية ٩.

(٢) سورة آل عمران: الآية ١١٠.

(٣) رواه البخاري في كتاب أحاديث الأنبياء، رقم ـ ٣١٩٧ ـ.

«**لتركبنَّ سنن من كان قبلكم شبراً بشبر، وذراعاً بذراع، حتى لو أنَّ أحدهم دخل جُحر ضبٍ لدخلتم، وحتى لو أنَّ أحدهم جامع امرأته بالطريق لفعلتموه**»[1]، وقال: «**ليس منّا من تشبّه بغيرنا، لا تشبّهوا باليهود ولا بالنصارى، فإنَّ تسليم اليهود الإشارة بالأصابع، وتسليم النصارى الإشارة بالأكف**»[2]، وقال: «**من تشبه بقوم فهو منهم**»[3]. وأقسم عبد الله بن مسعود ﷺ وقال: لو قام بين الركن والحجر سبعين عاماً ما حشره الله إلا مع من أحب، لأنَّ الاتباع يؤدي إلى حب، وجاء في الصحيح عن ابن مسعود ﷺ عن النبي ﷺ أنه قال: «**المرء مع من أحب**»[4]، ونهى عن اتخاذ «الباروكة» ـ وصلة الشعر ـ لأنَّ نساء يهود اتخذنها وسمّاها غش، ونهى عن تبختر النّساء وإبداء زينتهنّ في المساجد لأنَّ نساء يهود فعلنه فكان سبب هلاكهم لأنَّه إذا اقتحمت المعاصي بيوت الله فعلى الأُمم الدمار. ونهى عن التشبه باليهود حتى في العبادة، وقدم رسول الله ﷺ إلى المدينة، فرأى يهود تصوم عاشوراء فصامه، وقال: «**لئن بقيت إلى قابل لأصومنَّ التاسع والعاشر**»[5]، وقال: خالفوا يهود، وهذا دليل على أن تقليد يهود أو التشبه بهم أو اتباعهم يشرخ الإيمان لأنّهم أعداء الله ورسوله ﷺ والأنبياء جميعاً، ولذلك وجب علينا تربية حِسّنا الإسلامي لنجعله يُعجب ببيت النبوة والصالحين، ويصبح عندنا حساسيةً مفرطة من بيوت الأزياء اليهودية التي تقود «الموضة»، وتطالعنا في كل صباح بزيٍّ وإعلام وعطورٍ وبريق وتسريحة شعر وتقليعة ظفر وأُصولٍ وهندام وتلوين وجوهٍ ورؤوس، مما جعل المرأة المسلمة التي افتقدت الطرق المعبَّدة إلى بيوت النبوة تلهث وراءهم، تنال من زوجها أو من كدِّ جسدها قسطاً لا يُستهان به من التكاليف، يُضاهي تكاليف الطعام والشراب الذي جعله الله

---

(١) رواه البزّار، سلسلة الأحاديث الصحيحة، رقم ـ ١٣٤٨ ـ.

(٢) عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده، في كتاب الاستئذان والآداب، رقم ـ ٢٦١٩ ـ.

(٣) رواه أبو داود عن عبد الله بن عمر، في كتاب اللباس، رقم ـ ٣٥١٢ ـ.

(٤) رواه البخاري في كتاب الأدب ـ ٧٥٠٢ ـ.

(٥) رواه مسلم في كتاب الصوم ـ ١٩١٧ ـ.

لابن آدم قوتاً يتقوّى به على طاعة الله، وإن كانت من الذين قتَّر الله عليهم بالرزق فيكون المصروف على هذا البلاء في نظرها أوجب، لأنّه سترها الذي ستجاري فيه النّاس، ولا يمكن أن نستوفي كل معاني وخلفيات وأضرار التشبه ووقعه ومردوده في هذا المجال، وقد تسللت شوائبه في شبكة العقيدة الأولى، فخلخلت معاني لا إله إلا الله في القلوب، وما حصدناه في ناشئة اليوم بعضاً من تلك الخلخلة، ولا يزال المرء يتشبه ويقلد ويحب حتى يصل إلى المرحلة التي يأس الله فيها نبيه ﷺ وقال: ﴿تَشَٰبَهَتۡ قُلُوبُهُمۡۗ﴾ حيث يقع تشابه القلوب، ويتّحد المصير في القبر والحشر والمستقر والعياذ بالله، فيهود تخطط وإبليس يزيّن، والناس يُنفذون والملكان الكريمان يُحصيان ويكتبان ويشهدان.

﴿مَّا يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ وَلَا ٱلۡمُشۡرِكِينَ أَن يُنَزَّلَ عَلَيۡكُم مِّنۡ خَيۡرٖ مِّن رَّبِّكُمۡۚ﴾.

إنّ الخير الذي أنزله الله على هذه الأمة كانت يهود وكل أهل الكتاب يعرفونه، والذي أُنزل عليه هذا الخير يعرفه أهل الكتاب والمشركون معرفةً حقيقية، عرفوه وليداً مباركاً محفوفاً برعاية إلهيةٍ خاصة، وعرفوه صبياً ظللته الغمامة ونبأتهم بشأنه الأحبار والقساوسة، وعرفوه نبياً مرسلاً وجدوه مكتوباً عندهم، ولكن طمس البصيرة شيءٌ غلاّب، وكثيرٌ من الناس اليوم يقولون: نتبع الحركات المنحرفة لنرى ما عندهم فما يلبثون أن يكونوا من دعاتها، فالمعرفة لا تكفي وإنّما الدين هو الإخلاص والثبات والولاء.

إنَّ الضغينة والحسد عندما يُغلقان قلب المرء لا ينفذ إليه نور، ويتعطل خط الوعي الذي يصل الأُذن بالقلب، عندئذٍ يتحول الإنسان إلى آلةٍ مفسدةٍ تضرب بأسنانها الحادة على جميع الأوتار.

﴿مَا نَنسَخۡ مِنۡ ءَايَةٍ أَوۡ نُنسِهَا نَأۡتِ بِخَيۡرٖ مِّنۡهَآ أَوۡ مِثۡلِهَآۗ﴾.

قال المفسرون: إنّ المشركين قالوا: أترون إلى محمد؟ يأمر أصحابه بأمرٍ ثم ينهاهم عنه ويأمرهم بخلافة ويقوله اليوم قولاً، ويرجع عنه غداً، ما هذا في القرآن إلا كلام محمد، يقول من تلقاء نفسه، وهو كلامٌ يُناقض

بعضه بعضاً، فأنزل الله عز وجل: ﴿مَا نَنسَخْ مِنْ ءَايَةٍ أَوْ نُنسِهَا ﴾[1]، وهناك قراءتان، الأولى: نُنْسها، أي نمحها من قلبك. والثانية: ننسأها، أي نؤخرها، والجمهور على القراءة الأولى، والله أعلم.

والنسخ والإثبات حق الله تبارك وتعالى فما كان للمرء أن يتدخّل لا من قريب ولا من بعيد، ويميل المفسرون على أنّ أول نسخ وقع في تحويل القبلة، وقامت يهود ولم تقعد مشككةً ومحرضةً تشعل فتيل الفتن، وفي الناسخ والمنسوخ حكمة، قد ندرك قريبها البسيط، ويخفى علينا جوهرها البعيد، وما دام الأمر كله فوق نطاق القدرة البشرية فالحق هو الاستسلام، والإقرار بأنَّ الله على كل شيءٍ قدير. وما دام الخلق خلقه والعبيد مخاليقه والتنزيل كلامه والدعوة دعوته والدين له وإليه، فِلمَ التطاول من هذا المخلوق الحقير إن غيَّر الله أو بدّل، أو أثبت أو أنسى، إنّ اليهود والرافضة أنكروا النسخ، ويهود ذووا الطبع الخسيس لا وفاء لهم ولا طاعة، بل جبلّتهم الغدر والمعصية، والقرآن كان يتابع قيام الدولة الفتية التي قوامها تلك الجماعة الناشئة على عين الله، فتدخل القرآن في وقائع فردية بأحكام آنية، ثمَّ يستقر الأمر فتنسخ، ويحل محلها أحكام أشمل، أو أنّ هناك أمور تربوية تؤتي غرضها ثم ينتهي الموقف، فينسخ الحكم، مثل قضية تحويل القبلة، فهي أكبر حدث تربوي أمر الله به نبيه، وتأصيل في التركيبة الإيمانية ليس له مثيل، فهذا أمر الله ولا ينبئك مثل خبير، فتحريك المسلمين للسؤال والجدل والريبة لا يتفق مع الثقة واليقين والتربية الإيمانية التي يتلقونها، وللنسخ حالات متعددة، فبعضها نسخ الحكم قولاً وكتابة وفعلاً، وبعضها نسخ الحكم تلاوة وإثباته حكماً، وبعضه نسخ الحكم حكماً وإثباته تلاوةً، ولله فيما أنزل شؤون وليس في القصص والأخبار ناسخٌ ومنسوخ، وقد استغل اليهود والرافضة هذه الجزئية في الأحكام، وافتعلوا منها ثغرات ينفذون منها إلى هذا الدين فالحق بيِّن وحكم الله واضح وضوح الشمس، ولذلك عجب الله لحال قريش أهل اللغة وأصلها والذين أقروا وشهدوا بأنّ

---

(١) سورة البقرة: الآية ١٠٨.

هذا القرآن ليس من وضع البشر، عجب الله منهم، كيف يلتفتوا إلى جعجعة اليهود، وقال: ﴿أَمْ تُرِيدُونَ أَن تَسْـَٔلُوا۟ رَسُولَكُمْ كَمَا سُئِلَ مُوسَىٰ﴾؟ قال ابن عباس رضي الله عنهما «أغرت اليهود قريشاً، ليسألوا رسول الله ﷺ أن يجعل لهم الصفا ذهباً، وأنّ يوسّع لهم أرض مكة، وفجر فيها الأنهار»[1] أسئلة تحاكي أسئلة اليهود لسيدنا موسى عليه السلام، فحذّرهم الله عز وجل طرق الضلال واستبدال الإيمان بالكفر.

الفوائد التربوية:

١ ـ استشعار معاني صفة الإيمان، وحبذا لو يسلكِ المربّي أسلوب التحبيب الإيماني، ففي الثناء يُقال، هذا سلوك المؤمنين، أو هذا نور الإيمان، وكذلك في التنفير، لا يليق فعل كذا بالمؤمن، ولا يفعل هذا المؤمن، حتى يتحسس المتربي، معاني الإيمان، وأنها أجمل صفة يتحلى بها المرء.

٢ ـ الابتعاد عن التشبّه، وتبدأ رحلته التربوية من سنٍ مبكرة جداً، وتنفير الطباع السليمة منه، وعلى النقيض من التشبه يُبنى التميّز، وتنشأ الشخصية الإسلامية المتميزة.

٣ ـ التنبيه الدائم والمستمر على كراهية الكفار لنا، حتى وإن قدّموا لنا العسل، فما هو إلا مقدّمة لتقديم السُّم، وغرس عدم الثقة بالكفار واجبٌ إيمانيٌ بله الإعجاب بهم، إنّهم قلوبٌ خبيثة تخنس وراء ابتسامةٍ عريضة.

٤ ـ تدريب الطفل على التوازن، فالثقة والإعجاب والركون والإنشراح شيء، والمعاملة خذ وهات شيئاً آخر، فنحن نتعامل مع الكفار بغاية الاستقامة والنصح لتتحقق فينا صفة الخيرية وأُستاذية العالم، وليس ذلك على حساب ديننا.

٥ ـ تعظيم الله وآياته وكلامه، وأن يشعر الطفل أنّ الحديث عن الله

---

(١) أسباب النزول للواحدي.

وكتابه وأحكامه له حرمة وله آداب، فلا يسأل عن معنى آية وهو مستلق، ولا يتحدّث عن الله وصفاته وهو يلوك لبانه، أو واضعاً رجله على الأُخرى، ولا بدّ أن يتعوّد أن يعدّل جلسته ويستصغر شأن نفسه ويعظّم خالقه ويتعوّد السؤال في أحكام القرآن وعلومه سؤال المتواضع الطالب للعلم.

٦ ـ ومن هذا السلوك المهذب ينبثق حب رسول الله ﷺ وتعظيمه، لأنّه هكذا كان شأنه مع ربه، شأن المهذب المتواضع المتذلل المستسلم، وهذه أخلاقٌ افتقدتها أجيالنا، وهذه بعض بنود ﴿فَٱتَّبِعْنِىٓ أَهْدِكَ صِرَٰطًا سَوِيًّا ﴾[1].

﴿وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّنۢ بَعْدِ إِيمَٰنِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْحَقُّ ۖ فَٱعْفُوا۟ وَٱصْفَحُوا۟ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٠٩﴾ وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ ۚ وَمَا تُقَدِّمُوا۟ لِأَنفُسِكُم مِّنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِندَ ٱللَّهِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿١١٠﴾ وَقَالُوا۟ لَن يَدْخُلَ ٱلْجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوْ نَصَٰرَىٰ ۗ تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ ۗ قُلْ هَاتُوا۟ بُرْهَٰنَكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١١١﴾ بَلَىٰ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُۥٓ أَجْرُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١١٢﴾ وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ لَيْسَتِ ٱلنَّصَٰرَىٰ عَلَىٰ شَىْءٍ وَقَالَتِ ٱلنَّصَٰرَىٰ لَيْسَتِ ٱلْيَهُودُ عَلَىٰ شَىْءٍ وَهُمْ يَتْلُونَ ٱلْكِتَٰبَ ۗ كَذَٰلِكَ قَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ مِثْلَ قَوْلِهِمْ ۚ فَٱللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿١١٣﴾﴾.

المفردات:

اصفحوا: سامحوا. **ود**: تمنى.

هوداً: جمع هائد وهو التائب. **برهانكم**: البرهان الحجة والدليل.

أمانيهم: جميع أمنية وهي ما يتمناه الإنسان ويشتهيه. **أسلم**: استسلم وخضع.

الدراسة التربوية:

إنها أمنية تجتمع عليها ملة الكفر جميعاً، وهي أن يردونا عن ديننا،

---

(١) سورة مريم: الآية ٤٣.

كما قال الكاتب المستشرق زويمر «نحن لا نريد أن نخرج المسلمين من الإسلام لندخلهم في النصرانية، ولكننا نريد أن نجعل المسلمين بلا دين»[1].

إنّ الحسد الذي يغلي في قلوبهم هو الذي جعلهم يؤلّبون أهل الأرض كلهم على الإسلام والمسلمين، حتى اجتمع علينا أبناء جلدتنا، يتكلمون بألسنتنا، دعاة على أبواب جهنم، يُنفخّون لإطفاء شعلة الإيمان، والله متممُّ نوره ولو كره الكافرون. فالإسلام باقٍ والدعوة باقية، والدعاة هم السلسلة البشرية التي تسلمت الأمانة من الأنبياء ماضون بها، حتى يرث الله الأرض ومن عليها، فلتحسدنا يهود، فنحن جندٌ وليّنا الله عز وجل، وفينا قال الله سبحانه: ﴿وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ ﴿١٧٣﴾﴾[2] ونحن أمةٌ ربّاها الله بهذا القرآن، ووجهها لتكون حاملة نوره والهادية إليه، فلذلك كانت سلماً على أعدائها يوم وجهها الله للسلم، وحرباً عندما استنفرها للحرب، ونزلت هذه الآيات، ولا زالت الأمة المسلمة ناشئة لم يشتّد عودها بعد، فأمرت بالعفو والصفح حتى أنزل الله ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَٰتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا۟ ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ ﴿٣٩﴾﴾[3]، فالأمة التي يعدها الله النصر، هي الأمة المختارة لعمارة الأرض وإسعاد البشر.

إنَّ الأصل الرباني والقاعدة النبوية هي الإحسان، أعداؤنا يتمنون ردتنا وخسراننا، ويوجهنا ربنا للعفو والصفح، إنها التربية التي استفاد من ثمارها القريب والبعيد والعدو والصديق، إنّ الأدب الرباني خرّجنا أصحاب دعوة، وأهل مبدأ، ورسول الله ﷺ لم يقنط لحظةً واحدةً من دعوة يهود إلى الحق، وبهديه اهتدى الصحب الكرام، فهذا عمر رضي الله عنه يصبر على أذى جاره اليهودي حتى سئم اليهودي من نفسه، ودخل في دين عمر، إن الذين يتسابقون اليوم لإيذاء أهل الكتاب الذين يساكنون المسلمين، هؤلاء

---

(١) كتاب الغارة على العالم الإسلامي.
(٢) سورة الصافات: الآية ١٧٣.
(٣) سورة الحج: الآية ٣٩.

ليسوا على هدي رسول الله ﷺ. نحن حربٌ على الحربيين ودعاة للمسالمين، وإلا فكيف يُسلم الناس؟ وقد ورد في مصنَّف الهداية في الفقه الحنفي(*)، أنه كان لعمر عاشر[1] يعشر الناس أي يجمع زكاتهم، حيث كانوا في البراري والأماكن البعيدة، فمرَّ العاشر بشيخٍ نصراني فعشره، ثم مرَّ عاشرٌ آخر، يريد أن يعشره، فقال: مرّني عاشرُ عمر، وأخذ نصيبه، فأبى عليه العاشر، فأتى الرجل إلى المدينة، وجثا بباب المسجد لا يدخله وقال: نادوا لي أمير المؤمنين، فأتى إليه عمر ﷺ فقال: أنا الشيخ النصراني أرفع إليّك حاجتي، قال عمر: قل وأنا الشيخ الحنفي أسمع، فاشتكى إليه أمر العاشر، فقال عمر: سننظر في أمرك وتركه، فيئس النصراني، وانصرف وقال: لا خير في ذلك، فلما وصل، وجد غلام عمر قد سبقه يقول للعاشر: دعه ما دام عشره غيرك، فقال الشيخ: دين قوامه العدل هكذا، حريٌ أن يُتّبع، فشهد أن لا إله إلا الله محمد رسول الله، ولحق بعمر في المسجد.

فالتوجيه الإيماني للعفو والصفح لا لضعفٍ في المسلمين، وإنّما لإثبات حق وإقامة دين وإحياء دعوة، وإن تحرك الناس لدنياهم، فليتحرك حملة هذا الدين لأُخراهم، يعرفون ثوابت دينهم، فيقيمون الصلاة، ويؤتون الزكاة، وينتظرون أمر الله. ﴿إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا ﴾[2].

﴿وَقَالُوا لَن يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوْ نَصَارَىٰ تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿١١١﴾﴾.

إنّ شنشنة يهود، كالهشيم يلامس سفح الجبل، أين يهود من الحق، وأين يهود من الجنة التي يتمنون، أين هم من ريحها، وعبق شذاها، وقد ضربت عليهم الذلة والمسكنة، وباؤوا بغضبٍ من الله.

(*) الهداية لعلي بن أبي بكر المرغياني، ج ٢، باب الزكاة، ص ٢٢٩.

(١) العاشر هو الذي يجبي الزكاة ويجمعها.

(٢) سورة الكهف: الآية ٣٠.

إنّ اليهود أمةٌ أوجدها الله ليتجسّد فيها الشر كله، «وقديماً قسم الرومان الناس قسمين: رومان وبرابرة، وقسمهم العرب قسمين: عرباً وعجم، وقسمهم اليهود منذ خمسة وثلاثين قرناً قسمين: يهوداً وجوييم، أي كفرة وبهائم وأنجاس. ويعتقد اليهود ـ حسب أقوال التوراة والتلمود ـ أنَّ نفوسهم وحدهم مخلوقة من نفس الله، وأنَّ عنصرهم من عنصره وأنَّ الله منحهم الصورة البشرية تكريماً لهم، على حين أنه خلق غيرهم الجوييم من طينة شيطانية أو حيوانيةٍ نجسة، ولم يخلق الجوييم إلا لخدمة اليهود، ولم يمنحهم الصورة البشرية إلا محاكاة لليهود، ليسهل عليهم استخدام الجوييم. ولذلك فهم أصلاء الإنسانية وبالتالي فلن يدخل الجنة غيرهم»[1]. وهذا هو الشر الذي تجسَّد فيهم.

﴿بَلَىٰ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ﴾ إسلام وإحسان، قمة التربية فلا إسلام بغير عمل، ولا إحسان ولا مراقبة إلا بتحديد الوجهة لله والإخلاص والنية ﴿فَلَهُۥٓ أَجْرُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾، ﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ لَيْسَتِ ٱلنَّصَٰرَىٰ عَلَىٰ شَىْءٍ﴾، إنها قولة الباطل الذي يدمغه باطل فإذا هما زاهقان، لقد تلاطم الكفر بالكفر، والله هو الذي سيفصل بينهم يوم القيامة، إنَّ ضلال النصارى سهَّل عملية تهويدهم، وتحريف الإنجيل فتح ثغرات للصهيونية لتدخل منها إلى تهويد النصرانية وجعل النصارى يلهثون وراء جنة اليهود، ومن تعاليم الإنجيل المحرف ـ كذباً على لسان المسيح عليه السلام ـ إنَّ تحقيق المخططات اليهودية من صلب ما دعى إليه المسيح عليه السلام، وإنّ تسخير اليهود للنصارى، أمرٌ يباركه الرب، واستطاعت يهود من خلال التلاعب بالنصوص، أن توجد عبارات تهلل وتمجد لملك إسرائيل ولجيل الأسطورة الكاذب، وأن تفض النَّاس عن اتباع سيدنا محمد ﷺ الذي يجدونه مكتوباً عندهم، وأوجدت يهود قساوسة ورهبان يهود متنصرين يبيعون صكوك الغفران ويفرزون أراضي الجنة لكل من حقق رغبات اليهود، لأن رغباتهم هي رغبة الله عز وجل وإرادته، وجنَّدوا العالم

(١) نقلاً عن كتاب بروتوكلات حكماء صهيون، ص ٥١.

النصراني بكنائسه ورهبانه وقساوسته ليدور في فلك اليهود، ونشروا الفساد داخل الكنائس، وكل يوم يُفصح الإعلام عن فضائح الجنس والمخدرات بين الزهاد والعبّاد منهم.

الفوائد التربوية:

١ ـ تعميق البناء الفكري في نفوس الناشئة، وتوعية الجيل بالعدو الحقيقي.

٢ ـ قال المفكرون الإسلاميون، والعلماء العاملون، إنَّ معرفة العدو هي أول خطوات النصر.

٣ ـ التوازن يحتاج إلى دراسة تربوية ومتابعة، حتى يعرف المسلم كيف يتعامل مع عدوه، دون أن يشرخ إيمانه أو يرضى الدنية في دينه.

٤ ـ الصلاة لقاء روحي وزاد تربوي، فلا بد من الإكثار منها حتى تثبت القدم.

٥ ـ لا بد من تزويد الطفل بمعلومات عن اليهود وأفعالهم وتدبيرهم سابقاً ولاحقاً، حتى تتفتح بصيرته ويدرك مآربهم في القضاء على هذا الدين.

٦ ـ الإسلام والإحسان شجرة مثمرة، تتمثل في شباب وفتيات الدعوة، وكلما أحسن المربي المراقبة طابت الثمار.

﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن مَّنَعَ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ أَن يُذْكَرَ فِيهَا ٱسْمُهُۥ وَسَعَىٰ فِى خَرَابِهَآ ۚ
أُو۟لَٰٓئِكَ مَا كَانَ لَهُمْ أَن يَدْخُلُوهَآ إِلَّا خَآئِفِينَ ۚ لَهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا خِزْىٌ وَلَهُمْ فِى
ٱلْءَاخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١١٤﴾ وَلِلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُ ۚ فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا۟ فَثَمَّ وَجْهُ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ
ٱللَّهَ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿١١٥﴾ وَقَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدًا ۗ سُبْحَٰنَهُۥ ۖ بَل لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ
وَٱلْأَرْضِ ۖ كُلٌّ لَّهُۥ قَٰنِتُونَ ﴿١١٦﴾ بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ وَإِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ
كُن فَيَكُونُ ﴿١١٧﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ لَوْلَا يُكَلِّمُنَا ٱللَّهُ أَوْ تَأْتِينَآ ءَايَةٌ ۗ
كَذَٰلِكَ قَالَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّثْلَ قَوْلِهِمْ ۘ تَشَٰبَهَتْ قُلُوبُهُمْ ۗ قَدْ بَيَّنَّا ٱلْءَايَٰتِ

لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴿١١٨﴾ إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا ۖ وَلَا تُسْـَٔلُ عَنْ أَصْحَٰبِ
ٱلْجَحِيمِ ﴿١١٩﴾ وَلَن تَرْضَىٰ عَنكَ ٱلْيَهُودُ وَلَا ٱلنَّصَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ ۗ قُلْ إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ
هُوَ ٱلْهُدَىٰ ۗ وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم بَعْدَ ٱلَّذِى جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ ۙ مَا لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا
نَصِيرٍ ﴿١٢٠﴾﴾.

المفردات:

خرابها: الخراب بمعنى الهدم والتدمير، أو الخراب المعنوي تعطيل الشعائر التعبدية فيها والتربوية.

خزي: هوان وذلة. **ثَمَّ**: أي هناك وهو ظرف مكان.

قضى: أراد وقدَّر.

وجه الله: هو لفظ من صفات الله، التي نقول إزاءها آمنا بالله، وبما وصف به نفسه، من غير تعطيل ولا تشبيهٍ ولا تكييف، وكل ما خطر ببالك، فالله غير ذلك وليس كمثله شيء.

ملتهم: دينهم وطريقتهم.

الدراسة التربوية:

إن يهود حاولت أن تلعب نفس الدور الذي لعبته على النصارى والكنيسة على المسلمين، ولكن حفظ الله ورعايته لهذا الدين مانعها إلى يوم القيامة، وإن استطاعت ردحاً من الزمن تهويد بعض أبناء المسلمين حيث عطّلوا المساجد وعاثوا فساداً في الأرض، فهي زلة قدم لأن الاعتداء على بيوت الله التي هي منارات الهدى للبشرية، هو بداية التصدّي لحرب الله، وهذا هو أظلم الظلم، لأنّه يمنع الخير عن الناس. وأول ملامح التهويد هي الجرأة على الله، فيتصدّى ذلك المتكبر في الأرض للمساجد فيسلبها وظيفتها، حيث من المسجد تخرّج أصحاب رسول الله ﷺ، وفي المسجد تعقد حِلَق العلم والذكر، وفي المسجد الإخاء والود والرحمة، وفي المسجد التربية والإعداد للجهاد، ومن

المسجد تنطلق كتائب المجاهدين، فأظلم هجمة هي هجمة السعي في تعطيل الملتقى الفكري والروحي للمسلمين، فتخوي المساجد من عمَّارها، وتتفرق صفوفها إلا من ركيعاتٍ تؤدى على خوفٍ ووجل أو بقلوبٍ فارغة تؤدي عادةً مألوفة أو عملٍ يكفيها كل عملٍ سواه. عندئذٍ يُعانون الخوف في الدنيا ويُسلَبون نعمة الأمن، ويذيقهم الله الذل والهوان ووعيدهم في الآخرة عذابٌ عظيم. هكذا عذابٌ لا حدَّ له ولا نهاية، جزاءً بما كانوا يعملون. ولله المشرق والمغرب، فالمشارق والمغارب وما يشرق منه وما يغرب فيها، كله لله رب العالمين، وأينما تولى الإنسان وتوجَّه، فهنالك وجه الله عز وجل، وهذا رحمةٌ من رحماتِ الله لمن عُمّيت عليه القبلة، فتسعه نيّة التوجه الخالص لله عز وجل إن اجتهد وأخطأ.

﴿وَقَالُواْ اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ بَل لَّهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلٌّ لَّهُ قَانِتُونَ ﴿١١٦﴾﴾ إنّه أكذب الكذب، وأظلم الظلم. هذا القول الفاسد الذي نسجته النصارى على لُحمة اليهود الذي قالوا: عزيرٌ ابن الله، كما قال غيرهم في الملائكة ولم يُفصّل الله عز وجل في هذا القول، بل جعل القائلين كلهم سواسية، يحدوهم الكذب ويجمعهم الكفر. وقد ردّ الله عليهم في الحديث القدسي على لسان نبيه محمد ﷺ: «**قال الله: كذّبني ابن آدم، ولم يكن له ذلك، وشتمني ولم يكن له ذلك، فأمّا تكذيبه إياي فزعم أني لا أقدر أن أعيده كما كان، وأما شتمه إيّاي فقوله لي ولد، فسبحاني أن أتخذ صاحبةً أو ولداً**»[1].

لقد تشابهت القلوب والأقوال، ولم يقدروا الله حق قدره، وقد اجتمع الكفر قديماً في الجزيرة العربية لمناهضة الدعوة الفتية والدين الحق.

واليوم تجتمع تلك الدعوات تحت راياتٍ جديدة، فالصهيونية والماسونية والصليبية والاشتراكية والهندوسية وغيرها من الشعارات والتجمعات حيث هي أشد كفراً وأعظم مكراً، وأوسع انتشاراً من سابقاتها

(١) رواه البخاري عن ابن عباس رضي الله عنهما، في كتاب تفسير القرآن.

ولكل حزبٍ راية ولكل قومٍ مكر، ﴿وَإِن كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ ٱلْجِبَالُ﴾[١]. اجتمع هؤلاء كلهم على الإسلام ونبيّه ﷺ ومنهجه والهدى الذي ارتضاه لعباده. ولكنَّ الله جامع ركام الفساد والإفساد والزيغ عن الحق في جهنم، وأول الخيط هو الاعتداء والجرأة على الذات الإلهية، وأن يتطاول الإنسان ويقتحم جبروت القدرة الربانية، وينسب له الولد سبحانه وتعالى عما يشركون. وفي الصحيحين أن رسول الله ﷺ قال: «**لا أحدٌ أصبر على أذىً سمعه من الله، إنّهم يجعلون له ولد وهو يرزقهم ويعافيهم**»[٢]، ثم الجرأة على النبي الكريم ﷺ، فأصبح لمن ينالون من رسول الله اليوم راياتٌ ومكانةٌ وحماية، وكذلك لمن يطعن بهذا الدين ويطمس مزاياه وجوهره.

وتضافرت الجهود لإظهار الدين بأنّه سلبياتٌ تصطدم بالعصر والتقدم والحضارة، والتفلت منه أمرٌ محتوم إن أردنا أن نواكب المتغيرات، والحق يُقال ليس في ديننا سلبيات وإنما ديننا رائد العلم والحضارة، ولم يحقق المسلمون عُشر الآيات التي تلفت النظر إلى فيزيائية الكون وذرّاته ومعادلاته وأسراره، لأنّ في قوله تعالى: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ تِبْيَٰنًا لِّكُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ﴾[٣] هداية وتنبيه، فالأمة التي لم تعد تغار على حرمات الله، وخَلَطت بين الخالق والمخلوق وانتكست هذه أمة لن تجد العون من الله، حتى تبرأ من هذا السفه، وتحذر الحمأة التي حفرتها لها اليهود، ولذلك نجد أن من مبادىء هذا الدين، الوضوح في الأسس التي يرتفع عليها البناء، وبهذا يقول سيد قطب رحمه الله:

(والنظرية الإسلامية أنَّ الخلق غير الخالق، وأنَّ الخالق ليس كمثله شيء، ومن هنا تنتفي من التصور الإسلامي فكرة «وحدة الوجود» بل له ما في السماوات والأرض كلٌ له قانتون، فالكل من خلقه، ولا سبيل للإدراك

---

(١) سورة إبراهيم: الآية ٤٦.
(٢) رواه مسلم قريباً من هذا اللفظ في كتاب صفة القيامة والجنّة والنار، رقم ـ ٥٠١٧ ـ.
(٣) سورة النحل: الآية ٨٩.

البشري أن يحيط بذلك علماً، لأنّ ذلك فوق الطاقة الموهوبة للإنسان فسبحانه إذا قضى أمراً أي أراده، قال له كن فيكون)[1].

والمشركون قالوا: لولا يكلمنا الله أو تأتينا آية وهم عبّاد الأوثان، ويهود سبقتهم إلى تلك المقولة وهم أهل كتاب ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا ۖ وَلَا تُسْـَٔلُ عَنْ أَصْحَٰبِ ٱلْجَحِيمِ ﴿١١٩﴾﴾[2]، والمشركون على أثرهم لقد تشابهت القلوب. وكذلك النصارى أهل عقيدة التثليث فلا فضل لأحد بينهم على الآخر، فكلهم أهل الباطل ركام الجحيم. ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا ۖ وَلَا تُسْـَٔلُ عَنْ أَصْحَٰبِ ٱلْجَحِيمِ ﴿١١٩﴾﴾ والخطاب هنا لعلم الهدى سيد المرسلين وصاحب الحق المبين ﷺ ـ فأنت مُرسلٌ ومكلّف، والإيمان بك واجب، واتباعك شطر الإيمان، والاقتداء بك قارب النجاة، وأنت بشير الخير للمخلصين، ونذير العذاب للمعرضين، ولست المسؤول عما يفعل المجرمون، ولست المؤاخذ بما يقولون، بُعثت مذكراً وهادياً، ولم تبعث مسيطراً وجباراً ولا تُسأل عن أصحاب الجحيم.

﴿وَلَن تَرْضَىٰ عَنكَ ٱلْيَهُودُ وَلَا ٱلنَّصَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ ۗ ﴾.

﴿وَلَا يَسْتَخِفَّنَّكَ ٱلَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ ﴾[3] إنّها التربية والمفاصلة، فلا تداهن ولا تتعثر ولا تقدّم مصالح ولا تؤخر حق. فاليهود هم اليهود، والنصارى هم النصارى، ولن يرضوا عنك حتى تنسلخ من دينك وملتك، فمهما تنازلت تطلّعوا إلى أكثر وسخروا منك وأمكنوا القبضة عليك، فلن يتركوك حتى ترتدَّ كافراً ﴿وَدُّوا۟ لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ ﴿٩﴾﴾[4] تنازلك كفر وتنازلهم استدراجٌ لك. وقال الله عز وجل: ﴿وَدُّوا۟ لَوْ تَكْفُرُونَ ﴾[5] فالتثبيت من الله عز وجل ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ ﴾ فلا بدَّ لصاحب الرسالة ومن تبعه

---

(١) في ظلال القرآن، ج ١، ص (١٠٦).

(٢) سورة النساء: الآية ١٥٣.

(٣) سورة الروم: الآية ٦٠.

(٤) سورة القلم: الآية ٩.

(٥) سورة النساء: الآية ٨٩.

من وضوح الحق الذي بين يديه حتى يثبت عليه، وهي كلمة في جرسها صرامة توحي بالجزم واليقين، وفيها تثبيتٌ يقضي على شبهات المضللين، ومحاولات الكائدين.

عن عطاء بن يسار، قال: لقيت عبد الله بن عمرو بن العاص فقلت: أخبرني عن صفة رسول الله ﷺ في التوراة فقال: أجل والله إنّه لموصوف بالتوراة بصفته بالقرآن [يا أيها النبي إنا أرسلناك شاهداً ومبشراً ونذيراً وحرزاً للأميين، أنت عبدي ورسولي، سميتك المتوكل، لافظ ولا غليظ، ولا سخّابٌ في الأسواق][1].

وظيفتك البلاغ، وصفتك المتوكل على الله، والخطاب خاص برسول الله ﷺ، والحكم عام له وللدعاة من ورائه، فداعية الحق عليه البلاغ، فإذا غلب على أمره وظهر الباطل وانتفش، فإنما هو بقدر الله ليُمتحن ثباته، فقد يُغريه الشيطان ليبيع دينه بعَرَض رخيص من الدنيا يهوّن عليه الأمر ليبلغ دعوته، كلا إنّ الله لم يأمره بذلك لأنّ الانزلاق يؤدي إلى الهاوية، وليس من الحق أن نبلغ دعوة الله مشابةً بشوائب الباطل، فالداعية يثبت ولو لم يبق من المؤمنين إلا واحداً، فيؤاخيه على الحق ويذل له ويتعاهد معه على الصبر والمصابرة حتى يأتي الله بأمره.

إنّ أهل الباطل لا يبحثون عن حقٍ عُمّي عليهم، وإنّما هو هدفٌ وغاية وهي إخراج المسلم من دينه حتى يكون على ملتهم، ويحقق أهواءهم ورغباتهم، وهذا يوافق قول زويمر الإنكليزي: قال: ليست الغاية أن نخرج المسلمين من دينهم ليدخلوا في النصرانية، وإنما الغاية أن نجعلهم بلا دين[2]. حقائقٌ ومآرب يتفوهون بها وقد أثبتها الله عليهم وهو العليم الخبير.

---

(١) انفرد بإخراجه البخاري، وقاله ابن كثير والإمام أحمد في كتاب تفسير القرآن، رقم - ٤٤٦١ -.

(٢) انظر الغارة على العالم الإسلامي.

والإخراج من الدين، لا يعني أن يرتدَّ الإنسان نصرانياً، فهذا هو المعنى البسيط لهذه الكلمة، ولكن أعداؤنا فهموها أعمق من ذلك بكثير وعملوا لها، وخططوا لإضعاف اللغة العربية، وخططوا لإيهام المسلمين أنّ الإسلام عبارة عن شعائر، حجاب وصلاة وصيام وحج، استُبعد التفسير وشُجّع الحفظ لأنّه يستنفذ الطاقة ويقضي العمر، ولا خير في الإنسان ما دام لا يفهم ما يحفظ. أوجد أعداؤنا نماذج من المسلمين مُخرجة من دينها، فالمرأة المحجّبة وقد حُجر على فكرها ومُسخ فهمها، أقول لها لقد أُخرجتِ من دينك ولن يضرهم حجابك، والمسلمون المصلون الذين لا يبكون حقهم الضائع ولا يخرجون للظالم صفاً كصفوف الصلاة أقول لهم: لقد أُخرجتم من دينكم، وصلاتكم هذه لن تضرهم، وكما ذكر التقرير الماسوني الذي صدر عن المحفل الماسوني في لبنان «أخي الماسوني لا تحزن إن رأيت جموع المصلين يُصلون، فإنّا جعلناهم يُصلون بلا قلوب»(*).

وطلاب العلم الذين ينقضون عُرى هذا الدين، ويتبرؤون من صدر هذه الأمة الخّير تحت حججٍ واهية، أقول لهم خدعوكم وأخرجوكم من دينكم لأنكم فقدتم ثوابت محمد ﷺ مع وجود العمائم واللحى ﴿وَلَا تَنَٰزَعُوا۟ فَتَفْشَلُوا۟ وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ﴾[1].

وهكذا «لن ترضى عنك اليهود والنصارى» رغم كل الذي حصل، فالأمة المحمدية قطّعت حبل الإخاء المأمورة بالاعتصام به، وارتدّت على أعقابها، وأصبح المسلمون يذيق بعضهم بأس بعض، يأسر المسلم أخاه المؤمن يسجنه ويصادر ماله، يعذبه، يقتله، يشرد أهله؛ استرضاءً ليهود، ولكنّها لا ترضى، لأنّ هذا لم يُفن المسلمين جميعاً. إنّ يهود تسلطت عندما غُلّت مطرقة الجهاد، واستنسرت عندما حُبس الدعاة، حتى الذين انسلخوا من دينهم وولجوا محافل الماسونية، لم ينالوا مرضاة يهود، وجعلتهم أقل درجة، لأنّ آباءهم مسلمين. تقول أحد بنود الماسونية: (إذا

(*) راجع كتاب الماسونية في العراء، محمود الزعبي.

(١) سورة الأنفال: الآية ٤٦.

رأى اليهودي الماسوني أخاه المسلم الماسوني أسيراً، يفكه من أسره بحق الماسونية، ثمَّ يقتله، وإذا رأى المسلم الماسوني أخاه اليهودي الماسوني أسيراً، يُطلقه، ويبلّغه مأمنه، لأنّه روحه مباركة من روح الله[*])، الله أكبر، المسلم مظلوم حتى وإن أصبح ماسونياً، فلن ترضى عنك اليهود ولا النصارى، حتى وإن صرت ماسونياً، وقد لا يعلم القارىء أنّ المرء لا يتخرج ماسونياً حتى يدوس بقدميه الكتبَ السماوية، ويشتم الأنبياء، ويتبرأ منهم ﴿وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم بَعْدَ ٱلَّذِى جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴾.

مسكين ذلك المسلم المفتون، تخّلى عنه الرفاق المشجعون، وغضب عليه الأخ الحنون، وهدّده العلي ذي الجبروت فأين المفر؟ ﴿قُلْ إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلْهُدَىٰ ﴾[1]، على سبيل الحصر والقصر ﴿هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلْهُدَىٰ ﴾ وما عداه ضلال.

إنَّ هدى الله، دينٌ ودولة، مصحفٌ وسيف، صلاة وحراسة وصيامٌ وجهاد وثبات واضطهاد، هكذا هو مجمل الهدى، فلا براح منه ولا فكاك عنه ولا محاولة فيه ولا ترضية على حسابه، ولا مساومة في شيءٍ منه في قليل ولا كثير.

والمؤمنة المحجّبة حرست الحصن وبقرت بطون اليهود وسلبتهم الفيء وتقلّدت السيف وركبت البحر مجاهدةً في سبيل الله. وهدهدت وليدها بسورة الأنفال وتلقَّت الركبان، واستفسرت عن سلامة رسول الله ﷺ، لم يقعدها المصاب بالزوج والوالد والولد بل قالت: كل مصيبةٍ بعدك جلل يا رسول الله ﷺ وخاضت غمار المعارك، تتلقّى الطعنات وقد فرَّ كثيرٌ من الرجال، هي المسلمة التي خرجت عن طوق الطاعة لليهود، وهي التي ستربي لنا الأجيال التي تبيع نفسها رخيصةً فداءً لدينها وعقيدتها، وإن كانت

(*) الماسونية في العراء، محمود الزعبي.

(1) سورة الأنعام: الآية ٧١.

المرأة المسلمة اليوم تبحث عن قدوة فالحقائق ناصعة، سجّلها لها التاريخ بصدق وأمانة، فلها في صفية[1]، وأم سليم[2]، ونسيبة[3] مثلاً وأسوة، ولها في أسماء[4] سيرةً ومنهجاً. وإن كانت تبحث عن الأم الفاضلة، ففاطمة أكثر الناس فضلاً بعد أبيها، هي التي خرّجت الحسن والحسين سيدا شباب أهل الجنّة، وما علينا إلا أن نصدق الله النّية، ونقول يا رب أتيناك نمشي، فيأتينا سبحانه وتعالى هرولة، ويهدنا صراطه المستقيم، ويجعل راحة أنفسنا في سيرة الأخوات المؤمنات المجاهدات الصابرات المصابرات.

وإن لم تُعَد صيانة الحصن الأُسري وتعي المرأة المسلمة دورها التربوي والحضاري فسنبقى ننفخ في الرماد، لأنّ المؤامرة اليهودية حُبكت على المرأة المسلمة لتكون دمية يستشرفها الشيطان، وعُقدت اللقاءات لخلخلة البيوت الإسلامية، فتحقق مآربهم في ضياع الأجيال، والله عز وجل قال محذراً ﴿وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم بَعْدَ ٱلَّذِى جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾.

الفوائد التربوية:

١ - إنّ المسجد هو السكن الروحي للمسلم، فيجب ربط الأطفال بالمساجد، وتوعيتهم وتهذيبهم، للمحافظة على نظافة وحرمة المسجد. والمسجد ليس مكاناً للعب أو الأكل أو الحديث والسمر، وخفض الصوت

(١) صفية بنت عبد المطلب: عمة رسول الله ﷺ هي أم الزبير بن العوام، ويوم الخندق رأت يهودي يطوف بحصن المسلمين، فأخذت عموداً وقتلته.

(٢) أم سليم بنت ملحان، وهي الرميصاء المبشرة بالجنة، وهي مربية فاضلة ربّت أنس بن مالك، والنضر بن مالك الفدائي يوم اليمامة.

(٣) نسيبة المازنية: التي حمت ظهر رسول الله ﷺ يوم أحد، فنالت وأسرتها دعوته أن يكونوا رفقاءه بالجنة، انظر أسد الغابة ج ٥.

(٤) أسماء بنت أبي بكر الصديق رضي الله عنها ذات النطاقين، أعانت رسول الله ﷺ وأبيها يوم الهجرة، وتلقت صفعة من أبي جهل فصبرت واحتسبت، وهي أم البطل عبد الله بن الزبير رضي الله عنه، لها مواقف جهادية وكلمات فيها حكمة وتاريخ مضيء.

في المسجد أدبٌ مطلوب في كل مسجد، وفي المسجد النبوي الشريف خُلقٌ قرآني منصوص عليه.

٢ ـ يهذب المربي الذين يربّيهم على رقة المشاعر، فيستشعرون في كل صلاة قيود الحرم الإبراهيمي وتعطيل المسجد الأقصى ومساجد الأندلس. . .، وغيرها.

٣ ـ إنّ التحرق من العدو يولِّد ثمرتين ناضجتين، بغض اليهود ومن فعل فعلهم. وحب الله ورسوله وجهادٍ في سبيله لرفع الظلم.

٤ ـ إن صفات الله وأسمائه الحسنى منها ما يوجد في الفطرة، ومنها ما يحتاج إلى تثبيت وتوضيح مع أول بوادر تفتح مدارك الطفل، فيعلّم أن الله واسعٌ كبير عظيم وحيثما التفت أو ذهب فالله محيطٌ به، فإذا قرأ: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُ﴾ طأطأ تواضعاً لمن بيده ملكوت السماوات والأرض.

٥ ـ يجب تلقين الطفل سورة الإخلاص، وشرحها له بطريقةٍ مبسّطة، وتثبيتها بقدر يتناسب مع مداركه، ثم يرتقي المربي بالمعاني والشرح، كلما ارتقي الطفل بالعمر، فلا يقف في صفوف الصلاة إلا وقد استقر في قلبه أن الله منزّهٌ عن الشريك والوالد والولد والصاحبة والخَلف. وأنَّ أمر الله مقضياً. ثم يُلفت انتباه الطفل بأنّ من يعلن ويقر عداءهم في كل صلاة غير المغضوب عليهم ولا الضالين هم اليهود والنصارى، وأنّهم هم الذين اعتدوا على حق الله، ونسبوا له ما نزّه نفسه عنه فيفهم ويدرك أن بغضهم بغض عقيدة وثوابت، وليس بغض مصالحِ ومنافع.

٦ ـ التربية على الترفع والاستعلاء على بهرجة الدنيا التي تولّى إبليس بريقها وتولّت يهود الدعاية لها، والتفنن في إزكاء فتيلها. وهي تدريب لاتباع أهوائهم والإعجاب بما يصدر عنهم، وإنّ اتباعهم وتقليدهم سبب لقطع ولاء الله عنا ونصرته لنا.

٧ ـ إنّ إيذاء المسلم للمسلم من أهواء اليهود، وإلحاق الضرر بالمؤمنين غايةٌ تُسعد اليهود والنّصارى، فالمسلم الحق يمسك لسانه ويقبض يده.

﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَتْلُونَهُۥ حَقَّ تِلَاوَتِهِۦٓ أُو۟لَٰٓئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ ۗ وَمَن يَكْفُرْ بِهِۦ
فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ (١٢١) يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتِىَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّى فَضَّلْتُكُمْ
عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ (١٢٢) وَٱتَّقُوا۟ يَوْمًا لَّا تَجْزِى نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شَيْـًٔا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا
تَنفَعُهَا شَفَٰعَةٌ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ (١٢٣) ۞ وَإِذِ ٱبْتَلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ رَبُّهُۥ بِكَلِمَٰتٍ فَأَتَمَّهُنَّ ۖ قَالَ إِنِّى
جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا ۖ قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِى ۖ قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِى ٱلظَّٰلِمِينَ (١٢٤) وَإِذْ جَعَلْنَا
ٱلْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْنًا وَٱتَّخِذُوا۟ مِن مَّقَامِ إِبْرَٰهِـۧمَ مُصَلًّى ۖ وَعَهِدْنَآ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ
وَإِسْمَٰعِيلَ أَن طَهِّرَا بَيْتِىَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلْعَٰكِفِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ (١٢٥) وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ
رَبِّ ٱجْعَلْ هَٰذَا بَلَدًا ءَامِنًا وَٱرْزُقْ أَهْلَهُۥ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ مَنْ ءَامَنَ مِنْهُم بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ۖ قَالَ
وَمَن كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُۥ قَلِيلًا ثُمَّ أَضْطَرُّهُۥٓ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلنَّارِ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ (١٢٦) وَإِذْ يَرْفَعُ
إِبْرَٰهِـۧمُ ٱلْقَوَاعِدَ مِنَ ٱلْبَيْتِ وَإِسْمَٰعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ (١٢٧)
رَبَّنَا وَٱجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَآ أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَآ ۖ إِنَّكَ
أَنتَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ (١٢٨) رَبَّنَا وَٱبْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِكَ
وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ ۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ (١٢٩) وَمَن يَرْغَبُ
عَن مِّلَّةِ إِبْرَٰهِـۧمَ إِلَّا مَن سَفِهَ نَفْسَهُۥ ۚ وَلَقَدِ ٱصْطَفَيْنَٰهُ فِى ٱلدُّنْيَا ۖ وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ لَمِنَ
ٱلصَّٰلِحِينَ (١٣٠) إِذْ قَالَ لَهُۥ رَبُّهُۥٓ أَسْلِمْ ۖ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ (١٣١) وَوَصَّىٰ بِهَآ
إِبْرَٰهِـۧمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَٰبَنِىَّ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰ لَكُمُ ٱلدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ
(١٣٢) أَمْ كُنتُمْ شُهَدَآءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ ٱلْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنۢ
بَعْدِى قَالُوا۟ نَعْبُدُ إِلَٰهَكَ وَإِلَٰهَ ءَابَآئِكَ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا وَنَحْنُ
لَهُۥ مُسْلِمُونَ (١٣٣) تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ ۖ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ ۖ وَلَا تُسْـَٔلُونَ
عَمَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ (١٣٤)﴾.

المفردات:

أتمهنّ: أتى بهن بالكمال والتمام. **ابتلى:** امتحن واختبر.

مثابة: مآباً وترددا يترددون عليه لا ينقضي شوقهم إليه. **إماماً:** قدوة.

الطائفين: الذين يطوفون حول الكعبة المشرفة. **أمناً:** طمأنينة وسكينة.

العاكفون: المعتكفون فيه المقيمون للعبادة. **القواعد:** الأساس.

أرنا مناسكنا: علمنا أداء عبادتنا. **سفه نفسه**: استخفها.

يرغب: يعدل أو يميل. **خلت**: مضت. **عدل**: فداء.

كسبت: الأصل الكسب المادي ولكن الكسب عند الله العمل.

الدراسة التربوية:

وتعقيباً على الآيات السابقة وكأنها الفيصل من الله عز وجل لتقر ثابتة من ثوابت هذا الدين، ﴿... وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُم بَعْدَ الَّذِي جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿١٢٠﴾ الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلَاوَتِهِ أُولَٰئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَمَن يَكْفُرْ بِهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴿١٢١﴾﴾.

إنّ اتباع الهوى وتقلب القلوب أمرٌ لا يملكه أحدٌ لنفسه، فهذا الداء يحتاج إلى جذوة علم لا تنطفىء، ونصيحة عالم لا تنقطع، وقيد جماعة لا ينكسر. ثم عبادةٌ معَ بصيرة، ثم دعاءٌ لا يفتر «**اللهمَّ يا مقلب القلوب ثبِّت قلبي على دينك**»(١)، وهذا ما ثبت عن رسول الله ﷺ في الصحيح. إذا كان هذا حال رسول ﷺ والله وليه وجبريل وصالح المؤمنين، وهو المعصوم عليه الصلاة والسلام، فكيف بالإنسان إذا عُمّيت عليه البصيرة، وانفلت من قيد الجماعة، وأصبح لا عالماً ولا متعلماً، فمن يعصمه من اتباع الهوى ومن يمنعه من الجري وراء المغريات؟ إذا كان الله قد ذكر الوعيد مخاطباً به رسوله الكريم ﷺ المبعوث رحمة للعالمين، فكيف يكون البطش والأخذ لمن يميل؟. إنّ حق الله هو الحق ولا يتّضح هذا الحق إلا لمن تلا كتاب الله حق تلاوته، فهي تلاوة التدبر والفهم وطلب الهداية والتبيان، وهذه هي تلاوة المؤمنين الذين هم في صلاتهم خاشعون، تلاوة يشترك فيها اللسان بالتجويد والترتيل، والعقل بالفهم والقبول، والقلب بالخشوع واليقين، وقد روى ابن أبي حاتم عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**يكون خلف بعد ستين سنة، أضاعوا الصلوات،**

(١) رواه الإمام أحمد في كتاب باقي مسند الأنصار، رقم ـ **٢٥٣١٠** ـ.

واتبعوا الشهوات، فسوف يلقون غياً، ثم يكون خلف، يقرؤون القرآن لا يعدوا تراقيهم، ويقرأ القرآن ثلاثة، مؤمن، ومنافق وفاجر، فقال: المؤمن يؤمن به، والمنافق كافرٌ به، والفاجر يتأكل به»[1]. فالمؤمن هو الذي يتلو الكتاب حق تلاوته، ويهود لم تتل كتاب ربها حق تلاوته، ولذلك ناداهم الله لعل ثمة نداء يُصيب بقية عقل فيهم، ﴿يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتِيَ ٱلَّتِيٓ أَنۡعَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ وَأَنِّي فَضَّلۡتُكُمۡ عَلَى ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿٤٧﴾﴾ يوم كنتم الأمة المختارة التي نيط بها حمل الكتاب والأمانة، يوم كانت الرعاية وتوالي الرسل يوم التفضيل وتعاقب المغفرة والرحمة، ولكنّكم توليتم ولم تتقوا اليوم الذي تردّون فيه إلى الله حيث السؤال والحساب، يوم تأتون الرحمن عبيداً متفرقين، لا يُقبل منكم الفداء، ولن تجدوا الشفيع ولا النّصير، إنّه تقريع لبني إسرائيل وتسميعٌ للأمّة المختارة التي عقد الله عليها الخيرية وتخيّرها للأمانة والشهادة، وهذا القرآن حجة الله على خلقه، فمن اهتدى بهديه نجا وكان من الفائزين، ومن اتبع الهوى ومال مع من غوى هلك وكان من الخاسرين.

﴿وَإِذِ ٱبۡتَلَىٰٓ إِبۡرَٰهِـۧمَ رَبُّهُۥ بِكَلِمَٰتٖ فَأَتَمَّهُنَّۖ قَالَ﴾.

إنّ مثال الشر الإنسي بني إسرائيل، ومثال الخير الإنسي هو إبراهيم عليه السلام. كما أن مثال التمرد النّاري إبليس، ومثال النّاري إبليس، ومثال الطاعة النورانية جبريل عليه السلام والملائكة المكرمون، وبعد أن ضرب القرآن صفحاً من سيرة اليهود المتمردة، وتوالي التحذير من كفرهم وعصيانهم وتبجحهم، ظهرت الصفحة المشرقة، والمثل الخيّر سيدنا إبراهيم عليه السلام.

يقول الله تعالى فيما معناه: واذكر يا محمد سيرة إبراهيم، عندما اختبره الله وامتحنه بأوامرَ ونواهٍ، فقام بهنّ أحسن قيام، وأدّاهنّ أحسن الأداء، وهذا أسلوبٌ تربوي ربّاني وهو التوجيه غير المباشر عن طريق القصة وإبراز الشخصية التي يحبها الله ويريد أن يكون عباده كلهم على شاكلتها.

---

(١) رواه الإمام أحمد في كتاب باقي مسند المكثرين، رقم ـ ١٠٩١٢ ـ.

ولذلك فكل طريقٍ لتقويم النفوس بعيدٍ عن القرآن طريقٌ عقيم لن يفلح سالكه، لأن الذي خلق هذه النفوس وسوّاها هو أعلم بما يصلح حالها.
﴿فَسْـَٔلْ بِهِۦ خَبِيرًا ﴾[1] إن الله عز وجل يرد أهل الكتاب من بني إسرائيل بعد جولات طويلة، وبعد عرضهم على قريش لئلا تسلك مسلكهم، يردّهم إلى أبيهم إبراهيم عليه السلام، فهم ينتسبون إليه عن طريق إسحاق عليه السلام، وقريش ترجع بنسبها إلى إبراهيم عليه السلام عن طريق إسماعيل عليه السلام، وتستمد منه عزّتها في القوامة على البيت وعمارة المسجد الحرام، وتستمد سلطانها الديني على العرب.

وفي رد قريش إلى إبراهيم عليه السلام، إبطالٌ لدعاوي اليهود العريضة، التي قالوا فيها: ﴿لَن يَدْخُلَ ٱلْجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوْ نَصَـٰرَىٰ ۗ﴾ وعن جهدهم المبذول لتهويد المسلمين، وإن كانوا لا يُعطون دينهم لأحد، غير أنهم مولعون بتسخير الأمم كلها لحبهم وتحقيق مآربهم، كما ذكروا ذلك في بروتوكولاتهم.

فردهم الله وقريشاً إلى أصل العبادة الثابت، وعمارة المسجد الخالصة لوجه الله تعالى. إبراهيم عليه السلام الذي يخبر الله عن حاله واختباره، لقد نجح إبراهيم عليه السلام وسقط كثيرون، وصفه الله بأنه أواهٌ حليم، ووصفه بأنه أتمهنّ نجاح بدرجة شرف على التمام والكمال، إنّ إبراهيم أمة.

﴿وَإِذِ ٱبْتَلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ رَبُّهُۥ﴾، يقص الله عز وجل على صفيه وحبيبه محمد ﷺ كيف كان الابتلاء، روى ابن عباس رضي الله عنهما وقال: ابتلاه الله بالمناسك. وابتلاه بالطهارة، خمس في الرأس، وخمس في الجسد، فالتي في الرأس (قص الشارب والمضمضة والاستنشاق والسواك وفرق الرأس)، والتي في الجسد، (تقليم الأظافر وحلق العانة والختان ونتف الإبط وغسل أثر الغائط والبول بالماء)، ومثله ما يوافقه في الصحيحين. قال عكرمة عن ابن عباس أنه قال: ما ابتلي بهذا الدين أحد فقام به كله إلا

---

(١) سورة الفرقان: الآية ٥٩.

إبراهيم قلت له: وما الكلمات؟ قال: الإسلام ثلاثون سهماً من عشر في براءة ﴿ٱلتَّٰٓئِبُونَ ٱلۡعَٰبِدُونَ ...﴾ وعشر في أول المفلحون ﴿قَدۡ أَفۡلَحَ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ١...﴾ وعشر في الأحزاب ﴿إِنَّ ٱلۡمُسۡلِمِينَ وَٱلۡمُسۡلِمَٰتِ ...﴾ فأتمهن إبراهيم جميعاً فقال الله فيه ﴿وَإِبۡرَٰهِيمَ ٱلَّذِي وَفَّىٰٓ ٣٧﴾ وقال ابن جرير: كان الحسن يقول: إي والله لقد ابتلاه بأمر فصبر عليه، ابتلاه بالكوكب والشمس والقمر، فأحسن في ذلك وعرف أنَّ ربه دائمٌ لا يزول، ثم ابتلاه بالهجرة فخرج مهاجراً إلى أن لقي ربه، ثم ابتلاه بالنار قبل الهجرة فصبر، وابتلاه بالسير بأهله فصبر، ثم ابتلاه بذبح ابنه فصبر، وابتلاه بالختان فصبر على ذلك كله، وابتلاه بالضيافة فما قصر حتى سمي أبا الضيفان، وابتلاه بالشيب فقال: اللهم زدني وقاراً. فكان أول من قلَّم أظافره، وأول من ضيّف وأول من اختتن وأول من شاب، وأول من قارع الشيطان ورجمه طاعةً للرحمن.

بعد هذا الوفاء وهذه الاستجابة، استحق البشارة الربانية فقال: ﴿إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامٗا ...﴾، إماماً يقتدون بك، إماماً تقودهم إلى الله ربهم تعلمهم إتقان العمل، وحسن الأداء والطاعة وعدم التلكؤ، أي تربية أعظم وأي توجيه أبلغ من أن يعرض الله لنا نموذجاً من تربيته، لقد ربّى الله إبراهيم، وأبدع في تربيته، فشهد له بالتمام والكمال. فهل يتعلم المربّون، وهل تتعلم المرأة رائدة التربية والتي نيط بها تخريج رجال الأمة. وقد سئلت الداعية زينب الغزالي حفظها الله لم منع الإسلام المرأة من حق الخلافة؟ فأجابت بسجيتها الطيبة: لأنّه أعدّها لإنجاب الخليفة.

سيدنا إبراهيم عليه السلام بعدما نال الجائزة، وقال له الله ﴿إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامٗا﴾ مد عينيه إلى الغريزة البشرية فقال: ﴿وَمِن ذُرِّيَّتِي ...﴾ قال: ﴿لَا يَنَالُ عَهۡدِي ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ تربية، أن لا يسأل ما ليس له به حق، وهل يعطي الله أحداً الكرامة بغير عمل؟ حتى وإن كان من ذرية إبراهيم عليه السلام؟ فلا يخطر ببال أحد أنه سينال عفو الله ومغفرته، ويدخل دار الكرامة دون عمل وإيمان ويقين.

إنّ الإمامة ليست وراثة، والقربى ليست وشيجة لحم ودم، إنما هي

وشيجة الدين والعقيدة، وما دعوى القرابة والجنس والقوم إلا دعوة جاهلية، وقد ثبت عن النبي ﷺ أنه قام على الصفا يضرب يديه بعضها ببعض، ويقول: «**يا فاطمة بنت محمد، يا صفية بنت عبد المطلب لا أملك لكم من الله شيئاً، سلوني من مالي ما شئتم فإني لا أملك لكم من الله شيئاً**»[1]. فحب الأهل والرغبة في الامتداد عن طريق الذراري والأحفاد، هو شعورٌ فطريٌ عميق، وهو مرتكز في أصل الفطرة وعلى أساسه يقرر الإسلام شريعة الميراث، والإسلام يشجع الفطرة البشرية ولا يحطّمها، ولكنّه يضبطها بضوابط تربوية، حتى تحب وتبغض في الله، فالذرية الصالحة منه وإليه، وأمّا الذرية الظالمة فإنه لا ينال عهدي الظالمين.

والظلم أنواع وألوان:

ظلم الشرك يظلم المرء به نفسه، أو يجعل من نفسه طاغوتاً يعبده الآخرون، وظلم البغي على الناس والتعدي على الحقوق. والإمامة الممنوعة عن الظالمين، تشمل إمامة الرسالة وإمامة الخلافة وإمامة الصلاة، وكل معنى من معاني الإمامة والقيادة، فالظلم يطغيها والعدل أساسها، وما كان لضدين أن يجتمعا، والله تعالى يوضح لبني إسرائيل سبب تنحيتهم عن الإمامة والقيادة، وهو السبب نفسه التي تُنحّى فيه كل أمةٍ في كل مرة.

﴿وَإِذْ جَعَلْنَا ٱلْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْنًا وَٱتَّخِذُوا۟ مِن مَّقَامِ إِبْرَٰهِـۧمَ مُصَلًّى ۖ وَعَهِدْنَآ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَـٰعِيلَ أَن طَهِّرَا بَيْتِىَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلْعَـٰكِفِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ ﴿١٢٥﴾﴾.

وينتقل التوجيه الرباني إلى قريش التي تتزعم سدانة الكعبة، والقوامة على البيت، فما بالهم يُهجّرون الناس من جواره، ويروعون المؤمنين ويؤذونهم، والله سبحانه وتعالى جعل البيت مثابة للناس، عودةٌ ومحطة ورجعةٌ بد رجة، يثوبون إليه شوقاً، وقد تعلقت الأفئدة به، وهوت النفوس إليه، يستشعرون في رحابه الأمن والأمان ﴿وَٱتَّخِذُوا۟ مِن مَّقَامِ إِبْرَٰهِـۧمَ مُصَلًّى ۖ﴾، وكان المقام في عهد إبراهيم عليه السلام، لازقاً بالبيت إلى أن أخره عمر

(١) رواه مسلم في كتاب الإيمان، رقم ـ ٣٠٤ ـ.

ﷺ إلى المكان الذي هو فيه الآن، ولم ينكر الصحابة الكرام فعل عمر ولا من جاء بعدهم، وعمل عليه المقصورة الموجودة الآن لئلا يُمحى بلمس الناس، وهكذا صان عمر آثار المسلمين. وروى أبو نعيم في الدلائل من حديث ابن عمر رضي الله عنهما وقال: أخذ النبي ﷺ بيد عمر فمرَّ به على المقام، فقال له هذا مقام إبراهيم، فقال عمر: يا نبي الله ألا تتخذه مصلى؟ فنزلت الآية ﴿وَٱتَّخِذُواْ مِن مَّقَامِ إِبْرَٰهِـۧمَ مُصَلًّى﴾، عمر الغيور على التوحيد.

لقد وافقت تربية رسول الله ﷺ، تربية ربّه الذي ربّاه ويقول عمر: وافقت ربي في ثلاث، وفي رواية في ثمان. ومنها ﴿وَٱتَّخِذُواْ مِن مَّقَامِ إِبْرَٰهِـۧمَ مُصَلًّى﴾. لقد ربّى الله سيدنا إبراهيم عليه السلام فوفّى، وشهد له الله بخلُقِ الوفاء، ورسول الله ﷺ ربّى عمر ﷺ، فرأى بفطرته السليمة أنّه من الوفاء أن نصلي عند مقام الموحِّد الأول، والإمام الذي شيَّد البناء، فعجّل بها جبريل عليه السلام، ونزل بها على قلب سيد المرسلين ﷺ، فوافق أدب عمر ﷺ أمر الله عز وجل.

إنّ الوفاء خلقٌ إسلاميٌ أصيل، فمن لا وفاء له لا عهد له، ومن لا وفاء له لاثبات له، وكان رسول الله ﷺ وفياً لربه، وفياً لأهله، وفياً لدعوته، وكان يُكرم صديقات خديجة رضي الله عنها لأنهنَّ كنَّ يزرنها في حياتها، ومن الوفاء أن ندعوَ لوالدينا في كل صلاة (رب اغفر لي ولوالدي ربّ ارحمهما كما ربياني صغيرا)، ومن الوفاء أن نذكر أهل الفضل علينا الذين كانوا سبباً في هدايتنا، وإرشادنا ولو بكلمة، ومن الوفاء: أن ندعو لعلمائنا وأئمتنا الذين صانوا الدين، وأوصلوه لنا نقياً صافياً. ومن الوفاء أن ننتصر لكل داعية حق دفع في ركاب الدعوة ولو بكلمةٍ صادقة.

إنّ الرسول ﷺ عندما جاءه أهل الحبشة في المدينة، قام يخدمهم بنفسه، فقال له أصحابه: نحن نكفيك يا رسول الله، قال: لا لقد أكرموا أصحابنا يوم هاجروا إليهم. ومن ينسَ المعروف فلا وفاء له، ومن ألزم الوفاء أن ندعوَ لرسول الله ﷺ، الحبيب الذي أنقذنا الله به من الظلمات إلى النور، فندعوَ له عقب كل أذان «اللهمَّ رب هذه الدعوة التامة، والصلاة

القائمة، آت سيدنا محمداً ﷺ الوسيلة والفضيلة، والدرجة العالية الرفيعة، وابعثه مقاماً محموداً».

لقد طهّر إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام البيت كما أمرهم الله، فلا يزال طاهراً مطهراً من معالم الشرك وآثاره. وهذه الطهارة والجلال أصبحت معلماً من معالم مكة المكرّمة، فلا يُقبل الإنسان على الحرم إلا وتأخذه رعشة، وينتابه شعورٌ غريب بعظمة المكان، وهيبة الجلال، فالبيت مثابةٌ وأمنٌ للطائفين والعاكفين والركّع السجود، فالنّاس فيه يتقلبون بألوان العبادة، وصور القربات إلى الله، دعواهم واحدة، ووجهتهم واحدة، والبيت ليس ملكاً لإبراهيم وإسماعيل عليهما السلام، فيورث عنهما بالنسب، إنّما كانا سادنين له بأمر ربهما، لإعداده لقصّاده وعبّاده المؤمنين.

﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّ ٱجْعَلْ هَـٰذَا بَلَدًا ءَامِنًا وَٱرْزُقْ أَهْلَهُۥ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ مَنْ ءَامَنَ مِنْهُم بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ ۖ قَالَ وَمَن كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُۥ قَلِيلًا ثُمَّ أَضْطَرُّهُۥٓ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلنَّارِ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٢٦﴾﴾.

ويعرض الله عز وجل صوراً من أدب إبراهيم عليه السلام الذي تلقّاه عن ربه، ففي المرة الأولى قال: ومن ذريتي وتلقى الجواب: يا إبراهيم لا ينال عهدي الظالمين. لقد فهم عليه السلام المنهج الرّباني في التربية أن لا محاباة ولا حبَّ ولا ولاء للجاهلية وإن كانوا أهلاً وأقرباء، إنّ ميزان الله التربوي واحد هو الذي تربى عليه إبراهيم عليه السلام وتربّى عليه نوح عليه السلام، وقال له: يا نوح ﴿إِنَّهُۥ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ ۖ إِنَّهُۥ عَمَلٌ غَيْرُ صَـٰلِحٍ ۖ﴾، وقال لإبراهيم، ﴿لَا يَنَالُ عَهْدِى ٱلظَّـٰلِمِينَ﴾ واستأذن رسول الله ﷺ أن يستغفر لأبويه فلم يؤذن له، إنّ اللقاء الروحي والإيماني لا يكون إلا بين المؤمنين، وفي هذه المرة يدعو إبراهيم عليه السلام وقد تعلم آداب الدعاء، كيف ولمن يكون فقال: رب اجعل هذا بلداً آمناً، وارزق أهله من الثمرات، من آمن منهم بالله واليوم الآخر، فخصص إبراهيم في دعوته وقال: من آمن منهم ولكن الله عز وجل لقنه درساً آخر، إنّ إعطاء الحق يختلف في ميزان الله عن الحب والود والإمامة، إنّ الرزق حقٌ على الله لعباده حتى وإن

كان للكافر، كما إنّ العبودية حق الله على العباد كلهم. فلذلك قال ومن كفر فأمتعه قليلاً، أُعطيه حقوقه كافّة، فإن استمر على كفره ومات عليه، يلقى جزاءه عادلاً النار وبئس المصير، إنّ أداء الحقوق واجب، ونهجٌ تربويٌ نتعلمه من خلال الآيات، وندرسه في سيرة الأنبياء، وروى الزهري: لما قدم أبو سفيان بن حرب المدينة جاء إلى رسول الله ﷺ وهو يريد غزو مكة، فكلّمه أن يزيد في هدنة الحديبية فلم يُقبل عليه رسول الله ﷺ، فقام فدخل على ابنته أم حبيبة، فلما ذهب ليجلس على فراش النبي ﷺ طوته دونه، فقال: يا بنية أرغبت بهذا الفراش عني أم بي عنه؟ فقالت: بل هو فراش رسول الله ﷺ، وأنت امرؤ نجسٌ مشرك. فقال: يا بنية لقد أصابك بعدي شر[1].

إنّ الحب والود والولاء وربط المصير بالمصير ووحدة الهدف والتزام الجماعة، لا يكون إلا بين المؤمنين الصادقين وإن كانوا غرباء، وفي هذه المعاني يفترق الناس وإن كانوا أقرباء. والسيرة النبوية وسيرة الأصحاب الكرام مشرقة بهذه الصور الإيمانية، وتتوالى الآيات بنموذج تربوي رفيع من نماذج التربية الربّانية، متجسدة في إبراهيم عليه السلام. فمن آثار التربية: امتثال الأمر والاستجابة السريعة ﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَٰهِـۧمُ ٱلْقَوَاعِدَ مِنَ ٱلْبَيْتِ وَإِسْمَٰعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿١٢٧﴾﴾ والرجاء والدعاء ليتقبل الله العمل. إنّ أول ثمار التربية الإيمانية صلاح الولد، ومشاركته أباه العمل، فأمُّ إسماعيل التي ربّتها سارة بالهدي النبوي الإبراهيمي كانت مثال الزوجة الصالحة التي استجابت لأمر الله، عندما تركها إبراهيم ووليدها إسماعيل بوادٍ غير ذي زرع لا ماء ولا شجر ولا أناسيّ ولا أهل، قالت: آلله أمرك بهذا؟ وهو مدبرٌ عنهما لا يلتفت، فأشار إبراهيم أن نعم. قالت: إذاً لا يضيّعنا. إن أماً صالحة كهذه، وأباً طائعاً كإبراهيم عليه السلام، تكون ثمرتهما الطبيعية هي إسماعيل عليه السلام، فأول حقٍ تربوي للولد على الوالد أن يحسن إليه ويختار له أمه التي ستنجبه وتربيه، فهذا حق الولد على أبيه قبل

(١) رواه الزهري، كتاب صفة الصفوة، ج ٢، ص ٤٦.

أن يراه، ولهذا جاء التنبيه النبوي الشريف «**فاظفر بذات الدين تربت يداك**»[1] ولنكمل المسيرة النبوية مع الصالحين.

عاد إبراهيم بعد انقطاع ليرى الزوجة والولد اللذين استودعهم برعاية الرحمن ثم رجع بأمر ربه، وقد بلغ إسماعيل عليه السلام معه السعي أي فتى، وكان أمر الذبح ثم عاد إبراهيم عليه السلام إلى فلسطين، ثم رجع ثانية وقد اشتدّ ساعد إسماعيل عليه السلام فقال: يا بني إنّ الله أمرني أن أبني له بيتاً، قال: افعل ما أمرك به ربك. قال: أوتعينني؟ قال: أفعل إن شاء الله. وانطلق الوالد والولد يعملان بما أمرهما الله عز وجل به، وجبريل عليه السلام دليلهما، ويستعذبان العمل ومشاقّه لإرضاء الله. شأنهما في ذلك شأن المحب المخلص الصادق، يبذل الجهد كله لينفذ الأمر، ويبتهل ويسأل الله عز وجل: ربّنا تقبل منا إنك أنت السميع العليم سميعٌ لدعائنا عليمٌ بأننا لا ندّخر جهداً في تنفيذ أمرك. ونسألك اللهمّ أن تحقق لنا أُمنية يتعلق بها نياط قلوبنا وغايةُ هدفنا، ﴿رَبَّنَا وَٱجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَآ أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٢٨﴾﴾.

الأجداد الصالحون يتطلعون إلى ذريةٍ صالحة، فنعمة الدعاء وجو الدعاء والوجل الصادق بالدعاء، كله يُعطي صورةً حية شاخصة تصور حال الداعين واليقين بالسميع العليم التّواب الرحيم. ووضع إبراهيم أساس البيت كما وضع أساس اليقين، وأساس الأدب، إنّ إبراهيم لأوّاه حليم، قانتٌ مستقيم.

إنّه وابنه هداة الأمة، واقفان رافعان أيديهما، وقد تمَّ البناء يقولان: اللهمَّ هذا البناء فأرنا المناسك. اهدنا يا ربنا إلى عبادتك، تصويرٌ للحال رائع، يستشعر المرء من خلال الآيات، رجلين واقفين وجلين، قلوبهما بين أصبعين من أصابع الرحمن يقلبهما كيف يشاء. إنّه طابع الأمة المسلمة، تتضامن الأجيال في العقيدة، وتتفق باهتمامات القلوب المؤمنة، إنّ أمر

---

(١) رواه البخاري، عن أبي هريرة ﷺ، في كتاب النكاح، رقم ـ ٤٧٠٠ ـ.

الدين والهداية هو الشغل الشاغل، والحرص الدائب في الطلب والدعاء. دعاء الجماعة وهموم الجماعة، وليس الدعاء الفردي والمصلحة الفردية، إنّها ثمار الأدب الرباني، ﴿وَٱعْتَصِمُوا۟ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا۟﴾[1] ﴿رَبَّنَا وَٱبْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١٢٩﴾﴾.

واستجاب الله الدعوة، ببعثة هذا النبي الكريم ﷺ، بعد قرونٍ وقرون، بعثه نبياً رحيماً من ذرية إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام، يتلو الآيات، ويزكّي النفوس ويعلم الكتاب، ويتبع الملة، ويقتفي الأثر، ويواصل الأدب. إنّ المربي واحد، والمنهج واحد، فنعم الوالد إبراهيم عليه السلام، ونعم الولد محمد ﷺ، والذي استجاب الدعوة هو الله عز وجل، حيث طواها في علمه الذي لا يضل ولا ينسى قروناً عديدة مات فيها من مات، ولكن الحي القيوم لا يموت ولا ينام.

إن الناس يستعجلون، والحكيم العليم يقارب ويباعد، بقدره وحكمته، وعلى الإنسان أن يتربى على الاستسلام للعلي الكبير، فلا يقول دعوته ولم يستجب لي.

بُعث رسول الله ﷺ على ملة إبراهيم عليه السلام، وقرب البيت الذي بناه إبراهيم ليجدد عهد إبراهيم عليه السلام. وعن عائشة رضي الله عنها قالت: قال رسول الله ﷺ: **«ألم تري أنّ قومك بنو الكعبة واقتصروا عن قواعد إبراهيم؟»**، فقلت: يا رسول الله ألا تردّها على قواعد إبراهيم؟ قال: **«لولا حدثان قومك بالكفر»**. فقال عبد الله بن عمر: (لئن كانت عائشة سمعت هذا من رسول الله ﷺ ما أرى رسول الله ﷺ ترك استلام الركنين اللذين يليان الحجر إلا أنّ البيت لم يتمم على قواعد إبراهيم)[2]. قال الطبري: اختلفوا في القواعد التي رفعها إبراهيم وإسماعيل عليهم السلام،

---

(١) سورة آل عمران: الآية ١٠٣.

(٢) رواه البخاري، عن عبد الله بن عمر عن عائشة في كتاب تفسير القرآن، رقم - ٤١٢٤ -.

أهما أحدثاها أم كانت قبلهما؟ قال ابن عباس: كانت قواعد البيت قبل ذلك، وروي أنّ آدم عليه السلام أول من بنى البيت، وطاف به كما رأى الملائكة تطوف بالبيت المعمور في السماء.

ولو تأملنا قول رسول الله ﷺ: «**لولا حدثان قومك بالكفر**»، لأدركنا عمق نظرة المربي، الذي يبتعد بالناس عن مواطن الفتن، فالناس لم يتمكن الإيمان في قلوبهم بعد، ولكنهم تعلقوا بالبيت وأحجاره كابراً عن كابر، أفينفض لهم البيت فينفضّوا عن الدين؟ فتركه على ما هو عليه مهتدياً بهدي العليم الخبير، لأنه ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ ﴿٣﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ ﴿٤﴾﴾[1]. إن الذي يوقظ الفتن في المسلمين ويشعل فتيلها ليس من الإسلام في شيء، وليس له في التربية نصيب، فالهدي النبوي الشريف: «**يسروا ولا تعسّروا وبشروا ولا تنفروا**»[2]، ثمَّ تأمل قول ابن عمر رضي الله عنه في قول عائشة رضي الله عنها، لئن كانت سمعت هذا من رسول الله ﷺ، انظر إلى أدب العبارة، فهو لم يتّهم ولم يفحش بالقول، وإنّما استدل بقولها على أمرٍ غاب عنه فهمه. ما أحوجنا لمدارسة عبارات الصحب الكرام، الذين زكاهم رسول الله ﷺ. إنّها التزكية التي دعا بها إبراهيم عليه السلام، وقام بها سيدنا محمد ﷺ، فزكّى قلوب أصحابه، إنّها التربية التي نحتاجها اليوم، ويفتقدها الكثير من المسلمين، وقد سئل رسول الله ﷺ عن نفسه فقال: «**إني عبد الله في أمّ الكتاب، وخاتم النبيين، وإنّ آدم لمنجدلٌ في طينته، وسأنبئكم بتأويل ذلك، دعوة أبي إبراهيم، وبشارة عيسى قومه، ورؤيا أمي التي رأت أنّه خرج منها نورٌ أضاءت له قصور الشام، وكذلك ترى أمهات النبيين صلوات الله عليهم**»[3]، وكان ذلك توطئة وتخصيص الشام بظهور نوره، حيث ستكون الشام معقل الإسلام في آخر الزمان، حيث فيها ينزل

---

(١) سورة النجم: الآيات ٣ ـ ٤.

(٢) رواه البخاري عن أنس بن مالك، في كتاب العلم، رقم ـ ٦٧ ـ.

(٣) رواه الإمام أحمد، عن العرباض بن سارية السُلمي، في كتاب مسند الشاميين، رقم ـ ١٦٥٣٧ ـ.

عيسى بن مريم عليه السلام، وعن أوس بن أوس قال: قال رسول الله ﷺ: **«ينزل عيسى بن مريم عند المنارة البيضاء شرقي دمشق»**[1]، **وعن أبي أمامة** رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: **«لا تزال طائفة من أمتي على الحق ظاهرين لعدوهم قاهرين، لا يضرهم من خالفهم، إلا ما أصابهم من لأواء، حتى يأتيهم أمر الله وهم كذلك»**، قالوا: يا رسول الله وأين هم؟ قال: **«ببيت المقدس وأكناف بيت المقدس»**[2]. فقد عقدت رايات الجهاد بأيدي الطائفة المنصورة، ووقع الحق على المسلمين في عونهم ونصرتهم، وما رسول الله ﷺ إلا امتداداً لنبوة، وما كان أصحابه إلا نجوماً يهتدي بها السائرون إلى الله، فرسول الله ﷺ ومن معه ليسوا بدعاً من الناس، وإن الإسلام لم يُنكر ميراث البشرية، ولم يهاجم النبوات السابقة بل بني عليها ليستفيد المسلمون من تجاربها، ولهم فيها مثلٌ من كل جانب، وقال لنا القرآن: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِيهِمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَن كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ﴾[3]، وربط هذه الآية وسيرة الرسول الكريم ﷺ بأبوةٍ حانية، أعادها إلى إبراهيم، وقال: ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ﴾[4].

ومدَّ فروع هذه الدوحة المباركة لتحمل ثمار الجهد متضامنة مع الأبوة الكريمة إلى النبوة اللاحقة، ممتدةً تقوم بما قام به الأنبياء من قبل ثم خُتمت النبوة، فأخذ خلفاء رسول الله ﷺ العهد، ليتوارثه بعدهم أعلام الطائفة المنصورة، وهم الربِّيون الذين ذكرهم الله في كتابه ﴿وَكَأَيِّن مِّن نَّبِيٍّ قَاتَلَ مَعَهُ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُوا لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا وَمَا اسْتَكَانُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ ﴿١٤٦﴾﴾[5].

---

(١) صحيح الجامع الصغير: (٦/٣٦١)، رقم ـ ٨٠٢٥ ـ.

(٢) رواه الإمام أحمد، في كتاب باقي مسند الأنصار، رقم ـ ٢١٢٨٦ ـ.

(٣) سورة الأحزاب: الآية ٢١.

(٤) سورة الحج: الآية ٧٨.

(٥) سورة آل عمران: الآية ١٤٦.

وهؤلاء الربِّيون قائمون في حالة مدٍ وجزر حتى تقوم الساعة، يسدّدون ويقاربون، يصبرون ويصابرون، وعند كل انتفاشة للباطل يكونون عدد الدعوة وعدّتها، ويتخذ الله منهم شهداء، تروي دماءهم الزكية شجرة الدعوة المباركة، وأصوات تكبيرهم عرس مواكب الشهداء، وقد وصفهم الأثر النبوي الشريف «**أنهم ماضون لا يضرهم من خالفهم**» فالطريق طويل وشاق، فيتساقط البعض ويفتن البعض ويتوقف البعض ويتماوت آخرون، والبعض يمسك العصا من الوسط يقول: إن كانت لهم الصولة فنحن معهم، وإن كانت عليهم فنحن عليهم أيضاً، ولكن المجاهدين ماضون إلى الله غير متوقفين، وأوكلوا علم السرائر لله رب العالمين وحملوا بطاقة الحماية. ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُدَٰفِعُ عَنِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾[1] متمثلين قول المصلحين منهم: (كونوا كالشجر إذا رماكم الناس بالحجر فارموهم بالثمر)، هؤلاء هم ربّيون الأنبياء، ما وهنوا ـ الوهن بالقلب ـ وما ضعفوا ـ الضعف بالجوارح ـ وما استكانوا ـ الاستكانة للعدو ـ ثم تأتي المفاصلة، ومن يرغب عن ملة إبراهيم إلا من سفه نفسه.

فهذه هي الملة المستقيمة على أمر الله، وهذه هي الطريقة التي ارتضاها لعباده الصالحين. لا ينصرف عنها إلا ظالم لنفسه سفيه عليها مستهتر بالجزاء والعقاب.

فمن مَالَ، أو غير وبدّل، فقد زلت قدمه، وغرقت سفينته، وقوام هذه الملة ﴿إِذْ قَالَ لَهُۥ رَبُّهُۥٓ أَسْلِمْ ۖ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٣١﴾﴾. ليست قولاً أو كلاماً بل مبدءاً وإرادة، ﴿وَوَصَّىٰ بِهَآ إِبْرَٰهِۦمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَٰبَنِىَّ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰ لَكُمُ ٱلدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٣٢﴾﴾.

تلك كانت وصية إبراهيم عليه السلام لنبيه، ووصية يعقوب عليه السلام من بعده، وقد كررها في آخر لحظة من لحظات حياته، فالهم واحد والغاية واحدة، وهي الشغل الشاغل الذي لم يصرفه عند الموت وسكراته،

(١) سورة الحج: الآية ٣٨.

إنّها لحظة الاحتضار، لحظة الوداع لهذه الدنيا، يجول الوالد المحتضر بعينيه، يودع أولاده، فيستغل النبي الداعية لحظة دفء القلوب ورقتها، فيدعو مع خروج الروح يا بني ﴿..مَا تَعْبُدُونَ مِنْ بَعْدِي قَالُوا نَعْبُدُ إِلَٰهَكَ وَإِلَٰهَ آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِلَٰهًا وَاحِدًا وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾. ليس الوقت وقت مشاكسة وتردد، وإنما وقت هيبةٍ ورهبة، وقت انتهاء رحلة الحياة للنوم بين طيّات التراب في بيت الوحشة والغربة. إنّه يسلِّم التراث ويؤكد على صيانته، ويؤكدون نصاً صحيحاً صريحاً لالبث فيه ولا غموض على أنّهم مسلمون، هذه حال الأجداد الأنبياء، فما لأبناء يهود ظالمين لهود الآباء متنكرين لكل خيرٍ يُعرض عليهم! ولكنّها الحقيقة الربانية التي تقرر الأنساب وتفصّلها، قال: ﴿تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ﴾ أي رحلت ومضت، وأغلق هؤلاء الأجداد حلق السلسلة على الحلقة الأخيرة عند عيسى بن مريم عليه السلام لنزعها منهم، ويقبض على قفل الحلقة، وخاتمها سيد المرسلين والآخرين سيدنا محمد ﷺ القائل: **«إنّ مثلي ومثل الأنبياء من قبلي كمثل رجلٍ بني بيتاً فأحسنه وأجمله، إلا موضع لبنة من زاوية فجعل الناس يطوفون به ويعجبون له، ويقولون هلا وضعت هذه اللبنة؟ قال: فأنا اللبنة، وأنا خاتم النبين»**(١).

﴿تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ وَلَا تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٣٤﴾﴾.

فكلٍ يحصد ثمرة عمله، ولا يُسأل أحدٌ عن أحد، وقد عبر الله عن العمل وجزائه بالكسب والذي يتبادر إلى مفاهيم البشر، أنَّ الكسب لا يكون إلا مادياً، والله سمى العمل وجزاءه كسب، لأن الجزاء في الآخرة ماديٌّ ومعنوي، فجعل كسب الصالحين الجنة ونعيمها، وجعل كسب المكذبين الظالمين النار وجحيمها، فهي كسبهم وهي ربحهم وبها بشَّرهم، وقال: ﴿فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٢٤﴾﴾(٢). لم يكن ميزان الله يوماً من الأيام جنسٌ ولا

(١) رواه البخاري، عن أبي هريرة رضي الله عنه، في كتاب المناقب، رقم ـ ٣٢٧١ ـ.

(٢) سورة التوبة: الآية ٣٤.

لون، وإنّما ميزانه الجماعة المسلمة، حيث وصفها رسول الله ﷺ بقوله: «**يد الله مع الجماعة**»[1]، وهي التي تستمد إنسانيتها من نفخة الروح العلوية لا من التصاقات الطين الأرضية، ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ﴾[2].

الفوائد التربوية:

١ ـ إنَّ الابتلاء هو الدليل الوحيد على صدق المدّعي. فلذلك لا بد للمربي من أن يمتحن من يقوم بتربيتهم، ويدرّبهم على تحمل المسؤولية وتحمل المشاق.

٢ ـ التدريب على إتقان العمل، «**إن الله يحبُّ من العامل إذا عمل أن يُحسن**»[3]، لأنّ إبراهيم ﴿فَأَتَمَّهُنَّ﴾ والإحسان من التمام والإتقان.

٣ ـ محاباة الأقارب على حساب الله شيء، وصلة الرحم والإحسان إلى الأرقاب شيء آخر، حيث هناك ولاء لا يكون إلا للمؤمنين، وهناك إحسان واجب لذي القربى، أن تعطيهم ويمنعونك، وتصلهم ويقطعونك، فبه يتميز صاحب المبدأ من غيره. فهو أبداً محسنٌ لمن يسيء إليه فمن الأولى أن يكون إحسانه لأهله وأقربائه. أما الولاء (الود والمحبة، والصحبة، ووحدة الهدف، ووحدة المصير، والانتفاع والارتياح) فهذا لأهل طريقك وإخوانك في جهادك وهجرتك. فعندما يجتمع هذا للأقرباء، فتعاد سيرة إبراهيم وإسحاق عليهما السلام، أو يعقوب ويوسف صلى الله عليهم أجمعين. أو سيرة نبينا محمد ﷺ وعلي أبو الحسن رضي الله عنهما.

٤ ـ حمل الأطفال والجميع على سنن الفطرة، حيث لو عمل بها الناس، وتأدبوا بآدابها لما رأينا لنسائنا ظفراً. ولنساء الغرب مخلباً، وبتفتح الحس الإسلامي تصبح سنن الفطرة مطلباً أساسياً من مطالب النظافة.

---

(١) رواه الترمذي، عن ابن عباس في كتاب الفتن، رقم ـ ٢٠٩٢ ـ.

(٢) سورة الحجرات: الآية ١٣.

(٣) رواه البيهقي، سلسلة الأحاديث الصحيحة، رقم ـ ١١١٣ ـ.

٥ ـ في الطريق إلى مكة، أو إلى البيت العتيق، أو في الذكرى للبعيد، يستحب تجديد العهد من المربي لمن يربيهم، فيذكرهم بقصة سيدنا إبراهيم، وإن ذهب إلى الحرم يذكرهم بمقام إبراهيم وقصة الطاعة المثالية.

٦ ـ لفت الانتباه لكل من زار الحرمين، إلى أنواع الرزق الموجودة في أسواق الحرمين، واجتماع أطعمة الصيف والشتاء، وأطعمة أهل المشرق والمغرب، وما هي إلا دعوة سيدنا إبراهيم عليه السلام، فأين البر بملته الحنيفية السمحة؟؟.

٧ ـ عدم الغرور بالخير من الرزق، والتوسع في العيش للكافر، فإن نكث العبد بحق الله، فالله لا ينكث بحقوق العباد، ﴿وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِۦ مِنَ ٱللَّهِ﴾(١).

٨ ـ سأل إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام ربهما أن يريهما المناسك، ليعبدوه على بصيرة، وهذا دليل على ضرورة دراسة فقه العمرة والحج وزيارة البيت قبل التوجه إليهما، حتى يعبد كل امرىء منا ربه على بصيرة، إنّ الحج ركن من أركان الإسلام وكم من الناس مفرطون بأركانه، وشروطه، وواجباته، يحسبون الحج سفر وشراء هدايا، وتمتع برؤية الكعبة وانتهى. كل عبادة كلف العبد بأدائها يجب عليه دراسة فقهها بنفسه ليجهد فيحصل الأجر، ويسأل أهل الذكر عن ما لم يفهمه من الأمور. ليستشعر المسؤولية أمام الله.

٩ ـ يُعوِّد المربي من يربيهم على سرعة الاستجابة لأمر الله ورسوله ﷺ، ولكن كثيراً من المربين يُروض الناس على طاعته هو، وهذا لا يجوز، ولو حضرهم عمر لقال: متى استعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحراراً. والأدب النبوي يُطاع المربي ما أطاع الله، ويُعصى ما عصى الله. ويبقى للإنسان عزته الفكرية.

١٠ ـ إنّ الوصية الشرعية ليست تقسيم الأموال والتركات، فهذه قد

---

(١) سورة التوبة: الآية ١١١.

قسمها الله عز وجل، إلا إذا كانت وصية لأبواب الخير، ولكن الوصية الشرعية ﴿ما تعبدون من بعدي﴾، والبراءة من كل ما يخالف الله ورسوله، والتذكير بالعهد بين المرء وأهله هو تقوى الله، والصلاة وأداء حق الله كاملاً، الإسلام والاستسلام لله رب العالمين.

﴿وقالوا كونوا هودا أو نصارى تهتدوا قل بل ملة إبراهيم حنيفا وما كان
من المشركين ﴿١٣٥﴾ قولوا آمنا بالله وما أنزل إلينا وما أنزل إلى إبراهيم وإسماعيل
وإسحاق ويعقوب والأسباط وما أوتي موسى وعيسى وما أوتي النبيون من ربهم لا
نفرق بين أحد منهم ونحن له مسلمون ﴿١٣٦﴾ فإن آمنوا بمثل ما آمنتم به فقد
اهتدوا وإن تولوا فإنما هم في شقاق فسيكفيكهم الله وهو السميع العليم ﴿١٣٧﴾ صبغة
الله ومن أحسن من الله صبغة ونحن له عابدون ﴿١٣٨﴾ قل أتحاجوننا في الله
وهو ربنا وربكم ولنا أعمالنا ولكم أعمالكم ونحن له مخلصون ﴿١٣٩﴾ أم تقولون
إن إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط كانوا هودا أو نصارى قل أأنتم
أعلم أم الله ومن أظلم ممن كتم شهادة عنده من الله وما الله بغافل عما
تعملون ﴿١٤٠﴾ تلك أمة قد خلت لها ما كسبت ولكم ما كسبتم ولا تسألون عما
كانوا يعملون ﴿١٤١﴾﴾.

المفردات:

حنيفاً: مائلاً عن اللغو والتقصير إلى الحق. **صبغة الله**: دين الله.

الأسباط: هم بنو يعقوب عليه السلام وأحفاده من بعده. **كتم**: أخفى.

شقاق: خلاف وعداوة. **أتحاجوننا**: أتجادلوننا.

الدراسة التربوية:

﴿وقالوا كونوا هودا أو نصارى تهتدوا قل بل ملة إبراهيم حنيفا وما كان
من المشركين ﴿١٣٥﴾﴾.

إنها مغالطة اليهود، يلصقون اليهودية بإبراهيم عليه السلام، لأنه رمز الخير للبشرية، فإن لم تكن فالنصرانية، إنها مهاترات يهود حيث لا يقيمون

للدعوات وزناً ولا للمواثيق عهداً، فلَّقن الله نبيه الجواب. قل بل ملة إبراهيم حنيفاً غير مائل ولا منحرف، وما كان من المشركين ولا يمت إلى شركيات اليهود والنصارى بشيء، ثم يوجه الله عز وجل المسلمين أجمعين إلى ما وجّه إليه نبيه الكريم، يوجههم إلى الدعوة الحق وإلى الوحدة الكبرى، ويدعوا أهل الكتاب إلى الإيمان بهذا الدين الواحد. ﴿قُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيۡنَا وَمَآ أُنزِلَ إِلَىٰٓ إِبۡرَٰهِـۧمَ وَإِسۡمَٰعِيلَ وَإِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَ وَٱلۡأَسۡبَاطِ وَمَآ أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَآ أُوتِيَ ٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمۡ لَا نُفَرِّقُ بَيۡنَ أَحَدٖ مِّنۡهُمۡ وَنَحۡنُ لَهُۥ مُسۡلِمُونَ ١٣٦﴾ قال ابن عباس رضي الله عنهما: (نزلت هذه الآيات في رؤوس يهود المدينة، كعب بن الأشرف، ومالك بن الصيف، وأبي ياسر بن أخطب، وفي نصارى نجران)[1]. وذلك لأنهم خاصموا المسلمين في الدين، كل فرقة تدعي أنها على الحق، وهم يعلمون بأنّ الحق في دعوة الرسول ﷺ. فرد الله عز وجل عليهم، ودعاهم إلى مَقُولةٍ واحدة آمنا بربنا، وآمنا برسله وأنبيائه، ونحن له مسلمون، وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: **«لا تصدقوا أهل الكتاب ولا تكذبوهم»**[2]. وهذا فيما لم يثبت خبره في كتاب الله، وحديث رسول الله ﷺ، أما ما ثبت عندنا خبره فهو الحق. لأن كتابنا وسنة نبينا توكل الله بحفظهما، وكانوا يقرؤون التوراة بالعبرية، ويفسرونها بالعربية لأهل الإسلام، فلذلك لا نكذبهم ولا نصدقهم، فيما لم يخبرنا الله عنه.

﴿قُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيۡنَا . . .﴾ هذا هو منهج أمة الحق، العدل قوامها، والإحسان نهجها، فالرب واحد، والأنبياء رسله، والكتب كلامه، ففيم التفرق إذاً؟ والمؤدب واحد، وها هو نبينا عليه الصلاة والسلام، يرشدنا إلى أفضال الأنبياء، إنّ موسى عليه السلام ساهم في التخفيف عنّا في فرضية الصلاة عندما عُرج بنبينا إلى ربه، حتى أكرمنا الله بخمس صلوات في العدد، وخمسين في الأجر، وأن رسول الله ﷺ، يُبعث يوم القيامة فيجد موسى قائماً

(١) أسباب النزول للواحدي.

(٢) البخاري في كتاب تفسير القرآن، رقم ـ ٤١٢٥ ـ.

آخذ بقوائم العرش، ويُسأل نبينا عن الكريم، فيقول: الكريم يوسف عليه السلام، فهو نبي، ابن نبي، ابن نبي، ابن نبي، ويرشدنا لندعوا بدعاء يونس عليه السلام، ﴿لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبْحَٰنَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾، ويحج بمناسك إبراهيم عليه السلام. ويعلمنا التنفل بصيام داود عليه السلام، ويحبب لنا صيام عاشوراء، شكراً لله على نجاة سيدنا موسى عليه السلام، وقال: **«كل بني آدم يمسّه الشيطان، يوم ولدته أمه، إلا مريم وابنها»**[1] تلك هي الأمة المسلمة الوارثة لهذه العقيدة، الممتدة على نورٍ وهدىً، من غير ميلٍ ولا زيغ، ويثّبت الله المؤمنين ويقطع لهم بالإيمان بقوله: ﴿فَإِنْ ءَامَنُواْ بِمِثْلِ مَآ ءَامَنتُم بِهِۦ فَقَدِ ٱهْتَدَواْ ۖ وَّإِن تَوَلَّوْاْ فَإِنَّمَا هُمْ فِى شِقَاقٍ ۖ﴾، أهلكتهم العداوة وأكلت قلوبهم نار البغضاء والحسد، ومن عدل عن سنة نبينا ملة إبراهيم حنيفاً فقد عادى الله ورسوله، واتبع هواه. والله عز وجل بيّن لنا لئلا نضل ونشقى، وعلمنا طلب الهداية إلى الصراط المستقيم في كل ركعة من ركعات الصلاة، ﴿ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ۝٦﴾[2]. ورسم لنا معالم الطريق من البداية إلى النهاية. وقال: ﴿إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ﴾[3]. وقال: ﴿وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ۖ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ ۝١٦٣﴾[4].

وقال: ﴿فَإِنْ أَسْلَمُواْ فَقَدِ ٱهْتَدَواْ ۖ وَّإِن تَوَلَّوْاْ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَٰغُ ۗ﴾[5]. فمثل البشارة للمؤمنين بجنة النعيم، ومثل النذارة للكافرين بعذاب الجحيم، فالدين واحد، والعدو من الجن هو إبليس ﴿إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَٱتَّخِذُوهُ عَدُوًّا ۚ﴾[6]. والعدو من الإنس اليهود ﴿لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ ٱلنَّاسِ عَدَٰوَةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلْيَهُودَ﴾[7]. ﴿صِبْغَةَ ٱللَّهِ ۖ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ صِبْغَةً ۖ وَنَحْنُ لَهُۥ عَٰبِدُونَ ۝١٣٨﴾

---

(١) رواه مسلم، في كتاب الفضائل عن أبي هريرة، رقم ـ ٤٣٦٤ ـ.
(٢) سورة الفاتحة: الآية ٦.
(٣) سورة آل عمران: الآية ١٩.
(٤) سورة البقرة: الآية ١٣٦.
(٥) سورة آل عمران: الآية ٢٠.
(٦) سورة فاطر: الآية ٦.
(٧) سورة المائدة: الآية ٨٢.

ومن شذَّ عن هذه الأصول شذّ في النار، لأن الشذوذ هو الخروج عن المألوف، والخروج عن هذا الدين يعني النفاق، فالإسلام دين الله في الأرض، واجبنا أن نحمله كاملاً من غير تحريف ولا تعطيل، ونبلغه لغيرنا بصدقٍ وأمانة، فإن حاجونا فيه فحجتهم مدحوضة، وإن جادلونا فأمرنا أن نجادلهم بالتي هي أحسن، حتى يتبين لهم أنه الحق، فلا لجنس ولا للون أفضلية في الإسلام ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ﴾[(١)]. فلا عصبية ولا قبلية، ولا تفاخر بالأنساب وقال عليه الصلاة والسلام: «**دعوها فإنها منتنة**»[(٢)]. وما نراه اليوم من خصام نكد على الأرض والحدود بين أبناء الأمة الواحدة يُدمي القلوب، ويدرك الإنسان فعالية اليهود والنصارى في إغراء العداوة بيننا، وإشعال فتيل الفتن في بلادنا.

فالرسول عليه الصلاة والسلام متمثلاً للأمر، وكلمة قل في الآيات، توحي بصلة المتلقي بمن يتلقّى عنه، ﴿قُلْ أَتُحَآجُّونَنَا فِي ٱللَّهِ وَهُوَ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ﴾، فما الذي يحمل فئة من الناس على الكفر؟ إنّه فساد القلوب وسوء الطوية، ولن تتحقق مآربهم فينا بإذن الله، إن أقلَّ ما تتطلع إليه عيونهم إشغالنا عن المسيرة. وتفويت الفرص علينا، فنقول: ﴿وَلَنَآ أَعْمَٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَٰلُكُمْ﴾ ولن يؤخذ أحدٌ بجريرة أحد. إنّه الدين ـ النظام والمنهج ـ أغلى وأعز ما يملك الإنسان، وفيه تبذل الأموال والأرواح، ومن أجله تطيب الهجرة وهجر الديار، وفي سبيله يُقدَّم الولد، وتُغيَّبُ الأزواج. إنها صفقة البيع والشراء. ﴿۞ إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِي ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ وَٱلْقُرْءَانِ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِۦ مِنَ ٱللَّهِ فَٱسْتَبْشِرُوا۟ بِبَيْعِكُمُ ٱلَّذِى بَايَعْتُم بِهِۦ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١١١﴾﴾[(٣)]. فهذه بيعة، والثبات عليها بقدرة الله ورحمته، ﴿يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ فِى

---

(١) سورة الحجرات: الآية ١٣.

(٢) رواه البخاري عن جابر بن عبد الله في كتاب تفسير القرآن، رقم ـ ٤٥٢٧ ـ.

(٣) سورة التوبة: الآية ١١١.

﴿ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْآخِرَةِ﴾(١)، والثبات يتطلب العلم والفقه والدعاء ولزوم الجماعة. أما العلم فيعلم أنه على حق لا يزيغ عنه إلا هالك، وأما الفقه فحتى لا يؤتى من قبل الجهل، ولقوله ﷺ: «**من يرد الله به خيراً يفقهه في الدين**»(٢)، وأما الدعاء، فلدعائه عليه الصلاة والسلام، «**اللهمّ يا مقلّب القلوب ثبّت قلبي على دينك**»(٣)، وأما لزوم الجماعة، فلتوجيهه عليه الصلاة والسلام، عن ابن عمر رضي الله عنهما، أنّ رسول الله ﷺ قال: «**إنّ الله لا يجمع أمة محمد ﷺ على ضلالة، ويد الله مع الجماعة، ومن شذّ شذّ في النار**»(٤).

﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَتَمَ شَهَٰدَةً عِندَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾.

إنّ يهود كتمت الشهادة، وبخست الناس حقها، والله عز وجل فضحهم وتوعدهم، ﴿وَٱللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰٓ أَمْرِهِۦ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾(٥).

الفوائد التربوية:

١ ـ إنّ كل قول لليهود ورد في القرآن، ترجم اليوم إلى إعلام مرئي ومصوّر ومسجل دُسَّ في الكتاب، والمجلة، واللعبة، وبرامج التسلية، حتى يتمّ لهم العلو في الأرض، الذي حدّثنا الله عنه في سورة الإسراء، وبهذه السطوة علت يهود ومن مالأها في الأرض.

٢ ـ إنّ انقلاب الموازين اليوم هو ترجمة لقول يهود ﴿كُونُوا۟ هُودًا أَوْ نَصَٰرَىٰ تَهْتَدُوا۟﴾.

٣ ـ دراسة الآية توحي بكثرتهم، حيث قالوا بصيغة الجمع، والتلقين

---

(١) سورة إبراهيم: الآية ٢٧.
(٢) عن معاوية رضي الله عنه، رواه البخاري، في كتاب العلم، رقم ـ ٦٩ ـ.
(٣) رواه الترمذي عن أنس بن مالك رضي الله عنه، في كتاب القدر، رقم ـ ٢٠٦٦.
(٤) رواه الترمذي، عن ابن عباس رضي الله عنهما، في كتاب الفتن، رقم ـ ٢٠٩٢ ـ.
(٥) سورة يوسف: الآية ٢١.

والرد جاء بصيغة المفرد. حيث لم يثبت ويرد على هؤلاء المتعالين في الأرض إلا القلة المتمثلة (بالطائفة المنصورة).

٤ ـ إنّ الختان من سنن الفطرة لكل الأمم، من بعد إبراهيم عليه السلام، غير أنّ النصارى استبدلوه بماء المعمودية، فأصبحوا يغمسون أبناءهم بهذا الماء ليكون نصرانياً حقاً، وقالوا طهورٌ مكان الختان. فأنزل الله صبغة الله، إنّ الختان وسنن الفطرة، وتقليم الأظافر، والاستحداد، وإطلاق اللحية، وحف الشارب كلها من صبغة الله التي صبغ بها إبراهيم عليه السلام ومن على ملته، فالنصارى أبطلوا الختان، بماء المعمودية. والمسلمات أبدلوا قص الأظافر بتطويلها، وتهذيبها تارّة مدببة، وتارّة مقوّسة، وتارّة ملوّنة، وللتلوين أشكالٌ وألوان، يحاكون بها أحوال الكافرين.

٥ ـ مقابل هذا التكامل الإفسادي، والأز الشيطاني، لا بدّ من التحصين بالعلم الحصين، والفقه الدقيق، والتقوى، كما عرّفها طلق بن حبيب (أن تعبد الله على **نور من الله**، رجاء **ثواب الله**، وأن تترك معصية الله، على **نور من الله**، مخافة **عقاب الله**). فلا بدّ من التمكن في الدين، لمواجهة التحديات.

٦ ـ إنّ المائدة القرآنية، واجتماع الأسرة، على تدارس كتاب الله، أصبح أمراً ضرورياً جداً، يفوق ضرورة الغذاء المادي. وهذه أولويات المسؤولية التربوية.

٧ ـ إنّ التشكيك في المعتقدات، والتشكيك في السيرة النبوية والحديث الشريف، أسلوب يهودي ماكر، ﴿وَقَالُواْ كُونُواْ هُودًا أَوْ نَصَٰرَىٰ تَهْتَدُواْ﴾، فعلى المربين أن ينتبهوا لضرورة حلق العلم التحصينية.

﴿۞ سَيَقُولُ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَ ٱلنَّاسِ مَا وَلَّىٰهُمْ عَن قِبْلَتِهِمُ ٱلَّتِي كَانُواْ عَلَيْهَاۚ قُل لِّلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُۚ يَهْدِي مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٤٢﴾ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُواْ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًاۗ وَمَا جَعَلْنَا ٱلْقِبْلَةَ ٱلَّتِي كُنتَ عَلَيْهَآ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يَتَّبِعُ ٱلرَّسُولَ مِمَّن يَنقَلِبُ عَلَىٰ عَقِبَيْهِۚ وَإِن كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلَّا عَلَى ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُۗ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَٰنَكُمْۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ

لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٤٣﴾ قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي ٱلسَّمَآءِ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَىٰهَا فَوَلِّ
وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّواْ وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُۥ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ
ٱلْكِتَٰبَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ ﴿١٤٤﴾ وَلَئِنْ أَتَيْتَ
ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ بِكُلِّ ءَايَةٍ مَّا تَبِعُواْ قِبْلَتَكَ وَمَآ أَنتَ بِتَابِعٍ قِبْلَتَهُمْ وَمَا بَعْضُهُم
بِتَابِعٍ قِبْلَةَ بَعْضٍ وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم مِّنۢ بَعْدِ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ إِنَّكَ
إِذًا لَّمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٤٥﴾ ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَعْرِفُونَهُۥ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمْ وَإِنَّ فَرِيقًا
مِّنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ ٱلْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿١٤٦﴾ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ
﴿١٤٧﴾ وَلِكُلٍّ وِجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيهَا فَٱسْتَبِقُواْ ٱلْخَيْرَٰتِ أَيْنَ مَا تَكُونُواْ يَأْتِ بِكُمُ ٱللَّهُ جَمِيعًا
إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٤٨﴾ وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ
ٱلْحَرَامِ وَإِنَّهُۥ لَلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿١٤٩﴾ وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ
وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّواْ وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُۥ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ
عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنْهُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَٱخْشَوْنِي وَلِأُتِمَّ نِعْمَتِي عَلَيْكُمْ
وَلَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٥٠﴾ كَمَآ أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِّنكُمْ يَتْلُواْ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِنَا
وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُواْ تَعْلَمُونَ ﴿١٥١﴾ فَٱذْكُرُونِيٓ
أَذْكُرْكُمْ وَٱشْكُرُواْ لِي وَلَا تَكْفُرُونِ ﴿١٥٢﴾ ﴾.

المفردات:

السفيه: ضعيف العقل. **الممترين**: المتشككين. **الحكمة**: السنة النبوية.

ينقلب على عقبيه: ينكث عن الطاعة. **الكتاب**: القرآن.

شطر: نصف، وهنا بمعنى الجهة. **ولاّهم**: صرفهم.

وجهة: قبلة (هدف، غاية). **وسطاً**: عدلاً معتدلاً.

اذكروني: الذكر ضد الغفلة، وتشمل الذكر اللساني والقلبي.

سبب النزول: عن البراء رضي الله عنه قال: صلى رسول الله ﷺ إلى بيت المقدس ستة عشر شهراً، أو سبعة عشر شهراً، وكان يعجبه أن تكون قبلته قِبَل البيت الحرام، فصلى الرسول ﷺ صلاة العصر وصلى معه قوم، فخرج رجلٌ مّمن صلّى معه فمرَّ على أهل المسجد وهم راكعون قال: أشهد بالله

لقد صليت مع النبي ﷺ، قِبَل مكة. فداروا كما هم قِبَل البيت، وكان الذي مات على القبلة قبل أن تُحوّل قِبَل البيت رجالٌ قتلوا، لم ندر ما نقول فيهم، فأنزل الله ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَٰنَكُمْ﴾(١).

الدراسة التربوية:

إنّ مشيئة الله اقتضت أن تقوم الجماعة المسلمة، برعاية نبي الله سيدنا محمد ﷺ في المدينة المنوَّرة، بين فئاتٍ ثلاث من اليهود، الذين يدَّعون الدين والعلم. وتلقّن الصحابة الكرام من أول يوم كيف يواجهون عدوهم عدو الله، الذي سيبقى لهم شوكةً إلى آخر الزمانّ، فكان البناء يقوم على نفس المقومات التي سيمضي هذا الدين بمواجهتها. ولاقى رسول الله ﷺ وأصحابه من اليهود ما نلقاه اليوم، وما ستلقاه أجيالنا اللاحقة، حتى ينفذ في يهود أمر الله الذلة والمسكنة في الدنيا، ونار الجحيم في الآخرة.

إنّ مرحلة إرساء قواعد هذا الدين كانت مرحلةً تربوية، القائم عليها هو الله جل شأنه، وأولويات التربية أن تبدأ من القلب إلى الجوارح، وليس بالعكس، فبدأ الله عز وجل بتربية القلب، حتى استقر فيه الإيمان، ثم بدأ بتطويع مقومات هذا الإنسان رويداً رويداً. وهذه الآيات يبدو فيها تربية الرغبات والهوى والعادات والمألوف والتعلق بالأرض. وقد فُرضت الصلاة على رسول الله ﷺ وهو في مكة، والمعقول والمقبول وهو المبعوث بملة إبراهيم عليه السلام، أن يتوجّه حيث توجّه إبراهيم عليه السلام، ولكن خروجاً عن المألوف أُمر بالتوجّه إلى بيت المقدس، وما كان عليه الصلاة والسلام يقول إلا ﴿سَمِعْنَا وَأَطَعْنَاۖ غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ﴾(٢) وصلى عليه الصلاة والسلام وصلى معه أصحابه، دون تردد أو تلكؤ منخلعين من كل ارتباطٍ، إلا من ارتباط العبودية والطاعة. وبعد سنة ونيِّفٍ وبعد تلوعٍ في القلب وتململٍ في النفس، أمره الله بالتوجّه إلى المسجد الحرام. ولكن

---

(١) سورة البقرة: الآية ١٤٣ وسبب النزول، رواه البخاري في كتاب الإيمان، رقم ـ ٣٩ ـ.
(٢) سورة البقرة: الآية ٢٨٥.

ألسنة الفتنة لا ترحم. قال المشركون: رجع محمدٌ إلى قبلتنا، وسيرجع إلى ديننا فإنه علم أننا على حق، وأمّا اليهود فقالوا: خالف قبلة الأنبياء ولو كان نبياً لما خالف سنة من قبله، وكثرت أقوال السفهاء، وأُذكيت نار الفتنة والتشكيك، فردَّ الله عز وجل عليهم بآياتٍ تردّهم إلى الحق، وتبيّن أنّ الأمر كله لله، وما محمد ﷺ إلا عبدٌ يُؤمر فيطيع، وتواردت الآيات من قوله جل وعلا ﴿مَا نَنسَخْ مِنْ ءَايَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَآ أَوْ مِثْلِهَآ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَٱخْشَوْنِي وَلِأُتِمَّ نِعْمَتِي عَلَيْكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾. والآيات كلها تُقر في نفس المؤمن، أنّه تحت تصرف الله، فعليه أن يروّض نفسه لتتبل ما جاء من عند الله، ثمّ تعمل به ثم تدعو له، وفي هذا الأسلوب تدريب كبير على الطاعة المطلقة، ولتتحقق الآية الكريمة ﴿لَا يُسْـَٔلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْـَٔلُونَ ﴿٢٣﴾﴾[1]، فهو ينسخ ما يشاء، ويثبت ما يشاء ومتى شاء، ويوجّه حيث شاء، فلا اعتراض ولا سؤال، وإنّما الترويض للنفوس على الاستسلام لله وحده لا شريك له، وكل اعتراضٍ على أمر الله يُعتبر مؤشراً خطيراً على عدم استقرار الإيمان.

إنّ هذا الأسلوب التربوي تستطيع الأم أن تستفيد منه لتربّي أولادها على الطاعة بالمعروف، ومن لم يتدرَّب على طاعة والديه، يصعب عليه طاعة الله عز وجل. ولذلك نقلت لنا السير نماذج من بر الوالدين، بين الصحابة الكرام والتابعين الأجلاء ما يشبه الخيال، وما ذلك إلا لأنّهم تربّوا على نبع الخير الذي أنزله الخبير العليم. ولله عز وجل في قصة القبلة، والتوجه إلى بيت المقدس هدف، أولاً ليستقر في قلب النبي ﷺ أنّه والأنبياء الذين توجّهوا إلى بيت المقدس إخوة، وأنَّ موسى عليه السلام حجَّ إلى البيت الحرام، فكلهم على قبلة أبيهم إبراهيم عليه السلام، وبيت المقدس أرض النبوات والمكرمات، ولعل هذا التوجه إلى بيت المقدس لتبقى له المكانة العزيزة في نفوس المسلمين، والله يعلم أنّه سيقع في الأسر، وأنّ هناك الأتقياء الذين يُعظّمون شعائر الله، سينهضون لفك أسر

---

(١) سورة الأنبياء: الآية ٢٣.

قبلة المسلمين الأولى، ويختار الله منهم الشهداء - الحكمة كبيرة - ﴿وَمَن يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا﴾[1]، ﴿وَمَا أُوتِيتُم مِّنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾[2]. إنّ رغبة قوية كانت في نفس رسول الله ﷺ، أن يوجّهه الله إلى البيت الحرام، بعدما كثر تبجّح اليهود وبعد كل الذي أحدثوه من بلبلةٍ وتضليل، فمن دواعي الأدب المحمدي أنه ما كان يصرّح بالدعاء، ولكنّه يقلّب وجهه في السماء تمنياً ورجاءً، وفي القلب خفقةٌ إلى البيت العتيق. وما هذا الأدب! وما هذه الثمار الجنية لتلك التربية الرفيعة، التي استدعت الود والرحمة من الله عز وجل، فقال: فلنوليّنك قبلةً ترضاها ثمّ يوجهه ﴿فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ﴾.

وهكذا وحّد الله هذه الأمة، في إلهها ورسولها ودينها وقبلتها وكتابها، إنها الوحدة التي تليق بالإنسان، فتجعله يجتمع على عقيدة القلب وقبلة العباد وطريقة الفهم. في حين يتجمع الحيوان على الكلأ والمرعى والسياج والحظيرة. وفي هذا حجةٌ على أهل الكتاب، لأنهم يعلمون تمام العلم، أنّ المسجد الحرام هو بيت الله الأول، وأنّ الذي رفع قواعده إبراهيم عليه السلام، وحجَّ إليه جميع الأنبياء. والله عليم بما يفعلون رقيبٌ عليهم، خبيرٌ بعنادهم، ولئن أتيتهم بكل الأدلة، وأقمت عليهم كل حجة، فلن ينهضوا من العثرة التي وقعوا فيها، ولن يرتفعوا عن النكسة التي انتكسوها، فالسبب واحد، وهو أنهم عبدوا الهوى، وضلوا السبيل، ويريدونك أن تتبعهم وتقع في شراكهم، أنت ومن معك وكل من يأتي من أمتك، ولكن الله عز وجل ردّهم ويأسهم، وثبّت نبيّه وأمته بتقريرٍ بلاغي جميل، اللفظ فيه خاص، والنداء عام، والتوجيه إلى كل من شهد أن لا إله إلاّ الله محمدٌ رسول الله ﴿وَمَا أَنتَ بِتَابِعٍ قِبْلَتَهُمْ﴾ ولا تملك ذلك، لأنّ القلوب التي ملئت بنور الله، واستقرّ فيها التوحيد الخالص، شأنها دائماً أن لا تّتبعهم، هذا هو الأمل فيك، وفي أمتك من بعدك، وهكذا تتوالى التربية بين ودٍ ورحمة وإيحاء ثم شدةٍ وتحذير.

---

(١) سورة البقرة: الآية ٢٦٩.

(٢) سورة الإسراء: الآية ٨٥.

ولنتأمل في هذه الجولات التربوية: يحوّله ربّه عن الكعبة، ثم يردّه إليها ويرضيه ويتودد له ثم يعظّم الثقة به بالإيحاء، وما أنت بتابعٍ قبلتهم، ثم يحذره بشدة ويلوّح له بسوء المصير.

﴿وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم مِّنۢ بَعْدِ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ إِنَّكَ إِذًا لَّمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ ورسول الله ﷺ ما تبع قبلتهم، ولن يتّبعها، ولكنّ الله يربي به أمّة. لأنّ هذه الأمة تتعرض لحملة مدروسة ومقنّنة ومحكمة لإضلالها. إنّ تضليل الجاهل غير تضليل العالم، فالجاهل يخبط خبط عشواء، ولكنّ العالم الضال ينفذ إليك من ثغراتٍ تبهتك حيناً، وقد تُغلق عليك تفكيرك أحياناً أخرى، ومثل هذا عندما كانت تجتمع أحبار يهود لتسأل رسول الله ﷺ وتحرجه، كما حصل في قصص سورة الكهف ومثله كثير.

ولذلك شهد الله عليهم بأنّهم يعرفونه كما يعرفون أبناءهم الذين من أصلابهم، والضمير في يعرفونه سواءً يعود على رسول الله ﷺ بأنّه مرسل، أو على الحق المنزَّل، فكلاهما ملازمٌ للآخر فرسول الله ﷺ مرسلٌ بالحق، والحق أُنزل عليه. وبهذا قال عبد الله بن سلام رضي الله عنه حين أسلم: «والله يا رسول الله إنهم ليعرفونك كما يعرفون أبناءهم، وقال: لأنا أشد معرفة برسول الله ﷺ مني بابني، فقال له عمر بن الخطاب رضي الله عنه: وكيف ذاك يا ابن سلام؟ قال: إني لأشهد أن محمداً حقاً يقيناً، وأنا لا أشهد بذلك على ابني، لأنّي لا أدري ما أحدث النساء. فقال عمر: وفّقك الله يا ابن سلام»[١].

إن الطريق واضح والصراط مستقيم والهادي إليه رسول الله ﷺ بشهادة الله عز وجل حين قال له ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾[٢]. فإما العلم الذي أنزل من عند الله في هذا الكتاب، وإما الهوى ﴿ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ ﴿١٤٧﴾﴾ المتشككين، لأن الشك يبدأ بخيط دقيق، يشقه إبليس إلى القلب، دائباً عليه، فإذا وقع الشك رُفع اليقين، فيُطعن الإيمان

(١) أسباب النزول للواحدي.

(٢) سورة الشورى: الآية ٥٢.

بجرح يصعب اندماله، إن هذه الأمة اليوم، حصل لها شرخٌ كبير في إيمانها، فأصبحت تحس ظواهر الإيمان، ولا تعيش حقيقته وهي تصغي بسمعها للمستشرقين، فتتلقى عنهم تاريخها، وتدرس بذور الشك الذي يدسونه في ديننا وتراثنا، ونرسل إليهم طلابنا، وفلذات أكبادنا، ليتخرجوا من تحت أيديهم، مدخولي الفكر، معلولي الضمير، وقد وصف إقبال رحمه الله، حال الشباب المسلم المبعوث إلى ديار الكفر فقال: (إن نظام التعليم الغربي أضعف الروح المعنوية عند الشباب المسلم، وجنى على رجولته فأصبح شباباً رخواً، رقيقاً مائعاً، لا يستطيع الجهاد، ولا يتحّمل المكروه، وقال: إنّ سياسة التعليم العالي، تهدف إلى تنمية العقيدة اليهودية، والولاء لها. بالإضافة إلى الدعاء لإسرائيل، وكسب الأصدقاء)(*) ونظرة تفكر وتأمل ترينا أن اليهود، هم اليهود وأنّ التشكيك والكيد لهذا الدين ديدنهم، وقد ظهر الكيد اليوم، وهو أشد تقنية، وأكثر وقاحة، فأين المربون، ليقيموا الحصن القرآني التربوي؟ فيحصّنوا شباب الأمة الرقيق المائع، والذي كان الأمل معقوداً عليه بأنه عدة هذا الدين، والقوة التي ترهب أعداء الله، فالحق من ربك، وهو الجد لا هزل فيه، وهو الصراط المستقيم، ﴿وَلِكُلٍّ وِجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيهَا فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ﴾ فالناس لهم مشارب شتى، وآفاق شتى، وأهداف وغايات، والمخلص قليل. وقد بين الله في هذا القرآن شرائح البشر، وكلها في ضلال وخسر، إلا من توجّه إلى الله، مخلصاً له الدين، متحصناً بالعلم والفقه، خاشع القلب، صادق اللسان. ولمثل هذا جاء التوجيه الرباني، فاستبقوا الخيرات، لم يقل له فاستبق الخيرات يا محمد، بل قال: فاستبقوا أنت ومن معك.

دائماً هم جماعة، دائماً هم طائفةٌ متميزة تتسابق إلى الخير، لا تبرز معها مصالح شخصية، ولا نفاقٌ ولا رياء، وإنما هو الحب والإخاء، والتسابق إلى الخير، الذي ينصر الدين، ويهدي العباد، ما أجمل هذا التوجيه التربوي، ولكل وجهة، فلا يضرك تعدد الوجهات من حولك ما

(*) مجلة دائرة البحوث والدراسات في الهيئة العليا لفلسطين.

دمت ثابتاً. وقد يعلو كل صاحب وجهة من حولك، وتكون له سطوة، وتكون له كلمة، فلا تنسَ أن يهود ستعلو في الأرض، ولكنّك والحق بيديك باقٍ تتوارثه حلقاتٍ في سلسلة الأنبياء. فاثبت على الحق الذي وصفه الله بأنه الحق، وليس الذي تظنه الحق، حيث كل مدَّعٍ يدَّعي أنه على حق، يضلل العباد، ويفسد البلاد، ويعطل راية الجهاد، ﴿أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِۦ مِن مَّالٍ وَبَنِينَ ﴿٥٥﴾ نُسَارِعُ لَهُمْ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ ۚ بَل لَّا يَشْعُرُونَ ﴿٥٦﴾﴾[1]. وقال الله عنهم متوعداً ﴿فَذَرْهُمْ فِى غَمْرَتِهِمْ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿٥٤﴾﴾[2]. فمهما تفرقت السبل وتعددت الوجهات، ومهما التوت الأساليب ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُعْجِبُكَ قَوْلُهُۥ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيُشْهِدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا فِى قَلْبِهِۦ وَهُوَ أَلَدُّ ٱلْخِصَامِ ﴿٢٠٤﴾﴾[3].

فالوقت محدود، والأجل محسوب، ثم يأتي الله بكم جميعاً. ولذلك كلٌّ يعمل على شاكلته فلا تذهب نفسك عليهم حسرات، والقانون الرباني: اعمل ولا تلتفت إلى الباطل، فأعوانه كُثر وصبغتهم مغرية ﴿وَلَا يَسْتَخِفَّنَّكَ ٱلَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ ﴾[4]. فالثبات الثبات حتى نلقى الله عز وجل من غير تبديل ولا تحريف، وأينما كنت فتوجه إلى المسجد الحرام في كل زمانٍ ومكان، فهي جهةٌ واحدة واتجاه واحد وهدفٌ واحد، وهم سيكيدون ويفعلون، ما يدعو إلى الخوف والخشية، فجاء التثبيت من الله ربنا وربهم ﴿فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَٱخْشَوْنِى ﴾ فما بأيدهم من قوةٍ زائلة، وما عندهم من مناصبَ إلى زوال - وأن القوة لله جميعاً - فهو أحق أن يُخشى وأحق أن يُطاع ويُعبد. ففي خشية العبد لربه عزة، وفي حرمانه من أجل ربه نعمة، أيرقى العبد الضعيف، ليدع شيئاً لله عز وجل ومن خشي الله عزَّ واهتدى، ومن خشي غير الله أشرك وبطلت عبادته وحبط عمله. وكم من المسلمين من يخشى الناس أكثر من خشية الله؟ وكم تساقط أناسٌ، وكم هلك علماء أمام

---

(١) سورة المؤمنون: الآية ٥٥.

(٢) سورة المؤمنون: الآية ٥٤.

(٣) سورة البقرة: الآية ٢٠٤.

(٤) سورة الروم: الآية ٦٠.

خشية النّاس، وما أكثر المتساقطون لذلك قال: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا خُذُوا حِذْرَكُمْ﴾[1]. وقال عليه الصلاة والسلام: «**يصبح الرجل مؤمناً ويُمسي كافراً، ويمسي مؤمناً ويصبح كافراً**»[2]. ولذلك كان أصحاب رسول الله ﷺ يخافون على أنفسهم الفتنة، وقد وردت لهم بهذا المعنى صورٌ تربوية مضيئة، وأفهام نورانيةٌ عجيبة، ولقد علّمنا رسول الله ﷺ أن نسأل الله العفو والعافية والمعافاة الدائمة، ونسأله تعالى تمام التربية الربانية. ﴿وَلِأُتِمَّ نِعْمَتِي عَلَيْكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ إنّها كلماتٌ تفيض أمناً وطمأنينة على قلب المؤمن، تجعله لا يعبأ بتهديد الرعاديد، ولا أُعطيات الصناديد. بل للمؤمن شأن آخر، فهو مشغولٌ بآخرته، زاهدٌ في دنياه، رجاؤه بالله كبير، وخوفه من الله شديد، وفي التكرار إثباتٌ لأمر رشيد يريده الله سبحانه أن يستقر في القلوب، ويعمل به المؤمنون في حاضرهم ومستقبلهم، وفي حلّهم وترحالهم وعلى أي حال. إنّ نعمة التوجه إلى قبلتكم وتميز شخصيتكم، سبقتها نعمة إرسال رسولٍ منكم، فهذا تكريم وتفضيل أن تكون الرسالة في أحد رجالكم ـ الخطاب لقريش ـ وهذا الأمين المصطفى، يتلوا عليكم آياتنا.

وهل هناك فضلٌ أكبر من أن يخاطب الله عباده بكلامه يتلوه عليهم رسوله، والتلاوة لها وقع ويُجنى منها ثمرة التزكية والعلم والحكمة، فشتّان بين أمةٍ يتلى عليها الكتاب فتتأدب به وتتزكى، وبين أمةٍ لا تعلم من كتاب ربها إلا الأماني، فطاش حسها، وسفهت نفسها. إنّ في كل مرة يُقرأ القرآن ولا يُثمر علماً، ولا تزكيةً، ولا حكمةً يكون حجةً على الناس يوم القيامة، ويكون حال قرائه كحال يهود مع كتاب ربها. ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ مَا زَكَىٰ مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ أَبَدًا﴾[3].

فالأمة التي تتلوا كتاب ربها، والربا يدور بديارها والحجاب لا يتعدى

---

(١) سورة النساء: الآية ٧١.

(٢) مقطع من حديث رواه الإمام أحمد عن أبي هريرة في كتاب مسند المكثرين، رقم ـ ١٠٣٥٤ ـ.

(٣) سورة النور: الآية ٢١.

عجائز نسائها، وأشكال التقوى في ظواهرها، والعدو قد استباح بيضتها، وتمكنَّ في أرضها، هذه أمة ما انتفعت بكتاب ربها، وما أغنى عنها القرآن كما لم تغن التوراة والإنجيل عن أهلهما شيئاً.

إنّ الإسلام، التقط هذا الأمة من العزلة في البيئة الصحراوية البدائية، ليجعلها أمةً راشدة، تقود العالم قيادة حكيمة قيادةً لم تعرف لها البشرية نظيراً من قبل ولا من بعد. وما يزال هذا المنهج الفريد يمتلك تلك القدرة على تخريج أجيال مماثلة في كل مرةٍ تلتزم به.

﴿فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ وَاشْكُرُوا لِي وَلَا تَكْفُرُونِ ﴿١٥٢﴾﴾.

يا للعظمة! واللطف الحاني، اذكروني... وماذا في ذكر العبيد المخاليق الضعاف في الأرض الصغيرة، لذلك الخالق الكبير في الملأ الأعلى، وكما جاء في الصحيح، وذكر في الحديث القدسي: يقول الله عز وجل: «**من ذكرني في نفسه، ذكرته في نفسي، ومن ذكرني في ملأ، ذكرته في ملأ خير منه**» وفي رواية «**ابن آدم إن دنوت مني شبراً، دنوت منك ذراعاً، وإن دنوت مني ذراعاً، دنوت منك باعاً، وإن أتيتني تمشي أتيتك هرولة**»[(١)]. فضلٌ لا تصفه الأقلام، ولا تعبر عنه الألفاظ، وإنما وهو انفعالٌ في القلب، وشعورٌ لا ينتهي إلا بحلاوة اللقاء، واشكروا لي ولا تكفرون. والشكر درجات يبدأ بالحياء من المعصية، وينتهي بالتجرد للشكر في كل خفقة قلب، وخطرة جنان، وتسخير كل جارحة لله، وقليلٌ من عبادي الشكور. إنّه تفجير لمعاني الحب الخالص، وإلغاء حظوظ النفس، والذكر الذي لا يغيب، ولا يشغل عنه شاغل. لقد ذكر المسلمون الله، فذكرهم ورفعهم، ومكنّ لهم دينهم الذي ارتضاه لهم، ومكنّهم من قيادة البشرية، ثم خلف من بعدهم خلف، نسوا الله فنسيهم، فإذا هم هملٌ ضائع، وتابعٌ ذليل تافه، لأنّ الله قدّر على هذه الأمة، أن ترتفع بكتاب ربها، ﴿لَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ كِتَٰبًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٠﴾﴾[(٢)]. وقال عمر ﷺ: (نحن قومٌ

(١) رواه البخاري عن أبي هريرة في كتاب التوحيد، رقم ـ ٦٨٥٦ ـ.
(٢) سورة الأنبياء: الآية ١٠.

أعزنا الله بالإسلام، فمهما ابتغينا العزة بغيره أذّلنا الله) وافترقت الأمة، بين علمانيين لا يدّخرون جهداً في حرب الإسلام مظهراً وحقيقة؛ وعبّاداً ذاكرين، قصروا الدين على الجانب العبادي وتركوا الجوانب الأخرى، فبدأ الدين ذليلاً مقهوراً، تمكّنَ منه أعداء الله، فحكموا ديارنا وتقاسموا خيراتنا، وغزوا أفكارنا؛ وجَمْعاً كثيراً متفرجاً، همّه في الحياة أن يأكل ويشرب ويتمتع، شعارهم (كلُّ من أخذ أمي سمّيته عمّي) آثروا أن يبقوا هملاً ضائعاً، هؤلاء يتجاوبون مع كل موجود ظاهر؛ وقلةٌ هي التي تحمل الحق من كل جوانبه، تعيش لهذا الدين، باعت النفوس رخيصة لله رب العالمين، وهي القبس النوراني الذي لا ينطفىء، فمن أجلها يجتمع أعداء الله، وعلى وجودها يتشاورون، وللقضاء عليها يعملون ويخططون، وبها يمكرون. والله المستعان على ما يصفون.

الفوائد التربوية:

١ ـ إن السفاهة خلقٌ وجد قبل نزول الآيات وبعدها، وكثرة القيل والقال فيما ليس تحته عمل يُعتبر من السفه. والخوض في مشيئة الله ضلال. والخوض فيما لا يعني الإنسان لغوٌ ومفسدة.

٢ ـ دائماً هناك محك تربوي، سواءً كان بالقبلة، أو غيرها ليعلم الله من يتبع الرسول ممن ينقلب على عقبيه، والمخلص يدور مع الكتاب حيث دار.

٣ ـ الفتن كثيرة، والأدوار المرسومة متعددة، وأصواتٌ ونبراتٌ يُعرف منها ويُنكر، ومقدراتٌ بشرية مسخَّرة، وأهل الحق ممتحنون، فمن يرد الله به خيراً، يفتح بصيرته ويتبين الحق ويعلم أن العاقبة للمتقين، فرسول الله ﷺ كان مهاجراً فاراً من مكة، مخرَجاً منها حيث لا دارٌ ولا مال يَعِدُ سراقة بن مالك سواري كسرى، إنّه اليقين والثقة بوعد الله، ولذلك قال الله عز وجل ﴿وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴿٣٥﴾﴾[1].

(١) سورة فصلت: الآية ٣٥.

٤ ـ الوسطية رحمة الله بهذه الأمة، والوسطية منهجٌ متوازنٌ، حيث لا لغو فيه ولا تفريط، وأما الوسطية زماناً، في مرحلة النضج العقلي للإنسان، والوسطية مكاناً، حيث الإمساك بزمام الأمور والقيام بأستاذية العالم، والوسطية تأهيلٌ لأداء الشهادة على الناس، ممن ورد ذكرهم في كتاب الله، ومكانةٌ عالية يشهد عليها رسول الله ﷺ.

٥ ـ أشادَ الله بمكانة النبي ﷺ، لندرك الرحمة المهداة لنا وللبشرية جميعاً فالله أحب أن يرضيه بقوله: ﴿فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَىٰهَا﴾ والناس يتخاصمون هل يستحق السيادة أم لا؟؟ وحقق الله رغبة نبيه، ووجه الأمة كلها لاتباعه، والتوجه حيث رغب وتمنى، فتفكر أيها المربي بمكانة رسول الله ﷺ، وعظمها في نفوس من أنت مسؤولٌ عنهم تربوياً.

٦ ـ إنّ الذين أوتوا الكتاب، ليعلمون أنه الحق. فالمعرفة والعلم والقول، كلٌّ أولئك لا يكفي، إن لم يبرهن الإنسان عليهم بعملٍ وسلوكٍ وفعاليةٍ، فإبليس يعلم، والمشركون يقرون: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ﴾[1]. واليهود يعرفون رسول الله ﷺ، كما يعرفون أبناءهم، ولكن علم إبليس وإقرار المشركين ومعرفة اليهود، كل ذلك كان حجة لله عليهم، وما أغنى عنهم من الله شيئاً. ولذلك ما أجلَّ وصية علي بن أبي طالب ﷺ: (حيثما كنت، فكن قرب فقيه، يسدد خطاك، ويردك عن الزلل).

٧ ـ إن الكافرين لن يسلموا ولن ينتهوا ولن يتبعوا قبلتنا، ولذلك فالصراع بين الحق والباطل باقٍ ببقاء هذا الحق الذي بأيدينا، فلا بد من تربية الجيل على هذه المفاصلة. إن إسلام أفراد، ودخول البعض في الإسلام، لا يعني انتهاء الكفر. ولن تتبّعنا ذراريهم في يومٍ من الأيام، فلم تخلينا عن ذرارينا؟ وتركنا الغرب الصليبي يحتضنهم في دياره، ويسمّمهم وهم في بلادنا، وبين آبائهم؟؟

(١) سورة لقمان: الآية ٥٢.

٨ ـ إنّ إسلام بعض أحبار اليهود، كعبد الله بن سلام ﷺ، سلط الأضواء على نفسية اليهود، فمالنا متسامحين ومتخاذلين! ولا نغرس ركائز بغض اليهود في نفوس أطفالنا، ونبين لصغارنا ما تفعله يهود، وما تبذّره في العالم من بذور الفساد، تارةً بالتسلية، وأخرى بالعلوم والمعارف، ومرةً بالزينة المبهرجة، وبالموضة، والتقليعة، ولا تزال الزينة متجددة، تبهر العيون، وتعطل العقول حتى يأذن الله بالفتنة الكبرى ـ الدجال ـ فتتبعه يهود والعالم المفتون.

٩ ـ الوجهات عديدة، ولن تصفو الساحة يوماً لراية الحق وحدها، فجاء التوجيه الرباني، لاستباق الخيرات. فالناس تتسابق والعالم يجري، ولكن هناك فئة تتسابق إلى الله، تعاهدت أن لا تُسقط الراية، حتى تعانق راية الآخرة، راية الحمد التي يحملها رسول الله ﷺ، رائداً بها إلى الجنة.

﴿أَيْنَ مَا تَكُونُواْ يَأْتِ بِكُمُ ٱللَّهُ جَمِيعًاۚ﴾ فحيثما كنت يا أخا الإسلام، احرص أن تكون الراية عالية، والدعوة هي الهم والديدن، فبك تنحدر الراية وتميل، وبك تنتصب شامخة، أتُنكس راية لا إله إلا الله وأنت محسوبٌ من أهلها؟ أم تحاول أن تديرها على غير ما أرادها الله تسترضي بها من لا يرجون الله؟؟ ويلك فالبقاء قليل، والزاد أقل من القليل، وحسابك عسير لأنك تعلم كيف تستقيم الراية، ولكنّك قلّبتها لتحافظ بها على دريهمات أو على جاه، فنكثت وصعب عليك الانتكاس لوحدك، فانتشرت تبث الفتنة لتفض النّاس عن الراية، وإن أُبعدتْ راية الحق، وحُوّلتْ إلى شوكة تغصُ بها الحلوق، فلا بأس عليك أن تكون الناخز بشوكة الحق، وإن أفلت الدنيا من يدك فالآخرة أوسع، والجنة أطيب.

١٠ ـ فكما أن القبلة واحدة، فالحق واحد، ولا يختلف في هذا الأصل اثنان، فإما الحق بكل تكاليفه وبعده الجنة، وإمّا الباطل بكل وصولياته وأُعطياته وبعده النار.

١١ ـ الطريق شاق ومخيف، وهناك من يبطش ويثير الخشية في النفوس، ولكن الله عالم الغيب والشهادة، قال: ﴿فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَٱخْشَوْنِي﴾

وتمام النعمة لا يكون إلا بالثبات والإخلاص ولقاء الله من غير تبديلٍ ولا تحريف.

١٢ ـ إنّ التزكية والعلم بالكتاب والسنة، لا يتحقق حتى نتلو القرآن كما تلاه رسولنا الكريم ﷺ، وحتى نتربى به كما ربَّى، فهو العاصم الوحيد الذي يرفعنا إلى مرتبة الذكر والشكر، ويجنبنا الغفلة والجحود. وإن التلاوة التي يتعبد العبد بها ربه هي التي يشترك فيها اللسان بالتجويد والعقل بالتفكر والتسليم والقلب بالتدبر.

يا عبد الله امض فإنك بأعيننا، إن أتيتنا تمشي أتيناك هرولة.

معانٍ جملية لو تُرَبِّي عليها الأولاد يا أخية، فيتعلم ولدك الجرأة في الله. ولا تخافي عليه ولا تحزني، فسيكون داعية لله يدافع الله عنه ويتولاه.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسْتَعِينُواْ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِۚ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٥٣﴾ وَلَا
تَقُولُواْ لِمَن يُقْتَلُ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتٌۢۚ بَلْ أَحْيَآءٌ وَلَٰكِن لَّا تَشْعُرُونَ ﴿١٥٤﴾ وَلَنَبْلُوَنَّكُم
بِشَىْءٍ مِّنَ ٱلْخَوْفِ وَٱلْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَنفُسِ وَٱلثَّمَرَٰتِۗ وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٥٥﴾
ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَٰبَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوٓاْ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ ﴿١٥٦﴾ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَٰتٌ
مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُهْتَدُونَ ﴿١٥٧﴾ ۞ إِنَّ ٱلصَّفَا وَٱلْمَرْوَةَ مِن شَعَآئِرِ
ٱللَّهِۖ فَمَنْ حَجَّ ٱلْبَيْتَ أَوِ ٱعْتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَن يَطَّوَّفَ بِهِمَاۚ وَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا
فَإِنَّ ٱللَّهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ ﴿١٥٨﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَآ أَنزَلْنَا مِنَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلْهُدَىٰ مِنۢ بَعْدِ مَا
بَيَّنَّٰهُ لِلنَّاسِ فِى ٱلْكِتَٰبِۙ أُوْلَٰٓئِكَ يَلْعَنُهُمُ ٱللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ ٱللَّٰعِنُونَ ﴿١٥٩﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ
وَأَصْلَحُواْ وَبَيَّنُواْ فَأُوْلَٰٓئِكَ أَتُوبُ عَلَيْهِمْۚ وَأَنَا ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٦٠﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ
وَمَاتُواْ وَهُمْ كُفَّارٌ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَيْهِمْ لَعْنَةُ ٱللَّهِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿١٦١﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَاۖ
لَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ ٱلْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ﴿١٦٢﴾ وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌۖ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ
ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٦٣﴾﴾.

المفردات:

لنبلونكم: لنمتحننكم والمحنة تكون بالخير أو بالشر. **اللاعنون**: دواب الأرض.

يكتمون: يُخفون أو يحرّفون.   **صلوات**: دعوات رحمات.

يُنظرون: الإنظار: الإمهال أي لا يُمهلون ليعتذروا.   **شعائر**: علامات.

الصفا والمروة: جبلين يكون السعي في العمرة والحج بينهما.

الدراسة التربوية:

إنّ الرحلة إلى الله رحلة شاقة، ولذلك كان زادها الصبر، ومن أجل ذلك نبّه الله إليه كثيراً وذكّر به، لأنّه يعلم ضخامة الجهد المطلوب، وإنّ القيام بهذه التربية، والمرابطة على تخريج هذا الجيل عملية شاقة جداً، لا يعرفها ويقدر قدرها إلا الذين يمارسون العملية التربوية، وكثيرٌ من الناس يحسبون أن التربية هي عملية الطعام والشراب، وغسل الملابس، وحمل الصغير، فلو كانت هذه هي التربية التي تضع المسؤولية عن كاهل الوالدين، لهان الأمر، ولنال هذا الشرف كل امرأة وكل رجل، ولكن التربية أَمرٌ من المر، وأشقُ من تحويل الجبال من مكانها ولذلك كانت الوصية بالصبر، والصبر أحياناً ينفذ فيحتاج الإنسان إلى التصبر، وإلى التماس مسالك التصبير، والصلاة وسيلة لتجديد معاني الصبر في النفس، حيث المناجاة والطمأنينة، وطلب الهداية من الله عز وجل مما يفتح للقلوب مفاتيح الصبر، فيتجدد الأمل، ويتجسد الأجر، فيتجدد الصبر بالقرب. والصلاة هي الزاد الذي لا ينفذ، والمعين الذي لا ينضب ليجدد الطاقة. فيمتد حبل الصبر فلا ينقطع. والدعوة تحتاج إلى صبر، والثبات يحتاج إلى صبر، والإخلاص زاده الصبر، والتربية أم الصبر، والمرابطة تحتاج إلى صبر ومصابرة، وسلوان هذا كله ومداده ﴿إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴾.

وللصبر أحوالٌ ثلاث: صبرٌ على الطاعات، وصبرٌ عن المعاصي، وصبرٌ على المصائب.

وأشقّها الصبر على الطاعات، لأنه يحتاج إلى شحنة إيمانية متجددة، وحذر وعدم ملل ومثابرة واستحضار قلب وشد عزيمة. والصبر عن المعاصي فزع منه عمر بن الخطاب ﷺ بدعائه إلى الله عز وجل: اللهم لا

صبر لنا على ما زيّنت لنا إلا بك يا رب. وأما الداعية إلى الله، فللصبر عنده مقامات، فالصبر على طبائع البشر، والصبر على بطء الاستجابة، والصبر على الأذى، والصبر على الكيد، والصبر على الحاسدين، والصبر على المنافقين، والصبر على التواء النفوس، والصبر على انتفاش الباطل وغطرسته، والصبر على تلوّن الناس وسطوتهم، والصبر على الجهاد، والصبر على بطء النصر، والصبر على قلة الناصر والمعين. والصبر على طول الطريق. وأشدها وأشقها الصبر على ظلم الظالمين. وأعلى مقامات الصبر هو (الصبر مع الرضى والشكر لله) فهذا خلق الأنبياء والصالحين، (إن لم يكن بك غضبٌ عليَّ فلا أُبالي).

﴿وَلَا تَقُولُوا۟ لِمَن يُقْتَلُ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتٌۢ ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ وَلَٰكِن لَّا تَشْعُرُونَ ﴿١٥٤﴾﴾ وهؤلاء هم الشهداء فمن خرج من بيته متجرداً عن الدنيا لا يريد إلا الله ورسوله ولا يلتمس ذكراً ولا جاهاً ولا غنيمة ولا متاعاً ما أخرجه إلا حب الله ورسوله وجهادٍ في سبيله ولتكون كلمة الله هي العليا وكلمة الذين كفروا هي السفلى فهذا هو الشهيد، الذي لا يصح أن يوصف بالموت، ولا يُقال عنه ميتٌ أو مات. لأنه حيٌ عند ربه، وبهذا قال رسول الله ﷺ: **«سيد الشهداء حمزة، ورجل قام إلى سلطان جائر فأمره ونهاه فقتله»**(١).

وقد نزلت الآيات في شهداء بدر، وكانوا ثمانية من الأنصار، وستة من المهاجرين قال الناس فيهم مات فلان، فنهى الله عن مقولة مات، وأرشدهم إلى وصف الشهادة. تكريماً لهم فكم مضى في سبيل الله عباد! تخيرهم الله واصطفاهم، ارتضى الله دمائهم لتروي شجرة الدعوة المباركة، فالاختيار ماضٍ، والرواء متميز، والدعوة باقية بإذن الله، وللشهيد عند ربه سبع خصال (يُغفر له عند أول دفقة دم، يرى مقعده من الجنة، يُجار من عذاب القبر، ويأمن من الفزع الأكبر، يُزوج اثنتين وسبعين من الحور العين، ويشفع في سبعين من أهله، ويتوَّج بتاج الوقار الياقوتة فيه خير من الدنيا وما

(١) رواه جابر بن عبد الله، انظر سلسلة الأحاديث الصحيحة، رقم ـ ٣٧٤ ـ.

فيها)[1]. وذكر عند القرطبي، أن خمس كرامات للشهيد، وليست لأحد: ١ ـ يقبض روحه الله عز وجل. ٢ ـ لا يغسل. ٣ ـ لا يكفن. ٤ ـ لا يُسمى ميت. ٥ ـ الشفاعة معه منذ استشهاده.

وبعد مرحلةٍ تربوية صعبة، وبعد تقرير القبلة، وتميز شخصية هذه الأمة، وتحميلها الوسطية، والشهادة على الناس، تُوجّه الأمّة لتصبر وتستعين بالصلاة لجلب الصبر، لأنَّ أموراً جليلة تنتظرها، فهي القيّمة على دين الله فلا بد لها من الحذر وتخطّي العقبات، فهي ستُمتحن ويُمحّص الإيمان في القلوب، ويقع الابتلاء، ويُشحذ الصبر. ستُبتلى هذه الأمة بالخوف والجوع ونقص من الأموال والأنفس والثمرات وبشر الصابرين. الذين إذا أصابتهم مصيبة قالوا: ﴿إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ﴾ وبعد ليل دامسٍ غطّ المسلمون زمناً في منعطفاته، لاحت بوادر فجرٍ مرتقب، ونهضت الأمة الموحدة، لتستقبل بواعث مرحلة إقرار منهج الله في الأرض، وإقامة دولة الإيمان، وتقدمت الأمة بهذا المنهج لتتسلم الراية وتسير في طريقٍ طويلٍ وشاق مليءٍ بالتضحيات، ولكن لا غنى عنه ولا بديل.

وعودةٌ إلى التربية القرآنية، حيث أن القرآن يعبىء الأمة، تعبئة روحية، لتوازن بين جميع متطلبات هذا الدين، فالمؤمن هو المؤمن في صفوف المصلين، وهو الخاشع المرتل بين المتعلمين، وهو المجاهد في الساحات والميادين، وهو في قضاء حاجات إخوانه المحتاجين، وهو الحاكم الذي يسوس المحكومين، وهو الجندي تحت إمرة القياديين، وهو الشهيد الذي يرفع في عليين إن شاء الله، فالمعركة حافلة بالتضحيات والآلام، والمفاهيم والتصورات.

إنّ هنالك قتلى، سيخرّون شهداء في سبيل الله، فالدّم يدفق، والدفن حاصل والفراق واقع، وهم في الحس ليسوا أمواتاً، بل أحياءٌ حياةً تليق بهذه التضحيات.

---

(١) رواه الترمذي عن المقدام بن معدي كرب في كتاب فضائل الجهاد، رقم ـ ٥٨٦ ـ.

إنّهم قتلى في ظاهر الأمر، وحسبما ترى العين، ولكن النظرة العميقة تقول: إنهم أحياءٌ، لأنّ بموتهم تحيا الأمم، إنّها تربية الروح، وتربية المشاعر والأحاسيس وقد جلّى رسول الله ﷺ هذا المعنى وثبّته، كما روى أبو ميسرة رضي الله عنه عن عائشة رضي الله عنها: أنّهم ذبحوا شاة، فقال النبي ﷺ: «**ما بقي منها؟ قالت: ما بقي منها إلا كتفها، قال: بقي كلها غير كتفها**»[1]، ومعنى ذلك أنّ التي وزعتها على الفقراء والمحتاجين، هي التي بقي أجرها مدّخراً عند الله، فاعتبرها هي الباقية.

إنّ المعنى التربوي قريب، ولكن من الذين بلغوا أوج النضج العقلي، والرقي الحسي، حتى أصبحت الأم تلقى الرجل، ينقل لها خبر استشهاد ابنها مواسياً بآيات الاسترجاع، فتقول: أجئتنا معزياً أم مهنئاً؟ فيقول: بل مهنئاً. وهكذا تعاضدت الآيات القرآنية، والمشاهد النبوية، على تدعيم هذا الدور التربوي، وهو تربية الحس والمشاعر والإيمان بما وراء الحجب، وكأنّه حاضرٌ منظور، وهذا يختلف عن الإيمان بالغيب، ومنه الإيمان بالله عز وجل، حيث أنّ كل مفصلٍ في جسم الإنسان يدل على الخالق وكل نبتةٍ وكل ما في هذا الكون يدل على أنّه الواحد. أما أن يستقر في النّفس أنّ الميت حي، وأنّه لا يغسّل، ولا يكفّن، بل يدفن بثيابه ودمائه، وأن تستبشر أمه بفراقه، إنّه لأمرٌ عجيب، وثمرةٌ تربويةٌ تأخذ بالعقول، وتمتد هذه الإيمانيّات عبر الأجيال، وتظهر البطولات في كل مرةٍ يلتحم فيها المسلمون بقرآنهم. وقد رأيت نساءً في زماننا، يُعِدْن سيرة الصحابيات، ويُجِدْن بالغالي والرخيص في سبيل هذا الدين.

وسمعنا وعايشنا رجالاً وقفوا أمام منصات الإعدام، شامخين بأنوفهم على جلاّديهم، يقف أحدهم ويُمنّي نفسه بالشهادة، ويدفع بأخيه ليحرز النصر[*]، وأما العدو فليمت بغيظه، فالإسلام باقٍ لأنّه دين الله الحي الذي

---

(١) رواه الترمذي، في كتاب صفة القيامة، والرقائق، والورع، رقم ـ ٢٣٩٤ ـ.

(*) أخي إن أنا متُّ فإني شهيد وأنت ستمضي بنصرٍ جديد
فإما إلى النصر فوق الأنام وإما إلى الله في الخالدين

لا يموت. والشهيد عندما يجود بنفسه سواءً في أرض المعركة عندما يَحمى الوطيس، أو عندما يَثبتُ على المبدأ، ويغيظُ أعداء الله فيقررون التخلص منه، ففي الحالتين يكون الإنسان مشتاقاً إلى ربه، ويغذّ المسير للقائه، ويحاول أعداء الله أن يُثنوه عن عزيمته، سواءً بالمفاوضات المادية أو المراكز الوظيفية. وهنا يثّبت الله الذين آمنوا في الحياة الدنيا وفي الآخرة. ومهما تباعدت الأيام وتغايرت الظروف فالمواقف متشابهة، فعندما هجر رسول الله ﷺ كعب بن مالك رضي الله عنه تأديباً له، لتخلفه عن رسول الله ﷺ يوم تبوك، أرسل إليه ملك الروم ليفتنه في دينه ويقول: (علمنا أنّ صاحبك قد جفاك، فهلمّ إلينا نواسك، ولم يجعلك الله بدار هوان)، ونظر كعب إلى الرسالة، وأدرك المحنة، فرمى بالرسالة في التنور، وقال متعجباً: لم يبق عليك يا كعب إلا أن ترتدّ عن دينك!!)[*]. فالصور متقاربة والأحوال واحدة، والمدرسة التي خرّجت كعب رضي الله عنه هي المدرسة التي خرّجت سيد قطب رحمه الله، فالمشاورات والمفاوضات حتى في ليلة الإعدام قائمة، ولكنّ الإيمان يستعلي، وكم كعبٍ في ديار المسلمين، وكم سيدٍ في الثابتين، وصدق الله عز وجل ﴿فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُۥ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ﴾[1]، وما أكثر القتلى، وما أقل الشهداء. وعن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه قال: جاء رجلٌ إلى النبي ﷺ، فقال: يا رسول الله، الرجل يقاتل حميةً ويقاتل شجاعةً، ويقاتل رياءً، فأيُّ ذلك في سبيل الله؟ قال: «**من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا، فهو في سبيل الله**»[2]. هؤلاء هم الذين تقوم على أكتافهم الدعوات، وهؤلاء هم الذين يتسلمون الراية لا يفرطون بها، وإن قطّعت أيديهم، وأما الذي يبكي رغيف الخبز، وتنقلب عنده الموازين إن زيدت الدراهم أو نقصت، ويتخلى عن مبدئه إن هُدد بالمال والأحباب، هؤلاء غثاءٌ كغثاء السيل، ابتلوا بداء الوهن وهو حب الدنيا وكراهية الموت. إنّ في هذه الأمة ثمرات طبيعية للتربية القرآنية، خرجوا في سبيل الله على

(*) حديث الثلاثة الذين خلفوا، في كتاب المغازي، باب حديث كعب بن مالك.

(١) سورة الأحزاب: الآية ٢٣.

(٢) رواه البخاري، في كتاب التوحيد، رقم ـ ٦٩٠٤ ـ.

بصيرةٍ من الأمر، وضعوا قلوبهم على أفواه بنادقهم، وباعوا النّفس خالصة لله. لا يشغلهم عن الغاية شاغل، فإما النّصر وإما الشهادة ﴿وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ (١٥٦)﴾ إنا لله.. كلنا لله.. التسليم المطلق تسليم الالتجاء الأخير، المنبثق من الالتقاء وجهاً لوجهٍ بالحقيقة الوحيدة، والتصور الصحيح... وبشّر الصابرين.

﴿أُولَٰئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ (١٥٧)﴾، فالصلوات هي المغفرة والثناء والرضى من الله، ولذلك وصفهم بأنّهم المهتدون لطرق رضاه، سلّموا فسلِموا، واستسلموا فأمنوا، ونعموا في ظل رؤوف رحيم.

﴿إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ مِن شَعَائِرِ اللَّهِ﴾.

إنّ الله جعل في الصفا والمروة والسعي بينهما معاني لربط هذه الأمة بأصولها. فقد سعت أم إسماعيل بينهما بحثاً عن الماء وبحثاً عن رحمة الله، وبذلت الجهد وتضرعت بالدعاء فحفظها الله وابنها، وفجّر لها عيناً لا تنضب، والأمة اليوم بحاجة إلى استحضار حال تلك المؤمنة، التي قالت لزوجها وهو يعود قافلاً إلى دياره، بعد أن وضعها في وادٍ غير ذي زرع هي ووليدها، يا إبراهيم... يا إبراهيم... والزوج الصالح لا يلتفت، إنّه ليس من فعل الأنبياء وأدركت لا بد أنّه مأمور، فقالت: آلله أمرك بهذا؟ فأشار برأسه أن نعم. فهدأت وقالت: إذاً لا يضيّعنا. والمسلمون اليوم يسعون ويرجون رحمة الله، كما رجتها هاجر من قبل. ولكن ينقصهم اليقين.

وكانت قريشٌ تسعى وهي على الشرك، فتَحرَّجَ المسلمون من عبادةٍ كانوا يزاولونها في الجاهلية، فنزلت الآية ترفع عنهم الحرج، وتبين له أن لا إثم عليهم وليسوا في موضع تقليد الكفار، وإنّما هي عبادةٌ تمتد جذورها إلى أصولهم في الحنيفية السمحة. لقد بلغت الشفافية في نفوسهم مبلغاً، جعلتهم يتحرّجون من الوقوع في التشبّه أو التقليد، لأنّهم حين أسلمت قلوبهم، أسلمت أحاسيسهم ومشاعرهم، ممّا جعلهم يتذوّقون كل حرف، وكل أمرٍ في كتاب الله، تذوقاً معنوياً رفيعاً.

وعن هشام بن عروة عن أبيه قال: قلت لعائشة زوج النبي ﷺ، وأنا يومئذٍ حديث السن، أرأيتِ قول الله تبارك وتعالى: ﴿إِنَّ ٱلصَّفَا وَٱلْمَرْوَةَ مِن شَعَآئِرِ ٱللَّهِ فَمَنْ حَجَّ ٱلْبَيْتَ أَوِ ٱعْتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَن يَطَّوَّفَ بِهِمَا﴾ فما أرى على أحدٍ شيئاً، أن لا يطوف بهما. فقالت عائشة رضي الله عنها: (كلا، لو كانت كما تقول، كانت فلا جناح عليه أن لا يطوّف بهما، إنما أُنزلت هذه الآية في الأنصار، كانوا يَهلّون لمناة، وكانت مناة حذوَ قديد(*)، وكانوا يتحرّجون، أن يطوفوا بين الصفا والمروة، فلما جاء الإسلام، سألوا رسول الله ﷺ عن ذلك، فأنزل الله ﴿إِنَّ ٱلصَّفَا وَٱلْمَرْوَةَ مِن شَعَآئِرِ ٱللَّهِ . .﴾)[1].

إنّ التشبّه بالكفار والتقليد لهم، ثمارٌ طبيعية للإعجاب. والإعجاب بالكفار دليلٌ على طمس الأحاسيس وتبلد المشاعر. وقد أخذ الصحابة الكرام من غيرهم من الأمم كل نافعٍ ومفيد، وما كانوا متقوقعين، ولا منعزلين، وما كانوا منبهرين بسفاسفَ التبرج والإغراء والنّزوات الشيطانية. والإسلام لم يُحرِّج على أخذ العلم وتبادل المهارات، ولكنه حرّج من الحبُّ والإعجاب والود والولاء.. ومثله من المعاني التي تشرخ الإيمان، وتهدم البناء الإسلامي المتميّز.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَآ أَنزَلْنَا مِنَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلْهُدَىٰ مِنۢ بَعْدِ مَا بَيَّنَّٰهُ لِلنَّاسِ فِى ٱلْكِتَٰبِ﴾.

إنّ كتمان الحق واحتكاره جريمةٌ لا تُغتفر، لأنّ هذه البيّنات نزلت ليتعبد الناس بها ربهم، فتغييب الحقائق عنهم أو تسييرها حسب الأهواء والأجواء أيضاً جريمة، لقد دار الزمان دورته حتى ظهر أناس لوَوا عنق الحقيقة، ليُخرجوا البيّنات عن مراد الله، وليُنحّوا الهداية عن مجراها الفطري. فظهر في الدين مسلمون أقزام، يحملون جانباً ويعطلون جوانب،

(*) قُديد: اسم موضع ينزل فيه المسافرون من مكة إلى المدينة.

(١) البخاري، في كتاب الحج، رقم ـ ١٦٦٥ ـ.

ولا عذر لأحدٍ منهم، لأنّ العقل الذي وهبهم الله إيّاه، يرفض هذا التناقض، ولكن أُريد لهم، تعطيل عقولهم والاندفاع بعواطفهم تارةً، وبمصالحهم تارةً أُخرى، وهذا ما يتنافى مع الإخلاص، ومع وحدة هذا القرآن، وشمولية هذا الدين، وإن كانت الآية نزلت في علماء أهل الكتاب فهي وعيدٌ لمن يفعل فعلهم في كل زمان، وإن كان السبب خاص فالحكم عام، وأحبار اليهود كتموا آية الرجم، وصفات النبي الخاتم عليه أفضل الصلاة وأتم التسليم، وكذّبوا وغيّروا بما يتمشّى مع مصالحهم، فما الفرق بينهم وبين من عطّل حكم الله في الأرض؟ وأقرَّ ظلم المسلمين. وعطّل الجهاد في سبيل الله؟ وبين آخر لبس زي الدين، واستنزف أموال المسلمين في تعمير المساجد، بينما ثغور المسلمين مفتحةً، وديارهم مستباحة، والمجاهدون يقتاتون بورق الشجر، ويحارَبون بالحديد والنار، والمسلمون عدتهم الحجارة والجوع، إنّ من يتلاعب بعواطف المسلمين، يعدهم ويمّنيهم بأجر إعمار المساجد،ويُغّيب عنهم أجر الغزو وتجهيز الغزاة وكبيرة استباحة ديار المسلمين وهتك أعراضهم سيسأل عن عمله هذا يوم الدين إنّ تعطيل أمرَ الله في الأرض، يُغضب الله، فتجدب الأرض، ويُمنع القطر من السماء.

أخرج عبد الرزّاق، وعبد بن حميد عن مجاهد، قال: إذا أجدبت البهائم، دعت على فجار بني آدم، وأخرج أبو نعيم في الحلية، والبيهقي في شعب الإيمان؛ أنّ دوابَّ الأرض تقول: إنّما منعنا القطر بذنوبهم فيلعنونهم، واللعن هو الطرد من رحمة الله، فكتمان البيّنات وهي الشريعة والدين والهدى، فلا يجوز لأحدٍ كتمها، وقالوا: بجواز كتمان غيره، كما قال أبو هريرة ﷺ: (وعاءين أما أحدهما فبثثته، وأما الآخر فلو بثثته قطع هذا البلعوم)، وكما جاء في فتح الباري شرح صحيح البخاري في كتاب العلم حمل العلماء أن الوعاء الذي لم يبثّه هي الأحاديث التي فيها أسامي أُمراء السوء، وأحوالهم وزمنهم، وكان أبو هريرة يكنّى عن بعضه ولا يصرّح به خوفاً على نفسه منهم، كقوله ﷺ: **«أعوذ بالله من رأس الستين وإمارة الصبيان»** يشير إلى خلافة يزيد بن معاوية، لأنّها كانت سنة ستين

من الهجرة، واستجاب الله دعاء أبي هريرة فمات قبلها، واتخذ الباطنية هذا الحديث حجةً في تصحيح باطلهم، واعتقدوا أنّ الشريعة لها ظاهر وباطن. والحقيقة أن التشريع والأحكام وما يقوم عليه هذا الدين، لا يجوز لأحدٍ كتمانه ولا تغييره ولا تفسيره حسب الهوى أو حسب المصالح.

﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا۟ وَأَصْلَحُوا۟ وَبَيَّنُوا۟ فَأُو۟لَٰٓئِكَ أَتُوبُ عَلَيْهِمْ ۚ وَأَنَا ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٦٠﴾﴾ وفي كل مرة هناك نافذة الرحمة الإلهية، وتأتي إلا الاستثنائية، ليتوب أقوامٌ، ويهتدي آخرون.

وللتوبة شروط وآداب، فأولاً الإقلاع عن الذنب من غير عودة إليه، ثمّ الإصلاح وترميم ما أفسد، والاعتراف بالخطأ لمن ضللهم، ثم التزام دعوة الحق، تكفيراً عمّا كتم وحرّف، وبذلك تُفتَّح للتائبين أبواب التوبة، ويتقبلهم الله بعفوه وكرمه.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَمَاتُوا۟ وَهُمْ كُفَّارٌ أُو۟لَٰٓئِكَ عَلَيْهِمْ لَعْنَةُ ٱللَّهِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿١٦١﴾﴾ إنّ الكفر غمٌّ وظلمة، ومن ترعرع في هذه الدنيا التي تموج بفيض الإيمان بالله، وجميل التوكل عليه، وبهدي الأنبياء والمرسلين، وفي ظل الدعاة المشمّرين، وأصرَّ أن يبقى بين كل هذا الخير، مغمض العينين، معطّل الأذنين، فسيتقلّب في ظلمات الجهل ولن يفتح عينيه إلا على لهيب النيران، واللعن كلمة لا يتفوّه بها مؤمن، وإن كانت صحيحةً على الشيطان والكافرين، ولكنّ المؤمن ينزّه صحائفه من هذه الكلمة التي تدور كالقذيفة، فإن لم تجد صاحبها عادت على قائلها، ومنهج المؤمن في الأرض «أن اعمل ولا تلتفت» فمن يرد الله به خيراً يلحقه بك، ومن يعلم الله به شراً يثّبطه ويبعده عنك، ﴿وَلَوْ عَلِمَ ٱللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَّأَسْمَعَهُمْ﴾[1] ﴿وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ۖ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٦٣﴾﴾.

الفوائد التربوية:

١ ـ الصبر خلق الأنبياء، وزاد الدعاة، وعدة العاملين، ومن تجمّل به

(١) سورة الأنفال: ٢٣.

استحقّ معية الله ورحمته ﴿إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾.

٢ ـ الصبر المطلوب، هو الصبر الجميل الذي ليس معه شكوى، ولا ضجر، ولا يمنُّ المرء بصبره على الله عز وجل، أو على النّاس فيحبط عمله، ويندثر أجره.

٣ ـ دراسة التفسير وكثرة التأمل بكتاب الله، والاقتداء بسير الأنبياء والصالحين، تنهض بالإنسان إلى المستوى الإيماني اللائق، فيبلغ مقام اليقين، فيفرح للشهادة في سبيل الله، فتصبح حُلماً يداعب خواطره، فيشمّر عن سواعده ليلحق بركب الراحلين.

٤ ـ من الأدب في الدين، والطاعة لله رب العالمين، أن لا يُقال عن الشهيد ميت، وهذا ليس تألياً على الله بل اتباعاً لأمره، فمن عُرفت سيرته وانتظمت حياته في صفوف المجاهدين، وشهدت له الأمّة بالصّلاح والإخلاص، ومات على يد أعداء الله، قتلاً أو شنقاً أو تعذيباً أو تفجيراً، ففاضت روحه إلى بارئها مظلومة، لا تريد عرضاً من عرض الدنيا، فهو شهيد بإذن الله، والله أعلم بالسرائر.

٥ ـ لقد زيّن الله الشهادة، وجعلها درجة لا يصلها إلا من اختاره الله ﴿وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَآءَ﴾(١) فهي ثمرةٌ تربوية رفيعة، فليجتهد المربّون، وليتزيّن المحبّون، لينالوا ما أُخفي لهم من قرة أعين، وعن مسروق بن الأجدع قال: سألنا عبد الله بن مسعود رضي الله عنه عن هذه الآية ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًۢا﴾، فقال: سألنا رسول الله ﷺ عن ذلك، فقال: **«أرواحهم في جوف طيرٍ خضر لها قناديل معلقة تحت العرش تسرح من الجنّة حيث شاءت، ثم تأوي إلى تلك القناديل، فاطّلع إليهم ربهم اطّلاعه، فقال: هل تشتهون شيئاً؟ قالوا: أيُّ شيءٍ نشتهي ونحن نسرح من الجنة حيث شئنا، ففعل ذلك بهم ثلاث مرات، فلما رأوا أنّهم لن يتركوا من أن يُسألوا، قالوا: يا رب نريد أن تُردّ أرواحنا في أجسادنا حتى نُقتل في سبيلك**

(١) سورة آل عمران: الآية ١٤٠.

مرةً أُخرى، فلما رأى أنّ ليس لهم حاجة تركوا»[1].

٦ ـ أنّ الابتلاء، والامتحان سنةٌ من سنن الله عز وجل، فلا بدّ من تمحيص الإيمان، ليعلم الله الخبيث من الطيّب، والابتلاء يكون بالضرّاء والسرّاء.

وكما تتكاثر المحن على الإنسان ويُمتحن صبره عليها فيصبر ويسترجع، ويسلّم لمن بيده مقادير الأمور، فكذلك تُفتح عليه الدنيا من كل جانب، وهذه محنةٌ أشد والصبر عنها يريد مجالدة وصراع، لأنّ انفتاح الدنيا على العبد فإما أن ينغمس إلى أذنيه، فينهل وتعطيه حتى تملكه فإذا ملكته أهلكته. لأنّ عبد الدنيا عبدٌ للنعيم، فلا يفكر بتضحية لأنّه يشقُّ عليه أن يتنازل عن مستوى معيّن تعوّد عليه، ولا يفكر بدفع شيءٍ من أمواله لأنّه لا فائض عنده حيث طلباته كثيرة، وتمنّيات أسرته لا تنتهي. ولهؤلاء يحذّر الله عز وجل بقوله: ﴿فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّىٰ إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ ﴿٤٤﴾﴾[2]، وإما أن يعبّدها لله، فإن كانت دنياه مالاً قالا فيه هكذا وهكذا في أهله ومستحقيه، وإن كان جاهاً نفع به إخوانه المؤمنين، وإن كانت قوة سخرها في سبيل الله.

٧ ـ إن في هذا القرآن قواعد تربوية يستطيع أن يستفيد منها القائمون على العملية التربوية.

فأن يخوّف الطفل من الله، له مردود تربوي.

وأن يُحرم من الطعام تأديباً على تفريطٍ منه، له مردود تربوي.

وأن يُذاق ألم الجوع، أو يُطعم ما لا يشتهيه، له مردود تربوي.

مرة يُحرم من النفقة المخصَّصة، أو تُخفّض حسب نوع العقاب.

يُحرم مما يشتهيه ويُحبه، ويُعطى ما لا يحبه ولا يشتهيه.

---

(١) رواه مسلم، في كتاب الإمارة، رقم ـ ٣٥٠٠ ـ.

(٢) سورة الأنعام: الآية ٤٤.

هذه الأمور تُستعمل كعقاب بديل عن الضرب مرة، وعن التأنيب مرةً أخرى.

فهو أسلوب تربوي تمارسه الأسرة كلها، لتتعود على الصبر أولاً ثم الرضا بما قسم الله ثانياً، ثم تستشعر السعادة به ثالثاً، وبهذا الأسلوب تتدرب على تفويض الأمور لله عز وجل، ويستشعر الإنسان أنه قويٌ يملك نفسه ويعبّدها لله رب العالمين، فهذا هو المعنى الحقيقي للزهد، وهو إذا أمسيت ولك درهم أو ألف درهم فهما سيّان.

إنّ تلون وتعدد الأساليب التربوية، يُفجّر ينابيع الهداية، وأولئك هم المهتدون لطاعة الله عز وجل ولنبيّه الأمين.

٨ ـ يُروّض الطفل في كل مرة يمرض بها، أو يُصاب بصدمة، أو جرح أن يقول الحمد لله ثم يسترجع بقول (إنا لله وإنا إليه راجعون).

٩ ـ التربية القرآنية أوجدت نفوساً طائعة مستسلمة لله، وقد ذكر أبو موسى الأشعري رضي الله عنه عن النبي ﷺ أنه قال: «**قال الله تعالى: يا ملك الموت. قبضت ولد عبدي؟ قبضت قرة عينه، وثمرة فؤاده؟ قال: نعم. قال: فما قال؟ قال: حمدك واسترجع. قال: ابنوا له بيتاً في الجنة وسمّوه بيت الحمد**»(١).

١٠ ـ بعد الأمر بالاسترجاع والشكر والحمد لله، جاء التأكيد على الصبر؛ لأنّ الهلع والجزع وانعدام الصبر يؤدي إلى الكفر والعياذ بالله، فالدين شرائعٌ ومشاعر، والرضى حال يستولي على النفس بقدر الاستقرار الإيماني فيها.

١١ ـ التحرج من كل عمل أو إشارة أو علامة أو عادة أو لباسٍ أو سمتٍ يمارسه الكفار، فهذا دليل الإيمان.

---

(١) أخرجه الإمام أحمد والترمذي. واللفظ لأحمد رواه في كتاب مسند الكوفيين، رقم ـ ١٨٨٩٣ ـ.

١٢ ـ كتمان الحق جريمة، وقد روى ابن كثير عن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «**من سئل عن علم فكتمه ألجمه الله يوم القيامة بلجام من نار**»[١] فالشرط فيه عن علمٍ يعلمه، فمن لا يعلم لا يتعالم وإنما يقولَ الله أعلم.

١٣ ـ لا يجوز اللعن إلا للكافر، والأفضل أن لا يعوّد المؤمن لسانه على الفحش واللعن، وقد أُتي برجل سكران فلعنه آخر، فقال عليه الصلاة والسلام: «**لا تلعنه فإنه يحب الله ورسوله**»[٢].

١٤ ـ يجري على لسان كثير من الأمهات، كلمة ملعون أو ملعونة على الأطفال سواءً لذنبٍ فعلوه أو إعجاباً بمهارةٍ أدّوها، فهذا لا يليق بمربٍ أو مربية أن تتلفظ بهذه القذيفة. فالمذنب يؤدب، والذكي يُقال له ما شاء الله لا قوة إلا بالله.

١٥ ـ يقول الشهيد سيد قطب رحمه الله: (إن وحدة الألوهية، هي القاعدة الكبيرة، التي يقوم عليها التصور الإيماني، فهو الإله الواحد وهو الرحمن الرحيم).

﴿إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱلْفُلْكِ ٱلَّتِي تَجْرِي فِي ٱلْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن مَّآءٍ فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ وَتَصْرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ وَٱلسَّحَابِ ٱلْمُسَخَّرِ بَيْنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ لَأَيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿١٦٤﴾ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ وَلَوْ يَرَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ إِذْ يَرَوْنَ ٱلْعَذَابَ أَنَّ ٱلْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا وَأَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعَذَابِ ﴿١٦٥﴾ إِذْ تَبَرَّأَ ٱلَّذِينَ ٱتُّبِعُوا۟ مِنَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوا۟ وَرَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ ٱلْأَسْبَابُ ﴿١٦٦﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوا۟ لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّءُوا۟ مِنَّا كَذَٰلِكَ يُرِيهِمُ ٱللَّهُ أَعْمَٰلَهُمْ حَسَرَٰتٍ عَلَيْهِمْ وَمَا هُم بِخَٰرِجِينَ مِنَ

(١) رواه أبو داود في كتاب العلم، رقم ـ ٣١٧٣ ـ.

(٢) رواه البخاري في كتاب الحدود، رقم ـ ٦٢٨٢ ـ.

ٱلنَّارِ ﴿١٦٧﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ كُلُوا۟ مِمَّا فِى ٱلْأَرْضِ حَلَٰلًا طَيِّبًا وَلَا تَتَّبِعُوا۟ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ ۚ
إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿١٦٨﴾ إِنَّمَا يَأْمُرُكُم بِٱلسُّوٓءِ وَٱلْفَحْشَآءِ وَأَن تَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا
تَعْلَمُونَ ﴿١٦٩﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّبِعُوا۟ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُوا۟ بَلْ نَتَّبِعُ مَآ أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ ۗ أَوَلَوْ
كَانَ ءَابَآؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَهْتَدُونَ ﴿١٧٠﴾ وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ كَمَثَلِ
ٱلَّذِى يَنْعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَآءً وَنِدَآءً ۚ صُمٌّۢ بُكْمٌ عُمْىٌ فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴿١٧١﴾ يَٰٓأَيُّهَا
ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُلُوا۟ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ وَٱشْكُرُوا۟ لِلَّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ
﴿١٧٢﴾ إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةَ وَٱلدَّمَ وَلَحْمَ ٱلْخِنزِيرِ وَمَآ أُهِلَّ بِهِۦ لِغَيْرِ ٱللَّهِ ۖ فَمَنِ
ٱضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَلَآ إِثْمَ عَلَيْهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٧٣﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ
يَكْتُمُونَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَيَشْتَرُونَ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا ۙ أُو۟لَٰٓئِكَ مَا يَأْكُلُونَ فِى
بُطُونِهِمْ إِلَّا ٱلنَّارَ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ ٱللَّهُ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ
﴿١٧٤﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشْتَرَوُا۟ ٱلضَّلَٰلَةَ بِٱلْهُدَىٰ وَٱلْعَذَابَ بِٱلْمَغْفِرَةِ ۚ فَمَآ أَصْبَرَهُمْ عَلَى
ٱلنَّارِ ﴿١٧٥﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ نَزَّلَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ ۗ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ ٱخْتَلَفُوا۟ فِى ٱلْكِتَٰبِ لَفِى
شِقَاقٍ بَعِيدٍ ﴿١٧٦﴾ ﴾.

المفردات:

الفلك: السفن. — **خطوات الشيطان**: طرقه.

السحاب المسخر: المذلل المنقاد لمشيئة الله. — **أنداداً**: أمثالاً ونظراء.

الفحشاء: ما تجاوز الحد في القبح. — **تبرأ**: نفى وتخلّص.

كرة: رجعة وعودة. — **بثَّ**: فرّق. — **ألفينا**: وجدنا.

أهل به لغير الله: أي ذبح لغير الله. — **عاد**: معتد على شرع الله.

تصريف الرياح: سيره ضمن نظامٍ دقيق. — **باغ**: ظالم.

ينعق: يصيح. — **صمٌّ**: لا يسمع.

بكم: لا يتكلم. — **عمي**: لا يرى.

الأسباب: جمع سبب وهي الوصل التي يتواصلون بها في الدنيا.

الدراسة التربوية:

يقول سيد قطب رحمه الله: (ويمضي السياق في إقامة التصور الإيماني على قاعدته الكبيرة، قاعدة التوحيد، ويعرض من مشاهد الكون، ما يشهد بهذه الحقيقة شهادةً لا تقبل الجدل، شهادةً يلتفت إليهاالعقل، وتنتبه إليها العين، وتتقلب معها الحياة، في همساتها ولمساتها، ولكن الإلفة أفقدتها هالة الغرابة والدهشة، ولذلك فإنّ دعوة الإنسان لعجائب هذا الكون تتردد، وتبعث فيه روح التطلع والتأمل، لأنها هزةٌ من آفاق التوحيد).

تلك السماوات والأرض والأبعاد الهائلة والعوالم المجهولة والأجرام الضخمة المحكومة والمسيَّرة بقدرة قادر، والليل والنهار، يطول هذا فيقصر ذاك، ويجريان ولا يسبقان، وتعاقب النور والظلام ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَٰتٍ لِّأُوْلِي ٱلنُّهَىٰ﴾[1].

والفلك التي تجري في البحر، ترادفها اليوم الأطنان الحديدية التي تبتلع الناس بداخلها وتُقلع بهم فوق السحاب، إنَّ الذي أمر الأمواج أن تحمل الفلك، وهو الذي سخَّر الرياح لتحمل الطائرة في كل مرة، والإنسان يُرى نقطة صغيرة على ثبج الأمواج في الخضم الرعيب، ويُرى نقطة غابت عن العين في الأفق البعيد، واختلفت عن السمع تشقّ عنان السماء، وما يمسكهنَّ إلا الرحمن. تقتحم الطائرة المطباتِ الهوائية، وترتفع آلاف الأقدام، فتخترق السحاب، فيخيّل للمرء أنّها تخطَّت السبع الطباق، ولكنّها في الحقيقة ما تعدت قدرها، ولا فارقت كوكبها، ولا نفذت من أقطار الأرض، والماء أكسير الحياة فكيف ينزل؟ ومن أنزله؟ وكيف بعث الحياة في هذه الحبة الكامنة في بطن الأرض؟ والرياح المسخَّرة لحمل اللقاح، والسحاب ودوابّ الأرض، إنّ في ذلك لآياتٍ لقومٍ يعقلون.

العقل تلك النعمة التي يملك زمامها الرحمن يهديه وينبهه يُفتّح مداركُه، ويوسّع آفاقه ليدرك عظمة الخالق وقدرة التدبير، والإنسان بحاجة

---

(١) سورة طه: الآية ٥٤.

إلى لفت النظر ولذلك ترددت الآيات في القرآن الكريم بصيغة التنبيه ألم ترَ، ألم يروا ولو ترى، وقال جل وعلا ﴿فَذَكِّرْ بِٱلْقُرْءَانِ مَن يَخَافُ وَعِيدِ﴾[1]، فالإنسان بحاجة إلى التذكير، وإلا سيحيد عن الطريق، وينسى فيميل ﴿وَيُرِيدُ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلشَّهَوَٰتِ أَن تَمِيلُوا۟ مَيْلًا عَظِيمًا﴾[2]، ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ﴾ إنَّ الحب مشاعر وأحاسيس، فإمّا أن ترتكز على ميلٍ وطيش، وإما أن ترتكز وتتفاعل بإيمانٍ وتفكر، فشتّان بين المحب لله، والمحب لمن سواه. والمخاطبين هنا كان حبهم لأندادٍ اتخذوها من دون الله. تتمثل في شجرٍ أو حجر أو نجوم أو كواكبَ أو ملائكة أو شياطين أو أشخاصٍ أو إشارات، فهذه كلها من الشرك الخفي أو الظاهر، سواءً أذكرت إلى جانب اسم الله، أو أشركها المرء في قلبه ومشاعره وأحاسيسه.

أما الحب في قلب المؤمن فهو متميّز تميز الإيمان الذي اتخذه صبغةً له ولحياته، إنّ المؤمن لا ترقى لديه محبةٌ إلى محبة الله ورسوله ﷺ، حتى ولا نفسه التي بين جنبيه ناهيك عن كل اعتبارٍ بعدها، والذين آمنوا أشدُّ حباً لله. حب نبضة القلب التي هي بيد الله عز وجل، وحبُّ نظرة التفكر التي لا يملكها إلا الله، وحبُّ دفقة الدّم التي تروّي ذلك الحب الذي لا يجريه إلا الله، حبّ صادقٌ ودود.

﴿وَلَوْ يَرَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ إِذْ يَرَوْنَ ٱلْعَذَابَ أَنَّ ٱلْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا﴾ لو مدّ هذا الإنسان بصره إلى يوم الوقوف بين يدي الجبار، ولو تطلع إلى ذلك الموقف، موقف السادة والمحبوبين يتبرأ بعضهم من بعض، يتلاومون ويتحسرون، وتقطعت كل وشيجة حب دعيّة بينهم، وكل صلة قربى وهميّة ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوا۟ لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّءُوا۟ مِنَّا﴾ وهذا مآل كل تابع ومتبوع مبتورٌ عن الله مقطوعٌ عن هدي نبيه، فكم من كبار وراءهم صغار؟ وكم من غربان وراءهم طيور، ويبقى الحب المتميز وتظل العصبة

---

(1) سورة ق: الآية ٤٥.

(2) سورة النساء: الآية ٢٧.

المؤمنة درة الدنيا، وزخر الآخرة ﴿ٱلْأَخِلَّآءُ يَوْمَئِذٍۭ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٦٧﴾﴾[١] إنّه مشهدٌ مؤثر، مشهد التبرؤ والتعادي والتخاصم ﴿كَذَٰلِكَ يُرِيهِمُ ٱللَّهُ أَعْمَٰلَهُمْ حَسَرَٰتٍ عَلَيْهِمْ ۖ وَمَا هُم بِخَٰرِجِينَ مِنَ ٱلنَّارِ﴾.

﴿إِذْ تَبَرَّأَ ٱلَّذِينَ ٱتُّبِعُوا۟ مِنَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوا۟﴾ التابعون والمتبوعون من جماعة العقلاء، وكثيراً ما يتبادر إلى ذهن الإنسان، لدى الوقوف عند معنى الشرك أنّها مواقف المشركين الذين عبدوا الأصنام واتخذوا لها رموزاً دعوها الآلهة، ولكن وقفة تفكرٍ واحدة وعودة إلى مبادىء اللغة التي أُنزل بها هذا القرآن، ترينا أنَّ المدلول أعمق من الحجارة والأشجار، فكلمة (الذين) اسم الموصول الذي يدل على جماعة العقلاء من بني البشر، توحي بأنّ هناك عقول تشرّع من دون الله، وتضبط التشريع وتقننه، وتجعله بنوداً بعضها يوافق شرع الله وبعضها يخالفه، يوافقه بما يوافق المصالح، ويخالفه حيث تقتضي المواقف، وفي كل حالٍ من الأحوال، هناك تابع ومتبوع ومشرِّعٌ ومصدِّق.

إن الإنسان عندما يعطّل تفكيره، تصيبه علة اسمها «الببغائية» فهو يردد ما سمع، وإذا نوقش فيما يردد تجده لا يعي من ذلك شيئاً، ولا يدرك حاجة ومن أجل هذا قال الله عز وجل لنبيّه، يلقنه المبدأ الذي يعبد الله عليه ﴿قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ ۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ﴾[٢] والبصيرة هي الفهم والبيّنة، وبهذا تخرَّج الجيل النبوي وكأنّ كل فردٍ منهم يجري على لسانه وحي، وما أروع جواب ربعي بن عامر ﷺ لكسرى وحاشيته، وهو وحيداً في بلاط كسرى، وفي متناول جلّاديه عندما سألوه من الذي ابتعثكم؟ قال: (الله ابتعثنا، لنخرج العباد من عبادة العباد، إلى عبادة ربّ العباد) وتشابهت حجة غيره مع حجّته فكانوا الهداة وكانوا الكماة وكانوا نجوم الليل ورياحين النّهار، وبهذا شهد العدو قبل المحب.

ومهما بلغت المحبة أوجها بين المحب والمحبوب، ومهما كان

(١) سورة الزخرف: الآية ٦٧.

(٢) سورة يوسف: الآية ١٨٠.

الواجب في طاعة الأمير يبقى الشرط قائماً أطيعوني ما أطعت الله فيكم، ويبقى العقل حراً عند أول ميلٍ عن الصواب؟ فيتنبّه أطاعةٌ لله أم للبشر، وبهذا الإدراك تثبت القدم وتعلو الجباة لتعنو لله الواحد القهّار.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ كُلُواْ مِمَّا فِي ٱلۡأَرۡضِ حَلَٰلٗا طَيِّبٗا وَلَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيۡطَٰنِۚ﴾ النداء للنّاس، ولكل النّاس، أنّ الأصل في الطّعام الحلال إلاّ ما حرّمه الله بنص في كتابه أو على لسانه نبيّه، ولا تتّبعوا خطوات الشيطان لأنّ الشيطان يوقع خطواته عن طريق شهوة البطن وحبّ البقاء وكأنّ الله يذكّر بني الإنسان بسابقتهم، فيكون التحذير أبلغ عندما يُنبّه الإنسان بأنّه صاحب سوابق، فيُطامن من كبريائه، وهذه تنبيه للإنسان ليبقى على حذر فإنه لا يدري كيف تزل القدم ويزيغ البصر. ولذلك فالعقل هو مناط التكليف.

وتوالت الآيات، لتهذب العقل وتزكّي القلب، فتتمتع النفس بالحلال وتبتعد عن الخبائث، وكل ما أخرجه الله للناس طيّباً، إلا ما استثناه فهو المحظور، الذي به تتربى الإرادة وتتجلى الخشية من الله، وقال الله عزوجل ﴿إِنَّمَا يَخۡشَى ٱللَّهَ مِنۡ عِبَادِهِ ٱلۡعُلَمَٰٓؤُاْۗ﴾[1] والعلماء الذين يخشون الله هم الذين تميّزوا بمعرفة الحلال والحرام لا بكثرة قيل وقال، وكان معاذ بن جبل ﷺ، أعلم الناس بالحلال والحرام، وهو الذي يحشر يوم القيامة، إمام العلماء برتوة[2].

ومصداق ذلك في الحديث القدسي، ما رواه عياض بن حمار المجاشعي أن رسول الله ﷺ قال: ذات يوم في خطبته **«ألا إن ربي أمرني أن أعلمكم ما جهلتم مما علمني يومي هذا، كل مالٍ نحلته عبداً حلالاً، وإني خلقت عبادي حنفاء كلهم، وإنهم أتتهم الشياطين فاجتالتهم عن دينهم، وحرمت عليهم ما أحللت لهم، وأمرتهم أن يشركوا بي ما لم أُنزل به سلطاناً»**[3].

---

(١) سورة فاطر: الآية ٢٨.

(٢) رتوة: ، الراتي: العالم الربّاني المتبحر ـ جامع العلوم والحكم لابن رجب الحنبلي، ص ٩٤.

(٣) رواه مسلم في كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها رقم ـ ٥١٠٩ ـ.

قال مسروق: (أُتي عبد الله بن مسعود ﷺ بضرعٍ وملح، فجعل يأكل، فاعتزل رجلٌ من القوم، فقال ابن مسعود: ناولوا صاحبكم فقال: لا أريده، فقال: أصائمٌ أنت؟ قال: لا، قال: ما شأنك؟ قال: حرّمت أن آكل ضرعاً أبداً، فقال ابن مسعود: هذا من خطوات الشيطان، وكفارته كفارةُ عن يمينك)[1]. والضرع لكل ذات ظلف أو خف، وضرع الشاة والناقة هو مدرُّ لبنها. (لسان العرب لابن منظور).

بهذا الوضوح، وبهذه البساطة حملوا هذا الدين، فقهٌ ونصحٌ وتطبيق، فليست التقوى في تحريم الحلال وحرمان النفس من الحلال الطيّب، وإن كان متطلباً تربوياً أحياناً. ولكن التقوى أن نعرف الحلال فنأخذ منه، ونعرف الحرام فنبتعد عنه وعن كل ما يؤدّي إليه. والحرمان غير التربية التي هي تهذيب النفس كيلا تنطلق أسيرة الشهوات. ووقوفاً عند توجيه الفاروق عمر ﷺ (أكلما اشتهيتم اشتريتم؟) وأما الحرمان، فهو نظرة التحريم لأشياء والاشمئزاز ممّن يقارفها، فهذا هو الاعتداء على حق الله عز وجل، وهو مما لا رأي فيه لعبدٍ كائنٍ من كان، فالله هو الإله المشرّع وهو الربُّ المطاع. إن الأمر خطير فكم من إنسان ضلَّ وظلم وهو يحسب أنّه يحسن صنعاً، فما فيه نص فلا قول فيه لأحد ولا رأي، وما ليس فيه نص فالقول فيه لإجماع الفقهاء ولا رأيٍ فيه لأحدٍ أيضاً، ورأي الأربعة خير من رأي الثلاثة، والثلاثة خيرٌ من الاثنين، والاثنين خيرٌ من الواحد. فلذلك لا يُعدل عن قول الأئمة الفقهاء لقول واحد، فقولهم الحق وقوله الشاذ إن خالفهم لأنهم أئمة عُرفوا بالدين والإخلاص، ودان لهم الناس بالفضل، ومدار الأمر كله طاعة الله واتباع رسوله ﷺ. وقد ضرب الله مثل الكافر كالبهيمة السارحة تسمع صوت راعيها ولا تفقه ما يريد.

إنّ الكفر هدرٌ لآدمية الإنسان، حيث يغلق عليه منافذ المعرفة والهداية، ويعطّل خواص الحواس وعمق المبدأ، والتشريع يجمع هذه الأمة

(١) أسباب النزول للواحدي.

التي وصفها الله عز وجل بقوله: ﴿وَإِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً﴾[١]، ثم فصّل وحصر الحرام بكلماتٍ معدودة، ﴿إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةَ وَٱلدَّمَ وَلَحْمَ ٱلْخِنزِيرِ وَمَآ أُهِلَّ بِهِۦ لِغَيْرِ ٱللَّهِ﴾.

والميتة هي كل ما فارق الروح من غير ذكاةٍ شرعية مما يذبح، وقد استثنت الأحاديث السمك والجراد، وحرَّم الله عز وجل الدم، وهو ما كان سائلاً لقوله ﴿أَوْ دَمًا مَّسْفُوحًا﴾[٢]، وكذلك استثنت الأحاديث (الكبد والطحال)، روى الإمام أحمد وابن ماجه والدارقطني عن النبي ﷺ أنه قال: «**أُحلت لنا ميتتان ودمان، فأما الميتتان فالحوت والجراد، وأمّا الدمان فالكبد والطحال**»[٣]. واستثنى الفقهاء من الدم، ما يبقى في العروق بعد الذبح، وذكر الخنزير بكليته وإن ذكر لحمه لأنّ الشحم يدخل في اللحم تغليباً، وما أُهل به لغير الله، أي ما ذبح على غير اسم الله، أي رفع الصوت به للأصنام، أو غيرها من المزعومات ما يذبح له غير المسلمين. هذه المحرّمات لا ينبغي لمسلم أن يتطلع إليها، فضلاً عن أن يمد يده إليها، ولكنّ الله استثنى ﴿فَمَنِ ٱضْطُرَّ﴾ لا بقصد البغي وظلم النفس بإطعامها الحرام، ولا عاد ولا متعد على حق التحليل والتحريم، وإنّما الاضطرار وهو الخوف على الحياة.

فهناك للفقهاء أقوالٌ وآراء، وبشكل عام يُباح الأكل في حالة هلاك النفس سواءً من الجوع أو الانقطاع في مكان لا يوجد فيه طعام، وإذا شارفت النفس على الموت ووجد من هذه المحرمات شيء فيأكل عزيمةً لا رخصة، لأنّ الرخصة إن شاء أكل وإن شاء ترك، ولكن هنا الأمر عزيمة لأنّ النفس المؤمنة ملكٌ لله عز وجل ولا يجوز إزهاقها، وعن مسروق أنه قال: من اضطر فلم يأكل ولم يشرب ثم مات دخل النار. وقال الحنفية: يرخّص شرب الخمر للعطشان الفاقد للشراب، وأكل الميتة في المجاعة إذا

---

(١) سورة المؤمنون: الآية ٥٢.

(٢) سورة الأنعام: الآية ١٤٥.

(٣) رواه الإمام أحمد عن ابن عمر رضي الله عنه، في مسنده المكثرين من الصحابة، رقم ـ ٥٤٦٥ ـ.

تحقق الهلاك. وقال الحنفية: ويحرم الذبح لمخلوق ولو ذكر اسم الله تعالى لأنه أُهل به لغير الله، أما لو نوى إكرامه وذكر اسم الله على الذبيحة فيحل، وإن نوى تعظيم الرجل فلا يحل. واختلف الفقهاء في كم يأكل أيشبع أم يسد الرمق فقط؟ وتفصيل ذلك في مراجعه.

وقال سهل بن عبد الله النجاة في ثلاثة: أكل الحلال، وأداء الفرائض، والاقتداء بالنبي ﷺ. وقال سعيد بن يزيد: خمس خصال بها تمام العلم وهي: معرفة الله تعالى ومعرفة الحق وإخلاص العمل لله والعمل على السنة وأكل الحلال فإن فقدت واحدة لم يُرفع العمل. وقال سهل: لا يصح أكل الحلال إلا بالعلم، ولا يكون المال حلالاً حتى يصفُوَ من ست خصال: الربا، والحرام، والسحت، والغلول، والمكروه، والشبه.

إن المسلم المستسلم لله، لا تتوقف الطاعة عنده بمعرفة الحكمة من التحريم، وإنّما عليه أن يستسلم ويحرّم ما حرّم الله، ويحل ما أحلَّ الله دون تردد ولا مناقشة.

وبعد أن يملك زمام نفسه، وتتحقق الطاعة في جميع جوانب الحياة، فلا بأس من البحث العلمي الذي يزيد الذين آمنوا إيماناً، وإن خُفيت عليهم الحقائق قالوا سبحان ربنا العليم الخبير ويذكرون قوله تعالى: ﴿وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾[1]، ويكفينا أنّ لنا رباً رحيماً أحلّ لنا الطيبات، وحرَّم علينا الخبائث. فله الحمد ومنه الفضل والمنّة.

ولا يصح لمؤمنٍ أن يظن أنّه من التقوى أن يموت ولا يأكل مما رخَّص الله به، وأصل هذا القرآن قال الله فيه ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأَيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾[2]. فالمؤمن غير معطّل العقل ولذلك كرّمه الله عز وجل وأنزل إليه هذه الآيات وقال: ﴿فَمَنِ ٱضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَلَآ إِثْمَ عَلَيْهِ﴾ فإذا أحيط به، وأحدقت به المهلكة، فله أن يسدَّ رمقه، ويقيم صلبه، وإن كان

(١) سورة الإسراء: الآية ٨٥.
(٢) سورة الرعد: الآية ٤.

بحرام، لأنّ هذه النّفس الزكية لا تهون على الله فيغفر لها ويرحمها.

إن اليد التي تمتد إلى الحرام كارهةً مترفعةً يدٌ زكية، وأما القدم التي تخطو على أثر الشيطان لتتمتع ساعة فهي قدمٌ آثمة، لأنَّ الوقوع في الحرام ما هو إلا نتيجة انحرافٍ في الفكر، وخطأٍ في الفهم أو ضلالٍ أو فسادٍ في الفطرة، وكلاهما يلتقيان في موقف لا يكلمهم الله، ولا يزكيهم، ﴿وَإِنَّ ٱلَّذِينَ ٱخۡتَلَفُواْ فِي ٱلۡكِتَٰبِ لَفِي شِقَاقِۭ بَعِيدٖ﴾ فهم يعادون الآية، ويكذّبون الحديث، ويضللون المسلمين، وذلك لأنّهم انتصروا لما يرونه بضيق أفقهم حقاً، دونما حبٍ ولا اتباع فيرون الباطل حقاً والحق باطلاً.

إن الجوارح التي أعطاها الله للإنسان، إما أن يستعملها فيما خلقت من أجله، ويجعلها من أسباب الهداية إلى الله، فينظر بعينيه إلى آثار رحمة الله، ويتفكر بعقله، ويسمع بأذنيه، وينطلق لسانه بما يرضي الله وما فيه خيرٌ للناس، وإمّا أن يُعطلها فهذا منتهى الزراية وغاية الغباء، حيث يُغلق منافذ المعرفة والهداية على نفسه، ويتخبط في دينه ويتلقفه على شكل كلمات ومواعظ لا يعلم لها أصلاً ولا يدرك فرعاً فيعدم الموافقات والمفارقات، إنّ الحق يتمثل به أناس باعوا النفوس رخيصة لله هانت الدنيا عليهم، مقابل ما عند الله، فإن عاشوا عاشوا لله، وإن قضوا تركوا آثارهم في كل مجال من مجالات الخير والإصلاح، يُخضعون ما بأيديهم لله، يُحبون الصحابة والتابعين، ويهتدون بهديهم، ولا يتقدمون عليهم، ويحترمون اللاحقين، فلا يفرّطوا في إخائهم، ولا يخرجون عليهم، ويعتبرون كل مؤمن يقول كلمة حقٍ، ويدفع في ركب هذه الدعوة المباركة ليحقّ هذا الحق في الأرض، هو رصيدهم في الدنيا، وحبيبهم في الآخرة، إنّ المخلصين لا يضرهم أن لا يُبقوا لأنفسهم نصيباً، ولا يُحبّون أن تُفسح لهم القاعات، ولا أن يشار إليهم بالبنان، فهم الأتقياء الأخفياء.

وأما الباطل فمعذبٌ أبداً، وأهله مهددون بأنوار الحق، ويحسبون كل صيحة عليهم، فيهبون فزعين، تتعالى أصواتهم، وتقسى بطشتهم، وينشط معهم كل خّوان مخذول، تُعجبه انتفاشة الباطل، فيرتفع بها، ويُبتلى

المؤمنون ويُغيَّبُ الحق وتظهر أشخاص وتتعاظم الفتن ويُعطل الفكر ويحقُّ التعجُّب وتشيب الرؤوس، فما أصبر الباطل وأهله على النار؟ وما أشبههم في دنيانا بالدخان يعلو، ويزكم الأنوف وتضيق به النفوس، وإنّ كان لهم صوتٌ فهو نعيق يضرُّ ولا ينفع. إنّ كتمان الحق لا يلبث أن يزول، ومهما طال الليل، فلا بد من فجرٍ مضيء، والحق هو أمر الله والعمل بكتابه وبما أنزل على سيدنا محمد ﷺ في القرآن الكريم، فمن ذا الذي يملك تعطيل أمر الله والله يقول: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ بَٰلِغُ أَمْرِهِۦ﴾[1]. ويمضي أهل الباطل في شقاق بعيد وخصامٍ ونكد.

الفوائد التربوية:

١ ـ يجب على الإنسان أن يتعهد نفسه بالمواقف التربوية، فالله يدعوه للتفكر في السماوات والأرض، إن الأبعاد الهائلة والأجرام الضخمة والعوالم المجهولة في تناسقها ودورانها، والتي تلتف في رداء المجهول، فهي الشاهد على الله العلي القدير.

٢ ـ لا بّد من وقفة من الأطفال على هذه الآية وما شابهها لنقول له من أحيا الأرض بعد موتها، سؤالٌ تجاهله الملحدون، وتجاوبت معه الفطرة، وقرَّع حواسه الدعاة المربون، ليبقى العقل حياً واعياً مدركاً لأنعم الله.

٣ ـ التركيز الدائم على تناسق الكون وتكامله، ولفت النظر دائماً للملاحظة، أولاً لأنها تنمي الإيمان، وثانياً لأنها تُفيد العقل وتزكيه، وثالثاً لأنها إثبات رائعٌ على وحدة الخالق ووحدانيته.

٤ ـ إقامة روابط الحب الله عز وجل عن طريق العقل، وتغذية هذه الروابط حتى تُوثَّق وتُمتَّن، وتدعم بأسلوب الداعية الفني، ليجعلها تحتل المكانة الرائدة في النفس والفكر، فعندئذٍ لا يتقدم عليها حب ولا مصلحة،

---

(١) سورة الطلاق: الآية ٣.

بل يكون حب الله ورسوله أشد من حب النفس والمال والولد، إنّ الحب البشري يقوم على العاطفة ويملك لبَّ العقل، ولكن الحب الإلهي لا يقوم على العقل، ولذلك لا يستكمل الإنسان إيمانه إيمانه حتى يتكامل عنده الجانب العقلي والعاطفي بحب الله ورسوله وبحبهم يحب ويبغض فيذوق حلاوة الإيمان.

٥ ـ عند تذوق حلاوة الإيمان، تُعبّد الملكات العقلية لله، فيصدق القول والفعل لأنّ الله يحب الصادقين، ويصدّق الإنسان ما أخبر به الله، وإن تعارض مع كل المدلولات العقلية، فيصدّق بأن الشهيد حي وأن المظلوم هو المنتصر، وأن المستضعف قوي بجنب الله. وأن مواقف القيامة حق لإخبار الله عنها، فيتأمل مشهد التبرؤ من الظلم والظالمين، ويربطه بالمواقف التربوية الدنيوية، ليكون وقع الآيات أعظم والإيمان بها أوثق. وهذا هو دور المربي ولا يقوم أحدٌ بهذا الدور مثل الوالدين عامّة والأم خاصّة.

٦ ـ إن هناك أولويات خاطب الله بها الناس، وأمر الأنبياء بحمل النّاس عليها، ومن بعدهم الدعاة، ومن هذه الأولويات، التوحيد، العبادة، أكل الحلال، عدم اتباع خطوات الشيطان، وهذا ما نراه مجسداً في سيرة الرسول ﷺ، وإن أول إغراء الشيطان أن يتعدى الإنسان على الحلال والحرام، فمن واجب التربويين اليوم التغليظ والتحريج على الأجيال في استعمال مصطلح الحلال والحرام، وأن الصحابة الكرام كانوا يجيبون بلا أراه وهذا حقّ وهذا باطل وما فعله رسول الله ولا تفعل وما شابه ذلك (وقد سئل القاسم بن محمد بن أبي بكر الصدّيق ﷺ، عن الغناء حلالٌ أم حرام؟ فسكت عنه القاسم، ثم عاد فسكت عنه، ثم عاد فقال إن الحرام ما حرم الله في القرآن، أرأيت إن أوتي بالحق والباطل إلى الله فأيهما يكون الغناء؟ فقال الرجل في الباطل، فقال: أفت نفسك، وقال الربيع بن خيثم: ليتق أحدكم أن يقول: أَحلَّ كذا، وحرم كذا، فيقول الله: كذبت لم أحل كذا ولم أحرم كذا، والعلماء كلهم على ذلك خوفاً من الدخول تحت قوله تعالى: ﴿وَلَا تَقُولُوا لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ الْكَذِبَ هَٰذَا حَلَالٌ وَهَٰذَا

﴿حَرَامٌ لِّتَفْتَرُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ﴾(١). والأصل في الأشياء الإباحة، والله لم يكلفنا استنتاج الحرام.

٧ - إن الحرام محظور وكثرة الاستهانة بلفظ الحرام وإطلاقه على الأشياء يخلِّف ردة فعل عنيفة من الناس، فيهون عليهم الوقوع فيه. فتنتهك حرمة الله.

٨ - إن الاضطرار له في الفقه معنى، والمؤمن لا يقدم على المحظور إلا إذا شارف على الهلاك، ويئس من الوصول إلى الحلال، فيأكل ما يقيم صلبه، أو يشرب ما يطفىء ظمأه، وهو مكرهٌ غير راغب، مستغفرٌ لله، راجِ عفوه، والتأفف من الحرام حالة نفسية لها ركيزتها الإيمانية.

٩ - نلاحظ في آيات التحليل والتحريم، أن الله علَّق الأمر بألفاظ البيع والشراء، وهذا دليل أن الإنسان لا يتلاعب بكتاب الله فيحل فيه الحرام ويحرّم الحلال إلا مقابل عروض دنيوية، يفرح بها الآثم وإن كان الثمن كتاب الله ودينه.

١٠ - إنّ الدين لا يقود الناس بالسلاسل إلى الطاعات، وإنما يقودهم بالتقوى، والذي يتفلت من الفرائض تحت ستار الرخصة لا خير فيه من البدء، وإنّ الله يحبُّ أن تُؤتى رخصه ولكن في وقتها، فلا يقصر الصلاة مقيم، ولا يأكل الحرام من يتقلب في الحلال. وإذا صحَّ التشدد في أحكام المعاملات عند فساد الناس، فلا يصح التشدد في العبادات إذ هي بين العبد وربه، فلا بدّ من استحياء شعور التقوى في الأرواح.

﴿۞ لَّيْسَ ٱلْبِرَّ أَن تُوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلْكِتَٰبِ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ وَءَاتَى ٱلْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ ذَوِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَٱلسَّآئِلِينَ وَفِى ٱلرِّقَابِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَٰهَدُوا۟ وَٱلصَّٰبِرِينَ فِى ٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَحِينَ ٱلْبَأْسِ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ ﴿١٧٧﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِصَاصُ فِى ٱلْقَتْلَى

(١) سورة النحل: الآية ١١٦.

ٱلْحُرُّ بِٱلْحُرِّ وَٱلْعَبْدُ بِٱلْعَبْدِ وَٱلْأُنثَىٰ بِٱلْأُنثَىٰ ۚ فَمَنْ عُفِىَ لَهُۥ مِنْ أَخِيهِ شَىْءٌ فَٱتِّبَاعٌۢ بِٱلْمَعْرُوفِ
وَأَدَآءٌ إِلَيْهِ بِإِحْسَٰنٍ ۗ ذَٰلِكَ تَخْفِيفٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَرَحْمَةٌ ۗ فَمَنِ ٱعْتَدَىٰ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَلَهُۥ عَذَابٌ
أَلِيمٌ (١٧٨) وَلَكُمْ فِى ٱلْقِصَاصِ حَيَوٰةٌ يَٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ (١٧٩) كُتِبَ
عَلَيْكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ إِن تَرَكَ خَيْرًا ٱلْوَصِيَّةُ لِلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ بِٱلْمَعْرُوفِ ۖ
حَقًّا عَلَى ٱلْمُتَّقِينَ (١٨٠) فَمَنۢ بَدَّلَهُۥ بَعْدَمَا سَمِعَهُۥ فَإِنَّمَآ إِثْمُهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ يُبَدِّلُونَهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ
سَمِيعٌ عَلِيمٌ (١٨١) فَمَنْ خَافَ مِن مُّوصٍ جَنَفًا أَوْ إِثْمًا فَأَصْلَحَ بَيْنَهُمْ فَلَآ إِثْمَ عَلَيْهِ ۚ إِنَّ
ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (١٨٢) يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى
ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ (١٨٣) أَيَّامًا مَّعْدُودَٰتٍ ۚ فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا
أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ ۚ وَعَلَى ٱلَّذِينَ يُطِيقُونَهُۥ فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍ ۖ
فَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُۥ ۚ وَأَن تَصُومُوا۟ خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ (١٨٤) شَهْرُ
رَمَضَانَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلْقُرْءَانُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَٰتٍ مِّنَ ٱلْهُدَىٰ وَٱلْفُرْقَانِ ۚ
فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ ٱلشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ ۖ وَمَن كَانَ مَرِيضًا أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ
أَيَّامٍ أُخَرَ ۗ يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ وَلِتُكْمِلُوا۟ ٱلْعِدَّةَ
وَلِتُكَبِّرُوا۟ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَىٰكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (١٨٥) وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى
عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ ۖ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ ۖ فَلْيَسْتَجِيبُوا۟ لِى وَلْيُؤْمِنُوا۟ بِى لَعَلَّهُمْ
يَرْشُدُونَ (١٨٦) أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ ٱلصِّيَامِ ٱلرَّفَثُ إِلَىٰ نِسَآئِكُمْ ۚ هُنَّ لِبَاسٌ لَّكُمْ وَأَنتُمْ
لِبَاسٌ لَّهُنَّ ۗ عَلِمَ ٱللَّهُ أَنَّكُمْ كُنتُمْ تَخْتَانُونَ أَنفُسَكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ وَعَفَا عَنكُمْ ۖ
فَٱلْـَٰٔنَ بَٰشِرُوهُنَّ وَٱبْتَغُوا۟ مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمْ ۚ وَكُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكُمُ ٱلْخَيْطُ
ٱلْأَبْيَضُ مِنَ ٱلْخَيْطِ ٱلْأَسْوَدِ مِنَ ٱلْفَجْرِ ۖ ثُمَّ أَتِمُّوا۟ ٱلصِّيَامَ إِلَى ٱلَّيْلِ ۚ وَلَا تُبَٰشِرُوهُنَّ وَأَنتُمْ
عَٰكِفُونَ فِى ٱلْمَسَٰجِدِ ۗ تِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ فَلَا تَقْرَبُوهَا ۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ ءَايَٰتِهِۦ لِلنَّاسِ
لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ (١٨٧) وَلَا تَأْكُلُوٓا۟ أَمْوَٰلَكُم بَيْنَكُم بِٱلْبَٰطِلِ وَتُدْلُوا۟ بِهَآ إِلَى ٱلْحُكَّامِ
لِتَأْكُلُوا۟ فَرِيقًا مِّنْ أَمْوَٰلِ ٱلنَّاسِ بِٱلْإِثْمِ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ (١٨٨) ۞.

المفردات:

ابن السبيل: المنقطع في السفر.

البر: اسم جامع للخير.

الرقاب: عتق الرقاب المملوكة.

حين البأس: وقت الحروب.

البأساء: الشدة والفقر.

الضراء: المرض والعجز.

كتب: جرى به القلم في اللوح المحفوظ. **الألباب**: العقول.

جنفاً: ميلاً عن الحق خطأً. **إثماً**: ميلاً عن الحق عمداً.

فدية: ما يفدي به الإنسان نفسه من مالٍ وغيره. **يطيقونه**: يصومونه بعسر.

رمضان: من الرمض وهو شدة الحر. **الرفث**: الجماع ودواعيه.

القصاص: أصله قصّ الأثر أي اتبعه، وفي الشرع الجزاء.

حضر أحدكم الموت: بدت علاماته وظهرت أسبابه.

آتى المال: أعطى المال إما راجع إلى الله سبحانه وتعالى أن الإنفاق كان في حبه وسبيله، أو راجع إلى الإنسان أنه أعطى المال وهو شحيح يحبه.

الصيام: الإمساك عن الشيء، وفي الشرع: الإمساك عن الطعام والشراب والجماع في النهار مع النية.

تدلوا: الإدلاء في الأصل إرسال الدلو في البئر، والإدلاء في الآية بمعنى الدفع إلى الحاكم بطريق الرشوة.

الدراسة التربوية:

قال قتادة ﷺ: ذكر لنا أنَّ رجلاً سأل نبي الله ﷺ عن البر، فأنزل الله عز وجل: ﴿لَّيْسَ ٱلْبِرَّ أَن تُوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ ...﴾، وقد كان قبل الفرائض، إذا شهد الرجل أن لا إله إلا الله، وأنَّ محمداً عبده ورسوله ثم مات على ذلك وجبت له الجنة، فأنزل الله هذه الآية. والفرائض: أي قبل الإلزام بالتكاليف، وبيان الحلال والحرام[1].

والبر هو جماع الخير من تصورٍ وشعورٍ وسلوك وزكاة وصلاة ووفاء عهد وصبر على كل حال، وهو إيمانٌ وإنفاق. والإيمان بالغيب هو العتبة التي يجتازها الإنسان فيتجاوز مرتبة الحيوان الذي توقف عند المحسوسات. فالخير الذي أخرج الناس من الظلمات إلى النور ليس ذاك الذي يتوقف على

---

(١) أسباب النزول للواحدي.

جهة أو يقتصر على ناحية، وإنما البر هو الإيمان الذي يُعتبر نقطة التحول من العبودية لشتى القوى وشتى الأشياء وشتى الشعارات، إلى عبودية المعبود الحق. والإيمان هو نقطة التحول من الفوضى إلى النظام ومن التيه إلى القصد ومن التفكك إلى الوحدة ومن الذل والاستعباد إلى العز وعبادة رب العباد.

ومن البر كل التكاليف ومن البر كل أخلاقيات الإسلام، ومن البر الذوقيات والمعاملات، ومن البر إيتاء المال على حبه لذي القربى واليتامى والمساكين، وصلة الأرحام من البر، وكما أن الإيمان يعتق رقبة الإنسان من ذل الاستعباد لغير الله، وكذلك إنفاق المال يعتق النفس من ربقة الشح، وقبضة الحرص إلى رحاب الكرم والجود والعطاء. وبذلك تتربى النفوس لتكون حرةً من الشهوات، مترفعةً عن كل ما يذل الرقاب وينكّس الرؤوس. وقد قال ابن القيم رحمه الله عبارة جميلة تزيّن السطور: (الترف يقطع عنق الفضائل)، وبذلك تتهذب المشاعر، وتُعبَّد الأحاسيس كلها لله عز وجل، فتشعر أنّ الله رب الجميع، وأنَّ الإنسانية كلها أهلٌ وأخوّة، وأنَّ الأرض كلها وطن، وأنّ المال مال الله، والجميع مستخلفٌ فيه.

وإقامة الصلاة شيءٌ آخر، غير التولي قبل المشرق أو المغرب، إنما هي التوجه الكلي من إنسان لربه، ظاهراً وباطناً جسماً وعقلاً وروحاً، إنها ليست أداء حركات فحسب بلا صفاء أرواح، وإنما هي الصلاة التي يتجسد الإسلام في أدائها، وهي مظهر لتعبيد الجسم والعقل والروح. هذه القوى الثلاثة إذا أسلمت لله سلم القلب واستسلمت الجوارح، وهي حقٌّ مكتوب ﴿إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ كَانَتۡ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ كِتَٰبٗا مَّوۡقُوتٗا﴾[1]، وقال: ﴿وَأۡمُرۡ أَهۡلَكَ بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱصۡطَبِرۡ عَلَيۡهَاۖ﴾[2] فهي المظهر والمعنى لعبارة لا إله إلا الله، والصلاة تحتاج إلى تربية وفقه وصبر، حتى تبلغ مراتب البر، والزكاة هي حق الله في المال، وهي العبادة المالية التي تحقق الإخاء العزيز في المجتمع

---

(١) سورة النساء: الآية ١٠٣.

(٢) سورة طه: الآية ١٣٢.

البشري، الذي أغناه الله بالمال حقاً وعهداً أخذه على نفسه سبحانه وتعالى، ثم طلبه من عباده قرضاً ليجزي به أضعافاً مضاعفة، يعلمهم الله في الزكاة، الكرم والرحمة، أما الوفاء بالعهد فهو سمة الإسلام التي يحرص عليها، ويكررها الله سبحانه وتعالى في القرآن مراراً، ويجعلها من أمارات الإيمان، وأنها آية الآدمية لأنه بها نادى الله عن الناس من بني آدم، وهي آية الإحسان، وفيها لفتة تربوية هامة، قالت الربيّع رضي الله عنها (كنا نُضرب على الصلاة وعلى العهد) وهي خلق يربي عليه الصغير، ويحاسب عليه الكبير، وبالوفاء تتواجد الثقة بين المسلمين، وقد ربى رسول الله ﷺ أصحابه على الوفاء بينهم، وأوصاهم بالوفاء لخصومهم، حتى بلغوا به مبلغاً، لم تصعد إليه البشرية إلا على سلم الوفاء وهدي الإسلام.

﴿وَٱلصَّٰبِرِينَ فِي ٱلۡبَأۡسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَحِينَ ٱلۡبَأۡسِۗ﴾ إنها تربية النفوس لتسكن بيقين الإيمان، ولا تطير شعاعاً مع كل نازلة، ولا تذهب حسرة مع كل فاجعة، ولا تنهار جزعاً أمام الشدة، إنها تربية تهيىء النفوس لتتحمل مشاق الطريق، بالصبر على الفقر، والصبر على الآلام، وكما أوصى النبي ﷺ معاذ بن جبل رضي الله عنه حين أرسله إلى اليمن فقال: «**إياك والتنعم، فإن عباد الله ليسوا بالمتنعمين**»(١) وقد خُير نبينا الكريم صلوات الله عليه بين الملك والعبودية، أملكاً رسولاً أم عبداً رسولاً فقال: بل عبداً رسولاً، أجوع يوماً فأذكره، وأشبع يوماً فأشكره، وإذا شد الناس على بطونهم الحجر والحجرين، فكان عليه الصلاة والسلام صاحب الأحجار الثلاثة، وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: جلس جبريل عليه السلام إلى النبي ﷺ فنظر في السماء فإذا ملك ينزل فقال جبريل عليه السلام: (إن هذا الملك ما نزل منذ يوم خلقه الله، قبل الساعة، فلما نزل قال: يا محمد أرسلني إليك ربك قال: «**أفملكاً نبياً يجعلك؟ أم عبداً رسولاً؟**» قال جبريل: تواضع لربك يا محمد، قال: «**بل عبداً رسولاً**»(٢).

---

(١) رواه الإمام أحمد في مسند الأنصار، رقم ـ ٢١٠٨٩ ـ.

(٢) رواه أحمد في كتاب باقي مسند المكثرين، رقم ـ ٦٨٦٣ ـ.

وأما صبره وثباته ﷺ حين البأس فهذا عليٌ رضي الله عنه يقول: كنا إذا حمي الوطيس، واحمرت الحدق، احتمينا برسول الله ﷺ. وبهذا الحث المتكرر من الله عز وجل، وبتلك التربية النبوية العميقة، وبمثل هذا الإمام القدوة، قامت فريضة الجهاد بثباتٍ وثقةٍ وتوازنٍ واعتدال، وهكذا تجمع آية واحدة بين أصول الاعتقاد، وتكاليف النفس والمال، وتجعلها كلاً لا يتجزأ، ووحدة لا تنفصم، فالحق إنها خلاصة التصور الإسلامي، وأولويات المنهج الرباني المتكامل.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِصَاصُ فِى ٱلْقَتْلَى ...﴾.

١ ـ قال الشعبي: كان بين حيين من أحياء العرب قتال، وكان لأحدهما طول على الآخر ـ أي قدرة وغلبة ـ فقالوا: نقل بالعبد منا الحر منكم، وبالمرأة الرجل، فنزلت هذه الآية.

وهكذا تنزل القرآن ليربي أمة، ويُكوّن جماعة ويُخرّج طائفة، فتنزّل القرآن الكريم حسب الحوادث والظروف، ليحكم بينهم فيما اختلفوا فيه، وبهذا النداء الحبيب، والتركيز التربوي على تثبيت الإيمان، يتنزل التشريع، ففي حالة قتل العمد الحكم الإلهي ﴿ٱلْحُرُّ بِٱلْحُرِّ وَٱلْعَبْدُ بِٱلْعَبْدِ وَٱلْأُنثَىٰ بِٱلْأُنثَىٰ فَمَنْ عُفِىَ لَهُۥ مِنْ أَخِيهِ شَىْءٌ فَٱتِّبَاعٌۢ بِٱلْمَعْرُوفِ وَأَدَآءٌ إِلَيْهِ بِإِحْسَٰنٍ﴾ وهذا العفو يكون بقبول الدية بدلاً من قتل الجاني، والعلاقة أولاً وآخراً علاقة أخوة.

ولذلك فولي المقتول يطلب الدية بالمعروف، والقاتل أو وليه يؤديها بإحسان، وفي هذا تأديب وتخفيف من الله ورحمة، لتتصافى القلوب، وتشفى جراح النفوس، فمن اعتدى بعد ذلك فله عذابٌ أليم.

فمن قبل بدءاً بالشرع ورضي بالدية، فلا يجوز له أن يعود فينتقم ويعتدي. والتشريع الإسلامي نزل من لدن حكيم خبير، فهو يُدرك فطرة الإنسان، ونوازع الغضب للدم فطرةً طبيعية، فلذلكَ فتح باباً للأخذ بالثأر في شريعة القصاص، ولكنه في الوقت نفسه يحبب بالعفو، ويدعو للتسامح، والتطوع في حدود مكارم الأخلاق، حيث تعفو النفوس وتصفح، وهي متطلعة إلى الأجر العظيم من الله.

والإسلام ليس بالدين الذي يكبت فطرة الإنسان، ويحمّلها ما لا تطيق، بل يتبع أساليب تربوية رفيعة، ترتقي بالإنسان ارتقاءً عجزت الإنسانية عن التطلع إليه بله الارتقاء إلى دونه.

والآية تشير أنها الحكم في حالة الاعتداء الجماعي، كاعتداء أسرة على أسرة أو قبيلة على قبيلة، وأما في حالة الاعتداء الفردي، فآية النفس بالنفس، والعين بالعين ففيها الحكم. وفي مذهب الأئمة الأربعة والجمهور أنَّ الجماعة يُقتلون بالواحد، قال عمر ﷺ في غلام قتله سبعة فقتلهم: لو تمالأ عليه أهل صنعاء لقتلتهم ولم يُعرف له في زمانه مخالف، هذا يوم كان للدم المسلم حماة، وكان للغلام المقتول عمر واليوم يُقتَّل المسلمون شيباً وشباباً ونساءً وأطفالاً ولا عُمَرَ لهم، والله خيرٌ وأبقى. ﴿وَلَكُمْ فِي ٱلْقِصَاصِ حَيَوٰةٌ يَـٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَـٰبِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٧٩﴾﴾.

والقصاص حالة قتل بقتل، ولكن القرآن يقول إنها حياة، فهي حياة، لأنها تكف الجاني عن الاعتداء ساعة الاعتداء، فالذي يعلم أنه سيدفع حياته ثمناً لحياة من يقتل فجديرٌ به أن يتروى، ويفكر قبل أن يقدم على هذه الجريمة المنكرة. ففي القصاص حياةٌ مطلقة لكل معاني الحياة. وقد عبّر عن بلاغة هذا المقام الأستاذ مصطفى صادق الرافعي رحمه الله في كتابه (وحي القلم)[١] فقال: إنّ في هذه الآية من البلاغة ما يفوق أبلغ كلمة قالتها العرب: وهي قولهم، (القتل أنفى للقتل). وروى الإمام أحمد عن أبي شُريح الخزاعي أن النبي ﷺ قال: «**من أُصيب بقتل أخيه فإنه يختار إحدى ثلاث: إما أن يقتص، وإما أن يعفو، وإما أن يأخذ الدِّية، فإن أراد الرابعة فخذوا على يديه، ومن اعتدى بعد ذلك فله نار جهنّهم خالداً فيها**»[٢].

وإنّ هذا الخيار الذي اتخذه أعداء الإسلام مطعناً في الشريعة الإسلامية، وسمع لهم فاقدوا الألباب، هو ميّزة هذا التشريع الواسع الذي

---

(١) كتاب وحي القلم للرافعي ـ ج ٣ ـ، ص ٣٠٩.

(٢) رواه أبو داود في كتاب الديّات، رقم ـ ٣٨٩٨ ـ.

أنزله الله، ليسع الناس في كل زمانٍ وفي كل مكانٍ وفي كل حال، والذي يتناسب مع النزعات البشرية، والأمزجة المختلفة، وهذا مصداق قوله تعالى: ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾[1]، وذلك لتكون العبادة هي العادة والمألوف، ويجري الدين في عروقنا مجرى الدم.

﴿كُتِبَ عَلَيْكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ . . .﴾.

والله عز وجل الذي أنزل ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٦٢﴾﴾[2] هو الذي شرّع لهذا الإنسان فيما يوصي، وفيما يترك عندما يغادر هذه الدنيا، فهو لله حياً وميتاً ومالكاً وتاركاً. فإن ترك خيراً، أي ثروة ومالاً، فهذه تقسّم حسب أنصبة الورثة، والوالدان وارثان في جميع الحالات، ولذلك لم تعد لهما وصية لقوله ﷺ: «**إنّ الله أعطى كل ذي حقٍ حقه فلا وصية لوارث**»[3].

وقيل لعلي بن أبي طالب رضي الله عنه: إنّ رجلاً من قريش مات وترك ثلاثمائة دينار أو أربعمائة، ولم يوص. قال: ليس بشيء إنما قال الله: ﴿إِن تَرَكَ خَيْرًا﴾ أي مالاً كثيراً وأما اليسير فاتركه لولدك.

وعن ابن عمر رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «**ما حق امرئٍ مسلم له شيءٌ يوصي فيه، يبيت ليلتين إلا ووصيته مكتوبةٌ عنده**»[4].

وعليه فلا يجوز تحديد مبلغ من المال، أو اقتطاع أرض أو دار لأحدٍ من الورثة دون الآخرين، فهذا يُعتبر اعتداءً على تقسيم الله عز وجل الحكيم العليم، وأما إعطاء أحد الوالدين أو كلاهما أحد أولادهما شيئاً لعلة فيه، أو لسببٍ رأوه، وكانوا من المتقين، فلا بأس بذلك على حد قول الفقهاء، وذلك في حياتهما، أما أن تكتب وصية يُعطى فيها هذا ويُحرم هذا فلا

(١) سورة الحج: الآية ٧٨.
(٢) سورة الأنعام: الآية ١٦٢.
(٣) رواه الترمذي في كتاب الوصايا، رقم ـ ٢٠٤٧ ـ.
(٤) متفق عليه واللفظ للبخاري، رقم ـ ٢٥٣٣ ـ رقم ٢٥٣٨ ـ في كتاب الوصايا.

يجوز ذلك أبداً. وأما ذكر الأقارب الذين لا تورثهم آيات الميراث، لأنَّ غيرهم يحجُبهم فهي لون من ألوان التكافل الاجتماعي العائلي، فيعطوا في قصدٍ واعتدال، دون ظلم للورثة، وقد حددَّت ذلك السنة النبوية بالثلث، وقال عليه الصلاة والسلام «**الثلث والثلث كثير**»[1].

وأما حكم كتابة الوصية قال العلماء: من كان عليه دين، أو عنده مال لقوم، أو كانت له حقوق على الناس يخاف تلفها على الورثة، فعندئذٍ تكون الوصية في حقه واجبة، وأما من سوى ذلك فالوصية في حقه مندوبة، مثل أن يوصي أهله بتقوى الله، وأن لا يفعلوا في جنازته منكراً، ثم إذا ترك مالاً، فيستحب له أن يوصي لغير الوارثين، وفي أوجه الخير فمن سمع الوصية فهو مؤتمن، ومن بدل بعد ذلك فالمورث بريء، إلا إن رأى الوصي أن المورث قد جنف وجار، فيعدّل بها ما يرد الحق إلى نصابه، وهذا هو الإصلاح الذي عفا الله عنه، ورفع عنه الإثم، كأن حرم والد ولده إرثه لساعة غضب، ثم مات فيتقي الله الورثة ويردوا لأخيهم حصته، لأن العدل أحب إلى الله من الجور.

وكل ما نلحظه من حكمة في هذا التكليف الإلهي، وهذا التشريع الدقيق، لم يكشف عنه العلم الحديث، سواء أكان نفسياً أم اجتماعياً أم تربوياً، لأن حكمة الله اقتضت ترويض هذا الكائن البشري ليكون معبداً لله قلباً وقالباً في حياته وبعد مماته، فتروض عواطفه ومشاعره وتروض جوارحه ويروض عقله، فيعطل كل شيء أمام أمر الله، ولا يملك سوى أن يردد: سمعنا وأطعنا غفرانك ربنا وإليك المصير. وتبقى التقوى هي الحارس اليقظ داخل الضمائر وفي حنايا القلوب، وقد حذرنا رسول الله ﷺ من التلاعب في الوصية، وهي آخر عهد هذا الإنسان بالأرض ومن عليها، وقد روى أبو هريرة عن النبي ﷺ: «**إن الرجل ليعمل بعمل أهل الخير سبعين سنة فإذا أوصى حاف في وصيته، فيختم له بشر عمله فيدخل النار، وإن الرجل ليعمل بعمل أهل الشر سبعين سنة، فيعدل في وصيته فيختم له بخير عمله**

---

(١) المرجع السابق.

فيدخل الجنة» قال أبو هريرة واقرؤوا إن شئتم **«تلك حدود الله فلا تعتدوها»**[1] وقد وصف ابن كثير هذا الحديث بأنه أحسن ما ورد في هذا الباب.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ ١٨٣﴾ وفي كل مرة ندرس الإسلام نجده أركاناً وبناءً، فالأركان هي الشهادتان والصلاة والزكاة والصوم والحج، وأما البناء فهو أحكام الله في كل شيء، والمسلم من حمل أحكام الله في العقائد والعبادات ومناهج الحياة.

والصيام ارتقاء رباني، يرقى بالعبد ليرتفع عن مراتع الأرض، حيث تسمو الروح في مدارج الكمال والفلاح.

والصيام فريضة الأديان كلها، وكأن البشر بحاجة لهذا الانخلاع من الطعام والشراب، فكانت هذه العبادة الروحية التربوية من سنن الأنبياء، وأنه أيام معدودات من قبل الله عز وجل، وتتوالى الآيات بما يتعلق بالصوم من أحكام شرعية ورخص في السفر والمرض للفقهاء فيها تفصيلٌ وفضلٌ في تبيان الأحكام، والغاية من كل تكليف لعلكم تتقون.

وقد امتدح الله شهر رمضان، لأن صحف إبراهيم أنزلت في أول ليلة من رمضان، وأنزلت التوراة لست مضين من رمضان، والإنجيل لثلاث عشر خلت من رمضان، وأنزل القرآن لأربع وعشرين خلت من رمضان، وأما الصحف والتوراة والزبور والإنجيل فنزل كل منها على النبي جملة واحدة، أما القرآن فنزل جملة واحدة من اللوح المحفوظ إلى بيت العزة في السماء الدنيا، وكان ذلك في رمضان في ليلة القدر، ثم أُنزل منجماً في الشهور والأيام حسب النوازل والحوادث.

ومن صام رمضان إيماناً واحتساباً غفر له ما تقدم من ذنبه.

وروى البخاري عن سلمة بن الأكوع رضي الله عنه أنه قال: لما نزلت ﴿وَعَلَى

(١) رواه الإمام أحمد في كتاب باقي مسند المكثرين، رقم ـ ٧٤١٥ ـ.

﴿ٱلَّذِينَ يُطِيقُونَهُۥ فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍ﴾ كان من شاء صام ومن شاء أفطر وأطعم مسكيناً حتى نزلت ﴿فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ ٱلشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ﴾ فنسختها، قال ابن عباس رضي الله عنه بقي حكمها للشيخ الكبير، والمرأة الكبيرة، لا يستطيعان أن يصوما، فيطعمان كل يوم مسكيناً[1] فالنسخ ثابت في حق الصحيح المقيم، ويلحق بهما الحامل والمرضع وهي من كانت صنعتها الرضاعة، أن الأم التي يرفض طفلها التقام رضاعة أو ثدي غيرها، على رأي أبي حنيفة رحمه الله ومذهبه.

وثبت في الصحيحين عن أبي الدرداء ﷺ قال: (خرجنا مع رسول الله ﷺ في شهر رمضان في حرٍ شديد، حتى إذا كان أحدنا ليضع يده على رأسه من شدة الحر، وما فينا صائم إلا رسول الله وعبد الله بن رواحة). وكان الصحابة يخرجون مع رسول الله ﷺ في السفر فمنا الصائم ومنا المفطر، فلم يعب الصائم على المفطر ولا المفطر على الصائم، ولذلك فالحكم الفقهي في ذلك قوله ﷺ: «**إن شئت فصم وإن شئت فافطر**»[2]. وإن شق عليه الصيام فالإفطار أفضل، لحديث جابر بن عبد الله رضي الله عنهما أن رجلاً ظلل عليه، فرآه النبي ﷺ فقال: «**ما هذا؟**» قالوا: صائم، فقال: «**ليس من البر الصيام في السفر**»[3].

وأما قضاء رمضان فلا يشترط فيه التتابع، بل إن شاء فرق وإن شاء تابع، أجمع على ذلك السلف والخلف، وفي الصحيح قوله ﷺ لمعاذ بن جبل وأبي موسى الأشعري عندما بعثهما إلى اليمين «**يسرا ولا تعسرا وبشرا ولا تنفرا وتطاوعا ولا تختلفا**»[4] فهذه سنة رسول الله ﷺ ومن خالف ابتدع.

وللصيام أحكام وآداب مراجعها في الفقه، ويجب على كل مكلف دراسة فقه الصيام، قبل دخول رمضان ليعبد الله على بصيرة ويكون من

---

(١) رواه البخاري في كتاب تفسير القرآن، رقم ـ ٤١٤٥ ـ.

(٢) رواه البخاري في كتاب الصوم، رقم ـ ١٨٠٧ ـ.

(٣) رواه النسائي في كتاب الصيام، رقم ـ ١٠٧٠٩ ـ.

(٤) رواه النسائي في كتاب الصيام، رقم ـ ٢٢٢٩ ـ.

المتقين، ففي شهر رمضان أصبح لهذه الأمة كيان، وكسر الله شوكة الكفر في بدر الكبرى، ونزلت آيات الرحمن، وانتظمت هذه الأمة في مواكب الدعاة إلى الله، والصوم نعمة تستحق التكبير والشكر، وأداء الصيام منحة ربانية تربوية تعد الأمة للدور العظيم الذي أخرجت من أجله، ويتجلى القرب والود في قول رسول الله ﷺ الذي رواه أبو هريرة رضي الله عنه **«ثلاثة لا ترد دعوتهم الإمام العادل، والصائم حتى يفطر، ودعوة المظلوم يرفعها الله دون الغمام يوم القيامة، وتفتح لها أبواب السماء، ويقول بعزتي لأنصرنك ولو بعد حين»**(١) وأخرج ابن أبي حاتم أن أعرابياً قال يا رسول الله: أقريب ربنا فنناجيه أم بعيد فنناديه؟ فسكت النبي ﷺ فأنزل الله ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ﴾(٢) وعن أبي سعيد رضي الله عنه قال قال رسول الله ﷺ: **«ما من مسلم يدعو بدعوة ليس فيها إثم ولا قطيعة رحم إلا أعطاه الله بها إحدى ثلاث: إما أن تعجل له دعوته، وإما أن يدخرها له في الآخرة، وإما أن يصرف عنه من السوء مثلها»**، قالوا: إذاً نكثر قال: **«الله أكثر»**(٣) والصائم يشعر بالقرب من الله عز وجل، ويتذوق حلاوة العبادة، فقد ترك طعامه وشرابه وشهوته لأجل ربه، وهو الذي يتولى جزاءه - تعامل وقرب وحب ومودة - وعن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه قال: كنا مع النبي ﷺ في غزوة فجعلنا لا نصعد شرفاً ولا نعلو شرفاً ولا نهبط وادياً إلا رفعنا أصواتنا بالتكبير، قال: فدنا منا فقال: **«يا أيها الناس أربعوا على أنفسكم فإنكم لا تدعون أصم ولا غائباً، إنما تدعون سميعاً بصيراً، إن الذين تدعون أقرب إلى أحدكم من عنق راحلته، يا عبد الله بن قيس ألا أعلمك كلمة من كنوز الجنة؟ لا حول ولا قوة إلا بالله»**(٤).

وعن البراء بن عازب أنه قال: كان أصحاب النبي ﷺ (إذا كان الرجل

---

(١) رواه ابن ماجه في كتاب الصيام، رقم - ١٧٤٢ -.

(٢) أسباب النزول للواحدي.

(٣) رواه أحمد في كتاب باقي مسند المكثرين، رقم - ١٠٧٠٩ -.

(٤) رواه البخاري في كتاب القدر، رقم - ٦١٤٠ -.

صائماً فحضر الإفطار فنام قبل أن يفطر لم يأكل ليلته، ولا يومه حتى يمسي، وإن قيس بن صرمة الأنصاري كان صائماً، فلما حضر الإفطار أتى امرأته فقال: أعندك طعام؟ قالت: لا، ولكن انطلق فأطلب لك، فغلبته عينه فنام، وجاءت امرأته فرأته نائماً، فلما انتصف النهار غشي عليه، فذكر ذلك للنبي ﷺ) وأصبح عمر وقد أصاب من النساء بعد ما نام، وكانوا إذا صلوا العشاء في شهر رمضان حرم عليهم الطعام والشراب والنساء إلى عشاء اليوم التالي فشكوا ذلك لرسول الله فخفف الله عنهم وأنزل الآية ﴿أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ ٱلصِّيَامِ ٱلرَّفَثُ إِلَىٰ نِسَآئِكُمْۚ هُنَّ لِبَاسٌ لَّكُمْ وَأَنتُمْ لِبَاسٌ لَّهُنَّۗ عَلِمَ ٱللَّهُ أَنَّكُمْ كُنتُمْ تَخْتَانُونَ أَنفُسَكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ وَعَفَا عَنكُمْۖ فَٱلْـَٔـٰنَ بَـٰشِرُوهُنَّ وَٱبْتَغُوا۟ مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمْۚ وَكُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكُمُ ٱلْخَيْطُ ٱلْأَبْيَضُ مِنَ ٱلْخَيْطِ ٱلْأَسْوَدِ مِنَ ٱلْفَجْرِۖ ثُمَّ أَتِمُّوا۟ ٱلصِّيَامَ إِلَى ٱلَّيْلِۚ﴾ ورفع الله الحرج عن المسلمين وفرحوا بذلك فرحاً شديداً[(١)].

وللصوم لذة في المناجاة والدعاء، وفي الخلوة والاعتكاف في المساجد، حيث التجرد والإخلاص وتجديد العهد والميثاق، وتربية للنفس وتدريب على الصبر، وتفكر في حكم الله سبحانه وتعالى، ولله حدود وحرمات فلا تقربوها، وللمتقين قلوب ضارعة وطرف ذليل، وعن سلمان الفارسي رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**إن الله عز وجل ليستحي أن يبسط العبد إليه يديه، يسأله خيراً فيردهما خائبتين**»[(٢)] والدعاء عدة المؤمن يلهمه الله إياه فتسكن روحه وتطمئن جوارحه ويحظى بنعمة القرب والرشد من الله عز وجل. وآدم عليه السلام عندما وقع في المعصية لم ينفعه عز اسجدوا لآدم، ولا شرف العلم وعلّم آدم، ولا خصيصة الخلق خلقته بيدي، ونفخت فيه من روحي، وإنما انتفع آدم برجاء ﴿رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَـٰسِرِينَ﴾[(٣)] وليس للإنسان أن يفرح بكثرة

---

(١) أسباب النزول للواحدي، ورواه البخاري في كتاب الصوم، رقم ـ ١٧٨٢ ـ.

(٢) رواه أحمد في باقي مسند الأنصار رقم ـ ٢٢٦٠٠ ـ.

(٣) سورة الأعراف: الآية ٢٣.

عمله، فهو جهد متواضع بجنب فضل الله العظيم، ورحمته التي وسعت كل شيء.

وعن عدي بن حاتم ﷺ قال: لما نزلت ﴿وَكُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكُمُ ٱلْخَيْطُ ٱلْأَبْيَضُ مِنَ ٱلْخَيْطِ ٱلْأَسْوَدِ مِنَ ٱلْفَجْرِ﴾، قال: عمدت إلى عقالين أحدهما أسود والآخر أبيض، فجعلتهما تحت وسادتي، قال: ثم جعلت أنظر إليهما، فلا يتبين لي الخيط الأسود من الخيط الأبيض، ولا الأبيض من الأسود، فلما أصبحت غدوت إلى رسول الله ﷺ، فأخبرته بالذي صنعت، فقال: «**إنّ وسادك إذن لعريض، إنما ذلك بياض النهار من سواد الليل**»[1].

ومن السنة في الصيام السحور، لحديث أنس ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «**تسحروا فإن في السحور بركة**»[2]. وقال: «**لا يزال الناس بخير، ما عجلوا الفطر، وأخروا السحور**»[3]. وصوم الجنب صحيح، إن لم يجنب وقت الصيام لحديث عائشة رضي الله عنها قالت: (أشهد على أن رسول الله ﷺ، إن كان ليصبح جنباً من جماع غير احتلام، ثم يصومه)[4]. وفي رواية (ثم يغتسل ويصوم، ثم لا يفطر ولا يقضي)، والشرط أن تحصل الجنابة في غير وقت الصوم أي بعد وقت المغرب إلى قبيل الفجر، ونهى رسول الله ﷺ عن الوصال والوصال هو متابعة الصيام من غير فطر بين الأيام، وعن أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «**لا تواصلوا، قالوا: إنّك تواصل، قال: إني لست مثلكم، إني أبيت يطعمني ربي ويسقيني قال: فلم ينتهوا عن الوصال، فواصل بهم النبي ﷺ يومين أو ليلتين، ثم رأوا الهلال، فقال: لو تأخر الهلال لزدتكم**»[5]. (كالمنكلِ بهم).

(١) رواه أحمد في كتاب مسند الكوفيين، رقم ـ ١٨٥٦١ ـ.
(٢) رواه البخاري في كتاب الصوم رقم ـ ١٧٨٩ ـ.
(٣) رواه البخاري في كتاب الصوم رقم ـ ١٨٢١ ـ.
(٤) رواه البخاري في كتاب الصوم رقم ـ ١٧٩٦ ـ.
(٥) رواه البخاري في كتاب الاعتصام بالكتاب والسنة، رقم ـ ٦٧٥٥ ـ.

والاعتكاف سنة نبينا ﷺ، والمعتكف يحرم عليه النساء، ما دام نوى الاعتكاف، ولو ذهب إلى منزله لقضاء حاجة، فلا يحل له أن يمكث فيه إلا بقدر فراغه من حاجته، ولا يحق له تقبيل زوجته ولا ضمها، ولا يشتغل بشيء سوى اعتكافه.

وهذا التبيان من رحمة الله بعباده، ومعونة منه على التقوى، وفي ظل ذلك الامتناع عن الطعام والشراب، والتحذير من الاقتراب من مواطن الشبهات والمحظورات، يعقّب الله عز وجل بالتحذير من أكل أموال الناس بالباطل، فكما ذكر في أول الآيات، أنه ليس البر في التولي قبل المشرق أو المغرب، وليس البر أن يشدد على نفسه، فيترك الرخص مكرهاً، وليس من البر أن يحصّل الإنسان فتوى تؤيده في ظلمه وجوره، ومدار هذا كله التقوى والتي مقرها في القلب، والإثم ما حاك في النفس، وأغمضت عنه التقوى، فليس البر في حكم حاكم أو جور جائر، وإنما البر أن يتنزه الإنسان عما لا يحل له، وهو يعلم ما يحل له وما يحرم عليه، ومن جواب رسول الله ﷺ، وعلماء الأمة وفقهائها قولهم، (لا تخاصم وأنت تعلم أنك ظالم). وعن أم سلمة رضي الله عنها أن رسول الله ﷺ قال: «**إنما أنا بشر، وإنه يأتيني الخصم، فلعل بعضكم أن يكون أبلغ من بعض، فأحسب أنّ صدق، فأقضي له بذلك، فمن قضيت له بحق مسلم فإنما هي قطعة من النار فليأخذها أو فليتركها**»[(1)]. وهكذا فالمنهج الرباني وحدةٌ متكاملةٌ قوامه العدل، وإعطاء كل ذي حق حقه، وإن أفتاك رسول الله ﷺ. فهو وحدةٌ لا تتجزأ ولا تتفرق، والأخذ بجانب منه دون جانب يعتبر إيماناً ببعض الكتاب، وكفراً ببعضه الآخر، وقد عاتب الله عز وجل اليهود من قبل بقوله ﴿أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ ٱلْكِتَٰبِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ﴾[(2)]. هذا في حالة الحصول على فتوى جائرة، فكيف بمن يدفع الرشاوى لينال حقاً مغصوباً، وكيف بمن يقبض الرشاوى سواءً كانت تحت اسم العطايا أو الهدايا أو الإتاوات

---

(1) رواه البخاري في كتاب المظالم والغصب، رقم ـ ٢٢٧٨ ـ.

(2) سورة البقرة: الآية ٨٥.

فالأمر خطير، وعلى الأمة أن تراجع مواقفها وتتوب إلى الله ما دام في الأمر متسع.

الفوائدالتربوية:

١ ـ في آية البر دليلٌ واضحٌ ولفتة تربوية، أن هذا الدين يحتاج إلى الفهم والمعرفة والتوازن، قبل العمل والحركة. ولذلك إن كلمة لا يفقهون تعقيبٌ لازم في صفات المنافقين، وحتى لا يقع الإنسان تحت آية ﴿هَلْ نُنَبِّئُكُم بِٱلْأَخْسَرِينَ أَعْمَٰلًا ٱلَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا ﴿١٠٤﴾﴾[1]. فالإسلام ليس مجموعة أوامر تنفَّذ، والإسلام لا يحول الناس إلى أحجار شطرنج، وحواجز تتحرك أو لا تتحرك، بينما الإسلام روح ورقي وحضارة وطاعة وسمو ورفعة وفهم عميق وتعامل دقيق ومراقبة ثاقبة ومشاعر حساسة وهذا بمجموعه يشكل الإخلاص والعبودية، فتنساب لا إله إلا الله محمد رسول الله كالغدير العذب، صدقاً في القول، وإحساناً في المعاملة، بلا تكلف ولا غموض.

٢ ـ هناك في آية البر لفتة تربوية، قد تكون غابت عن الكثير، فأتت الآية بأفعال مفردة، وأفعال جامعة، وكلمات مفردة، وكلمات مجموعة، ففي كلمة آمن مسؤوليةٌ فردية، يحملها كل إنسان بقدر متفاوت عن الآخر، وعدَّد الغيبيات، وذكر فيها الله الواحد الأحد، واليوم الآخر، ويوم الحساب لا ريب فيه، والملائكة كلهم أجمعين، وأما الكتاب فجاء مفرداً رغم تعدد الكتب، حيث لا بقاء إلا للقرآن الكريم كتاب الله الخالد، والنبيين كلهم وما جاؤوا به من كتب، انطوت كلها تحت كتابنا فهذا كله من الغيبيات التي أخبرنا الله عز وجل بها، ثمَّ ذكر فعل أتى مفرداً لأنه لا يزكي أحدٌ عن أحد، ولا يصلي أحد عن أحد والإحسان أيضاً مرتبة فردية، يصلها الإنسان عندما يتدرج في مدارج الإيمان وبعدها يوفون بالعهد، فالوفاء بالعهد يقوم به الفرد، ولا يثبت عليه إلا بجماعة، فلذلك ذكر الله الفعل بصيغة الجمع،

(١) سورة الكهف: الآية ١٠٤.

والصابرين، يُصبّر بعضهم بعضاً، ويتواصوا بالحق ويتواصوا بالصبر. فتكون ثمرة الدقة في الإتباع، ونتيجة التدبر لكلام الله (الصدق) وبه تتحقق التقوى. ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ ﴿٢٤﴾﴾[١].

والإيمان والإنفاق والوفاء بالعهود والصبر، كلها مقومات ونتائج الجهاد في سبيل الله، واليوم هناك نزعة عجيبة بين الناس، وهي استبعاد مفهوم الجهاد في سبيل الله، والإعداد له والتربية عليه، وجمعاً غفيراً من المسلمين اليوم، يصوم ويصلي ويعمل الخير ويُسبّح الله ويتنفل وينفق بشرط على اليتيم والمسكين، ويُسقط الباقي من حسابه، غير عابىء بأحوال المسلمين، وكأنه أدى ما عليه لهؤلاء نقول: إنّ جيش العسرة قائم، ولا عثمان له، وإن لم يتنبه المسلمون لهذا الأمر، ويفقهوا معاني البر، وأولويات الإنفاق لحماية هذا الدين، والدفع عن أعراض المسلمين، فستكون بوسنة على كل أرض المسلمين، وستطل القبعة اليهودية على مشارف المسلمين، ولن ينفعنا يومها البكاء والعويل.

٣ ـ العدل قوام هذا الدين، والإحسان عطره الفوّاح، وقد كان القصاص في بني إسرائيل ولكن لم تكن فيهم الدية، وليس عندهم شيء من مفهوم العفو والتسامح والمعروف والإخاء. هذه كلها مزايا هذا الدين الذي اعتمد التربية ولم يعتمد الشدة، والمؤمن أخو المؤمن وإن وقعت حادثة قتل، فما أرحم الله بعباده، وما أوثق عرى الإخاء في ديننا الحنيف، فلنتنبه. والأحكام كلها محاطة بالتقوى، والقتل قصاصاً أنفى للقتل ظلماً، وبهذه الأحكام، وهذه التربية حقن الله ورسوله دماء هذه الأمة، التي كانت تزهق أرواح أبنائها، لأتفه الأسباب وتحققت حرمة الدم المسلم، وحرمة الإيذاء ولو بكلمة ولو بإشارة وعن أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «**من أعان عل قتل مؤمن بشطر كلمة لقي الله عز وجل مكتوبٌ بين عينيه، آيسٌ من رحمة الله**»[٢].

---

(١) سورة محمد: الآية ٢٤.

(٢) رواه ابن ماجة، في كتاب الديّات، رقم ـ ٢٦١٠ ـ.

٤ ـ إحاطة هذا التشريع بكل صغيرةٍ وكبيرةٍ وفي كل حال، فهو يحكم المرء في حياته وحال احتضاره وبعد مماته، ويحيط بالحياة في جميع أطوارها، في سرّائها وضرّائها، وفي أفراحها وأتراحها، حتى تتحقق العبودية لله عز وجل.

٥ ـ هناك لفتة ﴿فَمَنۢ بَدَّلَهُۥ بَعۡدَمَا سَمِعَهُۥ﴾، والسمع ليس بحركة، ولا عمل، وإنما هي جارحة جرى أمامها صوت فسمعته، فهي مسؤولة عن هذا السمع لتنقله، وتؤديه أمانةً بغير زيادة ولا نقصان، وهذا مصداق قوله جل وعلا ﴿إِنَّ ٱلسَّمۡعَ وَٱلۡبَصَرَ وَٱلۡفُؤَادَ كُلُّ أُوْلَٰٓئِكَ كَانَ عَنۡهُ مَسۡـُٔولٗا﴾.

٦ ـ الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر مسؤولية المسلم حتى بين الحي والميت، فإن رأى الوصي الحي جوراً في وصية الميت، يُصلحه ويُحسن إليه، ويُنقذه من عذاب الله، فلنفهم معاني الرحمة المقصودة في كتاب الله.

٧ ـ للصيام حِكَمٌ ومردودٌ تربوي غاب عن كثير من المسلمين، ومن بعض المظاهر الغريبة في رمضان انقلاب حياة بعض الناس، حيث يصبح الليل نهاراً والنهار ليلاً، وسهر ليل رمضان يؤدي إلى نوم نهاره بالمقابل، وهذا يُفقد المعاني التربوية للصيام، ولو رجعنا إلى أحوال الصحابة في رمضان، وجدناهم انطلقوا غزاةً فاتحين، وعملوا ساعين على رزق عيالهم في النهار، كما في قصة صرمة بن قيس ﷺ، فقد بلغ به التعب حتى عاف الطعام، ولنتأمل المواقف فبعد نهار رمضان، يطلب الطعام ولا يجده، فتقول له زوجته: اصبر حتى نطلبه لك، ومطابخ المسلمين اليوم تعلن حالة الطوارىء في رمضان، لإعداد ما لذّ وطاب وتُعدُّ الموائد ويُشغل الليل كله بإعداد الطعام والشراب، فإذا طلعت شمس الضحى انقلب الناس كلهم نيام، فنحن بحاجةٍ لدراسة المواقف والعبر، لنعلم ماذا حقق أكابر السلف والخلف في رمضان؟.

٨ ـ رمضان مدرسةٌ روحيةٌ تربوية، فيجب على الوالدين والمربين أن يستغلوا الفرص، ويُهذبوا الأرواح، عن الرّبيع رضي الله عنها قالت: (كنّا

نصوِّم صبياننا، ونجعل لهم اللعبة من العهن ـ الصوف الملوّن ـ فإذا بكى أحدهم على الطعام أعطيناه ذلك حتى يكون عند الإفطار)[1] وهذا لا يعني فرض الصيام على الأطفال، ولكن تعويدهم إيّاه، وتحبيبه لهم وتعويدهم التفكر في الفقراء والمساكين، ويلاحظوا كثرة الضيوف في رمضان، وحرص الوالدين على أجر إفطار الصائم، واصطحاب الأطفال إلى الأماكن التي تظهر فيها روح وحدة المسلمين والإفطار الجماعي، وبذل الطعام من الجميع ولكل الناس، وانتظار الجميع وقت الغروب، وملاحظة الدقة والنظام أمورٌ ينّبه الطفل عليها ليعلم أن ليس للفوضى في هذا الدين مكان، ويعلّم آداب الإتّباع لرسول الله ﷺ في الصيام والسحور والإفطار والإنفاق والجود بالخير بكل معانيه، والإحسان والتسامح وعدم الخصام ودفع صدقة الفطر والغاية منها، وحمل الهدايا وملابس العيد لمن يُحيط به من الأيتام والفقراء ليستشعروا فرحة العيد، وما يخرج الطفل من رمضان إلا بخلُقٍ جديد، ووعي كبير. . . وهكذا حتى يستوي العود وتطيب الثمرة.

٩ ـ رحمة الله بعباده وأدب رسول الله في التعامل كنوز تحتاج إلى تأمّل وتقرُّب، وذكر المرأة في الآية يوحي بمكانتها في الأسرة، وفي حياة الرجل ﴿هُنَّ لِبَاسٌ لَّكُمْ وَأَنتُمْ لِبَاسٌ لَّهُنَّ﴾ فكما يلازم المرء لباسه، يلازم الزوجين كلاهما الآخر، فهما سترٌ بعضهما لبعض، فلا الزوج يقبِّح ولا يضجر، ولا المرأة تتحدث وتسمر وهي تشتكي زوجها للناس. وفي سيرة نبيّنا محمد ﷺ نبراساً مضيئاً كان عليه الصلاة والسلام يعتكف في العشر الأواخر من رمضان وتتعاقب أمهات المؤمنين على زيارته في المسجد، ومرة مكثت عنده صفية أم المؤمنين رضي الله عنها حتى كان الليل، فلما أرادت أن تنصرف قام معها يمشي حتى تبلغ دارها، ورحم الرجلين اللذين كانا في الطريق وقال: «**على رسلكما إنها صفية بنت حيي**» رحمهما من سوءِ الظن برسول الله ﷺ، لأنّ الظنّ فيه مهلكة للعبد، فيقولان سبحان الله يا رسول الله، أي ما ظننا ولا نفكر بذلك فقال: «**إنّ الشيطان يجري من**

(١) البخاري، كتاب الصوم باب صوم الصبيان، رقم ـ ١٨٢٤ ـ.

الإنسان مجرى الدم، وإني خشيت أن يقذف في قلوبكما سوءاً أو قال: شيئاً»[1]. فلنتعلم من رسول الله الإحسان إلى الأهل ولو في الإعتكاف.

١٠ ـ عبّر الله عز وجل عن كسب الأموال المحرّمة بالأكل، وذلك تنبيه لنعلم أنّ المال هو قوام الأجساد، «**إنه لا يربو لحمٌ نبت من سحت إلا كانت النار أولى به**»[2] فهو أكل غير مباشر، فليتق العبد ربه بالأفواه التي تنتظره ليحمل لها قوتها فلا يُغذّيها إلا بالحلال، وكانت نساء الصحابة رضوان الله عليهنَّ تتبع إحداهنّ زوجها وتقول: (اتق الله فينا، ولا تطعمنا إلا حلالاً، فإنّا نصبر على الجوع، ولا نصبر على النار) فلتحاسب كل امرأة نفسها ولتستعرض طلباتها.

ولو تأمّلنا في الآيات وجدناها تخوض بالجماعة المسلمة مجالاً تربوياً في كل جانبٍ من جوانب الحياة، حتى يكون هذا الإنسان هو المسلم بلسانه والمؤمن بقلبه والمحسن بمشاعره والتقي الذي تعامل مع ربه ودينه بالشكر وحسن العبودية لله والعطاء والإصلاح بين العباد، وعن وابصة الأسدي ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «**استفت قلبك، واستفت نفسك ثلاث مرات، البر ما اطمأنت إليه النفس، والإثم ما حاك في النفس، وتردد في الصدر، وإن أفتاك الناس، وأفتوك**»[3] فما لعبدٍ أن يحيد عن عبودية ربه وطاعة نبيّه والاحتكام إلى كتاب ربه، وليس لمسلمٍ عذر أمام الله بقهر أخيه المسلم أو ظلمه أو أكل ماله.

﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَهِلَّةِ ۖ قُلْ هِىَ مَوَٰقِيتُ لِلنَّاسِ وَٱلْحَجِّ ۗ وَلَيْسَ ٱلْبِرُّ بِأَن تَأْتُوا۟ ٱلْبُيُوتَ مِن ظُهُورِهَا وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنِ ٱتَّقَىٰ ۗ وَأْتُوا۟ ٱلْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَٰبِهَا ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿١٨٩﴾ وَقَٰتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴿١٩٠﴾ وَٱقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ وَأَخْرِجُوهُم مِّنْ حَيْثُ أَخْرَجُوكُمْ ۚ وَٱلْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ ٱلْقَتْلِ ۚ وَلَا تُقَٰتِلُوهُمْ عِندَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ حَتَّىٰ يُقَٰتِلُوكُمْ فِيهِ ۖ

---

(١) رواه البخاري، في كتاب بدء الخلق، رقم ـ ٣٠٣٩ ـ.
(٢) رواه الترمذي وأحمد، رقم ـ ٥٥٨ ـ.
(٣) رواه أحمد، في كتاب مسند الشاميين، رقم ـ ١٧٣٢٠ ـ.

﴿فَإِن قَٰتَلُوكُمْ فَٱقْتُلُوهُمْ كَذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٩١﴾ فَإِنِ ٱنتَهَوْا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٩٢﴾
وَقَٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ لِلَّهِ فَإِنِ ٱنتَهَوْا۟ فَلَا عُدْوَٰنَ إِلَّا عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ
﴿١٩٣﴾ ٱلشَّهْرُ ٱلْحَرَامُ بِٱلشَّهْرِ ٱلْحَرَامِ وَٱلْحُرُمَٰتُ قِصَاصٌ فَمَنِ ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ فَٱعْتَدُوا۟ عَلَيْهِ بِمِثْلِ
مَا ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿١٩٤﴾ وَأَنفِقُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا
تُلْقُوا۟ بِأَيْدِيكُمْ إِلَى ٱلتَّهْلُكَةِ وَأَحْسِنُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٩٥﴾﴾.

المفردات:

الأهلة: جمع هلال وهو أول حال القمر. **مواقيت**: جمع ميقات وهو الموعد.

ثقفتموهم: ثقف الشيء ظفر به بمعنى الغلبة والقهر. **التهلكة**: الهلاك.

الدرسة التربوية:

قال معاذ بن جبل ﷺ: يا رسول الله إن اليهود تغشانا، ويكثرون مسألتنا عن الأهلة، فأنزل الله ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَهِلَّةِ﴾.

وقال الكلبي: نزلت في معاذ بن جبل وثعلبة بن عنمة رضي الله عنهما، وهما رجلان من الأنصار، قالا: يا رسول الله ما بال الهلال يبدو فيطلع دقيقاً، مثل الخيط ثمَّ يزيد حتى يعظم ويستوي ويستدير، ثمَّ لا يزال ينقص ويدق حتى يكون مثل ما كان، لا يكون على حالٍ واحدة؟[1] فنزلت الآية.

وهكذا تتوالى الفرائض، ويتنزَّل التشريع، وتبدو الدقة في حياة الصحابة الكرام رضوان الله عليهم وذلك بتكرار وتنوع أسئلتهم، وبدأت الآيات بيسألونك عن الأهلة... سألوه عن الأهلة ما شأنها؟ وما بال القمر يكون هلالاً ثمَّ بدراً، ثمَّ يتناقض فيرتد هلالاً ثمَّ يختفي، لقد سألوا عن هذا كله.

وقد أجابهم الله عز وجل بواقع حياتهم العملي فقال: هي مواقيت

---

(١) أسباب النزول للواحدي.

للناس والحج، ولم يحدِّثهم عن وظيفة القمر في المجموعة الشمسية وأثره في توازن الأجرام السماوية لأنّ هذا المجال متروك للمقدرات البشرية حيث يجد الإنسان في القرآن لفت انتباه فيتوجّه ليطرق أبواب علم الفلك والكونيات، ويرى بنفسه عظمة الخالق وأسرار الكون، وهذا بحدٍّ ذاته آية حدَّث عنها القرآن الكريم في موضعٍ آخر، وقال: ﴿سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ﴾(١) فلو أجاب الله عز وجل بالحقيقة العلمية هكذا جاهزة، لما اكتشف الإنسان، ولما بحث وهل الاكتشافات العلمية، واستخراج كنوز الأرض والجبال إلا بعض التكليف القرآني؟؟

إنّ بعض الناس يحاولون أن يُضيفوا لهذا القرآن بعض ما ليس منه، ويحملون الآيات على إثبات حقائق علمية ﴿وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا﴾(٢) وهذا سوء فهمٍ محض لهذا القرآن.

إنّ كتاب الله ليس كتاب علمٍ ولا طبٍ ولا كتاب فلك وعلوم، وإنّما هو كتاب تربية وتشريع وتكليفٍ وتعبيد الإنسان والمخاليق كلّهم لله رب العالمين، والنظرية العلمية مرةً تخطىء ومرة تصيب لأنها نتيجة جُهدٍ بشري، فلذلك لا يجوز اخضاع كتاب الله للبحث العلمي والتجارب البشرية، إلا أن تصبح النظرية مقطوعٌ بها فترقى إلى مرتبة الدليل القطعي فيؤخذ بها وهي عندئذٍ لا تتعارض مع حقيقة ربانيّة ولا نص حديثٍ نبوي صحيح.

إنّ صيغة السؤال والبحث كانت ديدن الصحابة الكرام، فقد تنوّعت أسئلتهم، شأنهم شأن الذي دخل عالم غير عالمه، وهذا دليل يقظة الحس الديني عندهم وسيطرة العقيدة على نفُوسهم، حتى أصبح لكل واحدٍ منهم ميزانٌ حسّاس في حياته اليومية يزن به كل أمر، حيث لم تعد في حياتهم عادات ولا تقاليد تحكمهم ولا قوانين تنظم حياتهم إلا هذا الدين، حتى

---

(١) سورة فصلت: الآية ٥٣.

(٢) سورة الكهف: الآية ١٠٤.

غَدوا يتحرّجون من بعض صور العبادة المألوفة كالسعي بين الصفا والمروة، ينتظرون حكم الله فيها، وهذه الحالة يُنشئها الإيمان الحق حيث لا يبقى للتقليد مكان، ولا للتبعية العشوائية، سبيل، وذلك لأنّ النفوس تجردت وانخلعت من كل مؤلوف حتى يحكم الله فيه، وهذه هي أعظم الثمرات الإيمانية التربوية، لأنّ خلط المألوف مع الدين بغير محاكمة لهذا المألوف، **يوقع الإنسان في دروب الضلال**.

فالنفس التي عُبّدت لله وارتضت ميزان الله حاكماً لحياتها، هي النفس الثابتة التي لا تشك ولا ترتاب، ودليل ذلك هي محاولات اليهود في المدينة والمشركين في مكة بين الحين والحين في التشكيك في قواعد هذا الدين. لكن وجود القرآن الكريم في المعركة الدائبة كان يسكب الطمأنينة واليقين في قلوب المسلمين. والمسلم ثابتٌ، عالمٌ، متيقنٌ، باحث، لا يطير فزعاً عند كل صيحة، ولا يتشكك عند كل نازلة، ولا ينزلق عندما تطل الفتنة برأسها.

﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَهِلَّةِ﴾، فيجيبهم عن علاقتهم التعبدية بها، فقال: هي مواقيت للناس في حلهم وإحرامهم، وفي صومهم وفطرهم، ونكاحهم وطلاقهم وعدتهم، وفي المعاملات والتجارة والديون. وأما من الناحية العلمية فالجواب عندك أيها المسلم. ﴿وَلَيْسَ ٱلْبِرُّ بِأَن تَأْتُوا۟ ٱلْبُيُوتَ مِن ظُهُورِهَا وَلَـٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنِ ٱتَّقَىٰ ۗ وَأْتُوا۟ ٱلْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَٰبِهَا ۚ﴾ هذا علاجٌ لأمرٍ معروف في ذلك الوقت، وإشارة أيضاً إلى الوضوح الرباني، فالله لا يحب الإلتواء في القول ويحب الحق والتبيان، وإتيان البيوت من أبوابها.

وقد ورد في الصحيحين: أن الأنصار كانوا إذا حجوا لم يدخلوا البيوت من قبل أبوابها، ويحسبون أنّ هذا من البر. فتدخّل القرآن ليغيّر هذا التصور الباطل، وردّ الناس إلى الدخول من الأبواب، وبيَّن أنَّ هذا ليس من البر وإنما البر هو التقوى. قال المفسرون: (كان الناس في الجاهلية، وفي أول الإسلام إذا أحرم الرجل منهم بالحج أو العمرة لم يدخل حائطاً ولا بيتاً ولا داراً من بابه، فإن كان من أهل المدن نقب نقباً في ظهر بيته، منه يدخل ويخرج، أو يتخذ سلماً فيصعد فيه، وإن كان من أهل الوبر خرج من

خلف الخيمة والفسطاط، ولا يدخل من الباب حتى يحل من إحرامه ويرون ذلك ذماً، إلا أن يكون من الحمس، وهم: قريش وكنانة وخزاعة وثقيف وبنو عامر بن صعصعة وبنو النضر بن معاوية، سموا حمساً لشدّتهم في دينهم. قالوا: فدخل رسول الله ﷺ ذات يوم بيتاً من بيوت الأنصار فدخل رجل من الأنصار على إثره من الباب وهو محرم، فأنكروا عليه، فقال له رسول الله ﷺ: «**لم دخلت وأنت محرم؟**»، فقال: رأيتك دخلت من الباب فدخلت على إثرك، فقال: «**إني أحمسي**»، فقال الرجل: إن كنتَ أحمسياً فإني أحمسي، ديننا واحد، رضيت بهديك وسمتك ودينك)[1]، فأنزل الله تعالى الآية تبين معنى البر.

ألا إنّ البر التقوى، ألا إنّ البر التقوى. واتقوا الله لعلكم تفلحون، وفي كل مرة يعالج الله ناحية تربوية في النفس البشرية، يربط القلوب بحقيقة إيمانية. فالتقوى طريق الفلاح، والخسارة هي باب الجاهلية الفارغة من الإيمان، وعندما تستقر هذه الناحية يكون الإيمان قد استحكم، وأصبح حقيقةً لا مظهر، عندها يسهل قياد النفوس وتهون الأوامر ويصبح القتال والشهادة والإنفاق في سبيل الله له وقعٌ وراحةٌ ولذة كما للماء القراح على الظمآن. فتتحرك المشاعر وقد روّاها الإيمان فتعجل إلى ما يحب الله وتنأى عما يبغضه الله. وكان الصحابة الكرام يتحسسون هذا في وجه رسول الله ﷺ وقد تواتر قولهم بوصفه، أنه كان يُعرف في وجهه الغضب، فإذا غضب فزعوا، وإذا تهلل وجهه بالبشر فرحوا، لأنَّه عليه الصلاة والسلام ما كان يغضب إلا لله، وما كان يفرح إلا في الله.

﴿وَقَٰتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴿١٩٠﴾ وَٱقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ وَأَخْرِجُوهُم مِّنْ حَيْثُ أَخْرَجُوكُمْ وَٱلْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ ٱلْقَتْلِ وَلَا تُقَٰتِلُوهُمْ عِندَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ حَتَّىٰ يُقَٰتِلُوكُمْ فِيهِ فَإِن قَٰتَلُوكُمْ فَٱقْتُلُوهُمْ كَذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٩١﴾﴾ نزلت هذه الآيات وقررت قاعدة تربوية فقهية: إنّ المسلم لا يعتدي أياً كان وجه الاعتداء، سواءً كان في البدن، أو في الحقوق، أو في

(١) أسباب النزول للواحدي.

المشاعر، أو في دور العبادة، وقد أُذن لهم أن يردّوا عن أنفسهم. أما أن يظلموا ويعتدوا فهم على مفرق طريقٍ مع الإيمان.

وتبدأ الآية بكلمة ﴿وَقَٰتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ فمن هنا بدأت المفاصلة مع الجاهلية، فبدء القتال أصلاً في سبيل الله، لا في سبيل الأمجاد، ولا الاستعلاء في الأرض ولا في سبيل المغنم والمكسب لا في سبيل المصالح والسيادة وإنّما القتال لإعلاء كلمة الله وتحكيم شرعِ الله في الأرض وحماية المؤمنين من أن يفتنوا في دينهم، ومع نبل الغاية أُمِرْنا بعدم الاعتداء ﴿وَلَا تَعۡتَدُوٓاْ﴾، وعن ابن عمر رضي الله عنهما قال: (وجدتْ امرأة في بعض مغازي رسول الله ﷺ مقتولة، فأنكر رسول الله ﷺ قتل النساء والصبيان)[1].

إنّ الجهاد فُرض ليكفل حرية العقيدة للإنسان لأنّ الإسلام مسؤولية فردية. والله عزّ وجل وجّه نبيّه إلى الحق ﴿فَذَكِّرۡ إِنَّمَآ أَنتَ مُذَكِّرٞ ۝٢١ لَّسۡتَ عَلَيۡهِم بِمُصَيۡطِرٍ ۝٢٢﴾[2]، والله سبحانه بيَّن وحذَّر، وعرض الجنَّة ونعيمها، وحذّر من النار وجحيمها ثم قال: ﴿فَمَن شَآءَ فَلۡيُؤۡمِن وَمَن شَآءَ فَلۡيَكۡفُرۡ﴾ وكل فردٍ في الإسلام مكلّفٌ أن يدعو إلى الله بالقدر الذي يعلمه، ولكن لا يحق لأحدٍ أبداً أن يمنع أحداً من سماع دعوة الحق. ومن عطّل الدعوة وأبعد الدعاة فهو طاغية. فمن أجل هذا فرض الله الجهاد، ليزيح المؤمن هذا الطاغية، وإن كان بالسيف لتبلّغ دعوة الله إلى الناس كافّة، سادةً وعبيداً، فواجبنا أن ندعو الناس إلى الله ونعلّمهم الخير، ومن حق كل إنسان أن يستجيب أو يرفض، وميزان الله هو الميزان ﴿وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُ﴾، فسبحان من أعزّ بلال بن رباح وأذلّ أبا جهل. إنّه ميزان لا إكراه في الدين. وما كانت فتوح المسلمين إلا من هذا القبيل. وقد سبقت رسائل رسول الله ﷺ إلى ملوك الأرض قبل أي تحركٍ عسكري، فمن أجاب قَبِل منه رسول الله إجابته، ومن رفض وأساء جاءته الفتوح فكانت خير مؤدب

---

(١) رواه البخاري في كتاب الجهاد والسير، رقم ـ ٢٧٩١ ـ.

(٢) سورة الغاشية: الآية ٢١.

عرفه التاريخ، كان جنود الإسلام ينطلقون في سبيل الله محمّلين بالوصايا والتوجيهات ومنها ما ورد في الصحاح:

١ ـ إذا قاتل أحدكم فليجتنب الوجه.

٢ ـ نهى رسول الله ﷺ عن النهبى(*) والمثلة (*).

٣ ـ نهى رسول الله ﷺ عن قتل النساء والصبيان.

٤ ـ نهى عن قتل الصبر(*)، وقال: «**أعفُّ الناس قتلة؛ أهل الإيمان**»[١]، ونهى عن قطع الشجر والتعرض لدور العبادة والعبَّاد الذين فيها. ثم توَّج الوصايا كلها بوصيته الذهبية ﷺ لجميع جنود الإسلام الفاتحة: «**اغزوا بسم الله، وفي سبيل الله، وقاتلوا من كفر بالله، اغزوا ولا تغدروا، ولا تغلّوا، ولا تمثلوا، ولا تقتلوا وليداً**»[٢].

هذه هي حروبنا وهذه هي آدابنا وهؤلاء هم جندنا وهذه هي سنة نبينا ﷺ، والجهاد ماضٍ إلى يوم القيامة، والشهداء الأبرار هم معالم الطريق وإخوانهم من ورائهم عدَّة هذه الأمة، ودماء الشهداء زيت سراج الدعوة، والمنفقون المحسنون هم حصن الجهاد وزاده. فإذا ارتقت النفوس لهذه المراتب، لن تستطيع قوة في الأرض أن تصرفها عن دينها. وقد تعرّض المسلمون لهجماتٍ عديدة ومحنٍ شديدة في كل مرة يحسب أعداء الله أنّهم قضوا على الإسلام وأبادوا أهله، ولكنّ الله يُخيّب ظنهم، ويفاجؤون بأن الدعوة أعز والدعاة أصلب عوداً وأكثر عدداً.

وكذلك بيّن الله حكم القتال عند المسجد الحرام، حيث لا قتال فيه، فهو محطة الأمن، ومن دخله كان آمناً وهذا هو الأصل. وأما الكافرون

(*) النهبي: الغارة والسلب.

(*) المثلة: تقطيع الأطراف والتشويه كجدع الأنف والأذن أو أي شيءٍ من أطرافه.

(*) الصبر: يصبر حياً كأن يصلب على خشبة ثم يرمي بشيء حتى يُقتل.

(١) رواه البخاري عن عبد الله بن مسعود في كتاب الجهاد، رقم ـ ٢٢٩٢ ـ.

(٢) رواه أبو داود في كتاب الجهاد، رقم ـ ٢٢٤٦ ـ.

الذين لا يرعون له حرمة ويبدأون بقتال المسلمين عنده مستغلين حرمة الحرم، عندئذٍ أباح الله للمؤمنين القتال فيه. وذلك هو الجزاء الأوفى للذين يَفتنون الناس عن دينهم ولا يرعون حرمات الله.

فالذي ينتهك حرمات الحرم والشهر الحرام، جزاؤه أن يُحرم من الضمانات التي يكفلها له الشهر الحرام، وتؤكد الآيات فظاعة الفتنة وتعتبرها أشدُّ من القتل، هذا التكرار يوحي بأهمية الأمر في التشريع الإسلامي، ويقرر الله عز وجل في هذا التكرار من هم أعداء الإنسان، أعداؤه أولئك الذين يفتنون المؤمنين عن دينهم، ويؤذون المسلمين بسبب إسلامهم، أولئك الذين يحولون بين البشرية ومنهج الله الحق. عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ يوم فتح مكة: «**لا هجرة ولكن جهادٌ ونيّة، وإذا استنفرتم فانفروا**»، وقال يوم فتح مكة: «**إنّ هذا البلد حرّمه الله يوم خلق السماوات والأرض، فهو حرامٌ بحرمة الله إلى يوم القيامة، وإنّه لم يحل القتال فيه لأحدٍ قبلي ولم يحلّ لي إلا ساعةً من نهار، فهو حرامٌ بحرمة الله إلى يوم القيامة، لا يعضّد شوكه، ولا ينفّر صيده، ولا يلتقط لقطته إلا من عرفها، ولا يُختلى خلاه**»، فقال ابن عباس: يا رسول الله إلا الإذخر فإنّه لِقَيْنهم ولِبيوتهم، قال: «**إلا الإذخر**»[1]، وفي رواية: «**فإن أحدٌ ترخّص بقتال رسول الله، فقولوا إنّ الله أذن لرسوله ولم يأذن لكم**».

فالذي ينتهك الحرمات لا تصان حرماته والحرمات قصاص. والمسلمون موكلون لصلاح نواياهم وتقواهم، حيث ذكّرهم الله بأنّه مع المتقين. فقد بيّن لهم الوجهة وبيّن لهم حدود التقوى. وفي الصحيحين عن أبي موسى الأشعري ﵁ قال: سئل رسول الله ﷺ عن الرجل يقاتل شجاعة، ويقاتل حميّة، ويقاتل رياءً، أي ذلك في سبيل الله؟ فقال: «**من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا فهو في سبيل الله**»[2].

---

(١) رواه البخاري في كتاب الجزية والموادعة، رقم ـ ٢٩٥١ ـ.

(٢) رواه مسلم في كتاب الإمارة، رقم ـ ٣٥٢٥ ـ.

والجهاد كما يحتاج للمال وللرجال يحتاج لتربية النفوس وإعدادها لتبلغ ذروة سنام الإسلام ويحتاج لتربية النفوس لتنخلع من شحها وتجود بأطيب ما تملك لله رب العالمين. قال الحكم بن عمران: كنا بالقسطنطينية، وعلى أهل مصر عقبة بن عامر الجهني صاحب رسول الله ﷺ، وعلى أهل الشام فضالة بن عبيد صاحب رسول الله ﷺ، فخرج من مدينة القسطنطينية صف عظيم من الروم وصففنا لهم صفاً عظيماً من المسلمين، فحَمَل رجل من المسلمين على صف الروم حتى دخل فيهم، ثم خرج إلينا مقبلاً، فصاح الناس فقالوا: سبحان الله! ألقى بيديه إلى التهلكة، فقام أبو أيوب الأنصاري صاحب رسول الله ﷺ فقال: (أيها الناس إنّكم تتأوّلون هذه الآية على غير التأويل وإنّما أُنزلت هذه الآية فينا معشر الأنصار، إنّا لما أعزَّ الله تعالى دينه وكثر ناصروه، قلنا بعضنا لبعض سراً من رسول الله ﷺ: إنّ أموالنا قد ضاعت، فلو أنّا أقمنا فيها، وأصلحنا ما ضاع منها، فأنزل الله تعالى في كتابه يرد علينا مما هممنا به فقال: ﴿وَأَنفِقُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا تُلْقُوا۟ بِأَيْدِيكُمْ إِلَى ٱلتَّهْلُكَةِ﴾ في الإقامة التي أردنا أن نقيم في الأموال فنصلحها، فأمرنا بالغزو، فما زال أبو أيوب غازياً في سبيل الله حتى قبضه الله عز وجل)[1].

وقال ابن عباس رضي الله عنهما: ليس ذلك في القتال، وإنما هو في النفقة، أن تمسك يدك عن النفقة في سبيل الله، ولا تلق بيدك إلى التهلكة.

والإمساك عن الإنفاق في سبيل الله تهلكة للنفس بالشح وتهلكة للجماعة بالعجز والضعف. والإنفاق في سبيل الله تطوعاً تبذله النفوس المؤمنة راجية فيه رضاء الله. ولو استعرضنا مواقف الإنفاق عند الصحابة رضوان الله عليهم لوجدناه فناً أتقنوه وأدّوه أحسن الأداء، وطبعوا في ذاكرة التاريخ صوراً أقرب للخيال من الحقيقة. ومواقفهم الجهادية جعلتهم أهلاً لمحبة الله وارتقت بهم إلى مدارج المحسنين.

---

(١) أسباب النزول للواحدي.

المواقف التربوية:

١ ـ وردت آيات يسألونك، لترسم لنا حال الجماعة المسلمة وتحرّجها من مزاولة عاداتها دون أن تستوثق من حكم العقيدة الجديدة فيها. والسؤال للعلم والعمل هو دليل صحة الأمة وعافيتها، وأما السؤال لجمع معلومات دون العمل فهو دليل مرض الأمة وتبلد حسها.

٢ ـ وردت الأسئلة أيضاً بإيحاء وتشكيك من اليهود، ولذلك تولى الله عز وجل الإجابة عليها. ودخل القرآن المعركة ليقاوم تصورات الجاهلية ويدفع عن هذه الأمة ويقيها العثرات. ولم ينته أسلوب اليهود بالتشكيك والطعن في القرآن تارة، وفي الرسول والأصول تارة أخرى. فهل أحكمنا البناء؟ لكي لا تنفذ السموم اليهودية إلى أبنائنا. والواقع أن حصوننا مهدّمة، ولا بدَّ للمربين من تدارك هذه الثغرة قبل فوات الأوان.

٣ ـ على المربين بعث الأحاسيس في الأطفال وربط الجيل بالقرآن تلاوة وفهماً، سلوكاً وأحكاماً، حتى نجعل للطفل قاضياً من ذات نفسه، فيعلم متى يخالف قوله فعله، ومتى يوافقه. وهذا يحتاج إلى صبر ومصابرة ويتطلب وقوف الأم عند كل تصرفٍ خاطىء، تسأل ولدها هل ما فعلته يوافق آية كذا وآية كذا؟ فيستحي من الله وفي ذلك خيرٌ كثيرٌ إن شاء الله وذلك عندما تعاتبه بالقرآن.

٤ ـ من أدب القتال في الإسلام نستشف في العملية التربوية أدب الخصام، وتأنيب الطفل إذا اعتدى، ومتابعته في ذلك ليتربى على ذلك الخلق النبيل، وهذا هدي النبي ﷺ، وروى أحد الصحابة قائلاً، كنا نُعلّم الغزوات كما نُعلّم فاتحة الكتاب.

٥ ـ من الواجب التربوي تجديد الحديث عن المسجد الحرام وقصة بنائه وحرمته وتحريمه وعن الأشهر الحرم، فينضبط الطفل بضوابط نفسية. إنّ هذا الدين له أحكام وله مفاهيم، تنظم الحركة وتلامس المشاعر وتهذبها، فقصة تحريم الحرم أمر نفسي يُلقي الهيبة في القلوب فتتربى على الانضباط وأن لا عشوائية في الإسلام. ومن آثار هذه التربية، الإمساك بزمام

الأمور واستشعار الطفل أنه بحاجة إلى موجه، فيقف ليتلقى ويسأل كما وقف الصحابة الكرام يسألون ويبحثون.

٦ ـ من آداب القتال يُدرك الطفل بطريق غير مباشر عظمة الرسول ﷺ وخلقه الراقي مع أعدائه فيُعجب به، وهذا من متطلبات الإيمان بالرسول ﷺ. ويتعلم من مزاولة الصحابة لهذه الأخلاق أن الإسلام دين الرقي والحضارة الحقيقية، فتتراجع في نفسه قضية الإنبهار بالحضارة الغربية.

٧ ـ على المربين شرح معنى الفتنة من كل جوانبها، ففيها فوائد تربوية وزاد عظيم، وتحصين خلقي وتفتيح لملكة الفقه عند الإنسان، وهكذا تفتحتْ عقول سلفنا الصالح فهذا نضج علمه في الرابعة عشر وذاك جلس للفتوى في السادسة عشرة وهذا أُختبر في الحديث ولم يتعد الحادية عشرة... أفذاذ الأمة وُجدوا حين وُجد المربي الماهر الصادق مع الله ومع نفسه. ولكن الأمر لا يخلو من الجهد والمجاهدة حيث كان الوالدان ينفقان جُلَّ أموالهم على المؤدبين والمعلمين ليحصدوا الثمرة «**ولدٌ صالحٌ يدعو له**»[(١)].

٨ ـ بناءً على الفقرة السابقة يُدفع للطفل حسب مقدرته في حوالي العاشرة من العمر بعض المسائل الفقهية البسيطة وطريقة مدارسة الفقهاء لها، مثل قراءة المؤتم خلف الإمام، فيُعجب ويتشوق لدراسة الفقه ويعرف قيمة المجهود الفقهي الذي بين يديه، ثم يترسخ في ذهنه احترام العلماء، ثم الشعور بأنه لا يعلم شيئاً وأنه بحاجة للعلم. ويُدفع له حديث متواتر، ولكن في ألفاظه اختلافٌ بسيط ليدرك كيفية إحصاء الصحابة لهذا الاختلاف ويلاحظ الصدق والدقة والأمانة، فينبّه لذلك ويُقال له هؤلاء هم سلفك الصالح يا بني، بهذه الطريقة لا غير نوجد الطفل الواعي الذي يُشغل دقائق حياته كلها بالإسلام، والذي يتفكر دائماً بربه ودينه وكيانه الإسلامي. ونشغل الفترة الحرجة ـ سن المراهقة ـ في حياة الجيل بالفقه والتفسير ونحذره مما

---

(١) رواه الترمذي في كتاب الأحكام، رقم ـ ١٢٩٧ ـ.

يعده له أعداؤنا والمسؤولية الملقاة على عاتقنا، ونجعله يستشعر مواقف الآخرة.

هذه الأمور كلها تشكل شخصية الطفل، فيتجاوز ما يسمونها بفترة المراهقة بمثالية ذهبية، يتمناها كل مربي لمن يربيهم. بهذا الأسلوب وبهذه الطريقة تخرّج الجيل الفريد أمثال داوود الطائي ابن الست سنوات الذي كان يدور باحثاً وسائلاً بعد حفظه لسورة الإنسان، ما كان سعيهم يا أماه! ما كان سعيهم يا أبتاه! (يقصد عن معنى الآية ﴿وَكَانَ سَعْيُكُم مَّشْكُورًا ﴾ فتأمل!!

٩ ـ في سبب نزول الآية ﴿وَأْتُوا۟ ٱلْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَٰبِهَا ۚ ﴾ آدابٌ تربوية ومواقف:

أ ـ احترام الرسول ﷺ لعادات وُجدتْ ولا يوجد فيها نص ديني يمنع منها.

ب ـ حثه عليه الصلاة والسلام بالتزام أدب القوم، وسؤاله للصحابي لِمَ دخلتَ من الباب وأنت محرم؟ لْم يقل له لِمَ تقلّدني؟ لا، بل قال لِمَ غيَّرت عادات أهلك ودخلتَ من الباب وأنت محرم؟ هكذا أدَّبه ربه ففاض أدبه على من حوله ﷺ.

جـ ـ إليك الجواب الإيماني وثمرة التربية الصادقة، (رأيتك فدخلت من الباب دخلت على أثرك). فالمفهوم التربوي ما دمتُ شهدتُ أنك رسول الله فبمن أقتدي؟ بك أم بأهلي، ألستَ أحبَّ إليَّ من نفسي التي هي بين جنبيَّ، ألسنا نحن المأمورين باتباعك، ألسنا المحبين المقلدين، فقال رسول الله ﷺ: «**إني أحمسي**» يقر مفهوم عُرفي لم يتصادم مع الدين، قال الرجل: (إن كنت أحمسياً فأنا أحمسي). هكذا تكون المحاكمة فقد أبى الإيمان إلا أن يتكلم... ديننا واحد كيف نتبعك إلى الجنة، وقد فارقناك في الدنيا! فإن كنت أحمسياً فأنا أحمسي... فنحن وراءك لن نحيد قيد أنملة، ما أعظم وقع هذه الكلمات على العقول النظيفة، والقلوب الغضة

الندية! طريق الجنة واحد: قانونه رضيت بهديك وسمتك ودينك، ذكر سمتك قبل دينك لأن السمت يميل مع الهوى حيث مال، ولذلك قال عليه الصلاة والسلام «**لا يؤمن أحدكم حتى يكون هواه تبعاً لما جئت به**» والسمت هو الطريقة والهيئة، فأين سمت الإسلام؟ وأين سمت نساء النبي يا فتيات الإسلام؟ وأين سمت المرأة المسلمة يا أخوة الإسلام! يا من تفضّل الله عليك بالقوامة، لقد كشفت المرأة عوراتها ورسول الله ﷺ هديه الستر. وقصّرت ثيابها وضاقت بها ورسول الله ﷺ يلعن الكاسية العارية. وتزّينتْ في الشوارع وطرّزت الحجاب وصبّت عليه ألواناً وألواناً من الزينة والإغراء ورسول الله ﷺ قال: «**لا تمنعوا إماء الله مساجد الله، وليخرجن تَفِلاَتْ**(*)»(١).

لقد تغير السمت فتغير الديني. فكن إزاء هذه الكلمة على حذر وتذكر أيها الأخ بأنه «**لا يدخل الجنة ديّوث**»(٢) يرى المنكر في أهله ويسكت، وهل من منكر بين النساء أشد من تعدي حدود الله وكشف ما أمر الله بستره؟؟

١٠ ـ ﴿وَأَنفِقُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا تُلْقُوا۟ بِأَيْدِيكُمْ إِلَى ٱلتَّهْلُكَةِ﴾.

نستفيد أن من الأمانة وضع الأمانة في محلها وفي الوجهة التي ارتضاها الله عز وجل. والإنفاق له أولويات في الفقه. فمن معاني (في سبيل الله) الإنفاق على الجهاد وله الأولوية إلا إذا قُهر الباطل وانزوى وظهر الإسلام وغلب، فتظهر أولويات ثانية. أما في حالة غلبة الباطل وانزواء الحق واستباحة دماء المسلمين فالإنفاق على الجهاد هو الأولى، وهو الواجب. ومن غاب عنه هذا الفهم، سيندم يوم لا ينفع الندم.

(*) تفلات: أي لا يُلقى إليهن بال ولا تلفت النظر.

(١) رواه أحمد في كتاب مسند المكثرين، رقم ـ ٩٢٧٠ ـ.

(٢) رواه أحمد في كتاب مسند المكثرين من الصحابة رقم ـ ٥١١٧ ـ ونصه «ثلاثةٌ حرم الله عليهم الجنة: مدمن الخمر، والعاق، والديوث الذي يقر في أهله الخبث».

ونستفيد أنه لا يجوز للإنسان أن يأوّل آيات الله حسب فهمه، فقد ردهم عن ذلك الصحابي الجليل أبو أيوب الأنصاري ﷺ، وما نوعية هذه التربية التي خرّجت أبا أيوب! يذكّر الناس بأمر غاب عنهم: نحن معشر الأنصار فينا نزلت. يقف ليعترف بعلة تربوية ظهرت بينهم ونبههم إليها القرآن (تحادثنا سراً عن رسول الله) إنّ من عظمة الرجال أن يعترفوا بأخطائهم ومن عظمة العظماء أن يعترفوا بالفضل لمن رباهم ومن التقوى نصيحة الأمة وإن كانت على حساب النفس، ومن أجل ذلك رفعهم الله وأثنى عليهم في كتابه. إنّ إلغاء الذات ليظهر الدين وليفهم الناس، أمرٌ عسيرٌ على النفس فهو أول موقفٍ من مواقف الإخلاص.

١١ ـ إنّ ميزان الله له مقاييسه ومعاييره، فالذي يتبادر إلى ذهن الإنسان أن التهلكة في صرف المال لا في إدخاره. ولكننا أمةٌ متميزة حتى في مفاهيمها وأخلاقها وموازينها، فالموت في سبيل الله حياة والإنفاق في سبيل الله إدخار ودفع القروض لله عز وجل تجارة رابحة. وما صُرف في سبيل الله باقٍ، ومصداق ذلك عندما سأل رسول الله ﷺ عائشة عن شاة ذبحتها قالت: وزعتها وأبقيتُ الكتف، فصحح لها المفهوم عليه الصلاة والسلام، وقال: «**كلها قد بقى إلا كتفها**»(١). فالباقي ما وزعوه والفاني ما أكلوه، مفاهيم متميزة في عقول متميزة في جيلٍ رباني فريد لا يتذوق حلاوته إلا المحسنون، ترقّى بهم الإيمان إلى أعلى مراتبه فأحبهم الله وأحبوه ورضي الله عنهم ورضوا عنه، وما ذلك إلا لمن خشي ربه.

﴿وَأَتِمُّوا۟ ٱلْحَجَّ وَٱلْعُمْرَةَ لِلَّهِ ۚ فَإِنْ أُحْصِرْتُمْ فَمَا ٱسْتَيْسَرَ مِنَ ٱلْهَدْىِ ۖ وَلَا تَحْلِقُوا۟ رُءُوسَكُمْ حَتَّىٰ يَبْلُغَ ٱلْهَدْىُ مَحِلَّهُۥ ۚ فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوْ بِهِۦٓ أَذًى مِّن رَّأْسِهِۦ فَفِدْيَةٌ مِّن صِيَامٍ أَوْ صَدَقَةٍ أَوْ نُسُكٍ ۚ فَإِذَآ أَمِنتُمْ فَمَن تَمَتَّعَ بِٱلْعُمْرَةِ إِلَى ٱلْحَجِّ فَمَا ٱسْتَيْسَرَ مِنَ ٱلْهَدْىِ ۚ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَٰثَةِ أَيَّامٍ فِى ٱلْحَجِّ وَسَبْعَةٍ إِذَا رَجَعْتُمْ ۗ تِلْكَ عَشَرَةٌ كَامِلَةٌ ۗ ذَٰلِكَ لِمَن لَّمْ يَكُنْ أَهْلُهُۥ حَاضِرِى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿١٩٦﴾ ٱلْحَجُّ أَشْهُرٌ

---

(١) رواه أحمد في كتاب باقي مسند الأنصار، رقم ـ ٢٣١٠٧ ـ.

مَعۡلُومَٰتٞۚ فَمَن فَرَضَ فِيهِنَّ ٱلۡحَجَّ فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِي ٱلۡحَجِّۗ وَمَا
تَفۡعَلُواْ مِنۡ خَيۡرٖ يَعۡلَمۡهُ ٱللَّهُۗ وَتَزَوَّدُواْ فَإِنَّ خَيۡرَ ٱلزَّادِ ٱلتَّقۡوَىٰۖ وَٱتَّقُونِ يَٰٓأُوْلِي
ٱلۡأَلۡبَٰبِ (١٩٧) لَيۡسَ عَلَيۡكُمۡ جُنَاحٌ أَن تَبۡتَغُواْ فَضۡلٗا مِّن رَّبِّكُمۡۚ فَإِذَآ
أَفَضۡتُم مِّنۡ عَرَفَٰتٖ فَٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ عِندَ ٱلۡمَشۡعَرِ ٱلۡحَرَامِۖ وَٱذۡكُرُوهُ كَمَا
هَدَىٰكُمۡ وَإِن كُنتُم مِّن قَبۡلِهِۦ لَمِنَ ٱلضَّآلِّينَ (١٩٨) ثُمَّ أَفِيضُواْ مِنۡ حَيۡثُ
أَفَاضَ ٱلنَّاسُ وَٱسۡتَغۡفِرُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ (١٩٩) فَإِذَا قَضَيۡتُم
مَّنَٰسِكَكُمۡ فَٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ كَذِكۡرِكُمۡ ءَابَآءَكُمۡ أَوۡ أَشَدَّ ذِكۡرٗاۗ فَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن
يَقُولُ رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِي ٱلدُّنۡيَا وَمَا لَهُۥ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ مِنۡ خَلَٰقٖ (٢٠٠) وَمِنۡهُم مَّن
يَقُولُ رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِي ٱلدُّنۡيَا حَسَنَةٗ وَفِي ٱلۡأٓخِرَةِ حَسَنَةٗ وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ
(٢٠١) أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ نَصِيبٞ مِّمَّا كَسَبُواْۚ وَٱللَّهُ سَرِيعُ ٱلۡحِسَابِ (٢٠٢) ۞ وَٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ
فِيٓ أَيَّامٖ مَّعۡدُودَٰتٖۚ فَمَن تَعَجَّلَ فِي يَوۡمَيۡنِ فَلَآ إِثۡمَ عَلَيۡهِ وَمَن تَأَخَّرَ فَلَآ إِثۡمَ عَلَيۡهِۖ
لِمَنِ ٱتَّقَىٰۗ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّكُمۡ إِلَيۡهِ تُحۡشَرُونَ (٢٠٣)﴾.

المفردات:

الإحصار: المنع والحبس بسبب المرض أو العدو. **النسك**: الذبيحة.

الهدي: ما يُهدي إلى بيت الله من الذبائح. **الرفث**: الجماع ودواعيه.

أفضتم من عرفات: دفعتم بشدة نحو المزدلفة. **جناح**: إثم أو ذنب.

المشعر الحرام: مكان الموقف في مزدلفة. **خلاق**: نصيب.

الجدال: هو المراء مع الرفقاء والخدم، والمعنى تجنب كثرة الكلام فيما لا ينفع.

محله: الموضع الذي يحل نحر الهدي فيه وهو الحرم، أو مكان ما حبس المحرم الذي يسوق الهدي.

فسوق: المعاصي بشكل عام، ومنه التنابز بالألقاب، واختار ابن جرير، أنّ الفسوق هنا هو ارتكاب ما نهي عنه في الإحرام.

الدراسة التربوية:

وأتموا الحج والعمرة لله، فالأهلة ومواقيت الحج والحج إلى المسجد الحرام، كلها أحكام يتعلق بعضها ببعض، فالمؤمن الذي يؤدي هذه الشعيرة التعبدية محرماً مسلماً، وهو نفسه الذي يجاهد ويردّ العدوان، ويحمل الخير لكل الناس. وللحج أحكام تفصيلها في مراجع الفقه. وقد رويت مناسك الحج عن النبي ﷺ كما علمه إياها جبريل عليه السلام. وعلى ما ذكر أنّ الحج فرض في السنة التاسعة للهجرة، وكان رسول الله ﷺ قد أرسل أبا بكر الصديق رضي الله عنه أميراً على الموسم ونزلت سورة براءة فأرسل عليه الصلاة والسلام علياً لتبليغ البراءة والنذارة. وبذلك ثبتت ركنية الحج في السنة العاشرة وحجَّ رسول الله ﷺ، وكانت حجة الوداع المشهورة... والحج أقرّه الإسلام في مكة وقبل الهجرة حيث أن آيات سورة الحج قد ذكرت معظم شعائر الحج وهي سورةٌ مكية. وكان النّاس يؤدون هذه الفريضة متفرقين حتى ثبتت ركنية الحج... والحج ركن الآداب والصبر والتعارف والتجرد لله رب العالمين، والطاعة والامتثال مع ضيق المكان وزحمة العباد ولذلك سماه رسول الله ﷺ من مسمّيات الجهاد وأنواعه، فعن عائشة رضي الله عنها قالت: (يا رسول الله نرى الجهاد أفضل العمل أفلا نجاهد؟) قال: «**لا لكن أفضل الجهاد، حجٌّ مبرور**»(١).

ذلك لأن الجهاد يحتاج إلى بذل جهدٍ ومال وكذلك الحج، غير أن الحج صورة مصغرةٌ عن يوم الحشر، وله مردودٌ تربوي فرديٌ واجتماعي. فهو يُزيل الطبقية العرقية ويذيب العنجهيات الجاهلية ويقيم الناس سواسية لله رب العالمين، وتربيةٌ فردية حيث تُضبط فيه الغرائز، فلا رفث، حين تكون الزوجة قريبة المنال، ولا فسوق وهي المعاصي كبيرها وصغيرها، ولا جدال فهو التدريب العملي على تزكية المشاعر، والإرتقاء في مدارج الإحسان، فالزحام موجود والمضايقات شديدة، ولكن ما أجمل تعانق الآيات القرآنية، والإرشادات النبوية «**لا تغضب**» وقوله ﷺ: «**ليس الشديد بالصرعة، لكن**

---

(١) رواه البخاري في كتاب الحج، رقم ـ ١٤٢٣ ـ.

الشديد الذي يملك نفسه عند الغضب»[1]. وللحج فوائد جمّة... ومنها اجتماع المسلمين في الحج فهو بمثابة التفقد والكشف السنوي، ففيه يلتمس حال المسلمين من وعيٍ وجهلٍ ونقطة ضعفٍ، فينشط المسلمون ليتعارفوا فيما بينهم ويسدوا الثغرة ويقاربوا الخطوة وينهضوا بالأمة الإسلامية.

وللحج زادٌ ماديّ من طعام وشراب، وهذا لا يتنافى مع التوكل على الله، (وكان قومٌ من اليمن يحجون ولا يتزوّدون، يقولون نحن المتوكلون، فإذا قدموا مكة، سألوا الناس، فأنزل الله ﴿وَتَزَوَّدُواْ ﴾)[2]. والحج عبادةٌ بدنيةٌ مالية، فلا يجوز فيه الاتّكال على أحد. ومن درس فقه الحج عند الأئمة الأربعة، وجد أنّ الحج يربّي أمّة، فمن الزاد المطلوب التقوى والتحرّج من كل ما يجرح الحج ويحبط العمل. ولذلك لا يحج الحاج حتى يتفقّه في أحكام الحج، لأن العمل الكثير يُحبطه الخلل البسيط. فإبليس كان يعلم وعاش مع الملائكة ولُعن بترك السجدة، وأُخرج آدم من الجنَّة بلقمةٍ تناولها، وأُدخلتْ النار امرأة في هرةٍ حبستها، وحُجب ابن آدم قابيل عن الجنة بكف دم، ولذلك وصّى علي بن أبي طالب ﷺ وصيته الحكيمة (حيثما كنت فكن قرب فقيه) لأن الفقيه غير الشيخ وغير المحدِّث، وعند الفقيه تُلتمس الفتوى وتُدرس الأحكام. قال عبد الله بنْ مسعود ﷺ: (الأتقياء سادة، والفقهاء قادة). وزاد الصبر في الحج لا يضاهيه زاد.

فالنظام والانقياد والطاعة والإيثار كله محاطٌ بآيةٍ واحدة ﴿وَمَا تَفْعَلُواْ مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمْهُ ٱللَّهُ ﴾ فعِلْم الله وإحاطته بالخلائق جزاءٌ قبل الجزاء، فهو تربية روحٍ وعقلٍ وجارحة، من ذا الذي يحصي على العباد أفعالهم في مثل هذا الخضَم الهائل من الأجساد البشرية؟ ومن يعلم صدق توجههم؟ كم من طائفةٍ وكم من ساعٍ وكم من يدٍ تسترحم وكم من دمعةٍ تُذرف وكم من لسانٍ يرجو وكم من عقلٍ يتفكر في طاعة خليل الرحمن وهو يضع هاجر

(١) صحيح البخاري، رواه أبو هريرة، رقم ـ ٥٦٤٩ ـ.

(٢) أسباب النزول للواحدي.

وابنها إسماعيل في وادٍ غير ذي زرع، وكم مبتلى يستصغر صبره بجنب صبر إسماعيل على الوثاق وحدّ السكين، وكم من عابدٍ يضحك من هزره بجنب طاعة الخليل بذبح ابنه، أين صبر إبراهيم؟ وأين عزيمة الأتقياء؟ وأين بر الأبناء الأنبياء في وضع الرقبة على المذبح راضياً غير مكره؟ ﴿يَٰٓأَبَتِ ٱفْعَلْ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾[1] وأين استسلام المؤمنات الصالحات لأمر الله؟ كيف أقدم إبراهيم على تحدي الشيطان واستعلى عليه... وكم مرة سقطنا؟ وزيّن لنا الشيطان أعمالنا فالتمسنا لأنفسنا المخارج الفقهية؟؟ كل هذه الخواطر تتزاحم هناك، فتفوق تزاحم البشر. في الحج ضيقٌ في المكان وسعةٌ في الأفق تّتسع لجولات العتاب ووثبات النفوس اللّوامة، حيث تحفى القدم بعد انتعال، وتنهمر الدموع بعد تماسك وتشرئب الأعناق فترى إبراهيم عليه السلام وقد أضجع الفتى وأحكم الوثاق وسنّ السكين وضجَّتْ السماء وجلجل جبريل عليه السلام أنْ صدّقت الرؤيا يا إبراهيم؟؟ ونزل الذبح وكان الفداء العظيم. فالأمر أكبر من تزاحم الأجساد وعقيم الجدال، بل الأمر أمر امتداد قرونٍ ودهور يُحييها المسلمون في كل عام، يمارسون دروس الطاعة والصبر ويتفكرون بمكر العدو الغرور فيرجمونه بحصيّات ويعقدون العزم بالتمرد على الشيطان، ويجددون الثقة بوعد الله عز وجل ﴿إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ﴾[2]. يطوفون بالبيت العتيق، ويتحرقون على الأقصى الأسير... ويبتهلون بالدعاء على عدو الإنس اللعين... يهود الذين غضب الله عليهم ولعنهم وأعدّ لهم العذاب الأليم. فالحجُ درسٌ في العبادة ومقوّماتها ودرسٌ في المفاصلة مع الشيطان، ودرسٌ بوحدة هذه الأمة وتوحيد هدفها ووجهتها ﴿إِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَأَنَا۠ رَبُّكُمْ فَٱعْبُدُونِ ﴿٩٢﴾﴾[3].

﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَبْتَغُوا۟ فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ﴾ وتتوالى

(١) سورة الصافات: ١٠٢.

(٢) سورة الإسراء: ٦٥.

(٣) سورة الأنبياء: ٩٢.

الآيات وتتنزّل الرحمات، حيث رقّت المشاعر وخفقت القلوب متحرّجة من خلط العبادة بطلب الرزق، فكما روى البخاري عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: (كانت عكاظ ومجنّة وذو المجاز أسواقاً في الجاهلية، فتأثّموا أن يتجروا في الموسم فنزلت ﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَبْتَغُوا۟ فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ ۚ﴾). وفي رواية عن أبي أمامة التيمي قال: قلت لابن عمر رضي الله عنهما: (إنا نكري فهل لنا من حج؟ قال: أليس تطوفون بالبيت؟ وتأمرون بالمعروف؟ وترمون الجمار؟ وتحلقون رؤوسكم؟ قال: قلنا: بلى، فقال ابن عمر: جاء رجل إلى النبي ﷺ فسأله عن الذي سألتني عنه، فلم يجبه حتى نزل جبريل عليه السلام بهذه الآية وقال: ﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَبْتَغُوا۟ فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ ۚ﴾)[1]. وسبب تحرّجهم أنها أيام ذكر، فأرشدهم الله عز وجل إلى أن الذكر والتماس الرزق والتفكر والعبادة كلها عجلةٌ واحدة ما دام المحور هو الله عز وجل، غير أن هناك تنظيماً للعملية من حيث الوقت والأعمال ﴿فَإِذَآ أَفَضْتُم مِّنْ عَرَفَـٰتٍ فَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ عِندَ ٱلْمَشْعَرِ ٱلْحَرَامِ ۖ وَٱذْكُرُوهُ كَمَا هَدَىٰكُمْ وَإِن كُنتُم مِّن قَبْلِهِۦ لَمِنَ ٱلضَّآلِّينَ ثُمَّ أَفِيضُوا۟ مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ ٱلنَّاسُ وَٱسْتَغْفِرُوا۟ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٩٩﴾﴾ فالعبادة جماعية... وأكّد الله فيها روح الجماعة فصيغة الجمع في الأفعال: تبتغوا، وأفضتم، فاذكروا، ثم التعقيب على ذلك كله بأفيضوا توحي بأنه لا مكان للشاذ عند الله ولا للمعتزل. وصدق علي كرم الله وجهه إذ قال: (كدر الجماعة ولا صفو الفرد) فالمسلم وجوده بوجود جماعة المسلمين، ومطلوبٌ منه أن يكون في الطائفة المختارة، القائمة على الحق، لا يضرها من خالفها حتى تقوم الساعة. والإفاضة من عرفات هي من تمام الحج لقوله ﷺ «**الحج عرفة**» قالها ثلاثاً.

وقال: «**من شهد صلاتنا هذه، ووقف معنا حتى ندفع، وقد وقف بعرفة قبل ذلك ليلاً أو نهاراً، فقد أتم حجه، وقضى تفثه**»[2]. **المجالدة**

---

(١) أسباب النزول للواحدي.

(٢) رواه الترمذي عن عروة الطائي في كتاب الحج، رقم ـ ٨١٥ ـ.

والمصابرة والثبات والتجرد والإخلاص والإخاء ولزوم الجماعة والوفاء بالعهد والميثاق، كله من معاني الإيمان بالله. وما أجمل يقظة المسلم في إدراك دقائق هذه المعاني! فقد قال رسول الله ﷺ: «**الحج عرفة**» ولكن لا بد للحج من طوافٍ وسعي ومبيت في منى ووقوف بعرفة ودفع إلى المزدلفة ثم طوافٌ وتحلل، ومن هذه الأعمال ما هو ركنٌ أو واجبٌ أو سنة، وكذلك الإسلام من قال: لا إله إلا الله محمدٌ رسول الله دخل الجنة، ولكن أين المعنى وأين المدلول؟ وللمرأة في كل عبادة فرائض وخصوصيات، تساوي الرجال في التكليف، وتفارقهم في التنفيذ، ومرجع ذلك في المراجع الفقهية.

﴿وَٱذْكُرُوهُ كَمَا هَدَىٰكُمْ وَإِن كُنتُم مِّن قَبْلِهِۦ لَمِنَ ٱلضَّآلِّينَ﴾ فالجمع اليوم جمع ذكرٍ وشكر واعتراف بفضل الله، لا جمع تعال وتباين. وما التجرد من الثياب إلا بعض هذه المعاني. فالموقف واحد... وفيه التجرد من الجنس واللون والفقر والغنى، فكما هو في موقف الحج سيكون يوم الحشر. ولكن هناك مفارقات... ففي الدنيا يستطيع الحاج أن يتميّز عن إخوانه ويستأثر بمظاهر العظمة فيتنعّم وهم يشقون، ويتفرّد وهم يزدحمون. أما في الحشر فلا يملك لنفسه شيئاً وإذا كانت المرأة لا تتجرد من ثيابها في الدنيا، لكن في الآخرة هي والرجل سواء.

والجميع حفاةٌ عراة، لا ينفعهم يومئذٍ إلا زادٌ ادَّخروه، أو دعوةٌ استودعوها في ظهر الغيب ﴿رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِي ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي ٱلْءَاخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ﴾ إنه الإسلام، دين التوحيد والتكريم، يعلّم البشرية التواضع دون تذلل ولا استخذاء. ففي الجاهلية كانت قريش تسمي نفسها الحمس، وتقف في مزدلفة في حين يقف الناس في عرفات. أما بعد البعثة، فلا فوارق في الإسلام ولا طبقية، ففي الهدي النبوي الناس سواسية، وفي الأدب الرباني ﴿أَفِيضُواْ مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ ٱلنَّاسُ﴾ وقفوا مع الناس، وانصرفوا مع الناس، واستغفروا مع الناس ما دمتم لا تملكون المغفرة دونهم، فلا فضل لأحدٍ على أحد. اليوم موقفٌ يُرفع فيه المستضعفون، ويُنتصر فيه للمظلومين ولو بعد حين... ثم تعقب الآيات على ناحية مهمة في حياة المسلم، ذلك أنّ الحج موسم لأداء ركن من أركان الإسلام

لا تنتهي العبادة بانتهائه، فإذا ما حصلت المغفرة وتمت المناسك فإلى لقاء مع الله في الحج القادم. كلا، إن الله عز وجل هيأ ملفاً جديداً يفتحه بقوله ﴿فَإِذَا قَضَيْتُم مَّنَاسِكَكُمْ﴾ أي أعمال حجكم، ﴿فَاذْكُرُوا اللَّهَ كَذِكْرِكُمْ آبَاءَكُمْ أَوْ أَشَدَّ ذِكْرًا﴾ إنها مشاعر تلامس العاطفة... فالحاج البعيد يبقى ذاهلاً عن أهله وولده حتى يقضي حجه فيعود إلى حنين الأهل والأحباب، فجاء التوجيه التربوي بأن ذكر الله لا ينتهي ولا يُقدم عليه أحد، وحذار أن تكون من الصنف الذي يقول: ﴿رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلَاقٍ﴾ فلا حظ له ولا نصيب، ولكن اجتهد أن تكون في صف السعداء الذين يقولون: ﴿رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ أُولَٰئِكَ لَهُمْ نَصِيبٌ مِّمَّا كَسَبُوا وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴿٢٠٢﴾﴾ والعبد بحاجة إلى مثل هذه الشحنات الربانية لكيلا ينتكس بعد جهد ويخبو بعد إشراقة المغفرة والأمل، فكما أن الإيمان يزيد وينقص، وكذلك هناك نفحاتٌ ربانية يرى الإنسان من نفسه تجاهها إقبالاً، فلا يدعها تفوته، وإذا وجد في نفسه تقاعساً فليشحذ الهمم حتى يرتفع، ولا يحق لمسلم أن يعيش لدنياه فقط والآخرة هي ربيعه وأنسه ومستقره.

ففي صحيح مسلم ورد أن رسول الله ﷺ عاد رجلاً من المسلمين قد صار مثل الفرخ، فقال رسول الله ﷺ: «**هل تدعو الله بشيء، أو تسأله إياه؟**» قال: نعم، كنت أقول اللهمّ ما كنت معاقبي به في الآخرة فعجله لي في الدنيا، فقال رسول الله ﷺ: «**سبحان الله لا تطيقه أو لا تستطيعه، فهلا قلت: ربنا آتنا في الدنيا حسنة، وفي الآخرة حسنة، وقنا عذاب النار**» قال: فدعا به فشفاه الله[1].

والعبور من الدنيا إلى الآخرة مؤقت ولا يصح لمؤمن أن يعتبر الدنيا دار قراره فيقطع كل الحبال إلا حبلها، فهذا لا يحق له ولا بحالٍ من الأحوال. وإنما هي معبر فالمؤمن يُعبّده ويصلحه ويستخرج خيراته يسلمها لمن بعده، وهذا من العمل الصالح في الدنيا الذي يخلفه وراءه ويجني ثوابه

---

(١) رواه مسلم في كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار، رقم - ٤٨٥٣ -.

أمامه ليعيش حسنة الآخرة ويفوز بالوقاية من النار. والله وجهنا لاستقصاء حسنات الدنيا وذلك بالعمل الصالح والسير في الأرض لنبقى روادها وأساتذتها، يسلم بعضنا لبعض الراية، والله لا يضيع أجر من أحسن عملاً. وأما من كانت الدنيا معبراً لينال منه شهواته ورغباته، فكل توسع فيها محسوب وكل شيءٍ مكتوب، وبهذا يقول الله عز وجل ﴿وَكُلَّ إِنسَٰنٍ أَلْزَمْنَٰهُ طَٰٓئِرَهُۥ فِى عُنُقِهِۦ ۖ وَنُخْرِجُ لَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ كِتَٰبًا يَلْقَىٰهُ مَنشُورًا ﴿١٣﴾ ٱقْرَأْ كِتَٰبَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ ٱلْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا ﴿١٤﴾﴾[1]. فالدعاة يُسلّم بعضهم لبعض عجلة قيادة الدعوة، يعمرون الدنيا ويُحيون القلوب، وأما المحسوبية الفردية فهي العقبات على الطريق. ومن عَرُضت عليه دنياه دقَّ عليه الصراط، ومن ضاقت عليه دنياه عَرُض عليه الصراط. فالأنبياء والصحابة والتابعون بإحسانٍ إلى يوم الدين لم يركنوا إلى الدنيا، بل أخذوا منها بقدر ما يعينهم على بلوغ الآخرة، وهذا يختلف من زمن إلى زمن. أما مبتغاهم فكان رضاء الله والجنة وهذا لا يختلف ولا يتغير ولا يتبدل وقد حقق الله على أيديهم الخير الكثير حيث وصل الإسلام إلى الأندلس وإلى حدود الصين، وازدانت الجامعات بأنوار الإسلام وأسباب الحضارة فأضاءت ظلمات الآخرين. وعندما شغلتنا الدنيا أظلمت القلوب، وأُطفئت أنوارنا واستُبيحت دماؤنا وظهرت الفتن بيننا، وابتُلي الدعاة والمصلحون وأصبحنا في حالٍ يُحزن الصديق ويُفرح العدو، فكُذِّب الصادقون وخُوِّن الأمناء وأُبعد الأكفاء، والله بصير بالعباد.

الفوائد التربوية:

١ ـ إن كل عمل من أعمال العبادة إذا شرع فيه العبد فعليه إتمامه، وإنما الأعمال بخواتيمها، فمن الإتمام أداء أعمال الحج في أشهر الحج، ومن الإتمام الوقوف بالمزدلفة بعد الدفع من عرفات، ومن الإتمام أن لا تكون الإفاضة من عرفات إلا بعد غروب الشمس، ومن الإتمام حسن الخلق

---

(١) سورة الإسراء: الآيات ١٣ ـ ١٤.

في الحج، فلا رفث أو جدال أو فسوق في الحج، ومن الإتمام الاستغفار والدعاء وكثرة الذكر وكذلك الإقامة في منى، ومن الإتمام أن من نوى عمرةً أو حجاً وفاته شيء من إتمامها أو جُرح إحرامه بشيءٍ يُبطل حجة فيُتم ثم يقضي من قابل أي في العام القادم وإنّ الله يحب إذا عمل أحدكم عملاً أن يتقنه.

٢ ـ في الحج تدريب للمؤمن على الطاعة وامتثال الأمر دون نقاش، وتدريب عملي على حسن الخلق والصبر وتغيير العادات.

٣ ـ إيقاظ الحس المسلم حتى يلوم صاحبه ويحك لا تبطل حجك... واحرص أن تعود بحجٍ مبرور، وسعي مشكور، وذنبٍ مغفور.

٤ ـ الحج عبادة بدنية فالمفروض فيه الاعتماد على النفس... وفيه فوائد تربوية منها: أن يساعد الإنسان الناس ولا يطلب المساعدة، ويُعين ولا يطلب المعونة، ويُعطي ولا يأخذ لأن الحج عبادة مالية، والإحرام يهذب النفس ويصعد بها في مدارج التقوى، وفيه تقريبٌ لمظهر الحشر.

٥ ـ وما تفعلوا من خيرٍ يعلمه الله... قاعدة تربوية يستفيد منها المربون في توجيه الجهد والمجاهدة والعلم لله عز وجل، وهذا الخلق يُوجه إليه الصغير ليعمل دون التطلع إلى الجزاء، ويعلّم أن يخلص النية لله ويكون على ثقة بأن الله علم بعمله وادّخره له ليجزيه عليه، فتعظم ثقته بالله عز وجل فيصبح عمل الخير عنده سجيةً وطبعاً.

٦ ـ التحرج من العادات دليل ومؤشر على تمام الإيمان وصدق المشاعر. فتوقف الصحابة عند التجارة مستأذنين، وتوقفوا عند الصفا والمروة لأنهم سعوا بينهما في الجاهلية، فهذا الإحساس العجيب هو أحد ثمار الإيمان.

٧ ـ الدقة في الإتباع حيث يرسم الله لهم معالم الرحلة كاملة... كيف يفيضون من عرفات وأين يقفون، ومتى يرجمون، وماذا يقولون، وفيمن يتفكرون، ويلمس مشاعر الغربة والبعد فيذكرهم بذكر الآباء والأهل، وأن ذكر الله أوجب. إنها تصوير لملامح الإنسان الربّاني وتجسيم لملامح

الاستسلام الكامل لله عز وجل وارتفاع بالمؤمن ليشكر الله على نعمة الهداية والبعد عن الضلال، فمن آثار شكر نعمة الهداية أن يحرص عليها ولا يضيّعها ويستشعر فضل الله عليه بأنّه ما نالها بسعيه، وإنما بتوفيق الله له «**من يرد الله به خيراً يفقهه في الدين**»[١] فيأتي التوفيق حسب صدق التوجه الباطني... وهذا بعض مراد القرآن ربط الباطن بالظاهر.

٨ ـ يُعرّفنا الله في الحج أنّه يكره الطبقية ويمقت فوارق العصبية الجاهلية. فجعل الناس أمة واحدة، سواسية كأسنان المشط، فيتجردوا من كل ما يميّزهم حتى يعجوا إلى الله ليرحمهم ويغفر لهم، ولكن بعض الناس أبوا إلا أن يترفعوا ويتميزوا وظهرت الفوارق في الحج واضحة، ولكن تبقى رحمة الله ومغفرته لا يحدها حدود ولا تحكمها الفوارق.

٩ ـ التوازن أمر مطلوب، فعلى المؤمن أن يطلب حسنة الدنيا وحسنة الآخرة ليعمّر الدنيا بالأعمال الصالحة، ويعمّر الآخرة بالإخلاص وابتغاء وجه الله. فإذا به رجلٌ صالحٌ أينما حلّ ترك أثراً صالحاً. والتقوى زاد للصعود في مدارج الكمال.

﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُعْجِبُكَ قَوْلُهُۥ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيُشْهِدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا فِى
قَلْبِهِۦ وَهُوَ أَلَدُّ ٱلْخِصَامِ ﴿٢٠٤﴾ وَإِذَا تَوَلَّىٰ سَعَىٰ فِى ٱلْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ
ٱلْحَرْثَ وَٱلنَّسْلَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلْفَسَادَ ﴿٢٠٥﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُ ٱتَّقِ ٱللَّهَ أَخَذَتْهُ ٱلْعِزَّةُ
بِٱلْإِثْمِ ۚ فَحَسْبُهُۥ جَهَنَّمُ ۚ وَلَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ ﴿٢٠٦﴾ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشْرِى نَفْسَهُ
ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ رَءُوفٌۢ بِٱلْعِبَادِ ﴿٢٠٧﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱدْخُلُوا۟ فِى
ٱلسِّلْمِ كَآفَّةً وَلَا تَتَّبِعُوا۟ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ ۚ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٢٠٨﴾
فَإِن زَلَلْتُم مِّنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْكُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ فَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٠٩﴾
هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن يَأْتِيَهُمُ ٱللَّهُ فِى ظُلَلٍ مِّنَ ٱلْغَمَامِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَقُضِىَ ٱلْأَمْرُ ۚ وَإِلَى
ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ ﴿٢١٠﴾ سَلْ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ كَمْ ءَاتَيْنَٰهُم مِّنْ ءَايَةٍۭ بَيِّنَةٍ ۗ وَمَن يُبَدِّلْ نِعْمَةَ
ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُ فَإِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٢١١﴾ زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا

(١) صحيح الجامع، رقم ـ ٦٦١١ ـ.

وَيَسْخَرُونَ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ فَوْقَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَٱللَّهُ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ
حِسَابٍ ﴿٢١٢﴾ كَانَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً فَبَعَثَ ٱللَّهُ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ
ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ فِيمَا ٱخْتَلَفُواْ فِيهِ وَمَا ٱخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا ٱلَّذِينَ أُوتُوهُ
مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ فَهَدَى ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لِمَا ٱخْتَلَفُواْ فِيهِ مِنَ
ٱلْحَقِّ بِإِذْنِهِۦ وَٱللَّهُ يَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٢١٣﴾ أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُواْ
ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ ٱلَّذِينَ خَلَوْاْ مِن قَبْلِكُم مَّسَّتْهُمُ ٱلْبَأْسَآءُ وَٱلضَّرَّآءُ وَزُلْزِلُواْ حَتَّىٰ
يَقُولَ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ مَتَىٰ نَصْرُ ٱللَّهِ أَلَآ إِنَّ نَصْرَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ ﴿٢١٤﴾﴾.

المفردات:

الخصام: الخصومة وهو حب الشر.

المهاد: الفراش.

يفسد في الأرض: بتفريق كلمة المسلمين.

يشري: يبيع.

أخذته العزة بالإثم: اعتز بالباطل الذي هو فيه.

فحسبه: يكفيه.

السلم كافة: الإسلام في كل شئون حياتك.

بغياً: ظلماً.

زللتم: ابتعدتم عن الاستقامة.

البأساء: ظلماً.

ظلل: جمع ظلة وهي ما يستر من الشمس.

الضراء: السقم.

الألد: الأعوج. فيكون المعنى أنَّ المنافق في حال خصومته يكذب ويفتري ويضجر.

زلزلوا: من الزلزلة وهي التحريك بشدة.

الدراسة التربوية:

قال السدي: نزلت ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُعْجِبُكَ قَوْلُهُۥ ...﴾ في الأخنس بن شريق، أقبل إلى النبي ﷺ إلى المدينة، فأظهر له الإسلام، وأعجبَ النبي ﷺ ذلك منه، وقال: إنما جئت أريد الإسلام والله يعلم إني لصادق، ثم خرج من عند النبي ﷺ فمرَّ بزرع قوم من المسلمين وحُمر، فأحرق الزرع وعقر الحمُر فأنزل الله فيه ﴿وَإِذَا تَوَلَّىٰ سَعَىٰ فِى ٱلْأَرْضِ لِيُفْسِدَ

فِيهَا وَيُهْلِكَ ٱلْحَرْثَ وَٱلنَّسْلَ﴾[1].

إنّ المألوف لدى البشر أن الناس صنفان، ذكرٌ وأنثى، وكل ذرة في هذا الكون مؤلفة من سالبٍ وموجب، غير أن القلوب في تصنيف العليم الخبير ثلاثة، وكذلك تصنيف الآخرة يعتمد الثلاثة، فالناس بين مؤمنٍ صادقٌ باذلٌ نفسه في مرضات الله، وكافرٌ معاند جاحد لا يرجو لله وقاراً، وصنفٌ ثالث يجعل شخصه محور الحياة كلها، وهنا يسلط الله عليه الضوء ويكشف المخبوء، هذا المخلوق يتحدث فيصور لك نفسه خلاصةً من الخير والإخلاص والتجرد والرغبة في إفاضة الخير على الناس، هذا الذي يعجبك حديثه وتعجبك ذلاقة لسانه، وتُحبّب إليك نبرة صوته، ثم يتمثّل لك بحركاتٍ ودمعات يُشهد الله على ما في قلبه من خشيةٍ وخشوع زيادةً في التأثير والإيحاء، وتوكيداً للتجرد والإخلاص وهو ألد الخصام. تزدحم نفسه باللدد والخصومة، هذه هي بعض شخصية الصنف الخصم، الذي يتناقض ظاهره وباطنه، هذا الذي يُتقن الكذب والتمويه والتمثيل حتى إذا جاءت المحن ظهر المخبوء وانكشف المستور ـ والله لا يخفى عليه شيء ـ انكشف أمره لأهل البصر والبصيرة، وفي ذلك قول الرسول ﷺ: «**اتقوا فراسة المؤمن فإنه ينظر بنور الله**»[2]، ويمضي السياق يوضّح معالم هذه الصورة المتكررة، فهي ليست صورة الأخنس يَخدع رسول الله ﷺ فحسب، بل هي صورة مكرورة أصبحت تمثل الأغلبية، وإذا كان الأخنس تولّى فَحَرق الزرع وعقر الحمر، فألدُّ اليوم تولّى فأتقن تلبيس الباطل بالحق، فانحرف بالأمة وأشعل نار الفتن وسخّر السذّج ليعظّموه ويبجّلوه، وهذه غاية مراده «حب الظهور» والوصول على أي كتفٍ. وإذا قيل له اتق الله، ذكرى ينتفع بها كل مؤمن أما هو فتأخذه العزة بالإثم، فيتعاظم الأمر عليه أن يُخطَّأ أو يُوجَّه إليه نصح لأنه يستشعر الفوقية على الناس، ويستشعر فيهم الدونية، إنها لمسة تستكمل ملامح الصورة التي أصبحت تمثل الكثرة في الأرض. ولعل أسوأ

(١) أسباب النزول للواحدي.

(٢) رواه الترمذي، في كتاب تفسير القرآن، رقم ـ ٣٠٥٢ ـ.

صورها في المتقمصين شخصية الدعاة فأولئك حسبهم جهنّم ولبئس المهاد، وكما ورد في صحيح البخاري عن عائشة رضي الله عنها أن النبي ﷺ قال: «**إنّ أبغض الرجال إلى الله الألدُّ الخصم**»[1]. ولذلك كان عمر ﷺ يختبر عليم اللسان سنة فإذا تساوى مظهره ومخبره استعان به وإلا فلا.

إنّ اللدود الخصم اليوم تجلّى في صورة ناصحٍ يُنفّذ ما لا يستطيع أعداء الله تنفيذه، يتباكى في الذكر، يسلّ سيفه مدافعاً عن الدين، يقود الأمة كما يقود الراعي ركب الغنم، يلعب بأعصابها حتى يجعلها مبهورة بما عنده، فلا ترى إلا إياه، ولا تُنفذ إلا ما يراه. والتعقيب على هذا يرسم خطةٌ للمسلم الداعية فحسبه جهنم أي لا تشغل نفسك به، فإنما هو على الساحة ليحزنك ويشغلك ويفوّت الفرص عليك، وفي كثير من الآيات يأمرنا الله بالإعراض عنهم ﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ حَسِيبًا﴾ وكفى بجهنم مضافةً ومهاداً. ثم يعرض الله عز وجل النموذج الآخر لأن من أساليب التربية المقارنة بين الخير والشر، ﴿**أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۗ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿١٠٧﴾**﴾ ويشري هنا بمعنى يبيع، فقد باع النفس وسلّمها لله ولم يستبق منها شيء ولا يرجو من وراء بيعها إلا مرضاة الله، وقد ذكر أنها نزلت في صهيب بن سنان الرومي ﷺ، ذلك لما أسلم بمكة وأراد الهجرة ليلحق بالنبي ﷺ فمنعوه من ذلك، فقالوا: أتهاجر وتنجو بنفسك ومالك فلا، فقال: أفرأيتم لو تركت مالي وكل متاعي أتخلون سبيلي؟ فقالوا: نعم، فترك كل شيء وتجرّد من كل ما يملك وخرج مهاجراً إلى الله ورسوله، فتلقّاه النبي ﷺ وهو يقول: «**ربح البيع أبا يحيى، ربح البيع أبا يحيى**»[2]. وسواءً أكانت الآية قد نزلت في صهيب ﷺ، أو أنها تنطبق عليه، فهي أبعد من أن تكون حادثة عابرة، إنها ترسم ملامح نموذج من البشر موجود الآن وفي كل آن، إنها نماذج الطائفة القائمة على الحق، التي بايعت محمداً ﷺ على الموت ما حيت أبداً، بايعت كل إمام تجرّد

---

(١) كتاب المظالم والغصب، رقم - ٢٢٧٧ -.

(٢) أسباب النزول للواحدي.

لهذه الدعوة بعد أن انفضّ الناس عنها، بايعت كل من فتح صدره وقال: أنا لها، هذه الطائفة لا تُخدع إذا خُدع الناس ولا تُفتن إذا فُتن الناس، ولا يُعمّى عليها الحق لأنها أهله وحاميته، يُحارب الحق فيها فيُعذب رجالها وتُقتل فتياتها وتُصابر نساؤها ويعيش اليتم أطفالها، إنهم رأسمال هذه الدعوة.

وفي ظلال هذين النموذجين؛ تأتي الدعوة من الله بالنداء الحاني ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱدْخُلُوا۟ فِى ٱلسِّلْمِ كَآفَّةً﴾، أي في الإسلام جميعاً، وأول مفاهيم هذا الدخول؛ أن يستسلم المؤمنون بكليّاتهم لله في ذوات أنفسهم، في الصغيرة والكبيرة في السر والعلن في المنشط والمكره، وفي العسر واليسر، إنّها صحة العلاقة بين الخالق العظيم والكون المخلوق بمن فيه، وبين الكون والإنسان، هذا الإنسان الذي خلقه الله قصداً، لم يتركه سدى إنّه مهيأ لظروف حياته، مهيأ لحمل الأمانة التي عجزت عنها الجبال والسماوات والأرض، مهيأ للتلقي والفهم، مكلفٌ بالعبادة والعبودية لله رب العالمين. تربطه روابط الود والأُنس مع هذا الكون، وروابط السيادة مع هذه الأرض، وروابط الإخاء والإيمان مع أخيه الإنسان، وروابط الرحمة مع الحيوان، وروابط الإحسان مع الخلائق أجمعين، ودائماً في الهدي الرباني يكون الإنسان على مفترق طرق، فإما إلى السلم كافة، وإما وراء خطوات الشيطان، ولن يستقيم دون عوج إلا بالتوازن، فإما الإسلام أو الكفر وإما الهدى أو الضلال، والوسط هو التوازن، لأن الإسلام هو الوسطية فلا غلو النصارى ولا تفريط اليهود، والميل مع الشيطان يبدأ بزلة قدم، والزلة هي زحزحة بسيطة قد لا تكون بالجسم كله وإنما تبدأ بالقدم كما قال الله عز وجل في موضع آخر ﴿فَتَزِلَّ قَدَمٌۢ بَعْدَ ثُبُوتِهَا﴾[1]، فالمؤمن معرَّضٌ للزلة، ولكن يردّها بالاستغفار والانتباه، ولا يتبعها بحركة لأنَّ معالم ما بعد الزلة هي مواقع خطوات الشيطان، والأمر يبدأ بخطوة، ومعظم النار من مستصغر الشرر، فلذلك

---

(١) سورة النحل: ٩٤.

كان التحذير لأنّ الأمر حسّاس ودقيق وهو مما استهان به البشر اليوم، يزلّون ويتتبعون خطوات الشيطان، ولكنهم سادرون يأملون مغفرة الله وعفوه. ولو نظرنا في أسباب نزول الآية لفهمنا المراد قال ابن عباس رضي الله عنهما نزلت هذه الآية في عبد الله بن سلام وأصحابه، وذلك أنهم حين آمنوا بالنبي ﷺ وصدقوا بالقرآن أرادوا أن يجمعوا العمل بشرائع محمد ﷺ، وشرائع موسى عليه السلام، فعظّموا السبت، وكرهوا لحمان الإبل وألبانها بعدما أسلموا، فأنكر ذلك عليهم المسلمون، فقالوا: إنا نقوى على هذا وهذا، وقالوا للنبي عليه السلام إن التوراة كتاب الله فدعنا فلنعمل بها، فأنزل الله هذه الآية[1] ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱدۡخُلُواْ فِي ٱلسِّلۡمِ كَآفَّةٗ﴾.

فالآية نزلت تُخفّف العنت عنهم، وتُقيم شعور الاستسلام والاتّباع المطلق، والإنسان لا يستطيع التخبّط بين شريعتين، فكيف بمن يتخبط بين الحق المبين المنزّل من قِبَل الله والمحفوظ بحفظه، والضلال الذي كتبوه بأيديهم ثم قالوا هو من عند الله. إنّ الحيدة عن الشرع لأيِ كان يتنافى مع الدخول في السلم كافّة، والإسلام يحترم العهود، والشهادتان عهد... فكيف تعاهدون رسول الله ﷺ، ثم تتبعون كتاب موسى عليه السلام؟ إنّ العهد كان مسؤولاً، ومن لا يُدرك المعنى والمغزى من الآيات، يُلوّح له الله بالقوة ويحذره النقمة، ﴿فَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾. يعظّمون شرع الله فيعزّهم الله سبحانه وتعالى، ويحكّمون شرع الله فيرفع لهم ذكرهم وقد نزّله عليهم بحكمته. ﴿فَإِن زَلَلۡتُم مِّنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَتۡكُمُ ٱلۡبَيِّنَٰتُ فَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ٢٠٩﴾، ولن يهب الله العزة والحكمة لأحدٍ حتى يدخل في السلم كافّة، وهو الإسلام كله، عقائد، وعبادات، وشعائر، ومنهج حياة. ففي العقائد يقيم الإسلام مجتمعاً تذوب فيه الأجناس والأوطان واللغات والألوان، ويحقّق فيهم ﴿إِنَّمَا ٱلۡمُؤۡمِنُونَ إِخۡوَةٞ﴾[2]. يُقيم فيهم الآداب ﴿وَإِذَا

(١) أسباب النزول للواحدي.

(٢) سورة الحجرات: ١٠.

حُيِّيتُم بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّوا۟ بِأَحْسَنَ مِنْهَآ أَوْ رُدُّوهَآ﴾[1] ﴿وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمْشِ فِى ٱلْأَرْضِ مَرَحًا ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴿١٨﴾﴾[2] ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُونُوا۟ خَيْرًا مِّنْهُمْ وَلَا نِسَآءٌ مِّن نِّسَآءٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُنَّ خَيْرًا مِّنْهُنَّ ۖ وَلَا تَلْمِزُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ وَلَا تَنَابَزُوا۟ بِٱلْأَلْقَٰبِ ۖ بِئْسَ ٱلِٱسْمُ ٱلْفُسُوقُ بَعْدَ ٱلْإِيمَٰنِ ۚ وَمَن لَّمْ يَتُبْ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿١١﴾﴾[3] ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱجْتَنِبُوا۟ كَثِيرًا مِّنَ ٱلظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ ٱلظَّنِّ إِثْمٌ ۖ وَلَا تَجَسَّسُوا۟ وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا ۚ أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ تَوَّابٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢﴾﴾[4]. يقيم الإسلام مجتمعاً نظيفاً لا تشيع فيه الفاحشة ولا تروج فيه الفتنة ولا ينتشر فيه التبرج ولا ينطلق فيه سعار الجنس وهوس الكسب وجمع المال، وعندما يدخل الناس في السلم كافّة، يعمُّ الأمن وتُحفظ الحريات وتُصان الكرامات إنّها بعض معالم المجتمع المسلم، وكلما تحقق الإسلام أكثر كلما نصعت الصورة وتكامل الإبداع.

إننا نفتقد هذا المجتمع، ونتطلّع إليه متحسرين نتمنى أن يعود ولكن لا بدّ من تحقيق الأُمنيات بالعمل والمجهود والتربية وبالتوجه الصادق إلى الله وإخلاص النيات لتطيب الثمار ويكرمنا الله ويهدي أولادنا ويهدي بنا وبهم.

فالطريق واضح، والدعاة يعملون، لكن النفوس العاتية لا تؤمن حتى ينزل الله في ظللٍ من الغمام والملائكة. عندئذٍ يؤمن الناس ويرعوون ويومئذٍ لا ينفع الإيمان، ولا يُقبل الفداء، ذلك يومٌ ﴿لَّا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ وَقَالَ صَوَابًا﴾ وقضي الأمر، وانتهى الموقف وحق الوعيد. إن مجيء هذه الآية بعد الأمر بالدخول في الإسلام كافَّة نوعٌ من التهديد وإعذارٌ بتبيان الحال في نهاية المطاف. وأن الإنسان لا يقدر على شيء فخيرٌ له أن يُسلم

---

(١) سورة النساء: الآية ٨٦.

(٢) سورة لقمان: الآية ١٨.

(٣) سورة الحجرات: الآية ١١.

(٤) سورة الحجرات: الآية ١٢.

ويستسلم... فالموقف عسير والمشاهد مؤلمة... فالميزان دقيقٌ وحساس غير الميزان، والنار غير النار، وجنود ربك غير جنود الدنيا ﴿وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ﴾، فلا نجاة إلا بالإسلام والاستسلام والانقياد والاتباع.

﴿سَلْ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ كَمْ ءَاتَيْنَٰهُم مِّنْ ءَايَةٍۭ بَيِّنَةٍ ۗ وَمَن يُبَدِّلْ نِعْمَةَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُ فَإِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٢١١﴾﴾.

والأسلوب التربوي تارةً يُلقن وأخرى يقرّر، ومرة يفتح المجال للتفكر والسؤال... وتجربة بني إسرائيل ليست منهم ببعيد. فقد زلت أقدامهم وعميت بصيرتهم وبدّلوا نعمة الهداية ونعمة النبوة والرسالة كفراً وعصياناً، ثم تطاولت أيديهم إلى الهداة المرسلين، وشهد الله عليهم أنهم قتلة الأنبياء، ومضت سنة الله في الظالمين، فنزع منهم شرف القيادة وباؤوا بغضبٍ من الله وذاقوا مهانة المسخ، وألبسوا رداء الذل. وقد يتساءل متسائل: ما أسباب الزلل؟ وما هو الدافع لتبديل نعمة الله؟ السبب هو الدنيا وزينتها والمتاع الباطل فيها، والكبر الموجود في قلوب الكافرين ما يجعلهم يحتقرون أهل الإيمان ويتكبّرون عن متابعتهم. وحسب الجاهلون أن مهاجمة المؤمنين تقضي على الإسلام، فقاطعوهم وحاربوهم وهم مستكبرون، لا يعلمون بأنهم يقاطعون الله ويحاربون الدين. لقد توارثوا الجهل الأعمى كابراً عن كابر. قالوا: لنرجمنّكم، وقالوا: لنخرجنّكم، وقالوا: لنسجننّكم، ونقطع أيديكم وأرجلكم من خلاف. وقالوا: ﴿لَا تُنفِقُوا عَلَىٰ مَنْ عِندَ رَسُولِ ٱللَّهِ حَتَّىٰ يَنفَضُّوا﴾[1]. هذه الهجمات توارثوها جيلاً بعد جيل يحسبون أن القضاء على المسلمين قضاءً على الإسلام، وغاب عنهم أن الإسلام شعلة الله في الأرض، لن تنطفىء ولن يطفئوها، حتى يُقضي الأمر ويأتي الله في ظللٍ من الغمام، وإذا بهم قائمون بين يديه بالجرم المشهود.

فهذه يهود بدّلت نعمة الله فنالت خزي الدنيا وما ينتظرهم في الآخرة أشد وأقوى، وما علوهم في الأرض اليوم إلا بأمر الله، وهو عقابٌ لنا

---

(١) سورة المنافقون: الآية ٧.

عندما استبدلنا شرع الله بأنظمة مستوردة تارة مكشوفة، وتارةً مستورة. والمهم أن التبديل قد حصل، فكان عقابه علو يهود في الأرض ليزيدهم الله طغياناً، ويعذبنا بأن يُذيق بعضنا بأس بعض، ويمحّص الإيمان في قلوبنا، ويثبّت الله من يثبت، وينقلب من ينقلب ﴿وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ ٱللَّهَ شَيْـًٔا﴾[1] وبعلو يهود انحسر الحق، وضلّت المجتمعات، وأصبح القطيع البشري في حالة تثير الشفقة عليه، وظهرت فيهم مظاهر الشذوذ الصارخ والتكشف الفاضح. القلق طعامهم والحيرة شرابهم والحيوانية مبدؤهم، لا يقومون إلا كالذي يتخبّطه الشيطان من المس. بهؤلاء يقع التبديل، وعلى أيديهم تندثر المجتمعات، وبهم يمنع القطر من السماء... ولكن صمّام الأمان في الإسلام هو وجود المستغفرين، ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾[2].

فالطائفة المختارة التي من أجلها تستمر الشعلة الإيمانية هي حزب الله الذي لا يغيب لأنهم الحماة في الدنيا وهم الملوك في الآخرة، والذين اتقوا فوقهم يوم القيامة... يوم توضع الموازين الحق ويوم يُساق الفضل لأهله هم ثلةٌ من الأولين وقليلٌ من الآخرين، فثباتهم في الدنيا هو سبب بقاء هذا الدين، ومن أجلهم تولّى الله حفظ وحيه وسنة نبيه لأنهم الحرّاس الأمناء وعنهم يدافع الله وبهم يُباهي الملائكة، ومنهم يَتخذ الشهداء. وهم أهل الله وخاصته وهم ورثة الأنبياء، فهم متميّزون أبداً، والسخرية والاستهزاء لا تزيدهم إلا يقيناً وإيماناً، والأثرة عليهم لا تزيدهم إلا توكلاً وإحساناً، ونفيهم وتعذيبهم وحرمانهم يزيدهم عزيمة ويغمرهم لذة لا يعرفها إلا المتقين، وقتلهم يدخلهم في ظلال رحمته، إنهم ربيو الأنبياء... توقفت سلسلة النبوة، فتوارثوها وامتدت بهم حتى يلقوا الله... وهناك على الصراط وعند الميزان وفتح أبواب الجنان، يظهر هؤلاء، فهم نجوم الدنيا، وملوك الآخرة، منهجهم واحد وإن اختلفوا فالخلاف واقع باختلاف الفهم

---

(١) سورة آل عمران: الآية ١٤٤.

(٢) سورة الأنفال: ٣٣.

والاستعدادات، يختلفون ولا يتفرّقون، يتخاصمون ولا يتسابون، يدهم واحدة وإن لفحتها الشمس فغيرت لون بعضها عن بعض، باحثين عن الحق أبداً، شعارهم حسبنا الله ونعم الوكيل نعم المولى ونعم النصير، فالله وليهم وهو ناصرهم، والله يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم.

إن الاختلاف المشؤوم يُفرّق ويُذهب الريح، ﴿وَلَا تَنَٰزَعُواْ فَتَفۡشَلُواْ وَتَذۡهَبَ رِيحُكُمۡ﴾(١). وقد اختلف اليهود والنصارى فعمّى الله عليهم الخير وهو يوم الجمعة وهدانا إليه، يقول أبو هريرة ﷺ: قال رسول الله ﷺ: «**نحن الآخرون الأولون يوم القيامة، نحن أول الناس دخولاً الجنة بيد أنهم أوتوا الكتاب قبلنا، وأوتيناه بعدهم، فهدانا الله لما اختلفوا فيه من الحق بإذنه، فهذا اليوم الذي اختلفوا فيه، فهدانا الله له، فالناس لنا فيه تبع فغداً لليهود، وبعد غد للنصارى**»(٢). وبهذا يكون كل ما اختلف فيه الناس تبيانه في كتابنا الكريم وشرعنا الحنيف، ولذلك فالطريق واحد. . . إيمانٌ وجهاد، ومحنة وابتلاء، وصبر وثبات، وإخاء واجتماع(*)، وتوجه إلى الله وحده، ثم إحدى الحسنيين النصر أو الشهادة.

الفوائد التربوية:

١ ـ أخرج ابن جرير عن نُوف البكالي، وكان ممن يقرأ الكتب قال: أني لأجد صفة ناس من هذه الأمة في كتاب الله المنزل. قومٌ يحتالون على الدنيا بالدين، بألسنتهم أحلى من العسل، وقلوبهم أمر من الصبر، يلبسون للناس مسوك (أي جلود) الضأن، وقلوبهم قلوب الذئاب، يقول الله تعالى: (**فعليَّ يجترؤون، وبي يغترون، حلفت بنفسي لأبعثنَّ عليهم فتنة تترك الحليم حيران**)(٣). قال القرطبي: تدبرتها في القرآن فإذا هم المنافقون فوجدتها:

---

(١) سورة الأنفال: ٤٦.

(٢) أخرجه البخاري ورواه أحمد في كتاب باقي مسند المكثرين رقم ـ ٧٣٨١ ـ.

(*) لزوم الجماعة.

(٣) رواه الترمذي عن أبي هريرة في كتاب الزهد، رقم ـ ٢٣٢٨ ـ.

﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُعۡجِبُكَ قَوۡلُهُۥ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا﴾ وهـذا نـتـيـجـة خـلـلٍ فـي التربية:

١ ـ عندما يتلقّى الدين بطريقة لا تشعره الخوف والمهابة من الله عز وجل.

٢ ـ عدم المتابعة تجعل فوارق بين المظهر والمخبر.

٣ ـ حب الظهور آفة تظهر في الفتاة أكثر من الفتى، وفي كلاهما تحتاج إلى تقليم وتحجيم من قبل المربّين، لئلا يكون الحصاد المر فيما بعد.

٢ ـ يجب أن يعوّد الطفل والكبير وكل ما يخضع للعملية التربوية، سماع التقويم والتقريع والنصح، حتى تنكسر شوكة الكبر في نفسه، ويستقر في النفس أن من العظمة أن تُسمَّع النفس ما تكره، وهذا عمر ﷺ يقول: رحم الله امرءاً أهدى إليَّ عيوبي، ويجلس على المنبر فيحمد الله ويثني عليه ثم يقول: أيها الناس هل تعلمون أن عمراً كان فتى يرعى غنيمات لخالاته على دراهم يسد بها رمقه، ثم اتخذّ لنفسه صنماً من عجوة فلما جاع أكله، ثم أسلم ورضي عنه رسول الله ﷺ، ثم كان مع أبي بكر ﷺ حتى قضى، حتى إذا حمل ما حمل وقام بأمر المسلمين. فبكى وأبكى، وقال: يا ليت أمّ عمر لم تلد عمر، فقيل ما حملك على ذلك يا أمير المؤمنين؟ قال: أعجبتني نفسي فأردت أن أذكرها بأيام الله.

٣ ـ صفة البذل صفة مشرقة، فيجب تعويد الأطفال أن يخيّروا عند الإنفاق بين دينهم وشيءٍ محبب إليهم، ويُوجَهوا لاختيار دينهم وتفضيله عن الأهل وعن كل محبب، وهذا التفضيل ثمرة طبيعية للمجهود الذي بُذل في تركيز حب الله في النفس منذ السنين الأولى من عمر الطفل، حيث تُرَدُّ كل نعمةٍ إلى الله عز وجل، وكل عقابٍ إلى الأم لأن الطفل لا يدرك قدر الله وعظيم نعمه، فيَحْدُث في نفسه انفصام وخلل بسبب الأسلوب التربوي الخاطىء بتخويف الطفل دون السابعة، بالنار، وأن الله سيحرقه بناره، ويقطع لسانه إلى آخر العبارات التي تستعين بها الأمهات في تخويف الأطفال.

فكيف يبذل الطفل بعد هذه العبارات لربٍ يحرق ويعذِّب؟ وكما ذُكِرَ سابقاً أن السنوات السبع الأولى في عمر الطفل هي روابط حب عظيمة وعميقة بين الخالق والمخلوق، وقصتها وحبكتها في سيرة الرسول ﷺ مع الحسن والحسين، ومع أهل بيته وصحابته وتابعيه بإحسان.

٤ ـ يجب أن يعوّد الطفل أن يحيا بالإسلام، وأن يمارس دينه سراً وعلانية دون اختلاف، ويُعوَّد الأطفال مراقبة بعضهم، ويعوَّدون النصيحة الودية وصدق الحديث، والسلوكيات الحسنة في غيبة الوالدين، ومراعاة الآداب، والأخلاق، ويجب أن لا يُسامح الطفل على التصنّع وإبداء المواقف المغايرة للحقيقة أمام الناس، ثم يترك بعد ذلك دون توجيه، وهذه تحتاج إلى متابعة دقيقة من سن السابعة إلى الثانية عشر تقريباً، وبهذا نكون قد قضينا على بذرة النفاق في نفسه.

٥ ـ استهجان كل ذنب مهما كان صغيراً، وتنبيه الطفل إلى نظر الله إليه، وكيف الموقف بين يدي الله! وكيف بعتاب رسول الله! فترق مشاعره، ويحس بالضعف أمام قدره الله.

٦ ـ تعويد الطفل الاستغفار والشعور بالذنب والتقصير نسبةً لكمال الله عز وجل، وهذا لا يعني أنه إذا أدى العبادات وأتقنها أن لا يُثنى عليه، لا بل يُشكر ويشجّع وينال الهدايا ولكن يوجّه ليدعو ويرجو الله أن يتقبّل عمله حتى يلازمه إحساس حاجته لله عز وجل، وأن الله غنيٌ عن العالمين. والموقف كله يحتاج إلى فهم وتوازن وإيحاء بمحبة الله، وأن من آثار محبة الله توفيق العبد للأذكار واجتناب الحرام واختيار صاحب الخير.

٧ ـ تعميق بغض اليهود، وربط اختيارهم الأدنى على الذي هو خير في الحياة العملية (في اختيارهم الفوم والعدس وما تنبت الأرض على المن والسلوى).

٨ ـ إيقاظ حس الطفل وفكره ليميز بين ما هو زينة وترف وغير ضروري، وبين ما هو ضروري ويجب الحصول عليه، وتشنيع موقف الكبر والاستهزاء بالناس، وأن التفاضل لا يكون إلا بالتقوى.

٩ - يُلقَّن أدب الخلاف وعدم التعصب للرأي والنزول عند الحق والاحتكام إلى الله ورسوله وأن يكون هدفه رضاء الله. ويُعوَّد الدعاء دائماً بهذا المأثور (اللهم أرنا الحق حقاً وارزقنا اتباعه، وأرنا الباطل باطلاً وارزقنا اجتنابه).

١٠ - يعوّد الصبر وحمد الله على كل حال سواءً أمام المرض أو الفقر أو أي محنة. وللمربي في سيرة الرسول ﷺ خير مرجع لأنّ الدنيا بالنسبة لنا ممر وطريق.

١١ - ويحفَّظ الطفل ويفهَّم أن الطريق إلى الله واحد، يبدأ بالإيمان وينتهي بالجنة، ولهذا الطريق مستلزماتٌ سبعة من قام بها نال الثمرة:

إيمانٌ وجهاد، ومحنة وابتلاء، وصبر وثبات، وتوجه إلى الله وحده. ثم الفوز بإحدى الحسنيين النصر أو الشهادة. والجهاد لا يقتصر على السيف فقط وإنّما كل عملٍ صالح فهو جهد وجهاد.

﴿يَسْـَٔلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَۖ قُلْ مَآ أَنفَقْتُم مِّنْ خَيْرٍ فَلِلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِۗ وَمَا تَفْعَلُوا۟ مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِهِۦ عَلِيمٌ ﴿٢١٥﴾ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْۖ وَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْۖ وَعَسَىٰٓ أَن تُحِبُّوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٢١٦﴾ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلشَّهْرِ ٱلْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِۖ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌۖ وَصَدٌّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَكُفْرٌۢ بِهِۦ وَٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِۦ مِنْهُ أَكْبَرُ عِندَ ٱللَّهِۚ وَٱلْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ ٱلْقَتْلِۗ وَلَا يَزَالُونَ يُقَٰتِلُونَكُمْ حَتَّىٰ يَرُدُّوكُمْ عَن دِينِكُمْ إِنِ ٱسْتَطَٰعُوا۟ۚ وَمَن يَرْتَدِدْ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُو۟لَٰٓئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢١٧﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱلَّذِينَ هَاجَرُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أُو۟لَٰٓئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَتَ ٱللَّهِۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢١٨﴾ ۞ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِۖ قُلْ فِيهِمَآ إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَآ أَكْبَرُ مِن نَّفْعِهِمَاۗ وَيَسْـَٔلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ قُلِ ٱلْعَفْوَۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١٩﴾ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِۗ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْيَتَٰمَىٰۖ قُلْ إِصْلَاحٌ لَّهُمْ خَيْرٌۖ وَإِن تُخَالِطُوهُمْ فَإِخْوَٰنُكُمْۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ ٱلْمُفْسِدَ مِنَ ٱلْمُصْلِحِۚ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَأَعْنَتَكُمْۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ

حَكِيمٌ ﴿٢٢٠﴾ وَلَا تَنكِحُوا۟ ٱلْمُشْرِكَـٰتِ حَتَّىٰ يُؤْمِنَّ ۚ وَلَأَمَةٌ مُّؤْمِنَةٌ خَيْرٌ مِّن مُّشْرِكَةٍ وَلَوْ
أَعْجَبَتْكُمْ ۗ وَلَا تُنكِحُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ حَتَّىٰ يُؤْمِنُوا۟ ۚ وَلَعَبْدٌ مُّؤْمِنٌ خَيْرٌ مِّن مُّشْرِكٍ وَلَوْ
أَعْجَبَكُمْ ۗ أُو۟لَـٰٓئِكَ يَدْعُونَ إِلَى ٱلنَّارِ ۖ وَٱللَّهُ يَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱلْجَنَّةِ وَٱلْمَغْفِرَةِ بِإِذْنِهِۦ ۖ وَيُبَيِّنُ
ءَايَـٰتِهِۦ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٢٢١﴾ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْمَحِيضِ ۖ قُلْ هُوَ أَذًى فَٱعْتَزِلُوا۟
ٱلنِّسَآءَ فِى ٱلْمَحِيضِ ۖ وَلَا تَقْرَبُوهُنَّ حَتَّىٰ يَطْهُرْنَ ۖ فَإِذَا تَطَهَّرْنَ فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ
ٱللَّهُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ وَيُحِبُّ ٱلْمُتَطَهِّرِينَ ﴿٢٢٢﴾ نِسَآؤُكُمْ حَرْثٌ لَّكُمْ فَأْتُوا۟ حَرْثَكُمْ أَنَّىٰ
شِئْتُمْ ۖ وَقَدِّمُوا۟ لِأَنفُسِكُمْ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّكُم مُّلَـٰقُوهُ ۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢٢٣﴾ وَلَا
تَجْعَلُوا۟ ٱللَّهَ عُرْضَةً لِّأَيْمَـٰنِكُمْ أَن تَبَرُّوا۟ وَتَتَّقُوا۟ وَتُصْلِحُوا۟ بَيْنَ ٱلنَّاسِ ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ
عَلِيمٌ ﴿٢٢٤﴾ لَّا يُؤَاخِذُكُمُ ٱللَّهُ بِٱللَّغْوِ فِىٓ أَيْمَـٰنِكُمْ وَلَـٰكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا كَسَبَتْ قُلُوبُكُمْ ۗ وَٱللَّهُ
غَفُورٌ حَلِيمٌ ﴿٢٢٥﴾ ﴾.

المفردات:

اللغو: الكلام الساقط لا قيمة له. **يرجون**: يأملون ويطمعون.

الميسر: القمار وهو الكسب من غير كدٍ ولا تعب. **حبطت**: بطلت.

إثم: ذنب وهي اسم من أسماء الخمر. **صد**: منع.

العفو: الفضل والزيادة. **كره**: تكرهه نفوسكم.

أعنتكم: من العنت وهو الجرح والمشقة. **عرضة**: مانع.

الحرث: الزرع والمقصود به موضع الولد.

أمة: المملوكة بملك اليمين (يدفع ثمنها بغير تحديد أجل).

المحيض: دم الحيض الذي تبلغ به الفتاة سن البلوغ والتكليف.

الخمر: المسكر ومنه المخدرات وكل ما فعل فعله، والدخان مفتّر وكل مفترٍ مسكر.

يرتدد: يرجع، والردة هي الرجوع عن الإيمان إلى الكفر، والمرتد في الشرع سماه الرسول ﷺ المفارق للجماعة.

الدراسة التربوية:

إنّ الإنفاق أمرٌ حثت عليه الآيات بأسلوب سؤال الصحابة. . . ماذا يُنفقون؟ حيث الإنفاق ضرورة لقيام الجماعة المسلمة، وضرورة للتكافل والتضامن بين أفراد الجماعة. والحث على الإنفاق أمرٌ واردٌ ومحبب، فسؤال الصحابة ماذا يُنفقون؟ فيه تصوير لدقة الحساسية التي بلغت بمشاعر الجماعة المسلمة وهم يسألون ويتحرّون حتى تُقبل الأعمال وتُحرّر لله رب العالمين، والسؤال عندما يكون في قوام التشريع دليل عافية وشفافية، أما السؤال عندما يكون لتجميع المعلومات، والتجميع بالقيل والقال فهذه المهلكة. وقد سألوا فجاءهم الجواب. . . ﴿قُلْ مَآ أَنفَقْتُم مِّنْ خَيْرٍ فَلِلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ ۗ وَمَا تَفْعَلُوا۟ مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِهِۦ عَلِيمٌ﴾ ولهذا التعبير إيحاءان، الأول: أن الإنفاق خير. . . خيرٌ للمعطي وخيرٌ للآخذ وخيرٌ للجماعة، أما الطريقة: فللوالدين فما من خير إلا وحثَّ الله عز وجل أن يكون للوالدين منه نصيب وافر، لأن حقهم لا ينقضي، وجميلهم لا يقدر، فهم العصب وهم الرحم وهم الأصول، ويبيّن الإسلام فقه الأولويات، وكما ذكر النبي ﷺ في صحيح مسلم عن جابر بن عبد الله رضي الله عنه، أن النبي ﷺ قال لرجل: «**إبدأ بنفسك فتصدق عليها، فإن فضل شيء فلأهلك، فإن فضل شيء عن أهلك فَلذِي قرابتك، فإن فضل عن ذي قرابتك شيء فهكذا هكذا**»(1). إنه منهج الإسلام الحكيم الذي يرتقي بالنفس الإنسانية خطوة خطوة، يتدرج منذ الطفولة المبكرة، حركة فحركة، ويوماً بعد يوم، حتى يؤتي ثماره ويستوي العود.

إنِ توازن الإسلام يلبي الفطرة والميل البشري، ويُنمي الحياة ويرقيها، فلا يقودها بالسلاسل، بل يدفعها دفعاً ليناً وصعوداً هيناً. القدم على الأرض، والبصر معلّق بالسماء، علّمهم أن يجودوا بالخير وبما في اليد بينما القلب وجلٌ على حصول الأجر والثواب والعين ترد الطرف حياءً من الله، لأنها تعلم أنّ الإنسان لو أنفق ملء الأرض ذهباً ما أدّى شكر الله المنعم

(1) رواه مسلم عن جابر بن عبد الله في كتاب الزكاة، رقم ـ ١٦٦٣ ـ.

المتفضِّل. وسَمَت النفس البشرية حتى استحت أن تذكر ماذا أنفقت، وتأدّبتْ بعدم المن والأذى... إنها أخلاقيات الإسلام التي لن تطّالها البشرية ولا تحلم بها إلا في ظل ربٍ ودود وتشريع حكيم من لدن خبيرٍ عليم. إن صاحب المال يدفع ماله لأخيه الفقير وهو يدعو له أن ينتفع بهذا المال، ويحمدَ الله الذي يسَّر له من يأخذ زكاته ونفقته وهذا دليل على القبول إن شاء الله، وعن جابر ﷺ قال: جاء رجل بمثل بيضة من ذهب فقال: يا رسول الله أصبت هذه من معدن فخذها فهي صدقة، ما أملك غيرها، فأعرض عنه رسول الله ﷺ، ثم أتاه من قِبل ركنه الأيمن، فقال ذلك، فأعرض عنه، ثم أتاه من قِبل ركنه الأيسر، فقال مثل ذلك فأعرض عنه، ثم أتاه من خلفه فقال مثل ذلك، فأخذها منه، وحذفه بها، فلو أصابته لأوجعته، وقال: «**يأتي أحدكم بما يملك فيقول: هذه صدقة، ثم يقعد يتكفف الناس، خير الصدقة ما كان عن ظهر غنى**»[1]. وعن أبي هريرة ﷺ عن النبي ﷺ أن قال: «**إن ملكين ينزلان من السماء صبيحة كل يوم، فيقول أحدهما: اللهم أعطِ منفقاً خلفاً، ويقول الآخر: اللهم أعطِ ممسكاً تلفاً**»[2]. وعن عبد الله العامري قال: أتيت النبي ﷺ وهو يقرأ ﴿أَلْهَىٰكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ ۝١﴾ قال: «**يقول ابن آدم: مالي مالي قال: وهل لك يا ابن آدم من مالك إلا ما أكلت فأفنيت، أو لبست فأبليت، أو تصدقت فأمضيت**»[3]. فالأمر ليس أمر مال لأن المال أصلاً مال الله ﴿وَلِلَّهِ خَزَآئِنُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ وهو القادر أن يُغني عباده أجمعين، ولكن الأمر أمر تربية وانخلاع من أغلى ما يملك رجاء ثواب الله وحتى يتخلص من داء يطمس القلب، ويهلك النفس، داء الشح والحرص!! إنّ حب المال غريزة تجري في ابن آدم مجرى الدم، ولكن الإسلام يهذبها بالإيثار.

إنّ أَخذْ القريب من قريبه خيرٌ من أن يأخذ من البعيد لأن في ذلك

---

(1) أخرجه أبو داود في كتاب الزكاة، رقم ـ ١٤٢٥ ـ.

(2) رواه البخاري في كتاب الزكاة، رقم ـ ١٣٥١ ـ.

(3) رواه مسلم في كتاب الزهد والرقائق، رقم ـ ٥٢٥٨ ـ.

تعضيد لروابط الأسرة، وتنمية لمشاعر الحب والشعور بالمسؤولية، ثم يترقّى به الإسلام من القرابة إلى الروابط المعنوية فيدرك أن إخوانه في الدين الذين هم بُعده الإسلامي وقاعدته هم رصيده في اليسر والعسر، فيدور الجميع في محور صاحب الفضل العظيم ـ الرّزاق ذي القوة المتين ـ ما أجمل هذه الروابط الإنسانية التي ما عرف التاريخ لها مثيلاً إلا في ديار المسلمين! وبهذه المبادىء نفَّذ المسلمون فريضة الجهاد، فإن تقاعست النفس عن الاستجابة لأمر الله هذّبتْ، وعوتبتْ، ورغّبت حتى يُحبب إليها الأمر وتجود بكل نفيسٍ وغال في سبيل الله، وهذا ما نقلته لنا الآثار، ومنه موقف عبد الله بن رواحة ﷺ يوم مؤتة بعدما استشهد زيد أخذ الراية منه جعفر فقطعت يداه ثم أقبل عبد الله بن رواحة ﷺ فوجد في نفسه تردد فقال مخاطباً لها:

يا نفس إلا تُقتلي تموتي ... هذا حياض الموت قد صُلِيتِ
وما تمنّيت فقد لَقِيتِ ... إن تفعلي فعلها فقد هُدِيتِ
وإن تأخرت فقد شُقّيت

ثم قال: يا نفس إلى أي شيءٍ تتوقين، إلى فلانه ـ امرأته ـ فهي طالق، وإلى فلان وفلان ـ غلمان له ـ فهم أحرار، وإلى معجف ـ حائط له ـ فهو لله ورسوله ثم قال: يا نفس مالك تكرهين الجنة! أقسم بالله لتنزلنّه طائعة أو لتكرهنّه، فطالما كنت مطمئنة، هل أنت إلا نطفة في شنة، قد أجلب الناس وشدّوا الرنة[1]. ثم دخل بين الصفين حتى استشهد.

ولو نتابع سير الصحابة الكرام، لرأينا عجباً، ولتملكتنا الدهشة! هل نحن حيال عالم من البشر، أم أننا نسبح في بحر الأمنيات، كلا والله إنهم صحب محمد ﷺ. لقد أبدعوا في فن الشهادة، وكانوا رموزاً للحب الخالد ـ حب الله ورسوله وجهادٍ في سبيله ـ إن الحب مشاعر يسمو فيه أُناس ويسقط آخرون، وكما ورد أن رجلاً جاء إلى عمر بن الخطاب ﷺ يريد أن

---

(١) أسد الغابة في معرفة الصحابة، ج ٣.

يطلّق زوجته، فسأله لِمَ؟؟ قال: لا أحبها، فقال عمر: قاتلك الله أوَكل البيوت بُنيتْ على الحب، فأين المروءة والوفاء؟ وكان إنسان في تجاربه الخاصة يجد أن حياته مليئة بمكروهات كثيرة، كان وراءها خيُرٌ عميم، ولذاتٍ كثيرة كان وراءها شرٌ مستطير، فالإنسان لا يعلم والله وحده يعلم... فماذا على الإنسان لو استسلم لله؟ إنها تربية القرآن على الاستسلام للغيب المحجوب، والإيمان بقضاء الله وقدره، خيره وشره، ﴿لِّكَيْلَا تَأْسَوْا عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ﴾[1].

﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ وَصَدٌّ عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَكُفْرٌ بِهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِ مِنْهُ أَكْبَرُ عِندَ اللَّهِ وَالْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ الْقَتْلِ﴾. جاءت عدة روايات أن الآيات نزلت في سرية عبد الله بن جحش رضي الله عنه، كان النبي ﷺ أرسله مع ثمانية من المهاجرين، ليس فيهم أحدٌ من الأنصار، ومعه كتابٌ مغلق، وكلَّفه أن لا يفتحه حتى يمضي ليلتين، فلما فتحه وجد فيه: «**إذا نظرت في كتابي هذا فامضِ حتى تنزل بطن نخلة بين مكة والطائف، ترصد بها قريشاً وتعلم لنا من أخبارهم، ولا تكرهنّ أحداً على السير معك من أصحابك**» وكان هذا قبل غزوة بدر الكبرى، فلما نظر عبد الله بن جحش رضي الله عنه في الكتاب قال: سمعاً وطاعة، ثم قال لأصحابه: قد أمرني رسول الله ﷺ أن أمضي إلى بطن نخلة أرصد بها قريشاً حتى آتيه منها بخبر، وقد نهى أن أستكره أحداً منكم، فمن كان يريد منكم الشهادة حتى آتيه منها بخبر، وقد نهى أن أستكره أحداً منكم، فمن كان يريد منكم قريشاً حتى آتيه منها بخبر، وقد نهى أن أستكره أحداً منكم، فمن كان يريد منكم الشهادة ويرغب فيها فلينطلق، ومن كره ذلك فليرجع، فأنا ماضٍ لأمر رسول الله ﷺ، فمضى ومضى معه أصحابه لم يتخلّف منهم أحد، فسلك الطريق على الحجاز حتى كان ببعض الطريق ضلّ بعير لسعد بن أبي وقاص وعتبة بن غزوان رضي الله عنهما، فتخلّفا عن رهط عبد الله بن جحش ليبحثا عن البعير، ومضى الستة الباقون، حتى إذا

---

(١) سورة الحديد: ٢٣.

كانت السرية ببطن نخلة مرت عير لقريش تحمل تجارة فيها عمرو بن الحضرمي وثلاثةٌ آخرون، فقتلت السرية عمراً بن الحضرمي، وأسرت اثنين، وفرَّ الرابع، وغنمت العير، وكانت السرية تحسب أنه اليوم الأخير من جُمادى الآخرة، فإذا به اليوم الأول من رجب، وهو من الأشهر الحرم التي تعظمها العرب، وقد عظمها الإسلام وأقرّ حرمتها.

فلما قدمت السرية بالعير والأسيرين على رسول الله ﷺ قال: ما أمرتكم بقتال في الشهر الحرام! فوقف العير والأسيرين وأبى أن يأخذ من ذلك شيئاً، فلما قال ذلك رسول الله ﷺ سُقِط في أيدي القوم وظنّوا أنهم قد هلكوا. وعنّفهم إخوانهم من المسلمين فيما صنعوا، وقالت قريش: قد استحل محمد وأصحابه الشهر الحرام وسفكوا فيه الدم وأخذوا فيه الأموال وأسروا الرجال، وقالت اليهود: تفاءلوا بذلك على محمد، عمرو بن الحضرمي قتله واقد بن عبد الله. عمرو: عمرت الحرب، والحضرمي: حضرت الحرب، وواقد بن عبد الله: وقدت الحرب. وانطلقت الدعاية المضللة بشتى الأساليب الماكرة، تظهر رسول الله وصحابه بمظهر المعتدي الذي يدوس المقدسات، ويعتدي على الحرمات عند بروز المصلحة، وهاجت الدنيا وماجت حتى فصّل الله الأمر وردّ الحق إلى نصابه، ونزلت الآيات سكينة وطمأنينة على قلب رسول الله وصحبه الكرام[١].

ونتأمل هنا سبب النزول، ونسبر أغوار التربية المحمدية لنلحظ ونتعلم ففي بعث رسول الله ﷺ ثمانية من المهاجرين ليس فيهم أحدٌ من الأنصار والسبب في ذلك، ليست النظرة القومية أو العنصرية، فهذه عدّها رسول الله ﷺ جاهلية، وقال: «**دعوها فإنها نتنة**»، وإنما حقيقة الأمر أن المهاجرين أدرى بشعاب مكة، وفي إعطائهم كتابٌ مغلق نلاحظ السرية والأمانة لقوله عليه الصلاة والسلام: «**استعينوا على إنجاح الحوائج بالكتمان**»[٢]، وجَعْلِ الإمارة في واحد وإعطائه الكتاب مغلقاً وتحميله

---

(١) أسباب النزول للواحدي.

(٢) صحيح الجامع الصغير، رقم ـ ٩٤٣ ـ.

المسؤولية لئلا يشيع الخبر بحسن نية أو غير ذلك، وفيه اختبار لإخلاص الصحابي وصحبه، وفيه بلاء لطاعة الجنود لأميرهم الطاعة المطلقة، دون سخرية أو تعليق، ثم تعمية الجهة التي يريدها، والأمانة بأن لا يفتحه حتى يسير ليلتين، ففعل ذلك بدقة، ونفَّذ الوصية كما ينبغي في الزمان والمكان. نفّذ المهمة في رصد قريش، امتثل لأمر عدم إكراه أحد على الذهاب لأن التقوى لا يُحمل عليها أحد، حيث الأمر أمر حياةٍ وفداء ولكل نفسٍ مقدرة، فلا تُكرِه أحداً على أمرٍ لا يحبه، فما أعظم حب رسول الله ﷺ لأصحابه! وما أشدَّ احترامه لآرائهم! ويقرأ عبد الله الكتاب فيجيبه وكأنه جاثياً بين يديه، سمعاً وطاعة، إنها خشية الله في السر والعلن، ثم تبليغ الأمانة للأصحاب كما هي تماماً، من غير زيادةٍ ولا نقصان، وقد تبيَّن نوعية العصبة المختارة حيث لم يتخلّف منهم أحد، ويؤمّر عليهم عبد الله بن جحش ﵁ وفيهم سعد بن أبي وقّاص أحد العشرة المبشرين بالجنة، فيسمع ويُطيع دون اعتراض ولا امتعاض. والإمارة تكليفٌ وليست تشريفاً، ولذلك كانوا لا يتطلّعون للإمارة رضوان الله عليهم.

مرّت العير وعبد الله لم يؤمر أن لا يتصرف شيئاً، فاجتهد رأيه واعترض العير دون مخالفةٍ لوصية، ولم يكن هناك خروج عن نص... ورجعوا إلى رسول الله فأنّبهم وأوقف مغنمهم، فوجلوا وخافوا، ولم يسلقوه بألسنةٍ حداد، ولم يمنُّوا عليه بما فعلوا، بل وجلت قلوبهم، وجفَّ الدمع، في مآقيهم خوفاً من الله، ولم يفرح رسول الله ﷺ بمغنم ولا بعودة أصحابه سالمين إن كان في الأمر مخالفة لأمر الله. قائدٌ رباه الله فربّى من حوله، ووقف الجميع قائداً وجنوداً في موقف الخائف من الله عز وجل، وتبرز في مثل هذه المواقف طبيعةٌ بشرية تكثر اللوم، وتنثر الكلام دون صبر ولا تحمّل، وهناك فئة تتفاعل مع الإشاعات وتردِّد الأقوال دون روية، أو أدنى تعقُّل عمّن تصدر هذه الأقاويل، مرةً عن قريش المشركة، ومرةً عن يهود الماكرة، فهوّلوا تهاويلهم، وتصدّروا أبواب الحكمة، واستلموا الأبواق المضللة، وفي هذا الهرج والمرج، وخوف الخائفين، نزل القول الفصل من رب العالمين. وما أشبه اليوم بالأمس. غير أن القرآن بين أيدينا. نزلت

الآيات تقرر حرمة الشهر الحرام، وتقرر أن القتال فيه كبيرة، نعم هذا صحيح ولكن. . .

صدٌّ عن سبيل الله، وكفرٌ به، والمسجد الحرام، وإخراج أهله منه، أكبر عند الله، القتال عند المسجد الحرام كبيرة، ولكن إخراج أهله منه أكبر، والفتنة أكبر من القتل، إن المسلمين لم يبدؤوا القتال، ولم يبدؤوا العدوان، إنما هم المشركون حيث كان عدوانهم سابقٌ لهذا الرد، فقد أخرجوا رسول الله وصحبه من المسجد الحرام، وظلموهم، واعتدوا عليهم، وفتنوا المسلمين في دينهم، وصادروا أموالهم، واستباحوا بيوتهم وتجارتهم، ولم يدَّخروا جهداً في إيذائهم، أهذا كله لا يعد استباحةً للحرم، وعندما استرد المسلمون من البعير شعرةٍ مما سُلب منهم صار الويل وعلا الويل؟ وتكاتف المشركون واليهود، يفظِّعون ويُبّشعون انتهاك الحرمات، فردّ الله عليهم، بأنهم عُميَّت عليهم الحقيقة فلم يعودوا يُفرِّقون بين الكبيرة والأكبر.

أيُذبح المسلمون تحت ستار الحرم والأشهر الحرم، أيُعذب المسلمون تحت ستار قداسة الأماكن؟ كلا إنّ هذا لا يرضاه الله، ووجّههم إلى النظرة الأعمق. إنّ للكفر غايةً وهدفاً، فلا بد للتجمع الإسلامي من غايةٍ وهدف، المشركون يتطلعون ليردُّوا المسلمين عن دينهم، ويفتنوهم في إيمانهم طاعةً للشيطان، فلماذا لا يكون هدف المسلم كسر شوكتهم، وسحق الشرك في نفوسهم طاعةً لله رب العالمين.

إنه لا بد لكل هدفٍ من هدفٍ يقابله، ولكل تنظيم من تنظيم يواجهه، فمن تتَّبع السيرة النبوية المباركة، وجد أن رسول الله ﷺ قابل القوة بالصبر والتصبر، وهادن المشركين محتسباً، حتى آن الأوان، وقامت للإسلام دولة، ووقف المسلمون على قاعدةٍ صلبة، فهناك لم يقل عاقلٌ ولا ناقل أنّه واجه تنظيم الشرك بالفوضى، ودقة مخططاتهم بالعشوائية، وأسرار نواديهم بالانفتاحية، بل واجه التنظيم الخائن بتنظيم مؤمن، (جئناكم برجال يحبون الموت كما تحبون الحياة)، رجال يخشون الله في السر والعلن؛ يفتدون دعوتهم بالغالي والنفيس، وواجه المخططات الشركية اليهودية بدقة إيمانية

تحسب حساب المرور على الصراط المستقيم، وواجه مؤامراتهم بسراياه في الأرض، وسرايا جبريل من السماء، وجعل نفسه وجنده تحت راية لا إله إلا الله محمد رسول الله، فتحقق فيهم وعد الله إن تنصروا الله ينصركم ويثبت أقدامكم.

الإسلام دين المثالية الحقَّة عندما يكون هو الحاكم، فيملأ الأرض قسطاً وعدلاً ورحمةً وأمنا، وأما أن يُترك الشرك يصول ويجول ثم يواجه الإسلام الموقف بحلول مثالية، ويجرّد المسلمون من كل سلاح، ومن كل انفعال تحت ذريعة المقدسات والأشهر الحرم، كما يُسحق المسلمون اليوم تحت وطأة خفض الجناح لأعداء الله، سبحان الله ما أشبه اليوم بالأمس، فهذا ليس بالعدل الإلهي، فالله واجه الماكرين بأنه أمكر منهم، وواجه المستهزئين بأنه هو المستهزىء الأقوى، وواجه آكلي أموال الناس بالباطل والحرب.

إن الإسلام يرعى حرمات من يرعى الحرمات، ويرحم العزّل والضعفاء، فاستقيموا لهم ما استقاموا لكم، ويشدّد في احترام العهود ويصونها، ولكنه لا يسمح بأن تُتخذ الحرمات متاريس لمن ينتهك الحرمات، ويقتلون الصالحين، ويفتنون المؤمنين، ليبقى الكافر في منجاة من القصاص تحت ستار الحرمات التي يجب أن تصان.

إنّ استفزاز مشاعر المسلمين من قبل الله عز وجل، لدليل أكيد على أن وقت الاحتساب والمصابرة قد انتهى، وبذلك رسم الله لنا خطة عدونا المستقبلية وقال: ولا يزالون يقاتلونكم، هذا هو ديدنهم فهم مستمرون، يقاتلون باليد والقوة والكلمة، وبكل أساليب القتال، يُفسدون بيوتكم، ويدسّون سمومهم في مناهج تعليمكم، ﴿وَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ﴾[1]. ﴿وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّن بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا﴾[2]. قال

(١) سورة النساء: الآية ٨٩.

(٢) سورة البقرة: الآية ١٠٩.

زويمر[1]: لا يهمنا أن ننصر المسلمين، ونخرجهم من الإسلام إلى النصرانية، ولكن المهم أن نجعل المسلمين بلا دين.

وهذا هو التصوير الفعلي للآيات، فالقتال والتجمع الشركي الوثني الصليبي الإلحادي له غايةٌ واحدة، وهدفٌ معين هو إخراج المسلمين من دينهم، فأين حماة الإسلام، وأين أهل الذكر والآيات، والله العليم الخبير بما ستؤول إليه أحوال المسلمين لا يأخذ أحداً بجريرة أحد، وإنما كل امرىء بما كسب رهين، ألا إن سلعة الله غالية، ألا إن سلعة الله الجنة، فالدين أمانة في عنق كل إنسان، ذكر أو أنثى، ﴿وَمَن يَرْتَدِدْ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُوْلَٰٓئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ ۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾[2] والردة تقع بأمور دقيقة جداً، فكيف بمن ضلَّ وأضَّل، وزلَّ وأزلَّ من أبناء جلدتنا يتكلمون بألسنتنا ويقرؤون كتاب ربنا، ويتصنعون سنة نبينا.

إن الإسلام أعلن الحرب على الكفر بلا هوادة، ورفع المسلم عن سفاسف الكفر، وجعل له ضمانات وصيانات تحفظ له حقه، وتخرجه من دائرة الخب فلا يُستغل تحت نصوصٍ شرعية، يتلاعب فيها الناس حسب أمزجتهم وأتاواتهم، إنّ الله حرم الغيبة، وجعلها كبيرة غير أنه استثنى، فلا غيبة للفاسق فعندما يخرج المسلم من حقيقة دينه، ويتسبب في تعذيب المسلمين، وتشريدهم وتضييع حقوقهم بله في تمكين العدو منهم ثم تعلوا صيحات الاستنكار يا لغيرة الدين الغيبة حرام، فلا أحد يتكلم في هذا الفاسق التارك لدينه المفارق للجماعة، لا تغتابوه. كلا هذا بوقٌ من أبواق إبليس، ﴿وَقَاسَمَهُمَآ إِنِّى لَكُمَا لَمِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ ﴿٢١﴾﴾[3].

كلا إنّ هذا ليس من الإسلام في شيء، إنما تحرم غيبة المسلم

---

(١) كاتب انجليزي وقسيس متعصب.

(٢) سورة البقرة: ٢١٧.

(٣) سورة الأعراف: ٢١.

الصالح الذي ما أخرجه من الإسلام فسوقٌ ولا ردة، فإن خان المسلم الله ورسوله هل يُسكت عنه؟ ويستَّر عليه تحت ستار الورع من الغيبة؟ كلا إنّ القرآن يجعل المسلم على أرضٍ صلبة، لا تتأرجح فيها أقدامه، فيعبد الله على بصيرة، ويعلم متى تكون تعرية الخائن لله ورسوله تقوى وصلاح ومن صلب الدين، إن الشر أصيلٌ في قلوب أعدائنا، وإنهم لا يستهدفون أشخاصنا وأجناسنا، وإنما يعادون ديننا، ويتغيّظون من قرآننا، ولذلك حاكوا عليه المؤامرات، ليسلخوه من روحه، وإن لم يستطيعوا أن يُضيّعوا حروفه، فلقد غيبوا معانيه، ونُفذ هذا تحت سمع المسلمين وبصرهم، حتى وجد عدد غير قليل من المسلمين، لا يفقهون من أمر دينهم شيء، الردة قائمة في نفوسهم، غير أن هياكلهم قد تحاكي أشكال المسلمين، وكلمة يردوكم عن دينكم إن استطاعوا، أي الأمر موقوف على الاستطاعة، فإن مكنتموهم من أنفسكم ردّوكم، وإن أخذتم حذركم، ولم تمكنوهم من أنفسكم فلن يستطيعوا.

والله عز وجل يوقد نار الحمية الإسلامية في النفوس، اذهب أيها المسلم وهذا هو الزاد بين يديك، ومحفوظٌ لك وأنت على ثغرة من ثغور الإسلام الله الله أن يُؤتى من قبلك، إياك أن تغفل عن الثغرة، أن تخطيء حمايتها بسوء فهمك، أو عقيم فقهك، عندها لا تلومن إلا نفسك، والنار ستكون مثوى المضيِّعين، والخلود فيها وعد رب العالمين، ولكن مهما اتحد الكفر وغلب، ومهما انتفش الباطل وعلا، فهناك الرحمة الإلهية حامية النور، تتنزل على عباد الله بالصبر والمصابرة والمجالدة والمرابطة والفهم والثبات والتجرد والإخلاص، حتى يأذن الله بإحدى الحسنين، النصر أو الشهادة، ﴿وَلَا يَسْتَخِفَّنَّكَ ٱلَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ﴾[1]. ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱلَّذِينَ هَاجَرُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أُو۟لَٰٓئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَتَ ٱللَّهِ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢١٨﴾﴾ هذا هو طريق المؤمنين، واضحٌ وضوح الشمس في رابعة النهار، فإيمان وإيذاء وإخراجٌ وهجرة وإعدادٌ وجهاد في جهةٍ واحدة وسبيل واحد، أولئك هم الفرقة الناجية التي ترجو رحمة ربها، وإن تفرقت

---

(١) سورة الروم: الآية ٦٠.

السبل بالناس ألف مفرق وإن أفتاك الناس وأفتوك، وإن رُصعَّت لك الفتوى بالجواهر، فلا يفتننك في أمر الله مفتون.

﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ ۖ قُلْ فِيهِمَآ إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَـٰفِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَآ أَكْبَرُ مِن نَّفْعِهِمَا ۗ . . .﴾ إن الجاهلية والفراغ في العقول والنفوس يدفع الإنسان في التفكير حتى في تغييب عقله، ثم يُغيِّب ماله الذي هو قوام حياته، وواجه الإسلام الأمر وقد أصبح عرفاً وعادة، وليس من شأن الإسلام أن تحكمه العادات، والإسلام لا يقر هذا الضياع والعقل مناط التفكير ومناط التكريم، فوجبت صيانته، فكانت هذه أول خطوة للفت الأنظار بأن الأمر ليس متروكاً، وإنما الأمر يحتاج إلى علاج وتربية وكسرٍ لعادة الإدمان، التي تتعلق بمواعيد التعاطي، وقال عز وجل في خطوةٍ أخرى، ﴿لَا تَقْرَبُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنتُمْ سُكَـٰرَىٰ﴾ فتضاربت مواقيت الصلاة مع أوقات تعاطي الخمور، وفترت حدة تناولها حتى خمدت جذوتها في النفوس، وجُرِّب التجاوب الإيماني فكان عالياً، وبتوالي الآيات التكليفية والتربوية وكثرة نداء يا أيها الذين آمنوا سمت النفوس المسلمة، وترفَّعت عن هذا الهراء، واستشعرت أنَّها مؤتمنة على عقلها ليتفكر في خلق السماوات والأرض وأنها مؤتمنة على هذا المال الذي فتح الله له كل مصارف الخير والنماء، فاستهجن الحس الإسلامي ضياع الأموال في غير ما فائدة، فالمال والوقت والنفس كل ذلك مسؤولون عنه يوم القيامة، وما أشدَّ فزع الصحابة رضوان الله عليهم من السؤال والحساب، وهذا هو شأن الإسلام عندما واجه أنظمة وعادات جاهلية، فعالجها نفسياً واجتماعياً وإيمانياً، حتى تجاوبت طائعة غير كارهة، مُحبة غير مقهورة، ويشهد على ذلك مجيء جماعة من الأنصار وفيهم عمر بن الخطاب رضي الله عنه إلى رسول الله ﷺ فقالوا: أفتنا في الخمر والميسر فإنهما مَذهبةٌ للعقل، مَسلبةٌ للمال، فأنزل الله عز وجل: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ﴾. وتدرجَّت الآيات بالنفوس الهوينا حتى نزلت الآية الفاصلة: ﴿أَن تَقُولُوا۟ مَا جَآءَنَا مِنۢ بَشِيرٍ وَلَا نَذِيرٍ ۖ فَقَدْ جَآءَكُم بَشِيرٌ وَنَذِيرٌ ۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾[1]. ولا يجتمع حب الله وحب الرجس في قلبٍ أبداً.

---

(١) سورة المائدة: الآية ٩١.

ونزلت الآيات وكانت الطاعة وكان الامتثال، وتحقق التنفيذ بالصوت والحركة، لسانٌ يردد انتهينا يا رب انتهينا، وأيدٍ بطحت الدنان وأراقت ما فيها إلى غير رجعة، وكانت المعجزة التي زلزلت العقول الأوربية وهي تصرف ملايين الدولارات لمنع التدخين فقط ولم تفلح، وقد صرَّح الوزير الفرنسي بقوله: (عجبت كيف منع محمدٌ الخمر بكلمات)، إنّها ليست كلمات، إنّها ومضات الإيمان، تعانق القرآن مع الإيمان فأثمروا الطاعة، ولذلك قال ابن عمر: سيأتي زمان على الناس يؤتون القرآن قبل الإيمان ينثرونه نثر الدقل[(١)].

ولقد توارد القرآن على القلب قبل الإيمان، وتُليت الأوامر والنواهي على قلوبٍ فارغة من حقيقة الإيمان، فحصل الخور الذي نعيشه اليوم، يؤمنون ببعض الكتاب ويكفرون ببعض.

﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ قُلِ ٱلْعَفْوَ﴾ ما فضل عنك وزاد، والزكاة لا تبرىء الذمة من الإنفاق إلا من ناحية الفريضة. إنَّ تنظيم عملية الإنفاق، وتحديد موارده ومصارفه، أمرٌ تولاه الله عز وجل، والله سبحانه فرض الزكاة، ثم حبَّب في الإنفاق، ووجَّه إليه، وجعل الفريضة بنسبةٍ معينة في نصابٍ معيَّن، أما الإنفاق فأجاب بالعفو، فكل ما زاد عن النفقة الشخصية في غير ترفٍ ولا مخيلة، فهو محلٌ للإنفاق فأمر النفقة الشخصية، يبقى أمرٌ نسبي، والزكاة لا تستغرق الفضل كله، فيبقى ناحية، تتجاوب مع الرقي النفسي والتجاوب التربوي، الذي يخلع النفس من الشح الذي رُكّبت عليه، ﴿فَٱسْتَبِقُوا۟ ٱلْخَيْرَٰتِ﴾[(٢)] فيتسابق أهل الجود والعطاء، الذي بهم يتحقق العدل

(١) من حديث ابن عمر رضي الله عنهما، الذي رواه الطبراني في الأوسط بسندٍ صحيح. قال: لقد عشنا برهةً من الدهر، وإنّ أحدنا يؤتى الإيمان قبل القرآن، وتنزل السورة فيتعلم حلالها وحرامها، وأوامرها وزواجرها، وما يقف عنده منها، ولقد رأيت رجالاً يؤتى أحدهم القرآن قبل الإيمان فيقرأ ما بين فاتحة الكتاب إلى خاتمته لا يدري أوامره ولا زواجره، وما ينبغي أن يقف عنده ينثره نثر الدقل. الدقل: رديء التمر.

(٢) سورة المائدة: ٤٨.

الإلهي في الأرض، ويتحقق الإخاء الإنساني. ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْيَتَٰمَىٰ﴾، قال ابن عباس رضي الله عنهما: لما أنزل الله ﴿وَلَا تَقْرَبُوا۟ مَالَ ٱلْيَتِيمِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ﴾ انطلق من كان عنده مال يتيم، فعزل طعامه عن طعامه، وشرابه عن شرابه، وجعل يفضل الشيء عن طعامه فيحبسه له حتى يأكله، أو يفسد، واشتدَّ ذلك عليهم فذكروا ذلك للنبي ﷺ فأنزل الله[1] ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْيَتَٰمَىٰ قُلْ إِصْلَاحٌ لَّهُمْ خَيْرٌ﴾.

إن الإسلام لم يأتِ ليحكم ظواهر اجتماعية معينة، ولكن أتى ليصلح النفوس، ويربي العقول، ويجعل الإنسان خاضعاً لرقابة دائمة من ذات نفسه، ليستقيم أمره وتثبت خطواته، ولم يرد الله بالإنسان العنت والشدّة، إنما يريد الله أن يتحقق الإسلام في الإنسان طبعاً وخلقاً وسجية. فيجعله إنساناً راقياً لا يظلم ولا يُفسد، ولا يطغى. وتوالت الآيات التي تحفظ الحقوق لأهلها، وتحرّج على الناس مال اليتامى الضعفاء، والأمانة خلُقٌ رفيع يربي الله عليه المؤمنين، فأموال هؤلاء اليتامى في أيدي الرجال الأشدّاء، فتبرز الآية لتنبّه لعلم العليم الخبير الذي يضبط الأمور، ويحصي الأعمال وأن الله عليمٌ خبير، ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَىْءٍ عِلْمًۢا﴾[2]، وغيرها كثير في القرآن الكريم مما جعل الإنسان يعبد الله كأنّه يراه. فالله وحده يعلم المفسد من المصلح، والصلاح ليس حركات تُفتعل، ولا كلمات تقال ولا مباكاة ولا محاكاة، وإنما الصلاح سلوكٌ ومعاملة واستقامة وإخلاصٌ لله ورسوله والمؤمنين.

﴿وَلَا تَنكِحُوا۟ ٱلْمُشْرِكَٰتِ حَتَّىٰ يُؤْمِنَّ ۚ وَلَأَمَةٌ مُّؤْمِنَةٌ خَيْرٌ مِّن مُّشْرِكَةٍ وَلَوْ أَعْجَبَتْكُمْ ...﴾.

في هذا المقطع يبدو التنظيم الدقيق للكيان الأول، والركن الأساسي الذي تقوم عليه الجماعة المسلمة، هذا الركن الذي أحاطه الله برعايةٍ كبيرة،

---

(١) أسباب النزول للواحدي.

(٢) سورة الطلاق: الآية ١٢.

ألا وهو الركن الأسري الذي يُعتبر المحضن الطاهر للرصيد البشري، إن الأسرة هي قاعدة التكوين الأول، والإنسان الطفل هو أطول الأحياء طفولة، لأن مرحلة الطفولة عنده ليست مرحلة تعليم أكل وشرب وتحصيل رزق، وإنما هي فترة إعداد وتربية وتهذيب، حتى يستوي العود، ويبلغ سن التكليف، وذلك لأن وظيفته في الأرض أكبر الوظائف، ودوره أكبر الأدوار قاطبة، فلا بد له من يد أمينة وعقلٍ واعٍ ومالٍ طيب ونفسٍ زكية، حتى ينشأ معبداً لله، حراً من التصورات الجاهلية، عزيزاً بالله قوياً بالحق، متصالحاً مع نواميس الكون من حوله، ومع إخوانه عُمَّار هذه الأرض. يألف ويؤلف، ويعطي ويحمي، مفتاحٌ للخير، مغلاقٌ للشر، خفيفٌ عند الفزع، ثقيل عند الطمع. إن هذه النوعية من البشر هي نتاج والدين صالحين صادقين في التوجه إلى الله، وقد كان الصحابة والتابعون لا يجدون بالمال في المتع الشخصية، بل كانوا يجودون بأموالهم في سبيل الله، والنفقة على تعليم الأولاد وتأديبهم تدخل تحت في سبيل الله، أليسوا هؤلاء الأولاد هم حماة الدين؟ وساسة الأمم؟

إنّ الطفل يحتاج إلى يدٍ حانية تضمه وترعاه بعيداً عن صدر الخادمة البعيدة عن اللغة والديار، يحتاج إلى أمه التي هي أصله وهو امتدادها، فالطفل يتربَّى بالحب والحنان، ويوجَّه بنبضه القلب ودمعة الرجاء، ومن هنا كان التركيز على اختيار الزوجة، وجعلها من أولويات حق الولد على أبيه. والتوجيهات النبوية بهذا الشأن لا حصر لها، لأن البيت بحاجة إلى عين ساهرة باتت تحرس في سبيل الله.

وأحاسيسٍ يقظة وهمةٍ عاليةٍ وشعور بالمسؤولية واستحضار للحساب والعذاب، كعبدٍ وقعت رقبته بالغل، ولافكاك لها إلا بولدٍ صالحٍ يدعو له. وإنّ في غفلة لحظة يُقتحم البيت، وتُفتح الثغرة وتُضيّع الأمَانة وتُسرق الجوهرة الغالية، وتصبح المؤتمنة قد ضيَّعت، فيختل الميزان، ويهتز مجتمع الإيمان.

إنّ محضناً بحاجة إلى كل هذا الإخلاص والحماية والرعاية، لا يمكن

أن توكلَ به مشركة أو كافرة تعادي الله ورسوله، وإذا كانت المسلمة اليوم قد ضاعت وضيِّعت، فكيف الحال بغيرها؟ ولذلك جاء النهي ﴿وَلَا تَنكِحُوا۟ ٱلْمُشْرِكَٰتِ حَتَّىٰ يُؤْمِنَّ ۚ وَلَأَمَةٌ مُّؤْمِنَةٌ خَيْرٌ مِّن مُّشْرِكَةٍ وَلَوْ أَعْجَبَتْكُمْ ۗ﴾ وقد استمر زواج المشركات حتى السنة السادسة من الهجرة في الحديبية عندما نزلت سورة الممتحنة، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا جَآءَكُمُ ٱلْمُؤْمِنَٰتُ مُهَٰجِرَٰتٍ فَٱمْتَحِنُوهُنَّ ۖ ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَٰنِهِنَّ ۖ فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِنَٰتٍ فَلَا تَرْجِعُوهُنَّ إِلَى ٱلْكُفَّارِ ۖ لَا هُنَّ حِلٌّ لَّهُمْ وَلَا هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّ ۖ . . .﴾[1]. والنكاح هو الزواج الذي يجمع بين زوجين في أعمق وأقوى وأدق رابطة، فلا بد من تلاقي القلوب، وتجاوب النفوس، واتحاد المشاعر، وانسجام الخواطر، وما من شيءٍ يُجمِّع هذا كله مثل العقيدة والدين، ولذلك نزلت هذه الآيات تُحرّم إنشاء مثل هذه العلاقات، وما كان موجوداً انتهى في صلح الحديبية، وانتهت الارتباطات الهشة الزائفة، والتوجيه القرآني يُنهي العلة بكل مواصفاتها، فلا زواج من مشركة، ولا زواج من مشرك، فهذا اللقاء غير المتكافىء يدعو إلى النار وإلى الضياع، والله عز وجل يدعو إلى الجنة والمغفرة والرضوان، إن تكوين الأسرة آية من آيات الله ذكره الله في موضع آخر ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓا۟ إِلَيْهَا﴾[2]. فقيام الأسرة على عين الله ورعايته، آية من آيات الله تحتاج إلى تذكرٍ وتفكر، ولذلك فقد فارق الحكم في الكتابية لأنها تؤمن بالله، ولكن هناك خلاف فقهي معتبر، أن الكتابية التي تعتقد أن الله ثالثُ ثلاثة، أو أنه المسيح ابن مريم، أو أنّ العزير ابن الله، هل تبقى كتابية؟ أم أنها مشركة بالله شركاً أكبر على علم وتعدٍ وظلم ولي هنا وقفة.

إن كان الزواج من المسلمة يستدعي وقفة وتأمل واستخارة واختيار، لقوله ﷺ: «**تنكح المرأة لأربع: لمالها ولحسبها وجمالها ولدينها، فاظفر بذات الدين تربت يداك**»[3]. إنه لم يخير بين مسلمة وكافرة، إنما يخير بين

---

(١) سورة الممتحنة: الآية ١٠.

(٢) سورة الروم: الآية ٢١.

(٣) رواه البخاري عن أبي هريرة في كتاب النكاح، رقم ـ ٤٧٠٠ ـ.

نوعيات النساء، ضمن دائرة الإسلام، ويعتبر المخالف مستحقاً لدعوة النبي ﷺ «تربت يداك»، إن المسلمة اليوم تحتاج إلى محضن إسلامي تخصصي، قبل أن تبدأ عملية الإنجاب، لتكون على بيّنة من المسؤولية التي ستناط بها، فهي ستُربي وتُجهد، وتقرأ وتتدبر، والنتيجة غير مضمونة بجانب الكم الإفسادي المتنوع، فكيف يقول عاقل بالزواج من كتابية! وقد ردّ هذا الفهم الصحابي الجليل عبد الله بن مسعود بحسه الفقهي، وقال: (ما علمت شركاً أكبر من أن تقول ربها عيسى)، وقد تزوج حذيفة من يهودية، فكتب إليه عمر رضي الله عنه: (خل سبيلها، فكتب إليه أتزعم أنها حرام فأخلي سبيلها! فقال: لا أزعم أنها حرام، ولكني أخاف أن تعافوا المؤمنات منهن) أي أن يزهد الناس في المؤمنات، إنه لا بد لقضية الزواج من الكتابية اليوم من فقيه مجتهد، يقول فيه قول الفصل ويحرّم ذلك على الشباب المسلم، الذي يُعتبر زواجه من النصرانية تنصيراً له من حيث لا يشعر وفي الغالب عندما يعرض الزوج فكرة إسلام الأولاد أمام الزوجة الكافرة تفر حاملةً معها أولادها إلى ديارها لتطمئن على دينهم ونصرانيتهم، وتتلقفها الكنيسة بالمساعدات والدعم المادي والمعنوي، إنها شباك الغدر تحاك للمسلم بشتى الصور، فيا أيها الذين آمنوا خذوا حذركم.

﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْمَحِيضِ قُلْ هُوَ أَذًى فَٱعْتَزِلُوا۟ ٱلنِّسَآءَ فِى ٱلْمَحِيضِ﴾.

إن المسألة ليست مسألة فوضى ولذة وحيوانية، إنما هي غايةٌ وقصد وطهرٌ وعفاف، إن الهدف هو النسل، والغاية هي الإحصان، وامتداد الحياة والمباشرة في الحيض لا تحقق هذا ولا ذاك، وينشأ عنها أضرار صحية أقرها الطب، وحذّر منها الأطباء، ولذلك فالنصوص القرآنية دائماً تهدي للتي هي أقوم، ولا ينبئك مثل خبير.

وثبت في الصحيحين عن ميمونة رضي الله عنها قالت: (كان النبي ﷺ إذا أراد أن يباشر امرأةً من نسائه أمرها فاتزّرت وهي حائض)[1]. وقالت

---

(١) رواه البخاري في كتاب الحيض، رقم ـ ٢٩٢ ـ.

عائشة رضي الله عنها: (**وكان رسول الله ﷺ يملك إربه ومن منكم يملك إربه؟**) ـ يعني نفسه ـ، وعن معاذ بن جبل ﷺ قال: سألت النبي ﷺ عما يحل لي من امرأتي وهي حائض، قال: «**ما فوق الإزار والتعفف عن ذلك أفضل**»[1]. والمرأة الزوجة سكنٌ لزوجها، تزيده الألفة حباً وترابطاً، وتزيده الأيام شوقاً وتعلقاً، وهذا في حد ذاته معجزة ربانية ﴿وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً﴾ والزوجان يتفاهمان فيما يخصهما ضمن حدود الله دون تعدٍ أو وقوع في محظور، ونفس المؤمن تعاف ما سماه الله أذى. وشاء الله أن تكونَ المدينة محضن الجماعة المسلمة، وتحيط بهم يهود من جوانبها ليستغلوا كل موقف ويطلقوا الشائعات ويُثيروا البلبلة، وكان القرآن يتنزل ليميّز هذه الجماعة، ويحدد كيانها في أُطر تشريع خاص متميّز من رب العالمين. كانت اليهود تختلف حول علاقة الرجل بزوجته، والكيفية التي يأتي الإنسان بها أهله، فردَّ الله زعمهم، وقال: ﴿نِسَآؤُكُمْ حَرْثٌ لَّكُمْ فَأْتُوا۟ حَرْثَكُمْ أَنَّىٰ شِئْتُمْ﴾، فشبّه الله المرأة بالأرض التي هي منبت الزرع، وكذلك المرأة فهي أم الولد، فلذلك لا حرج على المسلم بالكيفية ما دام يتقي الله بطلب الولد وليأت أهله من حيث أمره الله، تحدوه التقوى وتظله الخشية من الله ربه، ولم يغفل الإسلام الأدب والعبادة حتى في أخص الخصوصيات، وقد روى ابن عباس رضي الله عنهما عن النبي ﷺ أنه قال: «**لو أنّ أحدهم إذا أراد أن يأتي أهله قال: بسم الله، اللهمَّ جنبنا الشيطان وجنب الشيطان ما رزقتنا، فإنه إن يقدر بينهما ولد في ذلك، لم يضره شيطان أبداً**»[2].

إنّ الإسلام لا يغفل الفطرة، ولم يستقذر الميول الفطرية في الإنسان، بل احترمها وهذّبها، وقوّى دعائمها، وأحاطها بسورٍ من الصيانة والحماية، ولذلك كان المجتمع الإسلامي أطهر وأنظف مجتمع على وجه الأرض، في كل مرة يتحصّن بالتشريع الربّاني.

---

(١) رواه أبو داود في كتاب الطهارة، رقم ـ ١٨٣ ـ.

(٢) رواه البخاري في كتاب الدعوات، رقم ـ ٥٩٠٩ ـ.

إن الحلال الطيّب هو الذي أباحه الإسلام ويسره، وإن الحرام هو الخبيث الفاسد الذي حرّمه الإسلام، وأوله خزي في الدنيا، وأوسطه سؤالٌ وحساب، وآخره جحيمٌ لا يُطاق.

﴿وَلَا تَجْعَلُوا اللَّهَ عُرْضَةً لِأَيْمَنِكُمْ ...﴾.

والعرضة هو المانع والحاجز، وعن أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «**من حلف على يمين فرأى غيرها خير منها فليأت الذي هو خير وليكفّر عن يمينه**»(١)، فلا يمتنع عن الخير بسبب يمين حلفها في لحظة انفعال فقد جعل له رسول الله ﷺ مخرجاً دون أن يحنث، ومن أدب المسلم أن لا يحلف ولا يكثر من الحلف تأدباً مع الله عز وجل، ولكن إن درج اللسان على التلفظ باللغو من اليمين كقوله كلا والله، وبلى والله، فهذا الذي لا يؤاخذ الله عز وجل عليه وهو الغفور الرحيم. وقال الحنفية: الأيمان ثلاثة: **غموس، منعقدة، لغو**. فالغموس: أن يحلف كاذباً متعمداً ولا كفارة فيها إلا التوبة والاستغفار، وعند الشافعي التوبة والكفارة. والمنعقدة: أن يحلف على مستقبلٍ آت وفيه الكفارة وهي إعتاق رقبة، أو إطعام عشرة مساكين من أوسط طعامه فإن لم يجد فصيام ثلاثة أيام، هذا إن حنث في يمينه. واللغو: لا إثم فيه ولا كفارة، ولكنها منافية للأدب، وفي موقف الإمام الشافعي روي يقول: ما حلفت بالله كاذباً ولا صادقاً.

وما تخلص إليه الآثار، أنَّ اليمين التي ينوي فيها الحالف الأخذ أو الترك هي التي تنعقد، وعند الحنث بها تستوجب الكفارة، وفي هذا تأديب لحفظ اللسان ما بعده تأديب، وهو من أساليب التربية الربانية التي تحاسب على الكلمة، ففي قوله ﷺ عبرة: «**إن الرجل ليتكلم بالكلمة لا يرى بها بأساً، يهوي بها سبعين خريفاً في النار**»(٢) وهذا دليل على خوف الصحابة رضوان الله عليهم من كثرة الكلام، وهذا ما حمل أبو بكر على وضع

---

(١) رواه مسلم في كتاب الأيمان، رقم ـ ٣١١٥ ـ.

(٢) أخرجه أحمد والترمذي، عن أبي هريرة في كتاب الزهد، رقم ـ ٢٢٣٦ ـ/ ـ ٢٦٥ ـ.

الحصى في فمه. وهذا مصداق جواب رسول الله ﷺ لمعاذ عندما سأله أو مؤاخذون بما نتكلم يا رسول الله؟ قال: ثكلتك أمك يا معاذ، وهل يكب الناس على مناخرهم في جهنم، إلا حصائد ألسنتهم. فالكلام إما حجة لك أو عليك، فكيف إذا اعترته يمينٌ كاذبة؟ ومن توجيهات النبي ﷺ «**لا يمين ولا نذر في معصية الرب عز وجل، ولا في قطيعة الرحم، ولا فيما تملك**»[(١)]. ويعقب الله عز وجل على كسب القلوب، حيث القلب لب التركيبة البشرية، ألا إنّ في الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله، وإذا فسدت فسد الجسد كله. فما هو هذا القلب، أهو ذاك الذي يضخ الدم ويقيم حياة الإنسان الكافر والمسلم على السواء؟ كلا إنّه ذلك الجسم اللطيف الذي يخشع ويخبت لله، وهو مُرتَكَز تلك الأحاسيس الشفافة، ويحتوي على تلك المعاني الإيمانية، فهو الذي يصدق ويكذب، وهو الذي يوازن الحب والبغض، وهو الذي يُبصر ويعمى، وهو الذي يكون وعاءً ملؤه النور، أو وعاءً منكوساً لا خير فيه، هو ذاك الذي وصفه رسول الله ﷺ بالمضغة، ذلك القلب الذي يحتاج إلى غذاءٍ روحي، ويتسامى إلى معانٍ راقية جداً، لا يرقى إليها إلا العالمون المخلصون الصادقون، الذين استرخصوا أرواحهم في سبيل الله.

فالقلب التقي يعظم شعائر الله، ولا يبذل اسمه في كل شأن ولهذا قال: فاحفظوا أيمانكم، والله بعدها غفورٌ حليم على ما جرت به الألسنة من غير قصد.

الفوائد التربوية:

١ ـ كل عطاءٍ يملكه الإنسان سواءً كان مادياً أو معنوياً فلا بد من صرف النصيب الأوفى للوالدين، وفيه تدريب وتوجيه للاعتراف بالفضل ولتنمية خلق الوفاء عند الإنسان، فإنْ لم يوف لمن أحس بفضلهما، فكيف يعترف بفضل الله عليه!.

(١) أخرجه أبو داود في كتاب الأيمان والنذور، رقم ـ ٢٨٤٧ ـ.

في تدريب الأطفال على برِّ والديهم، تذكير لهم بالبر لصاحب الفضل الأعظم، ولذلك قرن الله بر الوالدين بتوحيده، وعقوقهما بالشرك.

والقصد منه لفت الانتباه إليهما، حتى لم يذكر إن كانا في حاجة للمال أم لا، والوالدين يُعطوا ابتغاء برهما ورضاهما، لا سداً لجوعهما، ودرءاً لهلاكهما، فبئس الأولاد إن كانوا لا يُعطوا والديهم إلا إذا كانوا معوزين.

٢ ـ إثبات فرضية القتال على المسلمين أمرٌ غائب عن معظم المسلمين اليوم، وهذه الفريضة تأتي بالأهمية بعد الأركان الخمسة مباشرة ﷺ: «**الإسلام ثمانية أسهم: الإسلام سهم، والصلاة سهم، والزكاة سهم، والصيام سهم، والحج سهم، والأمر بالمعروف سهم، والنهي عن المنكر سهم، والجهاد سهم، وقد خاب من لا سهم له**»[١]. وبين الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والجهاد، نوع ترادف وتلازم، ولذلك يجب أن نعي مفهوم حديث رسول الله ﷺ: «**من مات ولم يغزُ، ولم يحدِّث نفسه بالغزو مات على شعبة نفاق**»[٢].

وأجمع الفقهاء أن القتال يكون فرض عين إن هجم العدو على ديار المسلمين، فيخرج الكل من ذكر وامرأة ومديون وغيرهم، ولو بلا إذن زوج أو أب أو صاحب دَين، ويأثم الزوج والأب ونحوهما من المنع.

وفي القاعدة العامة: إن ما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب، فإذا كان قتال الكافرين حتى تكون كلمة الله هي العليا فريضة، فإن كل المقدمات اللازمة لذلك تكون من الفرائض، من التكوين الجهادي إلى تربية النساء، وتأهيلهنَّ إيمانياً وفقهياً لأنهنَّ محضن تخريج الأبطال، إلى إعداد العدة والتأهب لنصرة دين الله.

٣ ـ في سرية عبد الله بن جحش رضي الله عنه مواقفٌ وعبر هل استفاد منها

---

(١) ذكره في الأساس في التفسير، للشيخ سعيد حوى رحمه الله، ج ١، ص (٥٠٠).

(٢) رواه أبو داود في كتاب الجهاد، رقم ـ ٢١٤١ ـ.

المربّون في تلقين أصول الجندية؟ والطاعة والدقة في تنفيذ الأوامر، وهل استفاد منها القادة في عدم استغلال مواقف المسؤولية والقوامة من التلاعب بأعصاب من أمَّرهم الله عليهم، إنّ رسول الله ﷺ لم يوبخ، ولم يؤنِّب غير أنه قال: أنا لم آمركم بقتال واحتجَّ عبد الله أيضاً بأنه لم يخالف نصاً أملي عليه، وتوقّف الجميع في حالة خوفٍ من الله لا هذا يلوم هذا، ولا ذاك يلقي السبب على ذاك، ولم يوجد بينهم من يتنصل من الفعلة، بل أحسَّ الجميع بشعور الجسد الواحد، حتى نزل القرآن وكشف الغمة، عندها قبض رسول الله ﷺ العير والأسيرين وبعثت قريش في فداء عثمان بن عبد الله، والحكم بن كيسان اللذين أسرهما المسلمون، فقال رسول الله ﷺ: لا نفديكموهما حتى يقدم صاحبينا يعني سعد وعتبة اللذين انطلقا يبحثان عن البعير الضال فأرسلوهما، وفداهما رسول الله ﷺ، فأما الحكم بن كيسان فأسلم، وأقام عند رسول الله ﷺ حتى قتل شهيداً يوم بئر معونة. وأما عثمان بن عبد الله فلحق بمكة ومات بها كافراً.

ومن الرسول ﷺ نتعلم التصرف بحكمة إزاء كل مشكلة أو شائعة بعيداً عن التهيّج والغضب، ينظر في الأمور ويقلبها من كل جانب حتى يأتيه الفرج، وعلى هذا تربى الصحابة الكرام رضوان الله عليهم، ولم يتربَّ مسلمو اليوم إلا من رحم ربك.

٤ ـ المسلم لا يكون ساذجاً بحيث يستغله الكفار والمنافقون تحت اسم العبادات، أو المقدسات، وهنا يكمن فقه الحديث «**اعقلها وتوكَّل**».

٥ ـ الردّة عن الدين خطيرة، وذهب فيها الفقهاء مذهبين. الشافعي قال: الردة لا تحبط العمل حتى يموت عليها صاحبها، والحنفية قالوا: إن الردة تحبط العمل مباشرة. وسبب الخلاف يرجع إلى سبب أُصولي عند الشافعي: المطلق يحمل على المقيّد، وعند الحنفية: المطلق لا يُحمل على المقيّد، ويتفرع عن هذا الخلاف، الحبوط المباشر للعمل، أو عدمه، ووافق مالك الحنفية، في أنّ من حجّ ثم ارتدَّ ثم أسلم يلزمه الحج، لأنَّ الأول حبط بالردة، وقال الحنفية: بمجرد الردة ينفسخ عقد نكاحه وإذا اتفق

الحنفية مع المالكية فالأمر جدّ، حيث أبو حنيفة أقرب الأئمة إلى عهد النبي ﷺ، ومالك إمام دار الهجرة حيث كان يعتمد عمل الصحابة رضوان الله عليهم.

٦ ـ الهجرة كانت أول الدعوة الإسلامية فريضة بعد أن أذن الله لرسوله ﷺ بها، وبعد فتح مكة قال عليه الصلاة والسلام: «**لا هجرة بعد الفتح، ولكن جهادٌ ونية، وإذا استنفرتم فانفروا**»[(١)] أي لا هجرة بعد فتح مكة من مكة، أي لن تعود مكة دار كفر أبداً. ولكن ما حكم الهجرة من دار الحرب إلى دار الإسلام؟ ومن دار البدعة إلى دار السنة؟ قال الحنفية: إنها واجبة من دار الحرب إلى دار الإسلام، ومن دار البدعة إلى دار السنة. وقال الشافعية: حيثما استطعت أن تعلن الإسلام وتجهر به فأقم. والظاهر أنه إن تعطل الإسلام فتجب الهجرة.

٧ ـ لو لاحظنا الترتيب الثلاثي في نصوص القرآن كله، لوجدنا الإيمان ثم الهجرة ثم الجهاد في سبيل الله، فأرض الهجرة ليست أرض راحة، وتعويض للمهاجر عما فاته في أرضه وبلده، وإنّ ما فاته يحتسبه عند الله فهو أعظم أجراً، وأما أرض الهجرة، فهي أرض إعدادٍ وتجميع وانطلاقٍ للجهاد في سبيل الله.

٨ ـ إن عقل ابن آدم وماله وجسمه كله أمانة لله ائتمنه عليها، فلا يحق له العبث بها، ولا يجوز له التفريط في حق الأمانة، والخمر تضيّع العقل وتتلف المال وتغيّب عن الدين، فلا يجوز للمؤمنِ مقارفتها، بعدما حرّمها الله في كتابه الكريم وهي حدٌ من حدود الله ﴿تِلْكَ﴾ والميسر نقل للملكية غير معقول، حيث يُسلب الإنسان ماله بضربة نرد، أو بحسن طالع أو بدفعة شيطان مارد. إن ربح درهم واحدٍ ممزوجٌ بعرق الجبين أكثر بركةً، وأطهر مطعماً من هذه الأرباح الهائلة أو الخسارة المهلكة. ومهما تغيرت الأسماء فالحكم واحد، ولذلك عمّم النبي ﷺ تعريفها بقوله: «**ما أسكر**

---

(١) رواه البخاري عن ابن عباس رضي الله عنهما في كتاب الجهاد، رقم ـ ٢٥٧٥ ـ.

كثيره فقليله حرام»[1]، وقال عمر ﷺ: (أيها الناس إنه نزل تحريم الخمر وهي من خمسة: العنب، والتمر، والعسل، والحنطة، والشعير، والخمر ما خامر العقل)[2]. فالحكم واحد لا يتغيّر، وقد ذكر الله عز وجل بعض ما سترده الألسن من منافع، سواءً كان مادية أو معنوية موهومة، فلا خير في الخمر والميسر ومنافعهما، فالإسلام طيب، وما حرمه الله خبيث، وكل نفسٍ تتجاوب مع شاكلتها.

٩ ـ إن الإسلام ليس مجموعة أوامر من حرام أو حلال، بل إنّ الإسلام خلقٌ وطبعٌ وسجية، وصلاحٌ واستقامة، ومَن فيه عوج يقومه الإسلام ويهذبه، وهنا تبرز الجهود التربوية، وتظهر نماذج ربانية في حين يموج المجتمع بالفساد.

فالإسلام لم يحرّم الميسر لأنه كسب بلا جهدٍ فحسب، بل لأنه يوغر الصدور ويجلب مال السحت والغضب ويفرق بين الناس، والإسلام يحبب الإخاء ويُحرّم السحت ويحض على الإيثار والجود، وقد نقلت لنا السير صورة الأسرة وهي تجود بطعام أولادها، وتكرم ضيف رسول الله ﷺ، يسألونك ماذا ينفقون قل العفو، وترك الأمر مفتوحاً أمام كل فرد ليقدّر العفو الذي عنده، وبرع الصحابة الكرام في هذا الميدان، فهذا أنفق ماله كله، وهذا أعتق الرقاب، وآخر جهز الجيش، وآخر جاد ببستانه وما فيه لله رب العالمين، وهكذا فتح الإسلام منافذ الخير لتصعد فيها البشرية، وعلى الوالدين تشجيع الأطفال للتسابق في ميادين الخير والإنفاق، ويوجههم إلى التنافس في البر، فليعمل المربون والله الهادي على سواء السبيل. والإنفاق يكون من كل ما آتى الله الإنسان ويدخل تحته العلم والقوة وخدمة الضعيف في قضاء حاجة المحتاج وكل عمل خيرٍ يبذله للمسلمين.

١٠ ـ إن اليتيم ضعيف الأمة والجناح المكسور فيها، فلذلك استحق الرعاية والوصاية من الله عز وجل الرعاية المادية والمعنوية، سواءً من إعالته

---

(١) رواه الترمذي عن جابر بن عبد الله ﷺ في كتاب الأشربة، رقم ـ ١٧٨٨ ـ.
(٢) رواه البخاري في كتاب تفسير القرآن، رقم ـ ٤٢٥٣ ـ.

إلى حفظ ماله إلى توجيهه وتربيته وكفالته إلى مسحة العطف على رأسه، وربى الله نبينا على اليتم حتى يتحرك بمشاعرٍ صادقة تجاه اليتيم، وهو الصورة الحية لتنفيذ الأمر، وعلى أثره الصحابة مقتدون، لقد استطاع رسول الله أن يحرك المصحف في قلوب الرجال، وكان المثل الأعلى في كل خيرٍ بدءاً من الرحمة إلى قمة الفضائل، ولا يعدم المؤمن الذوقيات في التعامل مع هذه الفئة الحساسة، فلا يرفض ضيافتهم تورعاً، ولا يتحرج من زيارتهم خشيةً، بل يعاملهم المؤمن بلطفٍ وكياسة، ناصحاً لهم، باذلاً ما بوسعه، تحدوه التقوى، وغايته الإصلاح.

١١ ـ الزواج والدافع له رغبة نفسية، تتحرك فيها رغبات وشهوات، وعلى عادة الإسلام من تهذيب النفوس كيلا تجري وراء ما يعجبها، ولا تتغافل عن الأولويات، وتتناسى ما لا يوافق هواها، فالأمر هنا أمر دين وتقوى، ومصلحةٍ أسرية، تتعلق بها مصلحة الأطفال الذين سيكونون ثمرة المستقبل القريب بعد الزواج. فماذا يفعل الطفل بأم جميلة، بعيدةٍ عن دينه وأصالته؟ وماذا يفعل بأم لعوب تملأ دنيا أباه فرحاً وطرباً؟ ولكنها ليست أهلاً لزرع الخير وتهذيب الطبع، ما هي جريمة هؤلاء الأطفال إن امتدت جذورهم في أصولٌ لا تنفع، ولهذا قال عليه الصلاة والسلام: «**تخيروا لنطفكم وانكحوا الأكفاء**»(١).

ولا بد للمسلم من أن تكون له مقاييسه الخاصة، ومفاهيمه المتميزة، فما أن يشب ويرغب في الزواج، إلا وتُصوَّر له حورية بأوصافٍ معينة بشروطٍ دقيقة يمليها على أهله، وينتظر حتى يسأم، ويشتكي متحرقاً أن لا يجد عروسه، وبيوت المسلمين مليئة بالتقيات الصالحات، فإذا واجهته بالحقيقة تعلل هذه طولها كذا، وتلك قوامها كذا، وأخرى لا تليق، هذه موازينٌ فيها خلل، وبالمقابل يبحث الشاب صاحب الخلق والدين عن فتاةٍ تحصنه، فإذا به توصدُ الأبواب في وجهه، ولا ذنب له إلا أنه فارغ اليد من حطام الدنيا، لا تشفع له محصلته العلمية، ولا دعوته التي أفنى فيها شبابه،

(١) رواه ابن ماجه عن عائشة رضي الله عنها سلسلة الأحاديث الصحيحة، رقم ـ ١٠٦٧ ـ.

فهذه مسؤولية أمام الله عن رحلة ضياع العالم الإسلامي، فكم من غني ذهب ماله، ﴿فَطَافَ عَلَيْهَا طَآئِفٌ مِّن رَّبِّكَ وَهُمْ نَآئِمُونَ ﴿١٩﴾﴾[(١)] وكم من جميلة تشوَّهت بحادثٍ عابر، وكم من صبية أقعدها المرض، ويبقى الدين هو الجوهر الثابت، وتبقى المرأة الصالحة خير متاع الدنيا.

١٢ ـ لا بد في الزواج من التجانس حتى يتم الوفاق، وتتحقق المودة والرحمة، والأرواح جنودٌ مجندة، فما تعارف منها ائتلف وما تنافر منها اختلف، فكيف يُزوّج المؤمن بالعاصية؟ وكيف يُجمع بين حامل القرآن وحاملة الهوى أو العكس، ومرةً أخرى نلاحظ أن القرآن يلامس المشاعر فيهذبها، ويسعى بتوجيه الأحاسيس إلى الله. ورحم الله أبا حنيفة إذ اعتد بحديث (والبكر إذا جاءها الكفء) فلا بد في مذهبه من التكافؤ الديني والعلمي، إضافة إلى ما تعارف عليها الفقهاء، وفي الفقه الحنفي نظرات عميقة في الكفاءة في الزواج.

١٣ ـ الطهر والعفاف والحياء من سمات المؤمنين، يُفيضون بها على من حولهم، فتحيي التقوى قلوبهم، ويرتقون إلى مدارج الإحسان والمراقبة لله عز وجل، فيستحقون البشارة وبشر المؤمنين، هؤلاء هم الذين يخشون ربهم بالغيب في السر والعلن وفيما يدور بالليل والنهار.

١٤ ـ الأدب والخشية وذكر الله شيءٌ يُغرس في الطفل منذ بداية إدراكه، وتعظيم الطفل لله أمر يستمده من الوالدين، ويلحظه في تصرفاتهم، وعندما ينشأ على هذا الأدب العظيم، يُرى ذلك في سلوكه فلا يحلف بالله ولا يحمل الذين يتعامل معهم على الحلف بالله، بل يُعوِّد الصدق، يُصدِّق ويُصدَّق دون حلفٍ للأيمان ودون امتهانٍ لذكر الله عز وجل، وقد جعل الله الأيمان حدٌّ فاصل في المنازعات، التي تفرق بين زوجين أو إثبات شهادة، ومثل ذلك من الأمور، ولذلك ليس من الأدب الإسلامي، أن نسمح لألسنتنا تداول الأيمان وكأنها من معارض الكلام تجري على اللسان بغير

---

(١) سورة القلم: ١٩.

حرج، فهذا ليس من الأدب مع الله، فلينتبه المربون إلى هذه الناحية، فتقويمها في الصغر أسهل وأجدى.

﴿لِّلَّذِينَ يُؤْلُونَ مِن نِّسَآئِهِمْ تَرَبُّصُ أَرْبَعَةِ أَشْهُرٍ فَإِن فَآءُو فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ
(٢٢٦) وَإِنْ عَزَمُوا۟ ٱلطَّلَٰقَ فَإِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (٢٢٧) وَٱلْمُطَلَّقَٰتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ ثَلَٰثَةَ
قُرُوٓءٍ وَلَا يَحِلُّ لَهُنَّ أَن يَكْتُمْنَ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ فِىٓ أَرْحَامِهِنَّ إِن كُنَّ يُؤْمِنَّ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ
ٱلْءَاخِرِ وَبُعُولَتُهُنَّ أَحَقُّ بِرَدِّهِنَّ فِى ذَٰلِكَ إِنْ أَرَادُوٓا۟ إِصْلَٰحًا وَلَهُنَّ مِثْلُ ٱلَّذِى عَلَيْهِنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ
وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (٢٢٨) ٱلطَّلَٰقُ مَرَّتَانِ فَإِمْسَاكٌۢ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحٌۢ
بِإِحْسَٰنٍ وَلَا يَحِلُّ لَكُمْ أَن تَأْخُذُوا۟ مِمَّآ ءَاتَيْتُمُوهُنَّ شَيْـًٔا إِلَّآ أَن يَخَافَآ أَلَّا يُقِيمَا
حُدُودَ ٱللَّهِ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ ٱللَّهِ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا فِيمَا ٱفْتَدَتْ بِهِۦ تِلْكَ حُدُودُ
ٱللَّهِ فَلَا تَعْتَدُوهَا وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ ٱللَّهِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ (٢٢٩) فَإِن طَلَّقَهَا فَلَا تَحِلُّ لَهُۥ
مِنۢ بَعْدُ حَتَّىٰ تَنكِحَ زَوْجًا غَيْرَهُۥ فَإِن طَلَّقَهَا فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَآ أَن يَتَرَاجَعَآ إِن ظَنَّآ أَن
يُقِيمَا حُدُودَ ٱللَّهِ وَتِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ يُبَيِّنُهَا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ (٢٣٠) وَإِذَا طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَبَلَغْنَ
أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ سَرِّحُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ وَلَا تُمْسِكُوهُنَّ ضِرَارًا لِّتَعْتَدُوا۟ وَمَن يَفْعَلْ
ذَٰلِكَ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُۥ وَلَا تَتَّخِذُوٓا۟ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ هُزُوًا وَٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمَآ أَنزَلَ
عَلَيْكُم مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ وَٱلْحِكْمَةِ يَعِظُكُم بِهِۦ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ
(٢٣١) وَإِذَا طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلَا تَعْضُلُوهُنَّ أَن يَنكِحْنَ أَزْوَٰجَهُنَّ إِذَا تَرَٰضَوْا۟
بَيْنَهُم بِٱلْمَعْرُوفِ ذَٰلِكَ يُوعَظُ بِهِۦ مَن كَانَ مِنكُمْ يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ذَٰلِكُمْ أَزْكَىٰ
لَكُمْ وَأَطْهَرُ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ (٢٣٢)﴾.

المفردات:

بعولتهن: أزواجهن. **يؤلون**: يحلفون. **تربص**: انتظار.

قروء: جمع قرء وهو الطهر. **عزموا**: صمموا.

درجة: منزلة وهي منزلة القوامة. **جناح**: ذنب.

إمساك بمعروف: المعاشرة الحسنة. **تسريح**: طلاق.

ضراراً: للإضرار بهن. **فاؤوا**: رجعوا.

تعضلوهن: تمنعوهن وتضيقوا عليهن. **فبلغن أجلهن**: انتهت عدتهن.

الدراسة التربوية:

إن هناك حالات نفسية واقعة تلم بنفوس بعض الأزواج، تدفعهم إلى الإيلاء بعدم المباشرة، في هذا الهجران قد يكون إيذاء لنفس الزوجة، وإهدارٌ لكرامتها كأنثى، وجفوة تمزق أوصال العشرة، وتحطم بنيان الأسرة، وتقلق نفسيات الأطفال باضطراب العلاقة بين الوالدين، ولم يعمد الإسلام إلى تحريم الإيلاء، بل حدده وجعل له آداباً، لأنه قد يكون علاجاً نافعاً في بعض الحالات التي تكون فيها المرأة متكبرة ومشاكسة، أو يكون الإيلاء متنفساً عن ثورة غضب، فتعود الحياة بعده أنشط وأفضل، ولهذه الأسباب أو غيرها لم يُحرمه الله عز وجل غير أن التشريع حدده بأربعة أشهر، وهذه المدة كأنها الحد الوسط الذي تصبر فيه الزوجة البعد عن زوجها، وقد روي أن عمر بن الخطاب ﷺ دخل على ابنته حفصة رضي الله عنها، فسألها كم أكثر ما تصبر المرأة عن زوجها؟ فقالت: (ستة أشهر أو أربعة أشهر) فقال عمر ﷺ: (لا أحبس أحداً من الجياش أكثر من ذلك، وعزم على أن لا يغيب المجاهدون من الجند، أكثر من ذلك»، إنه إخلاص القائد العادل في إحصان الرعية، وأربعة أشهر هي مدة العدة الزوجية واسأل به خبيراً، وقال: ابن عباس رضي الله عنهما: (كان إيلاء الجاهلية السنة والسنتين وأكثر من ذلك، فوقت الله أربعة أشهر) وقال سعيد بن المسيب ﷺ: كان الإيلاء ضرار أهل الجاهلية، كان الرجل لا يريد المرأة، ولا يحب أن يتزوجها غيره، فيحلف أن لا يقربها أبداً، وكان يتركها كذلك، لا أيّماً ولا ذات بعل، فجعل الله تبارك وتعالى الأجل الذي يعلم به، ما عند الرجل في المرأة، أربعة أشهر، وأنزل الآية[١].

وفي الإيلاء قد يكون الرجل محقاً أو ظالماً، ففي الحالتين لا يحق له هجرها فوق ثلاث ليالٍ إن كان يؤدبها، وإن كان إيلاؤه إيذاء لها فلا يحق

---

(١) سبب النزول للواحدي.

له ذلك، وقد أوصاه الله تعالى بها، وأوصاه النبي الكريم بها، وترك سيرته الشريفة نبراساً للأزواج والآباء والمربين على جميع المستويات، فكما عالج الإسلام حالة التعدد بضبط العدد، كذلك عالج الإيلاء بتوقيت محدَّد أقصاه أربعة أشهر، وسواءً كانت الحالة حالة تأديب، أو حالة إعنات وتشديد فأربعة أشهر كافية لاختبار النفوس في أن تستأنف حياة زوجية صحيحة، أو أن تظل في نفرتها فتنفك العقدة وتطلّق المرأة، لتلتمس فضل الله وإغناء كلٍ من سعته. وأما أن تبقى المرأة مُهانة، تتحكم بها الأهواء فهذا ما لا يرضاه الإسلام ولا يُقره، فإن مضت أربعة أشهر على الهجران، تطلب الطلاق من زوجها فإن أبى طلّقها الحاكم، وتتربص بعدها بنفسها ثلاث حيضات، أو ثلاثة أطهار من الحيضات على خلاف فقهي في الموضوع، ولكن التعبير القرآني بالتربص وهو الانتظار على وجلٍ وترقب، هل يردُّها زوجها أم إنَّها ستستأنف حياة زوجية أُخرى، إنه القرآن الذي يطرق رغبات النفوس، وإنَّ الفشل مرة لا يعني الفشل في كل مرة، وقد ثبت أنّ أربعة أشهر أقصى ما تصبر المرأة عن زوجها، أمّا وقد وقع الطلاق فعدته ثلاثة أشهر لليائسة، وثلاثة حيضات لمن كانت من أهل الحيض، والحامل حتى تضع حملها استبراءً للأرحام، والزوج الأول هو صاحب الحق في ردِّ زوجته المطلقة إن كان لها رغبة في ذلك، وللمرأة حق في هذا الاختيار، كما للرجل حق.

وقد كان الرجل في الجاهلية يطلّق امرأته ما شاء من الطّلاق، ثم يراجعها قبل أن تنقضي عدتها، ولو طلّقها ألف مرة كان له الحق في مراجعتها، فعمد رجل إلى امرأته فقال لها: لا آويك ولا أدعك تحلّين، قالت: وكيف ذلك؟ قال: أُطلقك فإذا دنا مضي عدتك راجعتك. فشكت أمرها إلى النبي ﷺ فأنزل الله ﴿ٱلطَّلَٰقُ مَرَّتَانِۖ﴾ لقد أكرم الله عز وجل المرأة أيما إكرام، وردّ لها حقوقها، وأثبت دورها في المجتمع بأنها الركيزة الأولى، وجعلها سبباً في دخول الجنة وهي أم، وجعلها حجاباً من النار وهي ابنة، وجعلها سكناً وحصناً وهي زوجة، وهي بلسم الجراح في المعارك والمغازي، وكان آخر قوله ﷺ وهو يودّع الدنيا،استوصوا بالنساء خيراً، ودانت أعناق الرجال للمرأة يتلمسون برها ورضاها، وعن أبي هريرة

ﷺ قال: جاء رجل إلى النبي ﷺ فقال: **«يا رسول الله من أحق الناس بحسن صحابتي؟ قال: أمك، قال: ثم من؟ قال: أمك، قال: ثم من؟ قال: أمك، قال: ثم من؟ قال: أبوك»**[1].

ونقل ابن عباس رضي الله عنهما أن للمرأة حق على زوجها في أن يتزيّن لها، وقال: إني لأتزين لامرأتي كما أحب أن تتزيَّن لي، فإن راجع الزوج زوجته المطلقة، قبل أن تنتهي عدتها فبها ونعمت، وأما أن تركها حتى أنهت عدتها، فيخطبها كأي خاطب، ولها أن تقبل أو ترد، لأنها قد بانت منه بينونة صغرى، فإن رجعت إليه يكون قد وقع بينهما طلقة، وإن طلقها الثانية، فحكمها كالطلقة الأولى تماماً، أما إذا طلقها الثالثة، فتلك البينونة الكبرى فلا رجعة فيها لا في العدة ولا بعدها، حتى تنكح زوجاً غيره. إنّ العقد بين الزوجين، وثاقٌ شرعي، وعقدةٌ تعقد في السماء، قبل أن تعقد في الأرض، ولهذا شدَّد الله عز وجل في شأنه وسمَّاه ﴿مِّيثَـٰقًا غَلِيظًا﴾ وأنزل فيه الأحكام المفصلة، لأنه سبحانه وتعالى حرّم الظلم على نفسه، وجعله بين الناس محرَّماً، وعندما حكم الإسلام الناس، وعاشوا صوراً مشرقة من العدل أصبح عندهم حساسية مفرطة من الظلم، وروى الإمام مالك بن أنس رحمه الله عن عبد الله بن دينار قال: خرج عمر ﷺ في الليل يعس فسمع امرأة تقول:

تطاول هذا الليل واسودّ جانبه ... وأرّقني أن لا خليل أداعبه

فوالله لولا الله تُخشى عواقبه ... لحرك من هذا السرير جوانبه

وفعلت شكوى المرأة في رأس عمر ﷺ، ما لا يفعله ألف معول، وذهب يطرق ابنته حفصة، يستنصحها، فنصحته أن لا يغيب زوج المرأة أكثر من ستة أشهر، ووقَّت للجند وقتاً لا يتغيّبون فيه أكثر من ذلك، إنها الحساسية العمرية التي تلقاها في المسجد النبوي ولم يمر عليها متجاهلاً ولا مدَّعياً إن أريد إلا الإصلاح، بل كان مصلحاً حقاً، ولم يقل يجب أن

(١) رواه البخاري في كتاب الأدب، رقم ـ ٥٥١٤ ـ.

تكون مواطنة صالحة ما دام الزوج خرج مجاهداً في سبيل الله، ولم يقل اسمعن وأطعن والويل لمن تشتكي، ولم يجعل لهنّ سجلاً أسوداً يصفهن بالمتمردات. كلا بل تفتحت الجوانب الإنسانية في عمر ﷺ، فأرسل قراره وعدّل في خطته، لأن الإسلام علّمه أن لا يغفل عن حق أحد، إن الشفافية التي تفاعلوا بها مع آيات القرآن، هي التي علمتهم الشفافية في التعامل مع إخوانهم ورعيتهم، فضربوا أروع أمثلة الإحسان والمثالية في عالم الحياة الواقعية.

﴿وَالْمُطَلَّقَاتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ ثَلَاثَةَ قُرُوٓءٍ وَلَا يَحِلُّ لَهُنَّ أَن يَكْتُمْنَ مَا خَلَقَ اللَّهُ فِىٓ أَرْحَامِهِنَّ إِن كُنَّ يُؤْمِنَّ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾.

هذا أمر الله للمطلقات المدخول بهن، وبما أن الثلاثة قروء متعلقة بالحيض، ولا يُعرف هذا إلا من جهة المرأة، وجملة الحكم في القروء هي استبراء الرحم من الحمل، فقد حرَّم الله على المرأة أن تكتم الخبر في أمر الحمل أو الحيض، ولا يجوز لها الزيادة أو النقصان بل تخبر بالحق، فهذا من التقوى، والله سبحانه وتعالى يعلم ويحصي العدة وأيامها، ولكنه أراد أن تتربّى النفوس على التقوى مهما كانت النتائج والاحتمالات.

وزوج المرأة أحق الناس بردها، ما دامت في عدتها، إن كان يريد التوفيق والإصلاح، وعن جابر ﷺ أن النبي ﷺ قال في خطبة حجة الوداع: «**اتقوا الله في النساء، فإنكم أخذتموهن بأمانة الله، واستحللتم فروجهنّ بكلمة الله، ولكم عليهنّ أن لا يوطئن فرشكم أحداً تكرهونه، فإن فعلن ذلك فاضربوهنّ ضرباً غير مبرح، ولهنّ رزقهنّ، وكسوتهنّ بالمعروف**»[1]. وعن حكيم بن معاوية القشيري عن أبيه قال: قلت يا رسول الله ما حق زوجة أحدنا؟ قال: «**أن تطعمها إذا طعمت، وتكسوها إذا اكتسيت، ولا تضرب الوجه، ولا تقبّح، ولا تهجر إلا في البيت**»[2]. هذه هي الآداب النبوية، وهكذا كانت سيرة نبينا العطرة، وكفى برسول الله ﷺ

---

(١) رواه مسلم في كتاب الحج، رقم ـ ٢١٣٧ ـ.

(٢) رواه أبو داود في كتاب النكاح، رقم ـ ١٨٣٠ ـ.

فخراً أنه ما ضرب امرأةً قط، وقد اجتمعت تسع نساء تحت كنفه فوسعهنّ جميعاً، وحث على مكارم الأخلاق، حتى أنه أمر أن يقول للمرأة من نسائه إن اختارت الحياة الدنياوزينتها عن الله ورسوله والدار الآخرة: ﴿فَتَعَالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ وَأُسَرِّحْكُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا﴾.

إن الله كرَّم المرأة، وجعل لها كياناً وحقوقاً، كما للرجل كيانٌ وحقوق، فهي سيدة بيته تصانُ وتكرم، وتقدَّم لها الخدمات من طعام وكساء وما سواه، وفي حالة سفهها لا يُضرب وجهها، ولا تقبَّح، ولا تُسبّ ولا تُشتم بحجة أنها المخطئة، إن لتأديب الزوجة خطوات وآداب، وعلى الرجل أن يتقي الله في زوجته، وأن لا يتعالى عليها بقوته، فالله أقوى من الجميع. وحثّ الرجال على مكارم الأخلاق، وقال: «**خيركم خيركم لأهله، وأنا خيركم لأهلي**»[1] وقال: ما أكرمهنَّ إلا كريم، وما أهانهنَّ إلا لئيم.

إنّ المرأة هي قِوام الأسرة التربوي، فإذا أُهينت أمام أولادها، فكيف ستكون ثقتهم بها، وكيف يتلقى الطفل ممن يرى ضعفه ومهانته، إنّه لا بد للرجل الأب من أن يكرم زوجته ويحترمها، ويحترم رأيها حتى يبقي هيبتها في نفوس أولاده، وإن اختلف معها في الرأي، أو في أي أمر فلتسعهما غرفة نومهما ويتفاهما ويبقيا يداً واحدةً أمام الأولاد، يتبادلان الحب والأدب والاحترام، فينشأ الطفل في أسرة مستقرة، سوي الفطرة، سليم التفكير، يثق بوالديه فيكونا مصدر تربيته وتلقينه، وكثير من البيوتات الإسلامية التي قدر الله عليها ووقع بين الزوجين طلاق، تفرق الزوجان بكل هدوءٍ وأدب، ولحق الأطفال بأمهم دون تجريح ولا سباب، وتقبَّل الأطفال الحدث تحت ظل قدر الله وإرادته، حتى إن الزوج ترك البيت للزوجة والأولاد، بعد انقضاء عدتها لكيلا يتأثر الأطفال بتغير نمط حياتهم، وهكذا يُعبّد المسلم حياته لله عز وجل، ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٦٢﴾﴾[2]. فالحياة هي الحياة بحلوها ومرها، فإذا التُزم أمر الله في الصغيرة

(١) رواه ابن ماجة عن ابن عباس في كتاب النكاح، رقم ـ ١٩٦٧ ـ.

(٢) سورة الأنعام: الآية ١٦٢.

والكبيرة سيكون الرضاء والهدوء، ويقع الطلاق والجميع في حالة استسلام لله الواحد المقتدر.

﴿ٱلطَّلَٰقُ مَرَّتَانِۖ﴾ إن الطلقة الأولى اختبار للحياة الزوجية المعكرة، فإن صلح الأمر وراجع الرجل زوجته، واستؤنفت الحياة طيبةً رضية، وإلا فالطلقة الثانية تحديد مصير، وترك الأمر مفتوحاً فيه إضرار بالزوجات، فلذلك قصرهم الله عز وجل إلى ثلاث طلقات، وأباح الرجعة في المرة الأولى، وكذلك في الثانية، وأبانها وحرمها في الثالثة لتصان كرامة الإنسان، ولا يحل للزوج مضايقة الزوجة، وإعناتها لتتخلى عن حقوقها أو بعضها، بل أمره ربه بالإمساك بمعروفٍ أو التسريح بإحسان، ومن الإحسان إعطاؤها حقوقها كاملة، وهذه المعاملات من حدود الله التي لا يجوز لأحدٍ تعديها ﴿تِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ فَلَا تَعْتَدُوهَاۚ﴾. إن العلاج التربوي القرآني في كل ناحية له أسلوب، ففي الصيام قال سبحانه: ﴿تِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ فَلَا تَقْرَبُوهَاۗ﴾ حذر حتى من القرب منها لأنها شهوات، فلا تنال مرة واحدة ومباشرة بل لها مقدمات، ومقدماتها تفتح سبل جاذبية المحظورات والشهوات، فكان التحذير من التفكير في الاقتراب.

أما هنا فالموقف موقف خلافات واصطدامات، فالخوف من الظلم والتعدي في لحظات الغضب أوقع، فلذلك كانت دقة التعبير بين تقربوها وتعتدوها، وكما يتعامل الطبيب في علاج المريض بخطير العقاقير، فهنا نصف جرعة وهنا نقطة، ومن هذا ملعقة، فالله عز وجل يتولى علاج هذه النفوس، بالكلمة والعتاب والأمل والوعيد والتهديد والبشارة، حتى تصح القلوب وتعم العافية، إن أي تلاعب في تخفيف حكم الحلال، أو تشديد حكم الحرام، يضر باستقامة النفوس تماماً كتلاعب الطبيب بكمية الدواء للجسم العليل، ولذلك حمل الصحابة الكرام هذا الدين، ونقلوا هذه الشرائع بدقةٍ متناهية، وفصَّل الأئمة في الحلال والحرام بحذرٍ شديد تحت القاعدتين ولا تقربوها ولا تعتدوها دون تدخلٍ للأمزجة واتباعٍ للهوى، ويمضي السياق يفصل في أحكام الطلاق، فإن طلقها ـ أي الطلقة الثالثة ـ فلا تحل له حتى تنكح زوجاً غيره، ﴿فَإِن طَلَّقَهَا فَلَا تَحِلُّ لَهُۥ مِنۢ بَعْدُ حَتَّىٰ تَنكِحَ زَوْجًا غَيْرَهُۥۗ فَإِن

طَلَّقَهَا فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَآ أَن يَتَرَاجَعَآ إِن ظَنَّآ أَن يُقِيمَا حُدُودَ ٱللَّهِ وَتِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ يُبَيِّنُهَا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٢٣٠﴾﴾ إن قيام الحياة الزوجية، وبناء أسرة قوامها البشر، لا يمكن أن يُترك للأهواء وإنما حصّنه الله بحدود وأحكام لا يجوز التلاعب بها، وفي ذلك قال عليه الصلاة والسلام عن أبي هريرة رضي الله عنه **«ثلاثة جدّهن جد، وهزلهنَّ جد، النكاح والطلاق والرجعة»**[١]. وقال رسول الله ﷺ: **«أيما امرأة سألت زوجها طلاقها في غير ما بأس، فحرامٌ عليها رائحة الجنة»**[٢]. وقال: **«إنّ الله حدّ حدوداً فلا تعتدوها، وفرض فرائض فلا تضيعوها، وحرم محارم فلا تنتهكوها، وسكت عن أشياء رحمة لكم من غير نسيان فلا تسألوا عنها»**[٣].

فإذا طلق الرجل زوجته الطلقة الثالثة، وبانت منه، فيجب الإلتزام بأمر الله وعدم اللجوء إلى الحيل، واقتحام حدود الله تحت كل ستار، ففي هذه الحالة. يجب عليه أن يُلغيها من حياته، وكذلك هي، أما إن تزوجت غيره زواجاً صحيحاً غير مهموز ولا ملموز، ولا مؤجل ولا مؤقت، وبقيت المرأة في عصمته ثم مات أو طُلقت منه، ولم يراجعها، ففي هذه الحالة وبعد انقضاء عدتها، إن رأى زوجها الأول أن يعود إليها، فلا بأس في ذلك، فيخطبها ويتزوجها بعقد ومهر وشهود، كأي رجلٍ آخر، وأما أن يأتي برجل فيتفق معه على أن يتزوجها ويطلقها، لتحل للأول فهذا لا يجوز، ولا يصح، وقال ابن عمر رضي الله عنهما: (كنا نعد هذا سفاحاً أي حراماً) وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: سئل رسول الله ﷺ عن نكاح المحلل، فقال: **«لا إلا نكاح رغبة لا نكاح دلسة، ولا استهزاء بكتاب الله»**[٤]. وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: (لعن رسول الله ﷺ (المحِلَّ

---

(١) رواه أبو داود والترمذي وابن ماجة واللفظ للترمذي في كتاب الطلاق واللعان، رقم ـ ١١٠٤ ـ.

(٢) رواه أحمد وأبو داود وان ماجه واللفظ لأبي داود في كتاب الطلاق، رقم ـ ١٨٩٩ ـ.

(٣) حديث حسن رواه الدارقطني.

(٤) رواه الجوزجاني.

والمحللّ»)[1]. وإذا رجعت المرأة بعد الزوج الثاني إلى زوجها الأول تعود ولا طلقة عليها، ولا يصح أن يحللها لزوجها الكافر، لأن نكاح الكافر في الإسلام باطل.

﴿وَلَا يَحِلُّ لَكُمْ أَن تَأْخُذُوا۟ مِمَّآ ءَاتَيْتُمُوهُنَّ شَيْـًٔا إِلَّآ أَن يَخَافَآ أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ ٱللَّهِ ۖ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ ٱللَّهِ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا فِيمَا ٱفْتَدَتْ بِهِۦ ۗ﴾ وهذه الحالة تسمى الخلع، وكان أول خلع في الإسلام ما رواه البخاري بإسناده عن ابن عباس رضي الله عنهما (أن جميلة بنت سلول أخت عبد الله بن سلول أتت إلى النبي ﷺ وكانت امرأة لثابت بن قيس، فقالت: يا رسول الله، لا يجمع رأسي ورأسه شيءٌ أبداً، وإني رفعت جانب الخباء، فرأيته قد أقبل في عدة، فإذا هو أشدهم سواداً وأقصرهم قامة، وأقبحهم وجهاً)، وزادت في رواية أخرى، (وما أعيب عليه في خُلقٍ ولا دين، غير أني أكره الكفر في الإسلام) فقال زوجها: يا رسول الله إني قد أعطيتها أفضل مالي، حديقة لي، فإن ردت على حديقتي، قال رسول الله: ما تقولين؟ قالت: نعم، وإن شاء زدته، قال: ففرق بينهما)[2]. وليس للمخالع أن يراجع المختلعة في العدة بغير رضاها، لأنها قد ملكت نفسها بما بذلت له من عطاء.

إن الرسول ﷺ قابل هذه الحالة النفسية بنوعٍ من التفاهم، ونزل حكمها من السماء، ولو يُدرك المسلمون الحكمة مَن وراء ذلك، لصلح حال كثيرٍ من البيوت.

إن المرأة مطالبة بتخريج الأجيال، فلا بد لها من الاستقرار النفسي، ولا بد من هدوء المشاعر، ومن أجل هذا نزل حل مشكلتها من رب العباد، بمنهج عملي واقعي، يسن ويشرع للبشرية، وأدرك حالتها المضطربة، ومشاعرها المبغضة، فلم يضغط عليها، ولم يقهرها، بل شرط

---

(١) رواه أحمد في كتاب باقي مسند المكثرين، رقم ـ ٧٩٣٧ ـ.

(٢) البخاري.

عليها أن ترد ما أعطاها فرضيت وفارقته، وأمام هذه الحادثة توجد خلافات فقهية، هل يجوز له أن يأخذ منها أكثر مما أعطاها؟ قال أصحاب أبو حنيفة رحمه الله: إن كان الإضرار من قبلها جاز أن يأخذ منها ما أعطاها، ولا يجوز الزيادة، وإن كان الإضرار من جهته، لم يجز له أن يأخذ منها شيئاً، وقال الإمام أحمد: لا يأخذ من المختلعة فوق ما أعطاها، وقال الشافعي رحمه الله: يجوز أن يأخذ كل ما يتفقان عليه من كثير أو قليل، حتى لا يترك لها سوى عقاص شعرها، وهذا الخلاف موسَّع في مراجعه الفقهية. ﴿وَإِذَا طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ ...﴾، فإذا وقع الطلاق، وقاربت العدة على الانتهاء، وهذا وقت المراجعة فليتقوا الله، فإما رجعةٌ وحياةٌ سعيدةٌ مستقرة، وإما تسريحٌ بإحسان، وقد حذر الله من حبس المرأة للإضرار بها، فلا هي في عصمته تتمتع بحياتها، ولا هي حرة تذهب في حال سبيلها، بل هي رهينة الظلم، وهذه الحركة سواءً كانت قولاً ظاهراً، أو نيةً وقصداً، فإنها تزجه في عداد الظالمين لأنفسهم، المنتظرين لعقاب الله عز وجل، ولا يجوز التلاعب والاستهزاء بنعمة الله، وإنما يجب شكر الله الذي أمدّنا بفضله، وشكر نعمة النبوة التي فصّلت لنا تشريع ربنا، ولا بد أن تكون التقوى هي الحافز في المعاملات، لأن الله بكل شيءٍ عليم، إنها الإحاطة الربانية بهذا الإنسان لئلا يتفلت زمامه إذا استشعر القوة في نفسه، والضعف في الذي أمامه، فالله محيطٌ رقيب وحاضرٌ لا يغيب، وبطشته جبّارة وعادلة.

﴿وَإِذَا طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلَا تَعْضُلُوهُنَّ ...﴾.

وهنا المعنى في أجلهن أي انقضاء عدتهن، والفرق بين الأجلين هنا وفي الآية السابقة أنه هنا أعقبها الله النكاح فلا يكون إلا بعد انقضاء العدة، وهناك أعقبها الرجعة فتكون قبل انقضاء العدة.

﴿وَإِذَا طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلَا تَعْضُلُوهُنَّ أَن يَنكِحْنَ أَزْوَٰجَهُنَّ إِذَا تَرَٰضَوْا۟ بَيْنَهُم بِٱلْمَعْرُوفِ﴾ فإذا طُلقت المرأة طلقة واحدة، أو طلقتين، وانقضت عدتها، وطرق بابها الخُطاب وأتى بينهم زوجها، الذي لم يراجعها قبل انقضاء عدتها فله الأولوية في خطبتها، إن كان لها به رغبة، وإلا فلا تُجبر

عليه ولا تُمنع منه، وقد بيّن الله عز وجل حكم هذا.

وذلك أن (معقل بن يسار المزني ﷺ، زوَّج أخته رجلاً من المسلمين، على عهد رسول الله ﷺ، فكانت عنده ما كانت، ثم طلقها تطليقة ولم يراجعها حتى انقضت عدتها، ثم هويها وهويته، فخطبها من الخطاب، فقال أخوها معقل: يا لكع ابن لكع أكرمتك بها وزوجتكها فطلقتها والله لا ترجع إليك أبداً. قال: فعلم الله حاجته لها، وحاجتها إلى بعلها، فنزلت الآية فدعاه الرسول ﷺ، وتلاها عليه فقال معقل: سمعاً لربي وطاعة، ثم دعاه فقال: أُزوجك وأُكرمك وأُكفر عن يميني)[1]. رضي الله عنهم أجمعين.

الفوائد التربوية:

١ ـ إن الإضرار بالإنسان لا يلتقي مع مبادىء الإسلام، في أي موقف من المواقف حتى حالة الحرب قال تعالى: ﴿فَمَنِ ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ فَٱعْتَدُوا۟ عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ﴾ وهذا أصلٌ من الأصول الذي لا يزيغ عنه إلا هالك، والزوجة وهي الأم ونصف المجتمع كيف يستبيح الزوج لنفسه إيذاءها، واستغلال ضعفها، في حين لا ضعيف في الإسلام، فانتصر الله لها وأنصفها وجعل حقوقها حداً من حدوده، لا يتعداه إلا من ظلم نفسه.

٢ ـ تنظيم العلاقة الزوجية، والأسس في بناء الأسرة المسلمة دليل على مكانتها في صرح هذا الدين، أنها ـ يعني الأسرة ـ هي اللبنة الأولى في بناء المجتمع، وقد أثبتت التجارب العلمية أن أي جهاز آخر غير جهاز الأسرة لا يعوّض عنها، ولا يقوم مقامها، ولذلك كان تركيز التنظيمات المعادية للإسلام، على إفساد ذلك الجهاز، ووُضعت أفكار واستُجدت مبادىء ظاهرها في جانب المرأة وحقيقتها تحطيم البناء الأُسري، فأصبح خروج المرأة للعمل دليل التقدم، وقيام الخادمة بمسؤولية الأم دليل الغنى،

---

(١) رواه أبو داود والترمذي وابن ماجة وله شواهد من البخاري وعند الترمذي في كتاب تفسير القرآن، رقم ـ ٢٩٠٧ ـ.

وأن البيت بيت خدمٍ وحشم، وكذلك السائق عوضاً عن الأب، يلبي رغبات كل فرد من الأسرة، وانحصرت مهمة الوالد بأنه المصدر المالي فقط، وهذا غاية من غايات اليهود أن يوجدوا أطفالاً بلا أُسر، كما كتب فرويد (ليسهل على اليهود تهويدهم).

٣ ـ إن المتأمل في الآيات والنظام القرآني الشامل يجد أن الله عز وجل لا يقر إلغاء شخصية أحد، أو تعميم فكرة ينضوي تحتها كل الناس إلا التوحيد، وما عدا ذلك فعندما يعدد أصناف الكفار، ويصف اليأس منهم غالباً ما يستثني، ولو كان الصالح فيهم نسبة واحد بالمليون، وذلك لأن الله عز وجل هو الحق، وحكمه الحق، ولا يقول إلا حقاً، ومن هذا المبدأ صان المرأة فالتي أسلمت وآمنت نالت الحصانة الربانية، والتي كفرت سينالها التأديب الرباني، ولن يفلت من قبضة الله أحد، ولذلك حدد الله الطلاق، ووقَّت للهجران، وحكم في الحالات الشاذة في البيوت، ولا يُوجد أحد في الإسلام يبقى مظلوماً محطم النفس يائساً من الخير، بل جعل الله لكل حالٍ فرجاً ومخرجاً، وقال للرجل المتسلط: إما أن تمسك بمعروف وإما أن تسرح بإحسان، فهذه المرأة خُلقت لتعطي وتُنتج، وأوجد الله لها سبيلاً، وجعل لكلٍ من الرجل والمرأة حدوداً يقف عندها.

٤ ـ إن القرآن لم يغفل صغيرة ولا كبيرة، ولفت النظر أن للرجل على المرأة درجة وهي القوامة، واتخذت المرأة الجاهلة من هذه الدرجة موقفاً، قد يكون جهلاً منها بالمعنى، أو لما رأته من سوء استغلال بعض الرجال لهذه الدرجة، لقد أخطأ ذلك الرجل عندما فهم أن القوامة تعطيه صلاحية الطاغوت، وغلط مرة أخرى عندما فهم أن درجة القوامة تعطيه حق الاستهزاء بزوجته، وإلغاء شخصيتها، ولو أدرك أن من عظيم مكانتها عند الله، أنه ائتمنه الله عليها وجعل له درجة القوامة، وهي درجة تكليف، وليست درجة تسلط وإعنات، فعليه إطعامها وإسكانها وحمايتها وتعليمها أمور دينها، وهذا كله ليس مقابل خدمتها وطبخها وكنسها أبداً، وإنما كلفه الله ذلك مقابل أن تُحصنه، وتنجب له ولده ثم تحسن تربيته، حتى يكون ولداً صالحاً يدعو لوالديه، إن الحال التي آلت إليه الأسرة المسلمة،

حالٌ مزرٍ في أغلب الأحيان، حالة المعاناة من قلة الفقه في الدين، فالرجل القوّام يغضب ويزمجر لقلة أصناف الطعام، ولا يستاء أبداً لتضييع الصلوات، ويقلب الدنيا ولا يقعدها، إذا افتقد ثوباً مكوياً أو قميصاً، ولا يُلقي بالاً لثوب زوجته الذي كشف عوراتها. وخلاصة القول: إن الرجل القوّام أصبح يغضب لنفسه ولا يغضب لله أبداً، يُنفق ويستدين ليحضر أدوات الإفساد والبلاء من تلفزيون ومرئيات، ولا يفكر في الإنفاق على تعليم أولاده، بل يستكثر أن يخصص ولو شيئاً بسيطاً ليأتي بالمجلة الإسلامية يدعم بها إخوانه، ويكفي أولاده شر الوقت والفراغ، إن بعض الرجال يفخر بأنّ أهله لا يخرجون ولا يدخلون، بل أحكم القبضة عليهم واشترى لهم التلفزيون والقنوات الفضائية المدمرة، وزجَّ بالمرأة والأولاد أمام مفسدٍ يعلمهم ويُلقنهم الفساد بعيدين عن رياض العلم النافع، بعيدين عن مناهل الفقه والدين، وفي أخف الحالات ضرراً لا يعلمهم الخير ولا يتركهم يتعلمونه، ثم يصحب هذه المرأة إلى الأسواق فتشتري ما رأته على الممثلات، وتحاكي في ذوقها أهل الدعايات، متبعةً الهوى والإغراء، فلا هي تدري ولا هو يدري ما الحس الإسلامي وما هي الشخصية الإسلامية ولا الأصول التربوية والسمت الإسلامي، ولا ما هي مرامي عدونا وتركيزه على المرأة والأسرة، هذا حال معظم بيوت المسلمين الغيّورين، وإذا عُوتب في أهله وذُكرت له مكانة المرأة في الإسلام ومسؤولياتها، أجاب بأن المرأة والأولاد يخرجون إلى حفظ القرآن، يحفظون ويُحفّظون، والحكمة بعيدة، والفهم مستغلق، فالأصل أنهم يتعلمون ويعلّمون (فالحفظ والفهم والتطبيق هي بعض معاني التعليم)، وغاب عنهم أن حفظ القرآن مسؤولية كبيرة جداً أمام الله، فالقرآن حجة لك أو عليك، إنّ الوضع يحتاج إلى موقف محاسبة، ووقفة إخلاص لله عز وجل، فالرجل الذي يُسخّر نفسه وأهله وبيته وأولاده لعزة هذا الدين، سينال العزة من العزيز الحكيم، والرجل الذي يؤتى الحكمة ويسوس بها أهله يكون قد اهتدى إلى صراط العزيز الحميد، فلا عزّ ولا حكمة حتى يحرك الإسلام قلوب الأسرة جميعها رجالاً ونساءً شيباً وأطفالاً.

٥ ـ حادثة الخلع التي حصلت، وأقرها الله عز وجل ونفذها

رسول الله، وأخذت مكانها الفقهي في التشريع، توحي لكل ذي لبٍ وبصيرة أن المرأة لها حقوق ولا تُقهر، وقد أثبت الطب أن المرأة إذا كانت تعاني من اضطراب نفسي، فإنه ينعكس على تفكيرها، وعلى جهازها التناسلي، فكثيرٌ من حالات العقم عند النساء، سببه الحالة النفسية المضطربة، والله عز وجل طالب المرأة ببناء الأجيال والله لا يطلب حقه حتى تنال المرأة حقها كاملاً ويبدأ حقها عندما يختار لها أبوها الكفء مادياً ومعنوياً، وصدق من وصف الأم بأنها مدرسة، والحق أنها مدرسة لكل مراحل العمر، ونبع عاطفيٌ يحتاجه الظمآن في كل حين.

٦ ـ إن الإسلام كله قائم على الحق ولا مكان للغش فيه، وشخصية المحلل الذي وصفه رسول الله ﷺ بأنّه التيس المستعار، ما هي إلا صورة في جانب من جوانب انحراف الشخصية الإسلامية، إن الله وصف يهود بأنّهم يتلاعبون في تشريع ربهم، وكان عقابهم الطرد من رحمة الله وضرب الذلة والمسكنة عليهم، ولذلك بيّن الله عز وجل الحكم هنا بدقة، وبعباراتٍ بينات ﴿حَتَّىٰ تَنكِحَ زَوْجًا غَيْرَهُۥ﴾ نكاحاً سليماً كاملاً تاماً، لا تتلاعب فيه الأهواء ولا تُضمر فيه نيات وبعدها يفعل الله ما يشاء.

٧ ـ الطلاق كلمة جدّ لها وزنها عند الله، فلا يجوز للرجل أن يجعلها ملح كلامه، فالعقد الشرعي، صيانةٌ للبيوت، وحجةٌ لشرعيتها، فالرجل الذي يحلف بالطلاق على مأكله ومشربه ومعاملاته قليلاً ما تكون شرعية زوجته في عصمته ثابتة، فليتق الله ربه فالأمر خطير وهذه كلمة لها حرمتها، والرجل المؤمن لا يتلفظ بها إلا إذا استعصت كل حلول الإصلاح، إنّ علماء الأمة سئموا من كثرة سؤال السائل، قلت لزوجتي إن ذهبت فأنت طالق وإن أكلت فأنت طالق، وإن أمسكت بالشيء فأنت طالق، والاستفسار دائماً هل كنت تعنيه؟ والجواب والله لا أعنيه ولا أقصده وكنت غضباناً، يتلمس الأعذار لئلا يخسر امرأته ويخرب بيته، هذه مهازلٌ ومسرحياتٌ. وهل العلماء تشق على القلوب؟ وتحصي الحوادث، إن فتوى الشيخ بالحل والحرام، ليس من الشرع في شيء لأنه يُفتي على قدر النص الذي بلغه، ويبقى الرجل هو المسؤول الأول والأخير أمام الله وأمام أولاده هل جاء بهم

من حلال أم من سفاح، واللعب بكلمة الطلاق يُعدُّ استهزاءً بآيات الله، وهي من الكلمات التي جدُّها جد، ولا هزل فيها.

٨ ـ الإعضال في الشرع محرم وهو منع الزوجة عن زوجها، ولذلك فإن من قواعد الإسلام الذهبية، (إن كل خيرٍ فالإسلام يشجعه ويحثُ عليه ويطلبه، وكل شرٍ يُنفّر منه ويعاقب عليه) ولذلك قال عليه الصلاة والسلام «**ليس منا من خبب امرأةً على زوجها أو عبداً على سيده**»(١). خبب: أي أفسد.

ولننظر في أسباب النزول ونقارن المواقف التربوية والانصياع لأمر الله، معقل رجلٌ مسلم تخرّج من الجامعة النبوية وحظي بلقب صحابي واستحق من الأجيال الترضي عليه. بم نال هذا؟ نحن بلغنا عنه موقف لحظة من مواقف حياته الحافلة، فوقفنا أمام شخصيّته معجبين، عيننا دامعة وقلبنا مفعم بالحب والاحترام. الصحابي إنسانٌ يزاول حياته بمشاعره وأحاسيسه، وغضبه وفرحه، تُطلَّق أخته فيحزن، ويحلف أن لا يردها لزوجها، وهو يستطيع أن يفعل، ومضت الأيام وانقضت العدة ـ لا تدري لعل الله يحدث بعد ذلك أمراً ـ وحدث الحنين، ووجدت الرغبة وعلم الله حاجتها لزوجها وعلم الله حاجته لزوجته، ولا بد مقابل هذا العلم من دعوةٍ صادقة في طلب الستر والعودة إلى بعضهما، أيقف الصحابي عائقاً عن خير! وكيف قد حلف وأصر! أتخذله أخته؟ كلا ليس هذا من شيمة ابنة الإسلام التي تحترم أولياء أمورها، فالشكوى بقيت اختلاجات في الصدور، وتقلبٌ في السجود، ونزل القرآن ودعا رسول الله ﷺ معقل وتلا عليه الآيات بماذا أجاب؟ وكيف كان الموقف! سمعاً لربي وطاعة، دون تلكؤ وخجل من التراجع، ولف ودوران في الأسلوب، ولا شخص ثالث في الموضوع، إنهم تربُّوا عى الاستقامة ورفضوا الطرق الملتوية، سمعاً لربي وطاعة، تفضّل يا أخي أزوجك وأُكرمك وأُكفرُ عن يميني. إنّها مواقف تذرف الدمع من العيون بحرارة، هذا هو البشر اليوم، ولا مربياً (والأصح لغوياً مُرَبٍّ) كمحمدٍ ﷺ.

---

(١) رواه أبو داود عن أبي هريرة ﷺ في كتاب الطلاق، رقم ـ ١٨٦٠ ـ.

الإنسان موجود، والمادة التربوية موجودة، ولكننا نفتقد المربين.

إننا بحاجة للاقتداء بهؤلاء النجوم ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ ۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ ۖ﴾(١) إننا بحاجة لتلك المدرسة القرآنية النبوية التي خرَّجتهم، لا عناد ولا جدال ولا اعتداد بالآراء، ولا مخارج فقهية مفتعلة، ولا كذب ولا افتراء، وإنما الإسلام والاستسلام، سمعاً لربي وطاعة. لو التزم كل فردٍ من بني قومنا اليوم بما التزمه معقل ﷺ، وقال الجميع سمعاً لربنا وطاعة، أترك النتيجة ليستطلعها كل دارسٍ للقرآن، وكل محبٍ لهذا الدين. إنّ حب القرآن وحفظه يؤدي إلى مثل هذه السلوكيات، وأما هزّه كهز الشعر فلا يؤدي إلا إلى الغرور والتكبر بغير الحق.

﴿۞ وَٱلْوَٰلِدَٰتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَٰدَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ ۖ لِمَنْ أَرَادَ أَن يُتِمَّ ٱلرَّضَاعَةَ ۚ وَعَلَى ٱلْمَوْلُودِ لَهُۥ رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ ۚ لَا تُكَلَّفُ نَفْسٌ إِلَّا وُسْعَهَا ۚ لَا تُضَآرَّ وَٰلِدَةٌۢ بِوَلَدِهَا وَلَا مَوْلُودٌ لَّهُۥ بِوَلَدِهِۦ ۚ وَعَلَى ٱلْوَارِثِ مِثْلُ ذَٰلِكَ ۗ فَإِنْ أَرَادَا فِصَالًا عَن تَرَاضٍ مِّنْهُمَا وَتَشَاوُرٍ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا ۗ وَإِنْ أَرَدتُّمْ أَن تَسْتَرْضِعُوٓا۟ أَوْلَٰدَكُمْ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِذَا سَلَّمْتُم مَّآ ءَاتَيْتُم بِٱلْمَعْرُوفِ ۗ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٢٣٣﴾ وَٱلَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَٰجًا يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا ۖ فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا فَعَلْنَ فِىٓ أَنفُسِهِنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ ۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿٢٣٤﴾ وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا عَرَّضْتُم بِهِۦ مِنْ خِطْبَةِ ٱلنِّسَآءِ أَوْ أَكْنَنتُمْ فِىٓ أَنفُسِكُمْ ۚ عَلِمَ ٱللَّهُ أَنَّكُمْ سَتَذْكُرُونَهُنَّ وَلَٰكِن لَّا تُوَاعِدُوهُنَّ سِرًّا إِلَّآ أَن تَقُولُوا۟ قَوْلًا مَّعْرُوفًا ۚ وَلَا تَعْزِمُوا۟ عُقْدَةَ ٱلنِّكَاحِ حَتَّىٰ يَبْلُغَ ٱلْكِتَٰبُ أَجَلَهُۥ ۚ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ فَٱحْذَرُوهُ ۚ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ ﴿٢٣٥﴾ لَّا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِن طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ مَا لَمْ تَمَسُّوهُنَّ أَوْ تَفْرِضُوا۟ لَهُنَّ فَرِيضَةً ۚ وَمَتِّعُوهُنَّ عَلَى ٱلْمُوسِعِ قَدَرُهُۥ وَعَلَى ٱلْمُقْتِرِ قَدَرُهُۥ مَتَٰعًۢا بِٱلْمَعْرُوفِ ۖ حَقًّا عَلَى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٢٣٦﴾ وَإِن طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِن قَبْلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ وَقَدْ فَرَضْتُمْ لَهُنَّ فَرِيضَةً فَنِصْفُ مَا فَرَضْتُمْ إِلَّآ أَن يَعْفُونَ أَوْ يَعْفُوَا۟ ٱلَّذِى بِيَدِهِۦ عُقْدَةُ ٱلنِّكَاحِ ۚ وَأَن تَعْفُوٓا۟ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ ۚ وَلَا تَنسَوُا۟ ٱلْفَضْلَ بَيْنَكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٢٣٧﴾ حَٰفِظُوا۟ عَلَى ٱلصَّلَوَٰتِ وَٱلصَّلَوٰةِ ٱلْوُسْطَىٰ وَقُومُوا۟ لِلَّهِ قَٰنِتِينَ ﴿٢٣٨﴾ فَإِنْ خِفْتُمْ فَرِجَالًا أَوْ رُكْبَانًا ۖ

(١) سورة الفتح: الآية ٢٩.

﴿فَإِذَآ أَمِنتُمْ فَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ كَمَا عَلَّمَكُم مَّا لَمْ تَكُونُواْ تَعْلَمُونَ ﴿٢٣٩﴾ وَٱلَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَٰجًا وَصِيَّةً لِّأَزْوَٰجِهِم مَّتَٰعًا إِلَى ٱلْحَوْلِ غَيْرَ إِخْرَاجٍ فَإِنْ خَرَجْنَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِي مَا فَعَلْنَ فِىٓ أَنفُسِهِنَّ مِن مَّعْرُوفٍ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٤٠﴾ وَلِلْمُطَلَّقَٰتِ مَتَٰعٌۢ بِٱلْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٢٤١﴾ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٢٤٢﴾﴾.

المفردات:

تشاور: الرأي والمشورة.

عرضتم: لمحّتم أو لوّحتم.

عقدة النكاح: العقد.

أكننتم: أسررتم.

الموسع: الذي وسّع عليه زرقه.

المقتر: الفقير.

تفرضوا لهنّ فريضة: المهر.

قانتين: خاشعين.

فرجالاً: جمع راجل وهو الماشي على قدميه.

فصالاً: فطاماً.

ركباناً: جمع راكب وهو الراكب على دابّة أو نحوها.

يذرون: يتركون.

الوسطى: التي تتوسط الشيء، والمقصود هنا صلاة العصر على القول الراجح.

متاعاً بالمعروف: هدية يقدمها الرجل لمن طلقها جبراً للمصيبة وتطييباً للخاطر.

الدراسة التربوية:

﴿وَٱلْوَٰلِدَٰتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَٰدَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ﴾.

هذا الخبر بمعنى الأمر، فالواجب أن ترضع الأم طفلها ما استطاعت إلى ذلك سبيلاً. والواجب على والد الطفل، النفقة على الوالدات، وكسوتهنّ بالمعروف، أي على قدر يسار الزوج، بما جرت عليه عادة الإنفاق على مثيلاتهنّ، ولا يجوز للمرأة أن تدفع الولد عنها لتضر أباه بتربيته، وكذلك لا يحل للأب أن ينتزع الطفل من أمه للإضرار بها. ومدة الرضاعة سنتان، وكذلك الوارث لا يحق له الإضرار بزوجة المتوفى، وفي

جميع الأحوال فهذا الطفل أمانة بأيديهما، فلا بد من الإتفاق على ما فيه مصلحته، وتقديمها على كل مصلحة، وأما إذا تراضى الطرفان، وتشاورا على فطام الطفل لعذرٍ بينهما، وتسلم الوالد الولد منها لعذرٍ لها، أو لعذرٍ له، فلا جناح ببذله، ولا جناح عليه بقبوله منها، إذا سلَّمها أجرتها الماضية بالتي هي أحسن، واسترضع لولده ظئراً ـ الظئر: هي المرضع التي تحنو على ولد غيرها وترضعه ـ فالله يعلم ما يفعلون، فلذلك أمرهم بالتقوى لأنَّ الأمر يخص طفلاً قاصراً ضعيفاً بين اثنين مختلفين، لا يردعهم في هذا الموقف إلا التقوى، وإن الله يعلم ما في الصدور، إنّ هذه الآية أتت في سياق آيات الطلاق، فلذلك فصّل الله عز وجل في موضوع لا بدَّ من حله، وهو وضع الطفل المعلّق بين والدين منفصلين، فإن أرضعته أمه حولين كاملين أو غير كاملين، فلا بدَّ لها من أن ينفق عليها أبو الطفل، أو وليه نفقةً حسنة وهذه النفقة تجب لها سواءً أكانت الزوجة معتدة بحكم الزوجية، أو بعد انفصام الزوجية، فيكون بسبب انحباسها على تربية الطفل، وإذا مات الأب، تنتقل النفقة على من تجب عليه نفقة الطفل، وإذا حصل ما يمنع الأم من استمرار الرضاع، فيستأجر الأب من ترضع له ولده، ويدفع لها أجراً جديداً، والرضاعة حددَّها الله سنتان، فلذلك لا بدَّ لحكم الرضاع والتحريم به أن يكون خلال السنتين.

إن الله عز وجل أنزل آيات، وحدَّد أصولاً وحدوداً، لتحكم في حق الطفل المولود بين أم الأصل فيها الرحمة، وأب الأصل فيه العناية والنفقة، فكيف بأطفالٍ تهدر حقوقها وتضيع بين والدين مجتمعين غير متخاصمين ولكن شغلتهم الدنيا، وجرفتهم بزينتها، فتخليا عن واجب التربية، فغاب الصدر الحنون لتحلَّ محله رضّاعةٌ بيد الخادمة، وتخلّى الأب فحلَّ محله السائق، إنّ هذا التفكك الأسري لن يرضى الله عنه، وستُدفع ضريبة هذا الضياع غالية، وستكون المسؤولية بين يدي الله كبيرة، وصدق الشاعر بوصفه:

ليس اليتيم من انتهى أبواه من ... همِّ الحياة وخلّفاه ذليلا

إن اليتيم هو الذي تلقى له أمّاً تخلت أو أباً مشغولا

﴿وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا . . .﴾ والمتوفي عنها زوجها كانت تلقى كثيراً من العنت من الأهل، ومن قرابة الزوج، ومن المجتمع كله، وعند العرب كانت إذا مات عنها زوجها دخلت مكاناً رديئاً ولبست شرَّ ثيابها، ولم تمس طيباً، ولا شيئاً مدة سنة، ثم تخرج وتقوم بعدة شعائر جاهلية لا معنى لها، ولا تعبر عن ودٍ ولا رحمة، فلما جاء الإسلام رفع عن كاهلها العنت كله، ولم يُجمع عليها مع فقدان الزوج فقدان سبل الحياة الكريمة، فجعل عليها أربعة أشهر وعشرة أيام ما لم تكن حاملاً، وإن كانت حاملاً فعدتها حتى تضع حملها، وفي أثناء العدة تلبس المحتشم من الثياب، ولا تتزيّن للخطّاب، وتستبرىء في هذه المدة رحمها، ولا تجرح أهل زوجها، فإذا انقضت عدتها فلا سبيل لأحدٍ عليها، إنه احترام لمعاني الود والرحمة والسكن، إنه اعتبار لمشاعر وذكريات لم تمت في النفس بعد، ومع رعاية هذه الاعتبارات فقد أُبيح التعريض لا التصريح ـ بخطبة النساء وعن ابن عباس رضي الله عنهما (إن التعريض مثل قول الرجل ـ إني أريد الزواج ـ ولوددت أنه تيسر لي امرأة صالحة)[1] ﴿عَلِمَ اللَّهُ أَنَّكُمْ سَتَذْكُرُونَهُنَّ﴾.

أباح الله التعريض بهذه الرغبة المكنونة لأنها ميلٌ فطري، والإسلام يلحظ أن لا يحطِّم الميول الفطرية إنما يهذبها، ولا يكبت النوازع البشرية إنما يضبطها، وينهى عما يخالف نظافة الشعور، وطهارة الضمير، وفي حين أنه أباح التعريض بالخطبة لكنه حظر الوعد في السر ونهى عنه فلا يجوز فعله، إلا القول المعروف الذي لا فحش فيه، ولا اعتداء على حدود الله، ﴿وَلَا تَعْزِمُوا عُقْدَةَ النِّكَاحِ﴾. ولم يقل ولا تعقدوا النكاح زيادة في التحرج، فحتى الهمّ في الموضوع محظور، وهذا قمة المعالجة التربوية لتهذيب النفوس، ورقي المشاعر، ولا بد من هزة الضمير البشري، هزة الخوف والحذر ـ واعلموا أنَّ الله يعلم ما في أنفسكم فاحذروه، فإذا ارتعش

(١) صحيح البخاري كتاب النكاح.

الإنسان وارتعد خائفاً من الله، سكب عليه الطمأنينة والثقة بالعفو والمغفرة ـ واعملوا أنَّ الله غفورٌ حليم.

﴿لَّا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِن طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ مَا لَمْ تَمَسُّوهُنَّ أَوْ تَفْرِضُوا۟ لَهُنَّ فَرِيضَةً ۚ وَمَتِّعُوهُنَّ . . .﴾ ويقف السياق القرآني الآن أمام حالتين من الطلاق. الحالة الأولى: حال المطلقة قبل الدخول، ولم يكن قد فُرض لها مهر معلوم، والمهر فريضة، فالواجب على الزوج أن يمتعها بتقديم هدية، أو يعطيها عطية يُطيّب بها خاطرها، وحتى لا يكون الفراق أداة عداءٍ وخصومة بين أفراد المسلمين، يوصي الله عز وجل أن يكون متاعاً بالمعروف، استبقاءً للمودة الإنسانية، وبالوقت نفسه على قدر استطاعة الزوج، فالهدية على قدر مهديها. وعلى الموسع قدره وعلى المقتر قدره.

والحالة الثانية: طلاق قبل الدخول، ولكن المهر معلوم، فلها نصف المهر المفروض (المتفق عليه) إلا إذا عفت المرأة أو وليها بإذنها، فلا تأخذ من المهر شيئاً أو يعفو الزوج فلا يسترد من المهر شيئاً. إن الآيات تلاحق القلوب لتجنح إلى العفو، وتستجيش فيها معاني التقوى والإحسان، لتبقى القلوب موصولة بالله في السراء والضراء، ولا تنسَوا الفضل بينكم، إنّ الله فضَّل الناس بعضهم على بعض بالرزق، ليمتحن شكرهم على هذا الفضل، فيتسابقون إلى الأفضل، والله سيجزي كلاً على عمله، وهو إيحاءٌ قرآني لطيف لتهذيب النفوس، والرقي بها إلى مراتب الصفاء والكمال.

وفي خضم الخلافات وبين منازعات الطلاق والوفاة والعدة والإرضاع والإنفاق، يؤكد الله عز وجل أن العبادة كلٌ لا يتجزأ، فالطاعة في المهور، وحسن المعاملة بين المسلمين، هو المحافظة على الصلوات مفهومٌ واحد، لأن سوء التعامل وعدم الاحتكام إلى آيات القرآن في المعاملات يحبط أجر الصلاة، ويجعلها حركاتٌ لا معنى لها، ولذلك أمر بالمحافظة على الصلوات، وبالتالي فإن عمل المتخاصمين لا يُرفع كما في الحديث «**دعوا هذين المتخاصمين حتى يصطلحا**»(١). وهذا يتناسق مع التصور الإسلامي في

---

(١) رواه أبو داود في كتاب الأدب، رقم ـ ٤٢٧٠ ـ.

شمولية العبادة لله رب العالمين، والعبادة ليست مقتصرة على الشعائر التعبدية، فالذي يؤدي الحقوق ولا يحافظ على الصلوات ليس من الله في شيء، والذي يؤدي الصلوات ولا يقف عند حدود الله فليس الله حاجةٌ في صلواته، إن الإسلام كلٌ متكامل، عباداتٌ ومعاملات، واحتكام لأوامر الله، والصلاة الوسطى هنا مجموع الروايات تنص أنها صلاة العصر لقوله ﷺ يوم الأحزاب «**شغلونا عن الصلاة الوسطى، صلاة العصر، ملأ الله قلوبهم وبيوتهم ناراً**»[1].

وقد أكدَّ الله على ذكرها لأنه وقت أشغال الناس، أو وقت نومهم بعد مضي النهار، أو موعد الزيارات وقطع الوقت نهباً بحديث البيوت وأحوال الناس، إن هذا الدين عجيب في أُسلوبه، عجيبٌ في أسسه التربوية التي تهذب الإنسان، وتصل به إلى أرقى الدرجات، تثّبته بالشدة، وتهذبه في الرخاء، يحتكم إلى الله وإن كان في أوج قوته، ويصلي لله وإن كان بين خفق السيوف وضرب السهام، فيصلي راكباً أو واقفاً على قدميه مستقبلاً القبلة أو غير مستقبل، الغاية أن لا يكون في قلبك إلا الله، في السلم وفي الحرب، وفي الشدة وفي الرخاء.

قال أنس بن مالك ﷺ: (حضرت مناهضة حصن تستر عند إضاءة الفجر، واشتد اشتعال القتال، فلم يقدروا على الصلاة، فلم نصلِّ إلا بعد ارتفاع النهار، فصليناها ونحن مع أبي موسى فَفُتح لنا، قال أنس وما يسرني بتلك الصلاة الدنيا وما فيها)[2].

وقد أخَّر رسول الله ﷺ صلاة العصر يوم الخندق إلى ما بعد غيبوبة الشمس، وقد فصَّل الله عز وجل في صفة صلاة الخوف في سورة النساء. قال ابن عباس رضي الله عنهما: (فرض الله الصلاة على لسان نبيكم ﷺ في الحضر أربعاً، وفي السفر ركعتين، وفي الخوف ركعة)[3]، وبه قال الحسن

---

(١) أخرجه مسلم في كتاب المساجد ومواضع الصلاة، رقم ـ ٩٩٦ ـ.

(٢) هذا لفظ البخاري في كتاب الجمعة.

(٣) رواه مسلم في كتاب صلاة المسافرين وقصرها، رقم ـ ١١٠٩ ـ.

البصري وقتادة والضحّاك وغيرهم.

فإن أمنوا فهي الصلاة المعروفة التي علمهم إياها الله، وما كانوا ليعلموا لولا أن علمّهم الله.

﴿وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا وَصِيَّةً لِّأَزْوَاجِهِم ...﴾.

هذه الآية إن رجعنا إلى أقوال أهل علوم القرآن نجدهم يقولون أنها منسوخة بآية فيتربصن بأنفسهن أربعة أشهر وعشرة أيام، والناسخ متقدم على الحكم تلاوةً، ومتأخر نزولاً، وقد سأل ابن الزبير ﷺ عثمان بن عفان ﷺ وقال: والذين يتوفون منكم ويذرون أزواجاً، وقد نسختها الآية الأخرى فلم تكتبها أو تدعها؟ قال: يا ابن أخي لا أُغيّر شيئاً من مكانه، وهذا أمرٌ توقيفي، وأنا وجدتها مثبتة في المصحف كذلك بعدها فأثبتها كما وجدتها. ويقول الشهيد سيد قطب رحمه الله: إنّ رسمها كما هي لا يفيد ضرورة افتراض النسخ، فهذه تقرر حقاً للمرأة إن شاءت استعملته، وتلك تقرر حقاً عليها لا مفر منه. فآية تسمح لها بالبقاء في بيت زوجها، والعيش من ماله مدة حولٍ كامل لا تخرج ولا تتزوج، والآية الثانية تلزمها بالبقاء مدة العدة المفروضة أربعة أشهر وعشرة أيام، فإن شاءت جلست وأكملت الحول، وإن شاءت خرجت وتزوجت بعد انقضاء العدة.

﴿وَلِلْمُطَلَّقَاتِ مَتَاعٌ بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُتَّقِينَ ﴿٢٤١﴾﴾.

وكذلك فالبعض يرى أنها منسوخة بالأحكام السابقة. ولكن الإيحاءات القرآنية والمشاعر الندية، توحي بأنَّ المتعة حقٌ لكل مطلقة، مدخولٌ بها أو غير مدخول، حيث المتعة تخفف من وحشة الطلاق، وترضي النفوس المتنافرة، وفيها استجاشة لمعنى التقوى، وفيها لمسات من الإيحاء بالتفكر في أحكام الله التي تنبّه العقل، وتقود إلى التدبّر، وتبيان الحكمة والرحمة التي هي بعض أسرار هذا القرآن.

الفوائد التربوية:

١ - الإسلام دين الفضائل، في حربه وسلمه، وفي خصامه واتفاقه،

والوالدات يرضعن أولادهنَّ، فإذا اختلف الوالدان فما ذنب هذا الطفل الرضيع؟ فالله أكدَّ أمر إرضاعه بغير تعاسرٍ، وإذا مات الطفل فسيبدله الله مرضعةً في الجنة، وأما في حال أمه موجودة، ودرّ ثديها برزقه، فلا يليق بها أن تمتنع عن إرضاع الوليد لتكيد أباه، إنّ الرحمة مطلوبة في الرضا وفي الغضب، وجعل الله الأمر كله مناطٌ بالتقوى. ولا يجوز لوالد الطفل أن يستغل رحمتها وعطفها، فيظلمها ويمنعها حقوقها. إنّ الله فصَّل الأمر بدقة، وتنفيذ أوامر الله عبادة، لا تُغني عنها كثرة الخفق في المساجد، والتسابق في حفظ وريقات المصحف.

٢ ـ والرضاع له وقت محدَّد السنتان الأولى من العمر، ففيهما الحكم، وخلالهما يحصل التحليل والتحريم بالرضاع، وأجمع جمهور الفقهاء على أنّ الرضاعة بعد الحولين لا تحرِّم، وقصة سالم مولى أبي حذيفة الذي أمر النبي ﷺ امرأة أبي حذيفة أن ترضعه وهو كبير ليدخل عليها، لم يعمل بها الصحابة، وأبى ذلك سائر أزواج النبي ﷺ ورأين ذلك من خصائص النبي ﷺ. وردّها الفقهاء عامة، فلا تحريم إلا في رضاع الحولين الأوليين.

٣ ـ ابتعدت البشرية اليوم في آدابها عن هدي القرآن، فقلما يحصل طلاق إلا بخصام وجور وغيبة، ولو نظرنا في الآيات وما تدعو إليه وجدنا أن زوج المطلقة يُحمّل نفقةً وكسوةً لمطلقته ثم يتفاهم معها إذا كان الطفل يقبل غير ثدي أمه، أو يستطيع الأب أن ينصح له، فيتشاورا في مصلحة الولد سواءً يأخذه أبوه أو يتركه لأمه فلا بأس بذلك، وحتى في حالات الطلاق لا يحب الله الظلم والقهر والمكائد، وإنما يحب ويرضى أن تحدوا الناس التقوى ومراقبة الله عز وجل، ولا ضرر ولا ضرار، ولكل معضلةٍ حل إذا أُريد بها وجه الله. أما إذا أُفسح المجال للشيطان فلا تزال نار الفتنة تتوقد والخصام يسود.

٤ ـ إذا قدَّر الله ووقع طلاق في أسرةٍ من الأسر، نجد أن المجتمع يفتقد آداباً كثيرة ويَكثر الكلام وتنشط النميمة، وكثيرٌ من الناس يُفسدون ولا

يصلحون، وغالباً إذا وقع الطلاق، انقسم الناس إلى فئاتٍ ثلاثة: فئة تحزن وتدعو الله في سرها أن يُصلح النفوس، وتسعى للإصلاح والتوفيق إن كانت تستطيع وإلا فتسكت وتكتفي بالدعاء، وفئةٌ تفرح لما في قلوبها من شرٍ للمسلمين وحسد، وتتمنى أن تدور الدائرة على بيوت المسلمين لأنَّ فرح هذه الفئة يكون في حزن الآخرين، وفئةٌ هي الطامّة الكبرى التي تلعب على الحبال جميعها تلتقط الكلمة لتجعلها مادة الحديث، وتنقل من هنا وتدور هناك، متفرغةً لبلبلة الأسرتين بين قيل وقال، وهذه الفئة تُحزن الجميع، تتفجع للفتاة وأهلها، وتتباكى للرجل وأهله، وتُلقي بينهما الفتنة ما بين آهٍ عميقة ودمعةٍ سخية، لتلتقط بقرني استشعارها همسةً تدور بها فتُقَطِّع ما التأم من الجراح، وتُفسد ما صلح من القلوب. والأدب في مثل هذه المواقف هو السكون والتهدئة، وتذكير الجانبين بما عند الله، وأن الدنيا ليست بدار قرار، وتُشجِّع على الإصلاح وإن كان هناك أملٌ كالشعرة. لأنّ هدم البيوت من اختصاص إبليس وجنوده، ومن أكبر الخطأ في مثل هذه الأحوال هو الاندفاع العاطفي لجانبٍ دون آخر، وقد أدبنا الله عز وجل بأدب الاستماع إلى الطرفين في حال سيقف الإنسان موقف المصلح، وإلا فيسكت ويكثر من قول حسبنا الله ونعم الوكيل فيؤجر.

٥ ـ الموت قدرٌ وأجل من الله عز وجل، جعل الله فيه آداباً تحكم المرأة المتوفى عنها زوجها، والبيت الذي تسكنه وأولادها، وفي كلٍ يحب الله الرحمة والإحسان، وقد فصَّل الله عز وجل في الحقوق، ولكني أقف بين الآيات وبين واقعنا العملي اليوم بحزنٍ وأسى.

المرأة إذا مات عنها زوجها وانقضت عدتها لها أن تتزوج، والمرأة اليوم حكمتها عادات فأصبحت ترفض الزواج وهي راغبة فيه مخافة القيل والقال، ولا ينتهي الأمر هنا بل تنطلق في المجتمع فلا يفوتها موقف ولا مناسبة إلا وبدت منتهكة الحدود الشرعية، ومتبرجةً بطريقةٍ غير لائقة، ويعذرها الناس تحت دافع الرحمة، وأنَّ من حقها أن تعوِّض ما فاتها، وأنَّها تطمع في أن تزاحم رسول الله ﷺ على باب الجنة بصبرها.

لقد انتكست المفاهيم، وتراجع الفقه، فإذا تزوجت المرأة وأُحصنت فتكون على أثر الصحابيات الطاهرات المطهرات، وإن أرادت إرادةً حقيقة أن تنقطع لتربية اليتامى الذين في حجرها، فلتتق الله. والإسلام لم يحرّم عليها الخروج، ولكن في حدود، ومزاحمة رسول الله ﷺ على باب الجنة لا يكون بالفجور والتمرد على الخدور، ولا يكون بتتبع الموضات وكشف ما أمر الله به أن يُستر، فالخلط في الدين من أكبر العاهات التي لحقت بنا، ومن أعظم الأسباب لتخلي الله عنّا.

٦ ـ في كثير من المواقف التي تصورها الآيات، والتي تحصل في المجتمع الإسلامي، نجد أن العادات هي التي تحكم الناس، وإن تعارضت مع الدين فيضرب الدين بعرض الحائط، وتبقى العادات مُصانةً مُهابة.

سواءً ما يجري من طقوس في حوادث الوفاة، وما يتبعها من حزنٍ مفرط وبكاءٍ وعويل إلى ثياب الحزن إلى ملابسات ما أنزل الله بها من سلطان تلحق بالمعتدة وفي الحقيقة أنّ أوجب الواجب الرضاء والتسليم لقدر الله والصبر والاحتساب، وما من مصيبة تحل بالإنسان إلا ومصيبته بوفاة رسول الله ﷺ أعظم، ولا يجوز صنع الطعام من مال الميت، وخاصةً إن كان هناك أيتام، والسنة أن يُصنع لهم طعام يواسيهم به الأقرباء والإخوان، والمعتدة تجتنب لباس الألوان الزاهية والطيب، ولا تظهر إلا على محارمها من أب وابن وولد من أصولٍ وفروع ولا تبات إلا في بيت الزوجية، والعدة فترة عبودية لله تعالى، وتبدأ منذ لحظة خروج الروح إلى أربعة أشهر وعشرة أيام، ولا يُقضي ما فات منها، وتجتنب المرأة كل ما يدخل تحت مفهوم الزينة ولا تُبذّر في أموال الأيتام، ولا تحرم كل ذي حقٍ حقه، وتبقى التقوى هي المطلب الأول والأخير. وكما ذكر من آداب الحزن وما روي عن أم سلمة وزينب بنت جحش رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال: **«لا يحل لأمرأة تؤمن بالله واليوم الآخر أن تحدَّ على ميت فوق ثلاث إلا على زوج، أربعة أشهر وعشرا»**[١].

---

(١) الصحيحين واللفظ للبخاري في كتاب الطلاق، رقم ـ ٤٩١٩ ـ.

٧ ـ المتعة من الزوج المطلّق خلق إسلامي رفيع، وسئل ابن عباس رضي الله عنهما عن متعة الطلاق قال: أعلاه الخادم، ودون ذلك الورِق ـ الفضة ـ، ودون ذلك الكسوة، وقال: إن كان موسراً أمتعها بخادم، وإن كان معسراً أمتعها بثلاثة أثواب، ومتّع شُريح بخمسمائة، ومتّع الحسين بن علي بعشرة آلاف.

والمتعة تجب للمطلقة إن لم يدخل بها ولم يسمِّ مهر، فإن كان دخل بها وجب لها مهر مثلها، وإن كان قد فرض لها مهر وجب عليه شطره أي نصفه، وتفصيل ذلك في المراجع الفقهية، غير أننا ننظر إلى الآداب والتربية في مجتمع صاغه الله على عينه، فلا شقاق ولا جدال ولا خصام، وإنما هو التشاور والتراضي والهداية وتطييب الخاطر، وما يخل بالأدب في حوادث الطلاق كثرة الكلام والشكوى، وإنما الأدب في ذلك أن يُفوِّض الأمر لله، ومن سئل يقول هكذا قدّر الله وما شاء فعل إنا لله وإنا إليه راجعون، فيسكت الناس، وتعود المعاملات القرآنية إلى المجتمع الإسلامي من جديد، إلا إذا كانت الشكوى لقاضٍ أو لأهل حتى يعلموا حقيقة الأمر فقد أباح الشرع الشكوى في مثل هذه الحالات.

٨ ـ ولا تنسوا الفضل بينكم، لقد كان لهؤلاء المطلقين خلوات وحكايات وستر، وغلب شر الحياة على خيرها فتفرقا، فتفويض الأمر إلى الله واجب، والسكوت عن أعراض البشر واجب، ومهما بلغت العداوة مبلغها، يبقى خيط لا إله إلا الله محمد رسول الله متماسك، فلا تنسَوا الفضل بينكم، وفي حادثة الخلع التي مرّت بنا امرأة تنفصل عن زوجها، فتقول: لا أعيب عليه خلقاً ولا ديناً موعظة وتربية وهذه هي غاية المروءة وحفظ الذمم.

٩ ـ إنّ تداخل الآيات ببعضها دليل أكيد على شمولية الإسلام، فمن العلاقات الأسرية إلى ساحات الحروب إلى أداء الصلوات، كله مصداقاً لتلقين الله عز وجل لنبيه ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِى وَنُسُكِى وَمَحْيَاىَ وَمَمَاتِى لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦٢﴾﴾[1]. فالصلاة والنسك والعبادة والحرب والزواج والطلاق كلها

---

(١) سورة الأنعام ١٦٢.

من ممارسات الحياة، فإذا انتهت الحياة وحصلت الوفاة، فحياة الذين معه والذين وراءه قائمة، فالأحزان والأتراح كلها تنضوي تحت كلمة محياي لله رب العالمين، وأي خلل في ممارسات الحياة خلل في الإسلام كله.

﴿ألم تر إلى الذين خرجوا من ديارهم وهم ألوف حذر الموت فقال
لهم الله موتوا ثم أحياهم إن الله لذو فضل على الناس ولكن أكثر الناس
لا يشكرون (٢٤٣) وقاتلوا في سبيل الله واعلموا أن الله سميع عليم (٢٤٤) من ذا
الذي يقرض الله قرضا حسنا فيضاعفه له أضعافا كثيرة والله يقبض ويبصط
وإليه ترجعون (٢٤٥) ألم تر إلى الملإ من بني إسرائيل من بعد موسى إذ قالوا
لنبي لهم ابعث لنا ملكا نقاتل في سبيل الله قال هل عسيتم إن كتب
عليكم القتال ألا تقاتلوا قالوا وما لنا ألا نقاتل في سبيل الله وقد أخرجنا
من ديارنا وأبنائنا فلما كتب عليهم القتال تولوا إلا قليلا منهم والله عليم
بالظالمين (٢٤٦) وقال لهم نبيهم إن الله قد بعث لكم طالوت ملكا قالوا
أنى يكون له الملك علينا ونحن أحق بالملك منه ولم يؤت سعة من المال
قال إن الله اصطفاه عليكم وزاده بسطة في العلم والجسم والله يؤتي
ملكه من يشاء والله واسع عليم (٢٤٧) وقال لهم نبيهم إن آية
ملكه أن يأتيكم التابوت فيه سكينة من ربكم وبقية مما ترك آل
موسى وآل هارون تحمله الملائكة إن في ذلك لآية لكم إن كنتم
مؤمنين (٢٤٨) فلما فصل طالوت بالجنود قال إن الله مبتليكم بنهر فمن
شرب منه فليس مني ومن لم يطعمه فإنه مني إلا من اغترف غرفة بيده
فشربوا منه إلا قليلا منهم فلما جاوزه هو والذين آمنوا معه قالوا لا
طاقة لنا اليوم بجالوت وجنوده قال الذين يظنون أنهم ملاقوا الله كم
من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة بإذن الله والله مع الصابرين (٢٤٩) ولما
برزوا لجالوت وجنوده قالوا ربنا أفرغ علينا صبرا وثبت أقدامنا
وانصرنا على القوم الكافرين (٢٥٠) فهزموهم بإذن الله وقتل داود جالوت
وآتاه الله الملك والحكمة وعلمه مما يشاء ولولا دفع الله الناس
بعضهم ببعض لفسدت الأرض ولكن الله ذو فضل على العالمين
(٢٥١) تلك آيات الله نتلوها عليك بالحق وإنك لمن المرسلين (٢٥٢)﴾.

المفردت:

ألوف: جمع ألف ومعناه الكثرة، والألوف المؤلفة. **برزوا**: ظهروا.

الملأ: الأشراف من الناس. حذر: خشية وخوف.

فصل: انفصل عنه وجاوزه. **مبتليكم**: مختبركم.

فئة: جماعة من الناس. **أفرغ**: صب وأنزل.

يقبض ويبسط: القبض: الضم والجمع والمراد به التقتير. والبسط: ضده والمراد به التوسيع.

الدراسة التربوية:

في هذا المقطع عبرٌ ودروس، وعرض لتجربتين من تجارب الأمم، الأولى تجربة لا يذكر القرآن أصحابها، وإنما يعرضها باختصار لتقر حقيقة الحياة والموت.

والثانية تجربة أبطالها هم بنو إسرائيل من بعد موسى عليه السلام. والغاية من عرض قصص بني إسرائيل علينا وفي قرآنٍ يُتلى وآياتٍ يُتعبد بها، دليل على رحمة الله الواسعة بهذه الأمة، التي علم الله أنها ستمر بأدوارٍ كالتي مرَّ بها بنو إسرائيل، فعرض لنا مزالق الطريق، والأسباب التي سلبتهم خيرية الدنيا، وجلبت عليهم خسران الآخرة، وباؤوا بغضبٍ من الله، وسخط الله عليهم.

إنّ هذا القرآن ليس مجرد كلام يُتلى، ولكنه دستور الحياة اليومية، إنه دستورٌ تربوي متكامل يجب أن تقرأه الأمة بوعي وتدبر حتى لا يحق عليها قول الله عز وجل ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ ﴿٢٤﴾﴾[1] فبنوا إسرائيل قالوا: قلوبنا غلف، وكان هذا القول نتيجة القراءة السطحية للتوراة. ولكن هل يقول المسلمون: قلوبنا مقفلة بعدما وقعوا في القراءة السطحية

(١) سورة محمد: ٢٤.

للقرآن الكريم!! لقد تشابهت الأفعال، ونسأل الله أن لا تتشابه الأقوال والنهايات. إننا لن نتفع بهذا القرآن إلا إذا قرأنا لنلتمس عنده الحكم والتوجيه، عندما نقرأ نداؤه يا أيها الذين آمنوا فنرتعش للإجابة ونخضع لله وهو يقول: هنا افعل، وهناك لا تفعل، نعقل إشارته وهو يوجهنا هذا صديقكم، وذاك عدوكم، فلا نمالىء عدواً ولا نعادي صديقاً، نستشعر القوة بالاجتماع عليه ـ على القرآن ـ وإن كنا قلة عندها ندرك دورنا في أُستاذية العالم، فننطلق لنحقق إياك نعبد وإياك نستعين.

إن التجربة الأولى تقص علينا خبر قوم استولى عليهم الهلع، فخرجوا جماعات هاربين من الموت سواءً قلنا بقولِ من قال إنهم فروا من الجهاد، أو قال من قال إنهم فروا من الطاعون، ففي الحالتين فارّون من قدر الله.

إن الهلع لا يرد قضاءً، ولا يدفع قدراً، والدعوة هنا إلى الرؤية بمعنى الإدراك، وألم تر أي ألم تدرك وتتنبه أيها الرسول ومن وراءك من أمتك، إلى هؤلاء الذين خرجوا جاهدين في اتقاء الموت، فوقع بهم ما كانوا يحذرون، فروا من الأسباب، ولم يدركوا أن المسبب معهم أينما كانوا، فقال لهم الله: موتوا، فأماتهم الله ميتة رجلٍ واحد، ﴿مَّا خَلْقُكُمْ وَلَا بَعْثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَاحِدَةٍ﴾[1].

وبآية واحدة انتهى شريط الحياة وتبعه البعث والوقوف بين يدي الله الديّان، إنهم بذلوا جهداً ليتقوا الموت فلم يفلح جهدهم، ولكنهم لم يبذلوا جهداً ليستردوا الحياة، إنها آية لم يرد الله أن يفصّل أحداثها، ولا أن يحدد مكانها وزمانها، غير أنه ساقها للعبرة ودراسة المغزى، ولكن أكثر الناس لا يشكرون هذه المنة التي تفضل الله بها على عباده ليهديهم طريق الرشاد، ثم تتكرر الآيات لتقر في النفس أنّ القتال لا يُنهي أجلاً، ولا يقطعُ رزقاً، فقال: وقاتلوا في سبيل الله، إن هؤلاء الذين خرجوا فارين من الموت، لم يقاتلوا عدواً، ولم يتلقوا اعتداءً من أحد قال الله لهم: موتوا فماتوا، كيف

---

(١) سورة لقمان: الآية ٢٨.

ماتوا!! وبمَ!! ثم أحياهم فقاموا، إن الحياة بيد الله واهب الحياة، يهبها لمن يشاء بلا جهد من الأحياء، فهو توجيه تربوي يُوحي بتنفيذ الأمر دون خوفٍ ولا تردد، وتأتي السيرة النبوية مكللةً بالأحاديث التي تدعم الموقف وتبينه، فتنقل لنا قول خالد ﷺ سيف الله المسلول: (لقد شهدت كذا موقفاً، وما من عضوٍ من أعضائي إلا وفيه رمية أو طعنة أو ضربة، وها أنا ذا أموت على فراشي كما يموت البعير، فلا نامت أعين الجبناء) وقال عليه الصلاة والسلام موجهاً لمن أدرك الطاعون في بلد أو أصابه ذلك المرض: «**إن هذا السقم عذابٌ عذبَّ الله به الأمم قبلكم، فإذا سمعتم به في أرض فلا تدخلوها عليه، وإذا وقع بأرض وأنتم فيها فلا تخرجوا فراراً منه**»[1] ولعل هذا النص أول تأسيس لفكرة الحجر الصحي في تاريخ العالم. ﴿وَقَٰتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٤٤﴾﴾ والتعقيب بسميع عليم له وقعٌ تربوي، فإذا تحققت الإجابة وردَّد اللسان عبارات الطاعة، فالله وحده العليم بمن نفر خالصاً في سبيل الله، ﴿مَّن ذَا ٱلَّذِي يُقْرِضُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَٰعِفَهُۥ لَهُۥٓ أَضْعَافًا كَثِيرَةً﴾، والجهاد في سبيل الله بذلٌ وتضحية، وقد حث الله عليه خاصة في تلك الفترة التي كان الجهاد فيها تطوعاً، والمجاهد يُنفق على نفسه ما استطاع ذلك، وأما إن كان لا يملك إلا نفسه، فكانوا يتولون ﴿وَّأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمْعِ حَزَنًا أَلَّا يَجِدُواْ مَا يُنفِقُونَ﴾[2].

وقد سطر التاريخ مواقفهم التي تنبهر بها العقول، كما روى أنس بن مالك ﷺ أن رجلاً قال: (يا رسول الله، إن لفلان نخلة وأنا أقيم حائطي بها فأمره أن يعطيني حتى أقيم حائطي بها، فقال له رسول الله: «**أعطها إياه بنخلة في الجنة**» فأبى فأتاه أبو الدحداح فقال: بعني نخلتك بحائطي ففعل، فأتى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله إني قد ابتعت النخلة بحائطي قال: فاجعلها له. فقال قد أعطيتكها فقال رسول الله ﷺ: «**كم من عذقٍ رداح في الجنة لأبي الدحداح**» قالها مراراً، قال: فأتى امرأته فقال: يا أم الدحداح

---

(١) رواه أحمد في مسند العشرة المبشرين بالجنة، رقم ـ ١٥٨٨ ـ.

(٢) سورة التوبة: الآية ٩٢.

اخرجي من الحائط فإني قد بعته بنخلة في الجنة، قالت: ربح البيع أو كلمة تشبهها)[1]. وخرجت المرأة دون أن تراجع أو تناقش أو تثبط عن خير فعله - زوجها - بل فرحت واستبشرت ببيع زوجها، وعن أبي هريرة ﷺ قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**إن الله ليضاعف الحسنة ألفي ألفي حسنة**»[2] وأخرج مثله ابن أبي حاتم.

إن القرآن لم يخرج رجالاً دون نساء، وما كان الرجل يوم ربَّاهم القرآن في واد وزوجته في واد، وما وقفت الصحابية الكريمة يوماً عقبة في طريق الدعوة، إنّ بيوت الدعاة اليوم تنقصها نساء على نفس المستوى الدعوي، لتكون المرأة عوناً على تخطي عقبات الآخرة، لقد خرجت أم الدحداح ولم تعب على زوجها تصرفه، ولم تنصرف إلى بيت أهلها وترفض العيش مع رجلٍ لا يعتمد رأيها في التصرف بالمال والأملاك، إنها نظرة الزهد في الدنيا وما فيها من متاع، وهذه نتيجة تربية دقيقة عالجت كل عرقٍ وكل عصبٍ في هذا الجسد المتكالب على الدنيا، حتى طابت النفوس بالإنفاق، وتعلقت برضى الرحمن.

ثم نحن أمام مشهدٍ منظور، وحقيقةٍ مجسَّدة، لقد اجتمع الملأ من بني إسرائيل، الملأ من الكبراء وأهل الرأي إلى نبيٍ لهم يطلبون منه أن يعيِّن لهم ملكاً يقاتلون تحت إمرته وهذا إن دل على شيء يدل على حادثة فريدة في تاريخ بني إسرائيل، إنه مشهد انتفاضة العقيدة في قلوبهم، ويقظة الشعور في نفوسهم، لقد اتفقوا أن يُنهوا حياة الذل التي يعيشونها، وأنهم أهلٌ لأن تتنزل عليهم فرائض الله وينفذونها، ووقفوا وقفة مؤمن فهم دينه واتضح له الهدف، ونظر إليهم نبيهم ليستوثق من عزيمتهم، وهم أهل تاريخ مسطور، فقال: هل عسيتم إن كتب عليكم القتال ألا تقاتلوا، قالوا: وما لَنا ألا نقاتل في سبيل الله وقد أُخرجنا من ديارنا وأبنائنا، ولكن النبي القائد لم تستفزه الحماسة الفائرة، فأراد أن يختبر التربية الإيمانية، ومدى تغلغلها في النفوس

(١) رواه الإمام أحمد في كتاب مسند المكثرين، رقم - ١٢٠٢٥ -.

(٢) رواه أحمد في كتاب باقي مسند المكثرين، رقم - ٧٦٠٤ -.

حيث الإيمان الفوار وحماسة الرخاء لا يدومان كثيراً، ولذلك قال مستفهماً صحة موقفهم، هل عسيتم إن كتب عليكم القتال أن لا تقاتلوا، لأن النبي والقائد لا يقفون مواقف الاستهزاء وعدم المبالاة أمام أوامر الله ويبّن لهم أنَّ أمامهم سعة في الخيار، أما وأن يتحول الأمر إلى جد وفرائض فلا نكوص عن التكليف، ولا تراجع عند الاستنفار، ولكن القوم ارتفعت درجة الحماسة الفوارة عندهم، وصمّموا أنهم على عزيمةٍ وعهدٍ وميثاق.

ولكن اليهود أهل اختصاص في نقض العهد والنكث بالوعد والتفلت من الطاعة، وألزمهم الله عز وجل هذه الصفات بقوله ﴿فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ ٱلْقِتَالُ تَوَلَّوْاْ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ﴾ إن هذه الصفات هي سمة خاصة ببني إسرائيل، وسمة عامة في البشرية التي لم تنضج تربيتها الإيمانية، إنّ التفلت من الطاعة والنكوص عن التكليف لا يصلحهما إلا تربيةٌ عالية طويلة الأمد، عميقة التأثير، وهي سمةٌ يجب أن يدرسها كل قائدٍ تولى أمر هذه الأمة، سمةٌ يجب أن يحسب لها ألف حساب عند لقاء العدو، سمةٌ يجب أن يُدركها كل مسؤول لتحصل عنده قناعة أكيدة بضرورة التربية العميقة، الدقيقة الطويلة التي تستغرق كل حرف من هذا القرآن وكل موقف، إن المعرفة وحدها لا تكفي، كثير من أفراد هذه الأمة اليوم يعرفون عدوهم من صديقهم، ويعلمون أن لا سعادة إلا تحت ظل هذا الدين، ولكن حيل بينهم وبين التربية القرآنية، فليس لهم عزيمة على الثبات، ولا همة في الإخلاص، وليس عندهم يقين التجرد من المصالح الدنيوية، فلذلك هم اليوم كثير ولكنهم غثاء كغثاء السيل ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ﴾، إنه استنكار رباني للكثرة التي ظلمت نفسها، وظلمت نبيها، وظلمت الحق الذي خذلته ﴿وَأَعْتَدْنَا لِلظَّٰلِمِينَ عَذَابًا أَلِيمًا﴾[1]. وبدت ملحمة من ملاحم اليهود مع أنبيائهم الذين تولوا عليهم بعد موسى ﷺ ﴿وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ ٱللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًا قَالُوٓاْ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُ ٱلْمُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِٱلْمُلْكِ مِنْهُ وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِّنَ ٱلْمَالِ قَالَ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُۥ بَسْطَةً

(١) سورة الفرقان: الآية ٣٧.

﴿فِي ٱلْعِلْمِ وَٱلْجِسْمِ﴾. ومرة أخرى تظهر علة تربوية في القيم، إن القيم الإيمانية تختلف عن القيم الدنيوية، إنهم طلبوا ملكاً يقاتلون تحت لوائه في سبيل الله، ولكنهم ها هم ينغضون رؤوسهم ويجادلون في اختيار الله لهم كما أخبرهم نبيهم، وحذَّرهم من قبل، ولكنهم سقطوا، إن طالوت لم يوافق حسّهم المطموس، فهو ليس من نسل الملوك، وليس بالغني الذي يشفع له ماله، إن الله اختاره لا لشيء من هذا وإنما اصطفاه لبسطة العلم والجسم، وهما المؤهل الرباني، أما المال والملك فهما المؤهل البشري، وهذه الأمور يجب أن تصحح، ويُزال الغبش عن التصور الصحيح، كثيرٌ من الناس اليوم لا يستمعون للحق إن صدر عن الضعفاء، ويسمعون الحق المفتون إذا نطق به أهل الجاه أو من يلوذ بهم، وطبيعة يهود المنكوسة لن تكون محل ثقة بنبيٍ أو قائد جهاد، فلا بد لهم وهم قادمون على معركة من خارقة تهز قلوبهم، وتردهم إلى الثقة بالله، واليقين بتدبيره، وقال لهم نبيهم إن آية ملكه أن يأتيكم التابوت فيه سكينةٌ من ربكم، وبقيةٌ مما ترك آل موسى. إنها معجزة تشهد أن الله هو الذي اختار طالوت، وتدل على صدق النبي أمام قوم متشككين ومجادلين، والتابوت هذا هو صندوق فيه مقدسات أنبيائهم، وفيه نسخة من ألواح موسى.

وكانت علامة صادقة انتهت بهم إلى التصديق، وهنا تتجلى حكمة الله في اصطفاء هذا القائد، إنه مقدمٌ على معركة ومعه أمة عرفت الهزيمة والذل في تاريخها مرةً بعد مرة، ولا بدَّ له من اختبار القوة الكامنة في جنده، القوة التي تضبط الشهوات والنزوات وتصمد للحرمان والمشاق، وتستعلي على الضرورات والحاجات، وتراقب الله في طاعة أميرها، فلا بد للقائد من اختبار الإرادة في الجيش ليصبر على البلاء بعد البلاء، واختار هذا الاختبار على قوم عُطاش ليعلم من يصبر ويطيع، ووصلوا إلى نهر الشريعة الذي يسمى اليوم نهر الأردن، فقال: نحن أمام هذا النهر، وطلب منهم ألا يشربوا منه إلا في حدود الغرفة، فلم يلتزم بهذا الأمر إلا القليل، ﴿فَشَرِبُوا۟ مِنْهُ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ﴾، وانفصلوا عن الجيش الزاحف وكان الخير في انفصالهم فالجيوش ليست بالعدد الضخم، كما أن الدعاة ليست بالكم،

وإنما الكيفية الإيمانية الثابتة هي التي تثبت في المواقف. وإن الله ليمحّص الأمم بالشدة.

ورسولنا يعلمنا أن لا نحزن على الساقطين، بقوله: «**لو يعلم الله فيهم خيراً لألحقهم بنا**»، لقد تعلمنا من حكمة هذا القائد أن النية وحدها لا تكفي إن لم يكن هناك تربية تُثبت الجنان، وقد دل الموقف على صلابة عود القائد، الذي لم يهتز لتخلف الأكثرية. وهذا مصداق قوله جل وعلا ﴿وَإِن تُطِعْ أَكْثَرَ مَن فِى ٱلْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾[1]. إن تخلف الناس عن الصف لا يعني أن الصف على باطل ولكنه مؤشر على فساد جوهر المتساقطين، وضعف تربيتهم الإيمانية، وسوء ظنهم بالله عز وجل. ﴿كَتَبَ ٱللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا۠ وَرُسُلِىٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِىٌّ عَزِيزٌ ﴿٢١﴾﴾[2].

إنها التجربة التي غربلت الجيش، وجاوز النهر بالقلة المؤمنة الثابتة، التي رأت نفسها أمام واقعٍ مرير، وغربلةٍ أشد، إنه العدو بعدده وعُدده يصول ويجول بجبروته، وبرزت إيمانيات الفئة المؤمنة، ذات الموازين الربانية، فقالت: ﴿كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةًۢ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ إنهم أحسوا بمعية الله لهم فسرت القوة في أجسادهم، ففاضت عليهم يقيناً وصبراً، ووقفت الفئة القليلة بضعفها وقلتها لتقرر مصير المعركة بقولها ﴿إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ ووقفت في وقت الشدة تجدد عهدها مع الله، تواجه الهول صامدةً لله رب العالمين، تستعينه وتستعرض عقد الشراء والبيع، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ﴾ فتنسكب عليها السكينة والطمأنينة، والعدو بارز أمامها في لحظة الكرب، قالوا: ﴿رَبَّنَآ أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾. ويطوي الله سجل المعركة الضارية ليخبرنا بمحصلة الدعاء، ﴿فَهَزَمُوهُم بِإِذْنِ ٱللَّهِ وَقَتَلَ دَاوُۥدُ جَالُوتَ وَءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ وَٱلْحِكْمَةَ﴾. إن المؤمنين ستار القدرة الربانية، يفعل الله بهم ما يريد، وينفّذ بهم ما يختار

---

(١) سورة الأنعام: الآية ١١٦.

(٢) سورة المجادلة: الآية ٢١.

بإذنه، ليس لهم من الأمر شيء ولا حول لهم ولا قوة.

إنها حقيقة تملأ القلب المؤمن بالسلام واليقين والطمأنينة، وهل يستحق أن يكون ستاراً لقدرة الله، إنه عبدٌ مخلوقٌ ضعيف، أيتحقق به قدر الله؟ أيكرمه الله بهذا الثبات؟ نعم هذا كله وأكثر إذا تجرد من كل أربِ ذاتي، ولم يتطلع إلى مكسبٍ دنيوي، وداود عليه السلام كان فتىً صغيراً في بني إسرائيل، وجالوت كان ملكاً قوياً جباراً في الأرض، ولكنها الدروس القرآنية، إنّ الأمور لا تجري بظواهرها، وأن الفتى الذي خبر الله معدنه، نفّذ به قدرته في هذا الملك العاتي.

إن الجهد المبذول في تربية الناس، حتى تستيقن أن الجبابرة الذين يرهبونهم ضعاف يغلبهم الفتية الصغار حين يشاء الله، جهدٌ شاق استغرق من المربين وقتاً طويلاً حتى انجلت الغشاوة، ووضح التصور، وتجلى الفقه الصحيح. إنّ ابني عفراء عندما قتلا صنديد قريش أبا جهل، كانت عندهما عوامل مشتركة مع الفتى المهيأ للنبوة في بني إسرائيل، وأن المعدن المميز تكرر وجوده في فتيان الصحابة الكرام رضوان الله عليهم، وأنّ حبر الأمة عبد الله بن مسعود ﷺ الذي وصف الرسول ﷺ ساقه ودقتها، وقال: إنها أثقل في الميزان من جبل أحد يوم القيامة، وهي ساق القدم التي داست صدر أبي جهل، ليجتز عبد الله رأس عدو الله، فيحمله ويلقيه بين يدي رسول الله.

إنّ القوة الحقيقية، لا تكمن في الجسد الضخم المترف، ولكنها هي قوة العقيدة الواثقة بالله، لا القوة المادية التي تنفش صاحبها، فيأمر ويبطش ويهدد، كلا إن النصر لا يكون إلا للإرادة المستعلية، لا للكثرة العددية ولا للمغانم.. والتمكين للخير ليزيل الشر المتغطرس، ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ ٱلْأَرْضُ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ﴾، إن الحق والباطل لا يزال في صراع حتى يعلو الحق بأهله الذين يمثلون إرادة الله العليا في دفع الفساد عن الأرض، ولنا دائماً في قصة طالوت درساً وهدياً على الطريق، فلا يقوم الإسلام إلا بإمرةٍ صالحة، وجهادٍ بأميرٍ مؤمن

وصفٍ مخلص، تربى واختُبرت إرادته، واستعلى على كل مطلبٍ سوى النصر أو الجنة.

﴿تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِٱلْحَقِّ وَإِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٢٥٢﴾﴾.
تلك آيات الله تتلى بالحق، وتحمل معها الحق الذي يراوغ عنه كثيرون، إنها آيات الله، تحمل لك تجارب الأنبياء والقادة الصالحين، لتبقى حلقة في سلسلة الأنبياء ونورثك ميراثهم، إن هذه الآيات تتلى لتتربى بها أمتك، وتستعد للدور الخطير الذي قدره الله لها في هذه الأرض.

الفوائد التربوية:

١ ـ إن شمولية هذا الدين لتكاد تأخذ بالألباب، فمن التربية الفردية، إلى التربية الأسرية، إلى التربية الجهادية، تتقلب الآيات وتأخذ بيد المؤمن لتخرجه على عين الله.

٢ ـ إن الله عز وجل لم يترك لحظة واحدة تمر في حياة المسلم إلا وضبطها شكلاً ومعنىً، حساً وفهماً، أخذاً وعطاءً، فتارة طرق المشاعر الحساسة، وتارة أحاط بالقلب، ثم أمسك بزمام الجوارح، إن التربية القرآنية لا تغادر عرقاً ينبض في هذا الجسد إلا وأدركته، ليحسن نبضه لله رب العالمين. وهنا يبرز جهد المربين، وإخلاصهم ليسلم الفكر والتفكر، وليثمر الفقه والتفقه، وتخضع المقدرات، وتسخّر لله وبهذا تُخرِّج الأمة المؤمنين الذين يُعجب الزرّاع ليغيظ بهم الكفار.

٣ ـ إن هذه الآيات تحيط بالحس إحاطة محكمة، في أنه لا مفر من قدر الله إلا إليه، وأنَّ الحذر لا يمنع القدر، وتلغي (لو) التلاوم من حياة المؤمن تماماً. فإن تربت المشاعر والنفوس بجملة ﴿فَقَالَ لَهُمُ ٱللَّهُ مُوتُوا۟ ثُمَّ أَحْيَٰهُمْ﴾ يُقال: فعلام الجمع؟ ـ جمع المال من الحرام ـ الذي يُذل النفوس، وعلام الخوف من غير الله الذي يُدخل في الشرك؟ وكم من تجربة تستطيع الأم أو المربي إجراءها تحت كلمتي (يقبض ويبسط) ومن أسماء الله الحسنى (القابض الباسط) يقبض الروح ويطلقها، يقبض المال ويوسّع فيه،

يقبض الريح، ويقبض المطر، ويقبض الخير، ويبسط الرياح، ويسوق الخير فيسقي الأرض، ويبسط الخير فيمكّن للدعوة، ويقبض النفوس عن الاستجابة بشرٍ سبَّاقةٍ إليه، ويبسط النفوس ويجعلها مستبشرة مطمئنة فتستجيب للدعاة ولداعي الخير أينما كان. يقبض القلوب فيصبح كلام الله عليها عمىً، ويبسطها فيصبح كلام الله لها هدىً وبشرى، هذه المفاهيم تدعونا لإصلاح الجوهر، ولصقل الباطن، لأن الله لا تخفى عليه خافية.

٤ ـ في المعاملات أخذٌ وعطاء، وطلبٌ وأداء، ولو نلامس المشاعر بأن الله يسأل من يعطيني؟ من يداينني؟ وهو الله الذي بيده مقاليد السماوات والأرض، رحمةً بعباده ليضاعف لهم القرض، ويزيد لهم في العطاء، ويعلمهم أصول التجارة الرابحة. إنها معان تحتاج إلى يقين للتجاوب معها، وتحتاج إلى لمسات إيمانية متتالية، إن من إرادة الله عز وجل أن تربى النفوس على بعض اليقين الغيبي، فالمال تنفقه ويستقر في نفسك أنه لا ينقص، والرجل يُقتل في المعركة ويُدفن ويستقر في نفسك أنه حي، وتتصدق بالشاة وتُبقي جزءاً منها ثم يستقر في نفسك أنها بقيت كلها، وذهب جزءها الذي تركته لنفسك، إنها معانٍ لا يدركها إلا أهل الإيمان، ولا يعايشها إلا أهل اليقين، فهل يسعى المربون لإيجاد ذلك الجيل، الذي وُجد من قبل فاستبشر وبشرَّ، وجمّع وما فرّق، وحبّب وما نفَّر.

٥ ـ إن الكلام وكثرة الأقوال لا تكن حقائق حتى تتحول إلى أفعال. وإن كل عمل لا بد له من مصداقية. وإنّ المحن هي التي تختبر الجوهر وتؤصِّله. فلذلك لا بد للمربين من اختبار لمن يربوهم، يختبرون صبرهم، ويختبرون حسن تصرفهم، ويختبرون طاعتهم، ويجب على المربي أن يترك الفرصة لمن يربيهم بدون قيود تملى عليهم، حتى يختبر مدى التقوى عندهم، وكيفية مراقبتهم لله عز وجل.

٦ ـ إنَّ الكثرة في كل شيء لا تغني عن الحق شيئاً. لقد سقط الكثير من جيش طالوت ولم يبق إلا قلة.

وروى البراء بن عازب ﷺ قال: (كنا نتحدث أن أصحاب

محمد ﷺ، الذين كانوا معه يوم بدر ثلاثمائة وبضعة عشر على عدة أصحاب طالوت الذين جاوزوا معه النهر، وما جاوزه معه إلا مؤمن)[1]. وإنّ أي التباسٍ بأن النصر يتوقف على الكم والعتاد يحتاج إلى جولة تربوية حيث أن النصر قائم على الكيف، والرصيد الإيماني يبقى أمضى سلاح في المعارك. والإيمان يعارض نظرية (حتمية القوانين الوضعية).

٧ ـ إن المُلْك بغير حكمة نقمةٌ وابتلاء، ومن دلائل الحكمة النفع الذي يعمّ المؤمنين من هذا المُلك ﴿إِنَّا مَكَّنَّا لَهُۥ فِي ٱلْأَرْضِ وَءَاتَيْنَٰهُ مِن كُلِّ شَيْءٍ سَبَبًا ﴿٨٤﴾ فَأَتْبَعَ سَبَبًا ﴿٨٥﴾﴾[2]. فالبادرة من الله عز وجل، والعمل من العبد، ورد الفضل إلى الله والشكر على التوفيق هو من فيض الحكمة. ويجب أن يتعوّد الإنسان من الصغر أن يرد الفضل لله بعد كل عملٍ موفقٍ يقوم به، ويُربَّى أن كل جاهٍ أو منصب يحتاج إلى شكر... وشكره نفع عباد الله الصالحين، وأن كل أعمال النفع العام المتعدي أحب إلى الله من النفع الخاص لأن ديننا دين الجماعة.

٨ ـ السكينة رحمة من الله ينزلها على عباده، يقول ابن جريج: (سألت عطاء عن قول الله ﴿فِيهِ سَكِينَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ قال: ما تعرفون من آيات الله فتسكنون إليها). فمن الأمم من يرى المظاهر المادية فتسكن نفوسهم، وإن الله جعل هذه الأمة تسكن بالخبر الصادق مثلما سكنت قلوب الصحابة ونفوسهم يوم بدر، عندما رأوا رسول الله ﷺ يجدّ بالدعاء ثم يبشرهم بأن جبريل عليه السلام آخذاً بخطام ناقته نازلاً لنصرتهم... فغشيتهم السكينة. وأخبرنا رسول الله ﷺ بميّزة هذه الأمة أنها إذا اجتمعت تتدارس كتاب الله؛ تتنزّل عليها السكينة ويغمرها اليقين، حتى تكاد تصافحهم الملائكة على فرشهم.

٩ ـ لو أن جماعة المربين تأملوا واجتمعوا على حقيقة هذه الآية ﴿تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِٱلْحَقِّ ۚ وَإِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٢٥٢﴾﴾

(١) رواه البخاري في كتاب المغازي، رقم ـ ٣٦٦٤ ـ.

(٢) سورة الكهف: الآية ٨٤ ـ ٨٥.

لهداهم الله سبله ولخرّجَ على أيديهم جيل النصر والتمكين. إننا أمة بحاجة إلى المربّين المخلصين الذين يحبون الله ويحببونه لعباده، وعلينا أن نعلم علم اليقين أن الأمة اليوم تعيش صور الإيمان ولا تعيش حقائقه، فهل من عودة صادقة أعمق من خفض الرؤوس في المساجد، ومزاحمة الحجيج على المناسك، والتزام زي الزهاد، والتبجح بالمخارج الفقهية لتبرير الزلات وإعطاء الشرعية لمواقف الفتن؟ إنّ هذا الدين سيعود وله أهله وجنده الذين لا يفترون وله طائفته ـ حامية الحق التي لا تلين ـ فمن شاء لحق بالركب وكان من الفائزين، ومن شاء نكص وأدبر ولن يضرَّ الله شيئاً.

١٠ ـ إنّ لنا في الفتيان أمل، فمن لوط الغلام المؤمن بإبراهيم، إلى غلام الملك صاحب الأخدود، إلى يوسف بن يعقوب طفل الجب، إلى داوود الفتى إلى فتى موسى، إلى عيسى ويحيى سلام الله عليهم أجمعين، إلى علي بن أبي طالب الفتى الفدائي، إلى ابني عفراء قاتلي أبي جهل، إلى سمرة ونافع المصارعين المتسابقين إلى الغزوات، إلى الحسن والحسين سبطي رسول الله ﷺ، إلى جابر بن عبد الله، وعبد الله بن الزبير اللذين بايعا رسول الله ﷺ، فقيل لعبد الله على ماذا بايعت رسول الله ﷺ؟ قال: على الموت وكان إذ ذاك ابن سبع سنين إلى سعد بن أبي وقاص، وهو يعلم أحفاده الغزوات، ويقول: يا بني إنها شرف آبائكم فلا تضيّعوا ذكرها. إلى ابن عباس فتى الفقه والتأويل. إلى أنس خويدم رسول الله ﷺ رضي الله عنهم وأرضاهم أجمعين. إلى جيل التابعين فهذا داود الطائي، (لما بلغ خمس سنين دفعه أبوه للمؤدب، فرأته أمه مستنداً على الحائط يفكر، فقالت: مالك أين عقلك؟ قال: معهم، قالت: ومن هم؟ قال: عباد الله، قالت: أين هم؟ قال: في الجنة ﴿مُتَّكِـِٔينَ فِيهَا عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ لَا يَرَوْنَ فِيهَا شَمْسًا وَلَا زَمْهَرِيرًا ﴿١٣﴾﴾، ثم قال: يا أماه ما كان سعيهم؟ ولم تدر بما تجبه، ثم قال: وكان سعيهم مشكورا)(*). وكان سفيان بن عيينة يقص قصته في طلب العلم، فيقول: لو رأيتني ولي عشر سنين طولي خمسة أشبار، ووجهي

(*) كتاب منهج التربية النبوية للطفل المسلم، لنور سويد، الأساس العقدي، ص ٨٤.

كالدينار، وأنا كشعلة نار، ثيابي صغار، وأكمامي قصار، وذيلي بمقدار، ونعلي كآذان الفار، اختلفت إلى علماء الأمصار، أجلس بينهم كالمسمار، محبرتي كالجوزة، وقلمي كالموزة، ومقلتي كاللوزة، فإذا دخلت المجلس قالوا: أوسعوا للشيخ الصغير(*). وتوالت بعدهم أجيال الفتيان حتى صرنا إلى زمنٍ تُهدر فيه الفتوة وتضيَّع، وقد أُحكم على فتياننا الحصار، فأُخرجت الأم، وتخلى الأب، ودارت مؤامرة الإفساد على البيوت والعباد، وضاعت الفتيان، ولكنّ الأمل معقود في بيوت الدعاة ﴿وَاللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ﴾[1].

ولهذا يقول أحمد شوقي:

فعلِّم ما استطعت لعل جيلاً سيأتي يحدث العجب العجابا

﴿تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ مِّنْهُم مَّن كَلَّمَ اللَّهُ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَاتٍ وَآتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا اقْتَتَلَ الَّذِينَ مِن بَعْدِهِم مِّن بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَلَٰكِنِ اخْتَلَفُوا فَمِنْهُم مَّنْ آمَنَ وَمِنْهُم مَّن كَفَرَ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا اقْتَتَلُوا وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ (٢٥٣) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَنفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ لَّا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خُلَّةٌ وَلَا شَفَاعَةٌ وَالْكَافِرُونَ هُمُ الظَّالِمُونَ (٢٥٤) اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ لَا تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ لَّهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مَن ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِندَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَا يَئُودُهُ حِفْظُهُمَا وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ (٢٥٥) لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَد تَّبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ فَمَن يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِن بِاللَّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ لَا انفِصَامَ لَهَا وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (٢٥٦) اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَوْلِيَاؤُهُمُ الطَّاغُوتُ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (٢٥٧)﴾.

(*) الكفاية في علم الرواية: ص١١٢، نقلاً عن كتاب منهج التربية للطفل المسلم.

(١) سورة الصف: الآية ٨.

المفردات:

إكراه: الجبر والغصب. **انفصام**: تفكك. **الوثقى**: المحكمة.

درجات: جمع درجة وهي المنزلة الرفيعة. **خلة**: الصدقة.

روح القدس: جبريل عليه السلام. **أيدناه**: قويناه ومددناه.

الحي: الباقي الذي لا يلحقه الفناء. **سِنة**: نعاس.

القيوم: القائم بتدبير الأمور. **البينات**: المعجزات.

الطاغوت: هو كل من تجاوز حده. **يؤوده**: يثقله.

شفاعة: تكون من الشفيع وهو الوجيه الذي يتوسط في حط السيئات.

الدراسة التربوية:

﴿تِلْكَ ٱلرُّسُلُ﴾، إنه تعبير خاص يوحي بالأدب الرباني مع هذه الفئة من البشر، إنهم جماعة خاصة متميزة، بمقدرات وتعاليم، واستعدادات مختلفة تماماً، كيف هي؟ لا يستطيع أحد إدراكها، إنها طبيعة خاصة، تتلقى الوحي فتطيقه، لأنها مُهيأة لاستقباله، وكيفية التهيؤ وماهيته لا ندري لها تفسيراً، ولا نفهم لها معنى إنه الاتصال المباشر بالناموس الكوني، وما هو كنه ذلك الاستعداد لتلقي الإشارة؟ وكيف يتم ذلك؟ هل هو عن طريق الدماغ؟ أم عن طريق القلب؟ أم أن السمع والبصر والفؤاد كلهم مشتركون؟ نجد بعض السر في قول نوح عليه السلام: ﴿يَٰقَوْمِ أَرَءَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّى وَءَاتَىٰنِى رَحْمَةً مِّنْ عِندِهِۦ﴾(١) فما هي البيّنة؟ وما هي الرحمة؟ تتشابه مع قول صالح عليه السلام، وكذلك شعيب عليه السلام، وصاغها يعقوب عليه السلام بعبارةٍ أخرى، وقال: ﴿وَأَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾(٢) وهي الحقيقة التي قالها إبراهيم عليه السلام، وهي حقيقة التكوين النبوي، وحقيقة

---

(١) سورة هود: الآية ٢٨.

(٢) سورة يوسف: الآية ٨٦.

الرسالة من لدن الحكيم الخبير، إن البشرية كلها تقف مُدانة إلى خير هؤلاء الرسل الكرام، فهم منارات الهدى، ومعالم النور، ملؤوا الدنيا خيراً وعدلاً، وأقام الله بهم الملة العوجاء، ومضوا إلى الله، وتركوا بصماتهم شاهد حقٍ في هذه الدنيا ولمن تعاقب فيها، ويوم القيامة تفزع إليهم الخلائق، إنّ لهم شأن يُعرفون به يوم الحساب، إنها طبقة الأمناء الأوفياء، يفزع الناس وهم آمنون، وهم المصطفين الأخيار. إنّ ماهية الرسل سرٌ من أسرار الله التي استودعها من يشاء من عباده، وما من أمةٍ من الأمم حقّرت قدر نبيها، إلا وأصابها الذل والخزي في الدنيا والآخرة، ورغم هذه الخاصية المتفردة، فإنها تتفاضل فيما بينها، وقد قطع علينا نبينا الكريم هذه النزعة العصبية، فكما روى أبو سعيد الخدري ﷺ عن النبي ﷺ أنه قال: «**لا تخيّروني من بين الأنبياء فإن الناس يُصعقون يوم القيامة، فأكون أول من يفيق فإذا أنا بموسى آخذ بقائمة من قوائم العرش فلا أدري أفاق قبلي أم جُزي بصعقة الطور**»[1].

إنه قطع للنصرة العصبية، والأنبياء بريئون من كفر أتباعهم، وهل تربينا على هذا الأدب الرباني الفريد؟ حتى لا عصبية ولا قومية ولا تفاخر بالآباء والأنساب أم أننا لا زلنا في الحمأة البغيضة والمخططات الدنيئة خلف حواجز الأرض والتراب والحدود، إنها حرابٌ فرقت المسلمين، ومزّقت شملهم، وقطّعت وشائج الإنسانية التي قادها الرسل الكرام، إنّ من ينظر إلى مقامات الرسل العلية، يجد أن نبينا محمد ﷺ في القمة العليا شهد الله له بذلك وأشهده على نفسه، وهو الذي لا ينطق عن الهوى إن هو إلا وحيٌ يوحى، وعن أبي سعيد الخدري ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «**أنا سيد ولد آدم يوم القيامة، ولا فخر، وأنا أول من تنشق عنه الأرض يوم القيامة، ولا فخر، وأنا أول شافعٍ يوم القيامة، ولا فخر**»[2]. ووجهنا ربنا عز وجل في كتابه العزيز بإشاراتٍ وإرشادات إلى عظيم مكانة سيد ولد آدم وقال:

---

(١) رواه البخاري في كتاب تفسير القرآن، رقم ـ ٤٢٧٢ ـ.

(٢) رواه أحمد في كتاب باقي مسند المكثرين، رقم ـ ٣٣٢٨ ـ.

﴿لَّا تَجْعَلُوا۟ دُعَآءَ ٱلرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَآءِ بَعْضِكُم بَعْضًا﴾[1]. والله سبحانه رفع شأنه ولم يناد عليه باسمه، وقال: يا أيها النبي، وجعل اتباعه سبيلاً لحب الله عز وجل ﴿إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ﴾[2]. ومع كل معالم الكمال والتمام لهذه الرسالة ورسولها، فإننا منعنا من الغلو في الأنبياء، فهذه الأحاديث التي ضمتها الصحاح، وتشهد بسيادة رسول الله وعظيم قدره، ودوام مكانته بدوام رسالته، غير أننا منعنا من المفاضلة بينه وبين غيره من الأنبياء، إنّه ميزان التوازن في المشاعر، وما أدق هذا الميزان؟ إن الإسلام أكمل تصور لحقيقة التوحيد، ورسول الإسلام هو رسول البشرية من يوم مبعثه إلى يوم بعثه، وأراد الله لهذه الأمة أن ترفع الراية، وتكمل المسيرة وجعل فيها دعاة ليسوا بأنبياء ولكنهم شهداء الله في أرضه، يرثون الدعوة، ويمضون متعاهدين الأمانة الغالية يسلم بعضهم إلى بعض من غير تبديلٍ ولا تحريف، وعن عدي بن حاتم ﷺ قال: (بينما أنا عند النبي ﷺ إذ أتاه رجلٌ فشكا إليه الفاقة، ثم آتاه آخر فشكا إليه قطع السبيل فقال: **«يا عدي هل رأيت الحيرة؟»** قلت: لم أرها قد أُنبئت عنها قال: **«فإن طالت بك حياة لترينّ الظعينة ترتحل من الحيرة حتى تطوف بالكعبة لا تخاف أحداً إلا الله»**)[3].

إن وحدة الرسل، ووحدة المنهج، لا تمنع من اختلاف الأجيال من أممهم، ولو أنصف أتباع الرسل، وأطاعوا رسلهم وما جاء في كتبهم لأسلم من في الأرض جميعاً، ولو شاء الله ما اقتتلوا، وإن اقتتال البشر اليوم بقدر من الله، ليميز أهل الضلال من أهل الإيمان، وليدفع الشرَّ بالخير، والله يفعل ما يريد، ﴿مِّنْهُم مَّن كَلَّمَ ٱللَّهُ﴾ فهل هو موسى عليه السلام فقط؟ أم أنّ هناك من ارتقى إلى مقامات يعجز عن إدراكها العقل البشري ﴿وَلَقَدْ رَءَاهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ ﴿١٣﴾ عِندَ سِدْرَةِ ٱلْمُنتَهَىٰ ﴿١٤﴾ عِندَهَا جَنَّةُ ٱلْمَأْوَىٰٓ ﴿١٥﴾ إِذْ يَغْشَى ٱلسِّدْرَةَ مَا

(١) سورة النور: الآية ٦٣.
(٢) سورة آل عمران: الآية ٣١.
(٣) رواه البخاري في كتاب المناقب، رقم ـ ٣٣٢٨ ـ.

يَغْشَىٰ ﴿١٦﴾ مَا زَاغَ ٱلْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ ﴿١٧﴾﴾[1] الله العليم وحده، ﴿وَءَاتَيْنَا عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَيَّدْنَٰهُ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ﴾ هل هو عيسى عليه السلام وحده؟ أم أن هناك نبياً أيَّده الله بروح القدس وأيَّد له أصحابه، إذ يقول لحسان بن ثابت رضي الله عنه: **«اهجهم وروح القدس معك»**[2].

إننا المسلمين نبغض شطط النصارى في ازدواجية اللاهوت والناسوت، ونمقت شطط اليهود ولجاجتهم مع أنبيائهم، ونقف مع قول أبي معبد رضي الله عنه: (ما رأيت أحداً يحب أحدٍ كحب أصحاب محمد محمداً) عليه الصلاة والسلام.

ثم ينادي الله عز وجل لهؤلاء المحبين للحق، وللمؤمنين بالرسل والرسالات، أن يُنفقوا مما أعطاهم وتفضَّل عليهم، لتقوم دعوة التوحيد التي أرسل بها الرسل وتعم الدنيا، يدعوهم ليزكوا أنفسهم بهذا الإنفاق، وليُعبِّدوا الأرض ومن عليها لله رب العالمين، ومن قبل أن يُقضى الأجل، ويحل يوم اللقاء مع الباقي الديَّان، يوم لقاء الرسل قياماً لله رب العالمين، يوم لا فداء ولا مال ولا صدقة ولا صحبة ولا قرابة ولا دعوة ولا نُصرة ولا شفاعة، يوم ينفض الرسل أيديهم، **«يقولون اللهمَّ سلِّم اللهمَّ سلِّم»**[3]، فلا سلامة يومئذٍ إلا لمن سلَّم الله، والكافرون هم الظالمون، فكل كافرٍ ظالم، والظلم ظلمات يوم القيامة، وليس الكافر من كفر بنبوة الأنبياء وحسب، ولكن الكافر كل من صار حبلاً يتسلق الكفر عليه، وإن كان في عداد المسلمين المحسوب من الصالحين. ولا بدّ هنا من لفتة في التصور الإسلامي لقاعدةٍ من أُصول هذا الدين.

إنَّ الدين إذا غاب عن حياة الناس فلا بدَّ من جهادٍ لإعادة الحق إلى نصابه، ولا بدَّ من الإنفاق على الجهاد والمجاهدين، وإنَّ الله لا يقبل من أمةٍ قولاً ولا عدلاً، حتى تحكِّم شريعة ربها، وفي مثل هذه الحال لا يحق

---

(١) سورة النجم: الآية ١٧.

(٢) رواه البخاري في كتاب بدء الخلق، رقم ـ ٢٩٧٤ ـ.

(٣) رواه البخاري، عن أبي هريرة رضي الله عنه في كتاب الأذان، رقم ـ ٧٦٤ ـ.

لها أن تلتفت بفكرها وجهدها وجهادها وانفاقها إلا إلى هذا الحد المفقود، وكم من سذاجة بلغت بالأمة، وقد استباح العدو بيضتها وهتك حرماتها وداهم أعراض نسائها وهي مشغولة ومتشاغلة عن أمر الله ﴿وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ﴾(١)، الخيّرون منهم متشاغلون ببناء المساجد وتعمير المدارس، وصرف الأموال على العبادات التي تقوم أكمل وأفضل وأخلص لله عندما لا يتُخذ عليها أجراً. إن كل بيت من بيوت المسلمين يصلح أن يكون مسجداً، وكل دارٍ تكون مدرسة، «**وجعلت لي الأرض مسجداً وطهوراً**»(٢)، ولكن خلو اليد من القوة المأمورين بإعدادها، وتغييب الأمة عن مسؤوليتها أمام الله، جريمة توقع صاحبها والقائمين عليها في المهالك يوم لا ينفع فيه بيعٌ ولا خلة ولا شفاعة.

إنَّ الإنفاق في غير طريق الجهاد في سبيل الله اليوم، يُعتبر من الضلال والإضلال عن سبيل الله، إن الإنسان لا يملك أن يأتي بالرزق فالرازق هو الله عز وجل، والله أمدَّ العباد برزقه ليبتليهم فيما آتاهم، فإن صرف العبد ماله في تعظيم حرمات الله، وحماية ثغور المسلمين، شكر الله صنيعه، وإن وضعه في غير موضعه، يكون قد ضيَّع الأمانة، وأوتي الإسلام من قبله. إن للمسلمين ثغور، وكل مسلم على ثغرة، فالمرابط على ثغرة، والمنفق على ثغرة، والمعلم على ثغرة، والمرأة على ثغرة، فالله الله أن يؤتى الإسلام من قبلك. إنّ من ضيّع أمانة الله الغالية، والتي استخلفه الله فيها، ضيَّعه الله في يوم لا بيع فيه ولا خلةٌ ولا شفاعة. إنّها مسؤولية أهل الأموال المؤتمنين على رزق الله في الأرض، فإن فاتهم الجهاد بالنفس، فلا يفوتهم الجهاد بالمال، والله يضاعف لمن يشاء بغير حساب ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾(٣). فعندما قال رسول الله من يجهز جيش العُسرة؟ لم يقم أحد ليقول: من بنى بيتاً لله بنى الله له بيتاً في الجنّة. جيش

(١) سورة الأنفال: الآية ٦٠.

(٢) رواه البخاري في كتاب التيمم، رقم ـ ٣٢٣ ـ.

(٣) سورة الأحزاب: الآية ٢١.

العسرة كانت له الأولوية، ومجاهدو الأمة اليوم لهم الأولوية، وكل ما يدعّم المسيرة الجهادية، وكل ما يمكّن للإسلام مقدَّم على كل شيء، إلا لقمةً يُقيم بها المرء أوده، هكذا الهدي النبوي وهذا هو المطلوب من الأمة اليوم.

﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡحَيُّ ٱلۡقَيُّومُۚ﴾ إنها الوحدانية الحاسمة الناصعة، التي لا تشوبها شائبة، فهو الله الواحد الأحد، المتفرد في الخلق والرزق، والحكم والتشريع، الحي القيوم، حيٌّ بنفسه لا يلحقه فناء، قائمٌ بنفسه على كل موجود، لا يفتقر لغيره، سبحانه وتعالى عما يشركون، الخلق كله مفتقرٌ إليه، وهو الغني الحميد، سبحانه وتعالى علواً كبيراً، وما أبلغ رسول الله ﷺ وهو يقول: «**إنّ هذه الآية أعظم آية في كتاب الله**». وذلك لابتدائها بهذا التعظيم والشرف، التي دلت على توحيد الله وتمجيده، وقد اشتملت على عشر جملٍ مستقلة، فيها خمسة معانٍ رئيسية، وترتبت الجمل بغير حرف عطفٍ بينها، لأنها وردت على سبيل البيان، توحيده جل وعلا، قيامه بتدبير خلقه، مهيمناً عليهم غير ساهٍ مالكاً لما يدبر، الكبرياء شأنه، والإحاطة بخلقه قدرته، وسعة علمه ولا يلحقه العجز، ولا يعزب عن علمه مثقال ذرة، وهو العلي علواً يليق بقدره، وتعظيماً لجلاله، سبحان العظيم الجليل الحي القيوم. وقد ورد أنّ لهذه الآية ملائكة موكلة بها، فإذا قرأها الإنسان لا يزال عليه من الله حافظ، إنّ الإنسان ليعجز عن التفكر في أسرار هذا الكون، فكيف بالتفكر في موجد الأسرار؟ إنه الله.

وقد قطع رسول الله ﷺ على الإنسان تفكيره بوصفه «**والذي نفسي بيده ما السموات السبع، والأرضون السبع عند الكرسي، إلا كحلقةٍ ملقاةٍ بأرض فلاة، وإنّ فضل العرش على الكرسي كفضل الفلاة على تلك الحلقة**»[1]. لقد رحم رسول الله ﷺ العقول من التفكر، حتى لا تتفتت وترتطم على صخرة التيه والجنون، ورسول الله ﷺ لم يصف العرش والكرسي وصفاً يفتح للخيال مجاله، بل قفل على الإنسان باب التفكير

---

(١) رواه أبو ذر الغفاري ﷺ، وأخرجه ابن مردويه وله شواهد في الصحاح.

والتشبيه والتجسيم، يا أيها الإنسان اسجد بعقلك، مستسلماً لبارئك فإنك لا تقدر عليه، واعرف قدر نفسك، فأنت عبدٌ مملوك الناصية، لهذا الخالق العظيم، فتفكر في خلقك وفيم حولك، فإنها آياتٌ تبهر العقول، وإنَّ آية الكرسي فيها اسم الله الأعظم، إنّ الإنسان عندما يتلو هذه الآية يتصاغر حتى يشعر أنه لا شيء، لا شيء أمام قدرة الله عز وجل، يستشعر عجزه وضعفه، ويستشعر أنه لا وجود له إلا بالعبودية لهذا العظيم الذي أوجده من العدم، وإلا فهو ذرةٌ في ملكوت الله، ملكوت اللابداية واللانهاية له ما في السماوات والأرض، فما لهذا الإنسان إذاً؟ لا شيء يستشعر أنه عبدٌ رغم أنفه، خالية يده من ملكية أي شيء، وأنَّ ما يملكه ويتكبر به عاريةٌ محدودة الأجل، وأنّه وما يملك في قبضة الحي القيوم، إنّ هذه الحقيقة واستقرارها في القلب، يفيض طمأنينة على النفس، فلا تذهب نفسك حسراتٍ على ما فات، ولا تفرح بما هو آت، وتعلم أنَّ غاية وجودها لشيءٍ أعز، ومطلبٍ أغلى.

﴿مَن ذَا ٱلَّذِى يَشۡفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذۡنِهِۦۚ﴾ إنه موقف الألوهية المالكة للنواصي، وموقف العبودية المستجدية، فالكل خاشعٌ خاضعٌ لا يتقدم منهم أحد، ولا يجرؤ على طلب، بل وصف لنا رسول الله ﷺ الموقف، وقال: «**وأخر ساجداً تحت العرش حتى يُقال لي: ارفع رأسك، وقل تُسمع، واشفع تشفَّع**»[1] إنّ مقام سيد البشر السجود تحت العرش، وكفى بذلك شرفاً للرسول ﷺ بتحقيق العبودية، لقد أحاط الله علماً بأحوال خلقه، وأعلمهم بقدرته عليهم، وضعفهم وبأسهم ﴿يَعۡلَمُ مَا بَيۡنَ أَيۡدِيهِمۡ وَمَا خَلۡفَهُمۡۖ﴾ وقال: ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ قَدۡ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عِلۡمَۢا﴾[2] إنها حقيقة علم الألوهية، ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيۡءٖ مِّنۡ عِلۡمِهِۦٓ﴾ وهذا قدر علم العبودية، وقد سأل النبي ﷺ أُبي بن كعب رضي الله عنه «**أي آيةٍ في كتابه الله أعظم؟**» قال: الله ورسوله أعلم، فرددها مراراً، فقال كعب آية الكرسي، فقال له النبي ﷺ: «**ليهنك العلم أبا المنذر، والذي**

(١) رواه البخاري في كتاب التوحيد، رقم ـ ٦٩٥٦ ـ.
(٢) سورة الطلاق: الآية ١٢.

نفسي بيده لها لساناً وشفتين تقدس الملك عن ساق العرش»[1] فهي آيةٌ جامعة لعدد من صفات الله العلية، والتي نوقن بها دون تكييف ولا تشبيه، ويسعنا فيها ما وسع رسول الله ﷺ وصحبه الكرام.

إن الله وهب للإنسان المعرفة، والعلم، والمقدرة المحدودة التي تتناسب مع قواه المحدودة، فهو يسمع بقدر ويبصر بقدر ويعلم بقدر ويعرف بقدر ويعيش بقدر فهو في قبضة خالقه، يراه ويحصي عليه أعماله ثم يحاسبه عليها ويجزيه بها، ويجبهه الله بالحقيقة ليبقى منكمشاً معتدلاً ﴿وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴾[2] وما أبلغ تعبير الرجل الصالح لموسى عليه السلام، عندما رأى الطائر يشرب من ماء البحر فقال: يا موسى ما علمي وعلمك من علم الله إلا كما أنقص هذا الطائر من ماء البحر.

إنَّ العلم والإحاطة والعلو والكبرياء والمقدرة والحياة المطلقة، مع القيام والتدبير، كلها معاني وصفات تفيد القصر والحصر عليه سبحانه بلا شريك له ولا مثيل، إنَّ هذه الآيات تثبّت في الإنسان مخافة الله ومهابته، وتسوقه إلى الله والخضوع بين يديه سبحانه، والتحرج من الاستكبار على عباده، فهي تصورٌ واعتقادٌ كما هي عملٌ وسلوك.

إنّ هذه العقيدة التي صاغت المؤمن، ثم دفعته، وهو يحمل هذه المعتقدات ويقوم بهذه الدعوة، ويتبوأ بها قيادة البشرية الضالّة، ليعرِّفها على خالقها، ويأخذ بيدها إلى واحة العبودية الرحبة. وهي هنا غير مقهورة ولا مجبورة ولا مأمورة بتعطيل العقل، بل باستخدامه حيث ﴿لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشۡدُ مِنَ ٱلۡغَيِّۚ ﴾ فلمن كلمة تَبيّن. للحيوان أم للعاقل؟ فالأمر بدهي بأنَّ العاقل هو المكلّف، وهو الذي يدرك مقامه بعقله، فإما أن يطأطىء ويعقل ويستخدم ذكاؤه وينجو، وإما أن يشارك البهيمة مرتعها ومشربها ثم يُردُّ إلى عذاب الجحيم. إنّ هذا الدين لم يواجه الناس بالخوارق التي تبهر

(١) رواه أحمد في كتاب مسند الأنصار، رقم ـ ٢٠٣١٨ ـ.

(٢) سورة الإسراء: الآية ٨٥.

العيون، وتقهر النفوس، إنما واجهها بالحق والواقع المحسوس ﴿أَمَّن يَبْدَؤُا الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ﴾[1] ومن يُنبت البذرة ويخرج الثمرة؟ من ينزِّل من السماء ماءً! ويكشف السوء؟ من يسوق الأقدار ويجعل الطفل يحمل ملامح أبيه؟ أوجده القريب أو البعيد! من يحيي ومن يُميت وما هي الحياة وما هو سرُّها؟ تساؤلات توجّه إلى أصحاب العقول ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّأُولِي النُّهَىٰ﴾[2] إنّه مبدأ تكريم الإنسان حيث يفكر ويتفكر، فيقر بالحق الذي لا يقبل الشك.

إن حرية الاعتقاد هي أول حقوق الإنسان، لأنّه إذا تحققت فيه إنسانيته تحققت فيه العبودية لربه. ومع حرية الاعتقاد تُرفع القيود عن الدعاة والمدعويين حتى يُبّلغ الدعاة الأمر، ويعقل المدعوون الدعوة، وتُصان الحقوق، ويتحقق الأمن من الفتنة والأذى وإلا فهي حريةٌ مسلوبة وإنسانية مقيدَّة.

إن الإسلام أرقى تصوراً للوجود والحياة من كل تصور، وأرقى منهجاً للبشرية من كل منهج، هو الذي ينادي لا إكراه في الدين قد تبيّن الرشد من الغي، فالرشد هو الإيمان والغي هو الكفر، والرشد هو الذي يحرص عليه الإنسان، ويهدي إليه أخاه الإنسان، والغي هو الكفر الذي ينفر منه الإنسان، ويصعب عليه أن يرى أخاه الإنسان يتخبط به، فإذا قامت الدعوة بكل أساليبها وطُرقها فلا يرفض الرشد إلا سفيه. ﴿فَمَن يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِن بِاللَّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ لَا انفِصَامَ لَهَا ۗ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾.

ومعنى الإكراه الذي تنفيه الآية هو أن يقوم إنسان ليتكلم بلسان من وراءه، بأنهم يرفضون الدين، فلم يأمر الله عز وجل أحداً أن يحمل السيف على أحد ويقول له أسلم وإلا قتلتك، ولكن يأمرنا الله عز وجل أن نُزيح الطاغوت، ونُبلغ الناس دعوة لا إله إلا الله، لأن الإسلام مسؤوليةٌ فردية،

---

(١) سورة النمل: الآية ٦٤.

(٢) سورة طه: الآية ١٢٨.

﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾[1]. وليس للمرء من حجةٍ يُدليها أمام الله بأن يقول: يا رب كفر ولي أمري فكفرت، بل كل عاقل مسؤولٌ أمام الله عن نفسه، وعن شرع ربه، فكما أنها مسؤوليته أن يسترشد لنفسه ويسعى للخير فكذلك مسؤوليته أن لا يُعطِّل حكم الله في الأرض، والموضوع واسع وله مراجعه الفقهية، وهذا المفهوم لا يتعارض مع حديث رسول ﷺ إذ قال: **«عجب ربك من قوم يُقادون إلى الجنة بالسلاسل. يعنى الأساري الذين يُقدم بهم إلى بلاد الإسلام في الوثاق والأغلال، ثم بعد ذلك يسلمون وتصلح أعمالهم ويدخلون الجنة»**[2].

والطاغوت هو الذي يجب على الإنسان أن يكفر به ويرده ويجحده ولا يعترف بوجوده، والطاغوت هو الذي تجاوز حدود الله، وليس له ضابط من العقيدة، وليس له معالم ربانية لا يتعداها إلى سواها، بل يحدوه الطغيان إلى حب الزعامة والرغبة في التصدر للأوامر والنواهي، وهي فطرةٌ شيطانية موجودة في الإنسان، فإما أن تهذبها العقيدة فتُصرف على شكل عبودية لله، واستعلاء على الشيطان، بنوعيه الإنسي والجني، وإما أن تبتعد عن التربية الإيمانية فتطغى وتقهر وتظلم وتسعى في الأرض فساداً. وسواءً كان هذا المسلك أو ذاك، فالله سميعٌ عليم. إن في عبادة الإنسان لله تكريماً وشرفاً وعزةً وتمكيناً، وفي استعباد الإنسان للإنسان ذلاً ومهانةً وخنوعاً وشقاءً وضياعاً وتهديداً. إن الكفر بالطاغوت معناه التمسك بحبل الله المتين، شبّهه الله بعقدة لا تُحل ولا تنقطع، لأن الذي أحكمها هو الله القوي العزيز، وقد اختلفت أقوال المفسرين في العروة الوثقى، قال مجاهد: هي الإيمان، وقال السدي: هي الإسلام، وقال سعيد بن جبير: هي لا إله إلا الله. وقال أنس: هي القرآن، وقال سالم: هي الحب في الله والبغض في الله، وفي الحقيقة أجمع أهل العلم، أن هذه الأقوال كلها صحيحة ولا تعارض بينها، قال الإمام أحمد عن محمد بن قيس بن عبادة قال: (كنت

---

(١) سورة الأنعام: الآية ١٦٤.

(٢) حديث صحيح رواه أحمد في كتاب باقي مسند المكثرين، رقم ـ ٧٦٧١ ـ.

في المسجد فجاء رجل في وجهه أثر خشوع، فصلى ركعتين أوجز فيهما، فقال القوم: هذا رجلٌ من أهل الجنة، فلما خرج اتبعته حتى دخل منزله، فدخلت معه، فحدّثته، فلما استأنس، قلت له: إن القوم لما دخلت المسجد قالوا كذا وكذا، قال: سبحان الله، ما ينبغي لأحدٍ أن يقول ما لا يعلم، وسأحدثك لَم، إني رأيت رؤيا على عهد رسول الله ﷺ، فقصصتها عليه: رأيت كأني في روضةٍ خضراء، وفي وسطها عمود حديد أسفله في الأرض، وأعلاه في السماء، في أعلاه عروة فقيل لي: اصعد عليه، فقلت: لا أستطيع، فجاءني منصف، فرفع ثيابي من خلفي فقال: اصعد، فصعدت حتى أخذت العروة، فقال: استمسك بالعروة، فاستيقظت وإنه لفي يدي، فأتيت النبي ﷺ فقصصتها عليه فقال: أما الروضة، فروضة الإسلام، وأما العمود، فعمود الإسلام، وأما العروة، فهي العروة الوثقى، فأنت على الإسلام حتى تموت قال: والرجل هو عبد الله بن سلام ﵁)[1].

﴿ٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَـٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَوْلِيَآؤُهُمُ ٱلطَّـٰغُوتُ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ ٱلنُّورِ إِلَى ٱلظُّلُمَـٰتِ ۗ أُو۟لَـٰٓئِكَ أَصْحَـٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَـٰلِدُونَ ﴿٢٥٧﴾﴾.

إنها جملة محكمة لا تحتاج إلى تفسير، ولا إلى جُهدٍ في فهمها، ولا اللجوء إلى فقيهٍ ليعلمها، الله ولي الذين آمنوا، فهو وليهم ومرشدهم، وهو الذي يسدد خطاهم ويثبتهم، يخرجهم من الظلمات كلما ألمّت بهم، يحفظهم من ظلمات الكفر وظلمات الطواغيت، ومن ظلمات الفتن، ومن ظلمات المحن، من ظلماتٍ شتى تعترض المؤمن لتفتنه في دينه، يتولاه الله فيخرجه منها سالماً غانماً ثابتاً، إلى نور الإيمان الواحد، إنّ طرق الإلتواء كثيرة، بينما طريق الله واحد، لا يتلوّن ولا يتعدد إنّ المؤمن يتولاه ربه فيجعل له في قلبه فرقاناً يُميز به المزالق، فمن كتم حقاً فهو في ظُلمة، ومن التمس العزة بغير الله فهو في ظُلمة. ومن توكل على غير الله فهو في ظُلمة، ومن خذل إخوانه المؤمنين فهو في ظُلمة، فالظلمات متعددة

---

(١) خرجاه في الصحيحين واللفظ لأحمد في كتاب باقي مسند المكثرين، رقم ـ ٢٢٦٧١ ـ.

ومتنوعة، وسُخر لها أناسٌ يُلبسّونها ثوب الحق، ويُصيغونها بصيغة النصح والإحسان، فتنحرف الفطرة وتزل القدم ويهون الشرود عن الطريق، ففي اتباع الشهوات فتنة وفي الكبر محنة وفي الرياء والنفاق مهالك، ولذلك كان الوعيد بأنهم أصحاب النار هم فيها خالدون.

الفوائد التربوية:

١ - إن الرسل مجموعة بشرية ربّاهم الله على عينه، وجعلهم نماذج للخير يقتدي ويهتدي بهم الناس، وسيرتهم تفتح المجال، وتجدد الآمال للإرتقاء والتشبه بهؤلاء الكرام الأخيار.

٢ - إنّ سيرة الأنبياء والمرسلين، مادة تربوية يتفاعل معها الأطفال والكبار، وهم نماذج ربانية، خلّد الله لنا سيرهم وتجاربهم للقدوة والعبرة. وتفضيل بعضهم على بعض شأن الذي أوجدهم وأرسلهم، ولا يجوز لأحدٍ من البشر أن يفاضل بينهم، أو يمجّد نبي ليطعن بآخر صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين.

٣ - إنّ كل ما يحدث على هذه الأرض بمشيئة الله، ولو شاء الله ما اقتتل أتباع الرسل من بعدهم، رغم أن الرسل دعوتهم واحدة ومعينهم الذي ينهلون منه واحد، ولو بقي ما جاء به الرسل كما هو لاتفقت البشرية كلها، وآمنت وصدّقت، ولكن تلاعب أهل الكتاب السماوية بكتبهم، وتطاول اليهود على شرائع الله هو سبب هذا الاقتتال، ولكن هل هذا يحدث خارجاً عن مشيئة الله؟ لا إنّ لِله في خلقه شؤون، والله سبحانه وتعالى تعهد القرآن الكريم فجُمع بعد أن كان آياتٍ متفرقة وحُفظ في الصدور، وتعهد الله حفظه، فبقي عذباً صافياً كما أُنزل ليكون حجةً على الكافرين السابقين منهم واللاحقين، وليكون أهله شهداء الله في الأرض، وشهداء الله يوم القيامة.

والآية ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا ٱقْتَتَلُوا۟﴾ تسكب الطمأنينة في قلب المؤمن والاستسلام لقدر الله، وليس كل ما نراه شراً هو شر في حساب الله، فربَّ ضارةٍ نافعة، فلذلك المؤمن الذي يفقه دينه يعمل ولا يلتفت، حيث

المطلوب منه العمل والنتائج لله، تتحقق وفق قدر الله فلا **يأس ولا قنوط ولا توقف**، فهي مؤشرات الخطر في ميزان الله تعالى. ﴿إِنَّهُۥ لَا يَاْيْـَٔسُ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾[1].

٤ ـ الإنفاق في سبيل الله مطلبٌ قرآني، فلذلك من واجب المربي أن يعوِّد الطفل على هذا الخُلق حتى يتأصل فيه، كما يعوده الكرم وبذل ما في اليد. ويشرح المربي للطفل المعنى الإيماني لحديث «**ما نقص مالٌ من صدقة**»[2]. والفرق بين المنطق المادي، والمنطق الإيماني، ويُعوَّد الطفل أن يتخيَّر لمن الإنفاق وتُعرض عليه أبواب الخير، ليتعلم تفضيل الأولويات وهذه مسؤولية المربين.

٥ ـ والكافرون هم الظالمون، إن بعض الأعمال يُطلق عليها الكفر تغليظاً، والكفر هو الجحود والتغطية، فالذي يجحد نعمة الأموال ويستقلها على كثرتها، ويمسك يده عن الإنفاق، فقد يقع بنوع من الكفر، أستحق به هذه الصفة من الله عز وجل. وحتى لا يحسب الإنسان أنّ عدم الإنفاق من صغائر الذنوب، بل ذكر الله صفة الكافرين تهديداً، ومبالغة في التحذير.

٦ ـ آية الكرسي هي آية الإيمان، وآية الطمأنينة، ولذلك فإن من واجب المربين تحفيظها للطفل، وتعويده على قراءتها بعد كل صلاة، والتأكيد عليها في الصباح والمساء، ولا يحافظ الطفل على الشيء حتى يرى له في ذلك قدوة. وفي قصة أبي هريرة ﷺ مع الشيطان عبرة.

كما روى البخاري عن أبي هريرة ﷺ قال: (وكلني رسول الله ﷺ بحفظ زكاة رمضان، فآتاني آت فجعل يحثو من الطعام، فأخذته وقلت: والله لأرفعنَّك إلى رسول الله قال: دعني فإني محتاج، وعليَّ عيال، ولي حاجة شديدة، قال: فخليت عنه، فأصبحت فقال النبي ﷺ «**يا أبا هريرة ما فعل أسيرك البارحة؟**» قلت: يا رسول الله شكا حاجة شديدة وعيالاً فرحمته

(١) سورة يوسف: الآية ٨٧.

(٢) رواه الترمذي في كتاب الزهد، رقم ـ ٢٢٤٧ ـ.

وخليت سبيله، قال: «**أما أنه قد كذبك وسيعود**» فعرفت أنه سيعود، فرصدته فجاء يحثو من الطعام فأخذته فقلت: لأرفعنك إلى رسول الله ﷺ قال: دعني فإني محتاج وعليَّ عيال، فرحمته وخليت سبيله، فأصبحت فقال لي رسول الله ﷺ: «**يا أبا هريرة ما فعل أسيرك البارحة؟**» قلت شكا حاجة وعيالاً فرحمته، وخليت سبيله، فقال: «**أما أنه قد كذبك وسيعود**» فرصدته الثالثة، فأخذته وقلت: لأرفعنك إلى رسول الله، هذا آخر ثلاث مرات تزعم أنك لا تعود وتعود، فقال: دعني أعلمك كلمات ينفعك الله بها، قلت وما هي؟ قال: إذا أويت إلى فراشك فأقرأ آية الكرسي، ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَيُّ ٱلْقَيُّومُ﴾ حتى تختم الآية، فإنك لا يزال عليك من الله حافظ، ولا يقربك شيطان حتى تصبح، وكانوا أحرص على الخير، فقال النبي ﷺ: «**أما إنه صدقك وهو كذوب، تعلم من تخاطب منذ ثلاث يا أبا هريرة؟**» قلت: لا. قال: «**ذاك الشيطان**»(١).

إن من يقرأ هذا الحديث يستفيد منه تربوياً:

١ ـ أن تصبُّر الصحابة ورحمتهم التي تلقنوها من مدرسة النبوة.

٢ ـ عندما قرر عقابه بعد ثلاث، قال: دعني أعلمك كلمات ينفعك الله بها، وهي تدل على رشد أبي هريرة، وحرصه على الخير، فلم يقل له إنك كذاب وأيُّ خيرٍ فيك، بل صبر وسمع وتعلم.

٣ ـ إعجاب أبو هريرة بالمعلومة لم يجعله يثق بمن علَّمه إياها، بل رجع بها إلى رسول الله ﷺ، فهو الصادق المصدوق، وهو الثقة، ورسول الله ﷺ لم يكذِّبه في هذه النصيحة، بل قال: صدقك وهو كذوب، أي طبعه الكذب، ولكن في هذه صدق فنستفيد من إخلاص المربي وإخلاص الذي يتربى فلا غش ولا غبن ولا تحامل، رغم معرفة رسول الله ﷺ بالقائل وأنه شيطان.

٤ ـ حرص الصحابة على الخير، وطلب العلم والصبر عليه ولو من

---

(١) رواه البخاري في كتاب الوكالة، رقم ـ ٣٠٣٣ ـ.

الشيطان، والشيطان هو الشيطان، ولكن المؤمن يتعلم ويستفيد دون شتائم وبلا سباب، وبالتالي دون تفانٍ وتعلق وتنزيه لشخص المعلم حتى يخبره ويعلم سيرته ويشهد له أهل الفضل بالصدق والإخلاص، فلا يُعمّى الإنسان عن الخطأ ويقع في الفتن بل ينتبه ويحذر، إنّ التوازن الذي نفتقده اليوم نتعلمه من الدروس القرآنية، ومن التوجيهات النبوية، إنّ رسول الله استمع لفائدة أبي هريرة ولكن وجَّهه وحذره بقوله: صدقك وهو كذوب، فالعدو قد يصدق مرة ومرات، والشيطان قد يتلبس ثوب الناصح الواعظ، ونبقى نقول: صدقك وهو كذوب ولو ألف مرة. فهل ندرك التقوى التي تفرّق بين الحق والباطل، إن النصيحة المعسولة لن تغير من طبيعة الشيطان شيء، غير أننا نعرضها على ميزان الإسلام، فإن وافقته أخذناها، وإن عارضته رددناها، فعلى هذا يجب علينا أن نربي في المسؤولين عن تربيتهم الحس اليقظ، والإيمان المتوقد ولتستبين سبيل المؤمنين. والموجه المخلص هو الذي يرد العلم لله، ويذكرك بأن الفضل من الله، وليس لذاته شيء من مصلحة، وليس له عليك منَّة إلا ابتغاء مرضاة الله.

٥ ـ وفي إخراج الذين آمنوا من الظلمات إلى النور موقف. ولو قال: الله ولي الذين آمنوا يهديهم من الظلمات إلى النور، لكان الموقف موقف هداية ودلالة ولكن يُخرجهم، وكأنه ما من شبرٍ على الطريق إلا وعليه ظُلمة، والله الولي الذي يُخرج منها ويسلّم، وكذلك الطاغوت قائم بكل قواه يزين الظلمات، ويتفنن في عرضها ليلتبس الأمر على المؤمن فينال منها، وتنال منه، فتزل قدمٌ بعد ثبوتها، ولولا ولاية الله للمؤمن وإخراجه المتوالي من الظلمات المعروضة، بشكل أنوارٍ تُبهر، وعزٍ يُفتن، وكلماتٍ متسترة بآيةٍ منمقةٍ مختارة، وحديثٍ نبوي جذّاب لسقط الكثيرون ولكنّ الله سلم وزين الإيمان في القلوب وثبته، إنّ التردي في الظلمات لا يكون مرةً واحدة ولا نقلة كاملة من الإيمان إلى الكفر، وإنما هو التدرج من ظلمة إلى ظلمة، حتى إذا توسَّعت الهوة، صعب الرجوع، فما أن يدخل الإنسان في ظُلمة ويتحسسها، حتى يسرع الشيطان ليزينها، ويعوِّضه إياها إعجاباً بالنفس، ويُسمعه كلمات الإطراء والإعجاب، فيفرح بما حصّل من شهرة، ويمضي الطاغوت بإغرائه حتى يسيطر عليه، وتنقلب عنده المفاهيم، ويبرر

الآيات البيّنات تحت معاني مغايرة فإذا به قد ضل. **وتخلى الله عن إخراجه**، فيمضي المسكين في ظلمات لا ينفذ إليها النور.

إن طريق الله شاقٌ مليءٌ بالأشواك، ولا راحة فيه للمؤمن، والمؤمن فيه يجهد ويكد ويصبر، ويكيد به الطاغوت ويذيقه مرَّ العذاب، فمن كان هذا حاله فهو في كنف الرحمن، إنّ عمر رضي الله عنه، عندما فُتحت له الدنيا، وانحسر الطاغوت في زمانه، تعب وجهد في المسؤولية عن العباد الذين تولى أمرهم، ولذلك صدق رسول الله ﷺ إذا قال: «**لا راحة لمؤمن إلا بلقاء ربه**» والمؤمن مُجهدٌ سواء أكان حاكماً أو محكوماً قائداً أو جندياً. جاع عمر وربط الحجارة على بطنه، وهو فردٌ ممتحن مع رسول الله، وجاع عمر واسود لونه وهو أميرٌ للمؤمنين عام الرمادة، وفتح الله عليه كنوز البحرين، فأطعم الناس وجاع عمر لئلا تبطره الدنيا، وتنال منه ظلماتها والسيرة حافلة بأنوار ولاية الله للمؤمنين، فالحذر الحذر أيها المؤمنون فقد تتستر الظلمة بآية أو حديث ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُعۡجِبُكَ قَوۡلُهُۥ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَيُشۡهِدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا فِي قَلۡبِهِۦ وَهُوَ أَلَدُّ ٱلۡخِصَامِ ﴿٢٠٤﴾﴾[1].

﴿أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلَّذِي حَآجَّ إِبۡرَٰهِـۧمَ فِي رَبِّهِۦٓ أَنۡ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلۡمُلۡكَ إِذۡ قَالَ إِبۡرَٰهِـۧمُ رَبِّيَ ٱلَّذِي يُحۡيِۦ وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا۠ أُحۡيِۦ وَأُمِيتُۖ قَالَ إِبۡرَٰهِـۧمُ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَأۡتِي بِٱلشَّمۡسِ مِنَ ٱلۡمَشۡرِقِ فَأۡتِ بِهَا مِنَ ٱلۡمَغۡرِبِ فَبُهِتَ ٱلَّذِي كَفَرَۗ وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٥٨﴾ أَوۡ كَٱلَّذِي مَرَّ عَلَىٰ قَرۡيَةٖ وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّىٰ يُحۡيِۦ هَٰذِهِ ٱللَّهُ بَعۡدَ مَوۡتِهَاۖ فَأَمَاتَهُ ٱللَّهُ مِاْئَةَ عَامٖ ثُمَّ بَعَثَهُۥۖ قَالَ كَمۡ لَبِثۡتَۖ قَالَ لَبِثۡتُ يَوۡمًا أَوۡ بَعۡضَ يَوۡمٖۖ قَالَ بَل لَّبِثۡتَ مِاْئَةَ عَامٖ فَٱنظُرۡ إِلَىٰ طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمۡ يَتَسَنَّهۡۖ وَٱنظُرۡ إِلَىٰ حِمَارِكَ وَلِنَجۡعَلَكَ ءَايَةٗ لِّلنَّاسِۖ وَٱنظُرۡ إِلَى ٱلۡعِظَامِ كَيۡفَ نُنشِزُهَا ثُمَّ نَكۡسُوهَا لَحۡمٗاۚ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥ قَالَ أَعۡلَمُ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ﴿٢٥٩﴾ وَإِذۡ قَالَ إِبۡرَٰهِـۧمُ رَبِّ أَرِنِي كَيۡفَ تُحۡيِ ٱلۡمَوۡتَىٰۖ قَالَ أَوَلَمۡ تُؤۡمِنۖ قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطۡمَئِنَّ قَلۡبِيۖ قَالَ فَخُذۡ أَرۡبَعَةٗ مِّنَ ٱلطَّيۡرِ فَصُرۡهُنَّ إِلَيۡكَ ثُمَّ ٱجۡعَلۡ عَلَىٰ كُلِّ جَبَلٖ مِّنۡهُنَّ جُزۡءٗا ثُمَّ ٱدۡعُهُنَّ يَأۡتِينَكَ سَعۡيٗاۚ وَٱعۡلَمۡ أَنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٞ ﴿٢٦٠﴾﴾.

---

(١) سورة البقرة: الآية ٢٠٤.

المفردات:

حاجّ: ناظر وهي مبادلة الحجة بالحجة. **لبثتَ**: مكثت ميتاً.

بُهت: انقطع وذهبت حجته أي سكت. **يتسنّه**: يتغير ويتبدل.

عروشها: أبنيتها أي سقطت سقوفها. **سعياً**: مشياً بسرعة.

نُنشزها: نرفعها ونركّب بعضها إلى بعض. **خاوية**: لا أنيس فيها ولا حياة.

صُرهنّ: ضمهنّ إليك ثم اقطعهن.

الدراسة التربوية:

إنّ هذه الآيات الثلاث تنبه، وتفصِّل في موضوعٍ واحد، وهو سر الحياة والموت، هذه الحقيقة التي تتصل اتصالاً مباشراً بآية الكرسي، وما قررته من صفات الله عز وجل، وهي تمثل جانباً من جوانب الجهد التربوي في القرآن الكريم، لتستقر الحقائق الربانية، وفي ضمير المسلم وإدراكه. فنظام الحياة، ومنهج السلوك، وقواعد الأخلاق والآداب، لا تنفك عن المفهوم الاعتقادي بحالٍ من الأحوال، بل هي كلها قائمةٌ عليه مستمدةٌ منه، وأي مَيلٍ وإن كان بسيطاً يخل بالتوازن المطلوب، فالحي القيوم هو الذي يملك سر الحياة والموت.

والآية تحكي حواراً دار بين إبراهيم عليه السلام، وملك حكم في زمانه يجادله في الله، وساق الله هذا الحوار لنبيه الكريم على مسمع من المؤمنين، والناس أجمعين لا بقصد التسلية وإنما للعبرة، وإنّ إبراهيم لَأمَّة، وملته هي المتبعة إلى يوم الدين، والملك الطاغية الجبّار قضى وفني، واندثر ذكره إلا أنه بقي مثلاً على الجدل العقيم. وهذه حقيقةٌ ناصعة يجب أن تستقر في نفس المؤمن، بأن الحق باقٍ ببقاء الله تعالى. وأن الباطل زاهق وإن علا وانتفش وجادل. وإن هذا الملك الذي جادله إبراهيم لم يكن منكراً لوجود الله، إنما كان منكراً لوحدانيته في الألوهية والربوبية. وعلته القائمة أن آتاه الله الملك، وساق إليه نعمة الحكم، ليقيم حكم الله في الأرض، ولكن اختلفت عنده الموازين، واستنكر أن يكون هو ومن جعلهم الله تحت

يده عبيداً لله، وانقلبت النعمة عليه نقمة، إذ لم يشكرها بل حملته على اللجاجة والجدل، واستحكم الأمر بنفسه وعقله، فواجهه إبراهيم عليه السلام بحقيقة عجزه، إذ قال له إبراهيم: ربي الذي يحيي ويميت لفت انتباهه إلى السر المحيّر، الذي استسلمت له كل طواغيت البشر، لفت نظره إلى الربوبية التي لا يشارك الله فيها أحد، ولكن وجده مطموس البصيرة، عديم الفكر، فأجاب دون تردد: أنا أحيي وأميت، فتركه إبراهيم عليه السلام، وأدرك أن جبروت الملك قد سدَّ عليه نوافذ الخير كلها، فتحداه بالحقيقة الكونية، فإن الله يأتي بالشمس من المشرق فأتِ بها من المغرب، فبُهت واحتار وسقط في يده، أنّى له هذا، آيةٌ مكرورة، وشاهدٌ يخاطب الفطرة، وعجزٌ فاضح، فأبلس وتحيَّر.

ولكن ظلم الإنسان لنفسه، يجعل له حاجزاً دون الهداية الربانية، والله لا يهدي القوم الظالمين، وتلقى أصحاب الدعوة درساً صقل نفوسهم، فملكوا الدنيا وزادهم الملك عبوديةً لله، ووقعت عليهم المسؤولية فتقرحت جفونهم خوفاً من رب العالمين. ثم انتقل بهم إلى موقفٍ تربوي آخر. ﴿أَوْ كَالَّذِى مَرَّ عَلَىٰ قَرْيَةٍ وَهِىَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا﴾ من هو؟ وما اسمه؟ وما هي قريته؟ أغفل الله هذا، وكأنه يقول لك لا تبحث فيما لا فائدة فيه اسمع القصة، وانظر العبرة، وركِّز اهتمامك، حيث وجهك ربك.

وفرّغ الله العقول من الأسماء والبلدان، لتقف على سر الموت والبلى والخواء، تصويرٌ حي لمنظر الدمار والفناء والحطام والركام لا شيء لا حركة لا حياة، ووقف الرجل محتاراً، يقلب يديه متسائلاً كيف يحيي هذه الله بعد موتها؟ كيف تسري الحياة في هذا السراب؟ وجاء الجواب واقعاً عملياً. فأماته الله مائة عام ثم بعثه، ألحقه الله بالموات وطرحه أرضاً مائة عام متوالية، تناثرت عظامه ورمَّت ثم أقامه، قال كم لبثت؟ وكم مكثت في عالمَ الأموات؟ والزمن لا يستشعره الإنسان إلا مع الحياة والوعي والحركة. فاتضح جهله وعرف قدر نفسه، فقال: لبثت يوماً أو بعض يوم، قال: بل استمر حالك مائة عام، ست وثلاثين ألفاً وخمسمائة يوم تقريباً، ووقع في حسه ومحسوساته أنه أمام قدرةٍ قادرة، فنظر حوله وتلفَّت، فوجد حماره،

وقد تغّرت عظامه وتفسّخ، وتناثرت رفاته وتفككت، ولكن الطعام والشراب لم يتعفن وكأنه وُضع في لحظة. ووقف الرجل حائراً، لقد غاب عن وعيه ميتاً مائة عام ثم قام والحمار لا يزال رفاتاً بالية، والطعام والشراب لم يفسدا، ثم عاين عملية ضم العظام بعضها إلى بعض، وكسوتها باللحم، وردّ الحياة لها، وتلفت الرجل أمام الخارقة الربانية، ولم يملك السؤال بل وجد الإجابة قد سدَّت عليه كل تعجبٍ وتساؤل، والقصة أدت هدفها التربوي، فعمّقت اليقين في نفوس الصحابة الكرام، وأن الله على كل شيء قدير. وإذا وقفنا أمام القرية الخاوية بالمنطق العلمي، فالظروف البيئية واحدة، فما بال البلى ينال شيئاً ويترك أشياء.

لماذا عملت البكتيريا في تفسخ لحم الحمار، ولم تعمل في الطعام والشراب؟ من الذي أطلقها في الحمار، وأمسكها في الطعام؟ فهل نحاكم قدرة الله بإدراكنا المحدود؟ وهل نستطيع أن نُخضع المقدرات الإلهية لقوانين العلم البشرية؟ كلا. وإنما هو الاستسلام والإقرار ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ فهي حقيقةٌ تربوية وتعتبر الرادف الإيماني لمفهوم لا إله إلا الله.

وتأتي القصة الثالثة، إذ قال إبراهيم رب أرني كيف تحيي الموتى، قال: أو لم تؤمن؟ وهل الله بحاجة لسؤال إبراهيم ليعلم إن كان مؤمناً أم لا!! كلا، ولكن ليطلع عباده، ويربيهم بهذه الوقائع.

وإبراهيم عليه السلام كان مؤمناً، موقناً بقدر الله، ولكن الله أراد أن يطلعنا على يقين إبراهيم، حتى نعرف المستوى الإيماني المطلوب، وأن الله عندما وصفه بأنه أمّة، وأن ملته هي الباقية إلى يوم الدين، لم يكن ذلك سُدىً، ولم يكن بغير تقدير، وسؤال إبراهيم، يعلمنا أن الإنسان يجب أن يبحث عن مواقف التعلم، ومواقف الاعتبار، وعرض الحقائق، يسعى لها ويذل نفسه بالسؤال عنها لتلامس فطرته بلا حواجز، ولذلك قال: رب أرني كيف تحيي الموتى، إنه لم يطلب المعرفة، ولم يطلب التصديق، ولكنه طلب الطمأنينة، حتى يكون على يقين كما أنه على يقين بأنه حي وعينه تطرف، والله عز وجل لم يصده، ولم ينتهره، وهكذا يُفسح المجال لطالب

العلم، قال: ﴿فَخُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ ٱلطَّيْرِ﴾ وقم بذبحهن بيدك، وفرِّقهنَّ على رؤوس الجبال، ثم ادعهنَّ بقدرة الله عليك وعليهن، فسيأتينك سعياً، فلن يتيه عظماً ولن يخطىء جلداً ولن تطير ريشة، بل سينضم كل شيء إلى بعضه متكاملاً، وهكذا ستقوم أيها العبد بين يدي الله بعد بعثك من القبور، وقد تحللت عظامك ورمَّت، ولن يكلف الله بعثك وجمعك أكثر من كلمة قم فتقوم.

وقد روى البخاري عن أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «**نحن أحق بالشك من إبراهيم إذ قال: رب أرني كيف تحيي الموتى، قال: أو لم تؤمن، قال: بلى ولكن ليطمئن قلبي**»[(١)]. ونقل ابن حجر في فتح الباري عن الخطابي قوله: (ليس في قوله نحن أحق بالشك من إبراهيم، اعتراف بالشك على نفسه وعلى إبراهيم، ولكن المعنى إذا كنت أنا لا أشك فكيف يشك إبراهيم؟) وذلك تواضعاً منه صلوات الله وسلامه عليه.

وقال ابن عباس وسعيد بن جبير والسدي رضي الله عنهم: (لما اتخذ الله إبراهيم خليلاً استأذن ملك الموت ربه أن يأتي إبراهيم فيبشره بذلك، فأتاه فقال: جئتك أبشرك بأن الله اتخذك خليلاً، فحمد الله عز وجل، وقال: ما علامة ذلك، قال: أن يجيب الله دعاءك، ويحيي الموتى بسؤالك، ثم انطلق وذهب، فقال إبراهيم: ﴿رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰ قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي﴾ بعلمي أنك تجيبني إذا دعوتك، وتعطيني إذا سألتك، إنك اتخذتني خليلاً»[(٢)].

إنه السر الذي يصعب على التكوين البشري إدراكه، لأنه شأنٌ خاصّ بالخالق، ولا تتطاول إليه أعناق المخلوقين، وتبقى الحياة والموت سرا الغيب المحجوب الذي لا يعلمه إلا علام الغيوب.

---

(١) رواه البخاري في كتاب تفسير القرآن، رقم ـ ٤١٧٣ ـ.

(٢) أسباب النزول للواحدي.

الفوائد التربوية:

١ ـ إن البصيرة نعمة فيجب على الإنسان رعايتها في نفسه، وفيمن يقوم بتربيتهم، لأنها معرّضة للطمس، فكم من بصيرٍ عُمّي عليه الحق، فأجاب قريباً من إجابة الملك الجبّار أنا أُحيي وأُميت. وكم أخ عاملٍ عزيز طُمست بصيرته فأصبح يجادل في أتفه من ذلك، فلذلك إنما تأكل الذئب من الغنم القاصية. وما يصون بصيرتك مثل إخوانك الصالحون، أصحاب الحس اليقظ، وكما كان أصحاب رسول الله ﷺ أحدهم مرآة الآخر.

٢ ـ إن الوقوف على المقابر، واتباع الجنائز، مواقف تربوية واقعية تُغني عن ألف محاضرة، ولذلك قال عليه الصلاة والسلام «**إني كنت قد نهيتكم عن زيارة القبور فزوروها فإنها تذكر الآخرة**»(١). وزيارة المستشفيات، ورؤيا المبتلين، كلها مواقف ناطقة إن الأمر إلا لله، إنه على كل شيءٍ قدير.

٣ ـ إن الكون وآياته يستدعي منا وقفات بين الحين والآخر، فمن منظر الشروق إلى استنبات الحبة، إلى نزول المطر، إلى تلاطم أمواج البحار، إلى تغير الصيف والشتاء، إلى النظر إلى الطفل حديث الولادة، إلى السماء وقد زينتها النجوم، إلى الأرض وإنباتها المختلف، كل ذلك آياتٌ تفيد في العملية التربوية، ونحن مسؤولون عن تعميق الإيمان، وتجديد اليقين في نفوسنا، ونفوس من استرعانا الله إيّاهم.

﴿مَّثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنۢبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِى كُلِّ سُنۢبُلَةٍ مِّاْئَةُ حَبَّةٍ ۗ وَٱللَّهُ يُضَٰعِفُ لِمَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٦١﴾ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ثُمَّ لَا يُتْبِعُونَ مَآ أَنفَقُوا۟ مَنًّا وَلَآ أَذًى ۙ لَّهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٢٦٢﴾ ۞ قَوْلٌ مَّعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِّن صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَآ أَذًى ۗ وَٱللَّهُ غَنِىٌّ حَلِيمٌ ﴿٢٦٣﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُبْطِلُوا۟ صَدَقَٰتِكُم بِٱلْمَنِّ وَٱلْأَذَىٰ كَٱلَّذِى يُنفِقُ مَالَهُۥ رِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ

(١) رواه أحمد في كتاب باقي مسند الأنصار، رقم ـ ٢١٩٢٧ ـ.

فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ تُرَابٌ فَأَصَابَهُۥ وَابِلٌ فَتَرَكَهُۥ صَلْدًا لَّا يَقْدِرُونَ عَلَىٰ
شَيْءٍ مِّمَّا كَسَبُوا۟ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٢٦٤﴾ وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ
أَمْوَٰلَهُمُ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ وَتَثْبِيتًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ كَمَثَلِ جَنَّةٍۭ بِرَبْوَةٍ أَصَابَهَا
وَابِلٌ فَـَٔاتَتْ أُكُلَهَا ضِعْفَيْنِ فَإِن لَّمْ يُصِبْهَا وَابِلٌ فَطَلٌّ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ
﴿٢٦٥﴾ أَيَوَدُّ أَحَدُكُمْ أَن تَكُونَ لَهُۥ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا
ٱلْأَنْهَٰرُ لَهُۥ فِيهَا مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ وَأَصَابَهُ ٱلْكِبَرُ وَلَهُۥ ذُرِّيَّةٌ ضُعَفَآءُ فَأَصَابَهَآ
إِعْصَارٌ فِيهِ نَارٌ فَٱحْتَرَقَتْ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ
﴿٢٦٦﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَنفِقُوا۟ مِن طَيِّبَٰتِ مَا كَسَبْتُمْ وَمِمَّآ أَخْرَجْنَا لَكُم مِّنَ
ٱلْأَرْضِ وَلَا تَيَمَّمُوا۟ ٱلْخَبِيثَ مِنْهُ تُنفِقُونَ وَلَسْتُم بِـَٔاخِذِيهِ إِلَّآ أَن تُغْمِضُوا۟ فِيهِ وَٱعْلَمُوٓا۟
أَنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ حَمِيدٌ ﴿٢٦٧﴾ ٱلشَّيْطَٰنُ يَعِدُكُمُ ٱلْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُم بِٱلْفَحْشَآءِ وَٱللَّهُ يَعِدُكُم
مَّغْفِرَةً مِّنْهُ وَفَضْلًا وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٦٨﴾ يُؤْتِى ٱلْحِكْمَةَ مَن يَشَآءُ وَمَن يُؤْتَ
ٱلْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِىَ خَيْرًا كَثِيرًا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٢٦٩﴾ وَمَآ
أَنفَقْتُم مِّن نَّفَقَةٍ أَوْ نَذَرْتُم مِّن نَّذْرٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُهُۥ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ
أَنصَارٍ ﴿٢٧٠﴾ إِن تُبْدُوا۟ ٱلصَّدَقَٰتِ فَنِعِمَّا هِىَ وَإِن تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا ٱلْفُقَرَآءَ فَهُوَ
خَيْرٌ لَّكُمْ وَيُكَفِّرُ عَنكُم مِّن سَيِّـَٔاتِكُمْ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿٢٧١﴾ ۞
لَّيْسَ عَلَيْكَ هُدَىٰهُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ وَمَا تُنفِقُوا۟ مِنْ خَيْرٍ
فَلِأَنفُسِكُمْ وَمَا تُنفِقُونَ إِلَّا ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ ٱللَّهِ وَمَا تُنفِقُوا۟ مِنْ خَيْرٍ يُوَفَّ
إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لَا تُظْلَمُونَ ﴿٢٧٢﴾﴾.

والدعوة إلى الإنفاق من مال الإنسان، الذي جناه بعرق جبينه، دعوة خائبة إن لم تلاق رصيداً إيمانياً ضخماً، إذ للمال مكانةٌ في النفس، وقد قرن الله جهاد المال بالنفس، وقدَّم المال أحياناً وقال ﴿فَضَّلَ ٱللَّهُ ٱلْمُجَٰهِدِينَ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ عَلَى ٱلْقَٰعِدِينَ دَرَجَةً﴾[1]. فمع التسليم المطلق لله رب العالمين، والثقة بما عند الله، وإعطاء الولاء لطائفة الصراط المستقيم، ونصرة لا إله إلا الله، وجب الإنفاق، ووجبت التربية الوجدانية، لتجود النفس بالمال قبل اليد.

(١) سورة النساء: الآية ٩٥.

وتوالت الآيات تعالج النفوس البشرية، والتي هي نماذج متكررة في كل عهد وزمان فالناس هم الناس، والدعوة هي الدعوة، والمعركة هي المعركة، وتوحي لنا الآيات أن في المجتمع الإسلامي كان من يضن بالمال فلا يعطيه إلا بالربا، وهناك من يُنفق كارهاً أو مرائياً، وهناك من يُتبع نفقته بالمن والأذى، وهناك من يقدم الرديء من ماله ويحتجز الجيد، كل هؤلاء ضمّهم مجتمع واحد إلى جنب المنفقين المخلصين، الذين يجودون بخير أموالهم، يُنفقون سراً في موضع السر، وعلانية في موضع العلانية يرجون رحمة الله. وفي هذا المقطع بدأ الله عز وجل آيات الإنفاق بإغراء كبيرٍ في الأجر، وعرض مغري في الربح، ومكافأة توسّع المدارك الإيمانية، بوسع الله الواسع العليم.

ثم حدّد الله سبحانه الوجهة التي يُرضيه الإنفاق فيها ﴿فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ وتجاوبت النفوس يوم تنزل هذا القرآن، ودائماً تتجاوب كما تفاعلت مع هذا القرآن، لأنه وحده الذي يملك المادة التربوية التي تنشىء الحس الواعي، والمفاهيم المنضبطة، وتعمّق معنى العبودية المطلقة لله رب العالمين. فتردد بوضوح ﴿وَقَالُوا۟ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ۖ غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ﴾ إن الجماعة المسلمة لم تكن معصومة، بل كان فيها من النقص ومواضع الضعف، كما هو الحال في كل أمة، غير أنها سمعت كلمة الحق جلية واضحة، سمعتها من أفواهٍ مخلصة، وقلوبٍ صادقة، وأشخاصٍ متفانين في النصح والإرشاد، أسوتهم في ذلك رسول الله ﷺ الذي حمل هذا القرآن بيدٍ حانية ترعى وتوجه، وتثّبت وتنبّه وتنفّر من الشر والجهل، حتى تحقق الخير وعلا الإيمان فأصبح الصفة والصبغة، وتفتحت به القلوب كما تتفتح أوراق النبتة العطشى بالماء، ومن قدر الله أن هذا الخير باقٍ إلى يوم الدين، وقدّر الله أن يخلف النبوة الصادقة، دعاةٌ مخلصون يرفعون الراية، ويعقدون صفقة البيع مع الله عز وجل، يبذلون نفوسهم في سبيل الله في بيوتهم أو مدارسهم، في مساجدهم ومتاجرهم وفي ساحة جهادهم، حراساً للحق مرابطين على الثغور، يدورون مع الكتاب حيث دار، لا يهمهم جاه ولا منصب، لا يُعرفون إذا وجدوا ولا يُفتقدون إذا

غابوا، ولا يُشار إليهم بالبنان، همهم رفع الراية وظهور الدين ورضى رب العالمين، وللقرآن أساليبه التربوية، فهو يعلم ما يصلح النفوس، ويربي القلوب، وهو العليم بما يفسد الإخاء، ويبطل الأعمال فركَّز على اللسان الذين يُفسد العمل، ويقطع الأواصر، ويُشعل النيران في الحسنات. ﴿ثُمَّ لَا يُتْبِعُونَ مَآ أَنفَقُواْ مَنًّا وَلَآ أَذًى﴾ وهل المن إلا باللسان؟ عندما يتبجح بالقول فيقول كم أعطيتك؟ وكم أحسنت إليك؟ وروى النسائي عن ابن عباس رضي الله عنهما عن النبي ﷺ قال: «**لا يدخل الجنة مدمن خمر، ولا عاق والديه، ولا منّان**»[1]. ثم ذكرهم أن من ترك المنَّ والأذى فإنه أهلٌ لينال ولاية الله ﴿أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾﴾[2] تحبيب وتوجيه وتحذير، ثم جائزة وأمان، ثم توجيه واستغناء، ثم تعقيب بأنه غنيٌ حليم. إنّ جرح المشاعر قروحٌ باقيةٌ لا تمسحها لقمة طعام، أو مزقة لباس، فالفقير تعوّد أن يتجرع ألم الجوع، ولكن لم يتعلم أن يُلغي إنسانيته فيُضرب ويُهان ليساق إلى مرعاه، إنّ هذا شأن البهيمة، وكأنّ فئةً من الناس تنفق ليقال عنها أهل جود وكرم، وليعلم هؤلاء المراؤون الذين جرّدهم الله من صفة الإيمان، بأنّ الله هو صاحب الفضل الأعظم، وأنه هو صاحب الموقف يوم الحساب. وشبَّه الله المنفق المرائي، بالحجر القاسي الأملس حيث لا خير فيه، ولا يمسك الخير وإن أصابه، فالظاهر عليه تراب، والتراب كالإيمان يُرجّى فيه الخصب، ولكن المطر الغزير يغسل ذاك التراب ويزيحه كما أزاح الرياء إيمان هذا المسكين، فتركه كالحجر الصلد قاسي الملمس قاسي المشاعر، فما أبلغ هذا المثل المحسوس الملموس.

﴿وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمُ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ وَتَثْبِيتًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ كَمَثَلِ جَنَّةٍۭ بِرَبْوَةٍ ...﴾ وهذا الوجه الناصع للمؤمن، فهو كالبستان المرتفع، إن أصابه الخير الكثير أمسكه، وظهرت بوادره وآثاره فعمَّ وغمر،

---

(١) رواه أحمد في كتاب مسند المكثرين من الصحابة، رقم ـ ٦٥٨٧ ـ.

(٢) سورة يونس: الآية ٦٢.

وإن أصابه الخير القليل شكر وذكر، فهم يُنفقون لهدفٍ جليل وتصديقٍ رفيع والصدقة برهان الإيمان وعلامته، كما تعطي الأرض الخصبة ثمارها برهاناً على ريِّها، ﴿وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ﴾(١) حقاً وصدقاً لا يأتي بمثل هذا النبأ إلا خبير القلوب، وبارىء النفوس، ثم يدور العرض نصف دائرة، ليحيط النفوس من كل جانب، ويلقي عليها مثلاً آخر ﴿أَيَوَدُّ أَحَدُكُمْ أَن تَكُونَ لَهُۥ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ لَهُۥ فِيهَا مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ وَأَصَابَهُ ٱلْكِبَرُ وَلَهُۥ ذُرِّيَّةٌ ضُعَفَآءُ فَأَصَابَهَآ إِعْصَارٌ فِيهِ نَارٌ فَٱحْتَرَقَتْ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ ﴿٢٦٦﴾﴾.

ففي الآية السابقة تركيز، وتثبيت إيماني عجيب، وفي هذا المثل ربطٌ للعقل بالمشاعر، مع تراوح الزمن، وانطلاقة للفكر والتفكر.

روى البخاري عن عبيد الله بن عمير قال: قال عمر بن الخطاب ﷺ لأصحاب النبي ﷺ: (فيمن ترون هذه الآية نزلت: ﴿أَيَوَدُّ أَحَدُكُمْ أَن تَكُونَ لَهُۥ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ﴾؟ قالوا: الله أعلم، فغضب عمر ﷺ، فقال: قولوا نعلم أو لا نعلم، فقال ابن عباس رضي الله عنهما: في نفسي منها شيء يا أمير المؤمنين، فقال عمر ﷺ: يا ابن أخي قل ولا تحقِّر نفسك. فقال ابن عباس: لرجلٍ غنيٍ يعمل بطاعة الله، ثم بعث الله له الشيطان، فعمل بالمعاصي، حتى أغرقَ أعماله وزاد في رواية (فعندما احتاج أمواله في وقت الضيق لم يجد منها شيئاً))(٢).

ففي المثل الأول ارتفاعٌ وسمو، كمثل جنةٍ بربوة ارتفعت عن ماديات الأرض فآتت أكلها ضعفين، ونزلت هذه الآية في عثمان بن عفان ﷺ، ومن فعل فعله من الصحابة الكرام. وعن عبد الرحمن بن خبّاب قال: [(شهدت النبي ﷺ وهو يحث على جيش العسرة، فقام عثمان بن عفان فقال: يا رسول الله عليَّ مائة بعير بأحلاسها وأقتابها في سبيل الله، ثم حضَّ على الجيش، فقام عثمان بن عفان فقال: يا رسول الله ﷺ عليَّ ثلاثمائة بعير

---

(١) سورة فاطر: الآية ١٤.

(٢) رواه البخاري في كتاب تفسير القرآن، رقم ـ ٤١٧٤ ـ.

بأحلاسها وأقتابها في سبيل الله، فأنا رأيت رسول الله ﷺ ينزل على المنبر وهو يقول: «**ما على عثمان ما عمل بعد هذه، ما على عثمان ما عمل بعد هذه**»[(1)]) وفي رواية أنه رفع يديه يقول: «**اللهم ارض عن عثمان فإني عنه راض**»].

وجاء عبد الرحمن بن عوف رضي الله عنه بأربعة آلاف درهم، قال يا رسول الله عندي ثمانية آلاف درهم فأمسكت منها لنفسي وعيالي أربعة آلاف درهم، وأربعة آلاف درهم أقرضتها ربي، فقال له رسول الله ﷺ: «**بارك الله لك فيما أمسكت وفيما أعطيت**». ثم ضرب الله مثلاً آخر، حال الإنسان وهو يعمل ويعمل، ويطيع الله، ولكن لا يفقه دينه، يطيع الله عادةً اعتادها لا تركز على إيمان حيٍ ولا مشاعر يقظة، فيطيع الله ولم يُحصّن نفسه بجماعة تذكره إذا نسيَ، وتشد أزره إذا ضعف، وإذا به وقد اعترضه الشيطان، فوجده فريداً ضعيفاً فتمكن منه، فأفسد عليه عمله، وبدأ ينهش من حسناته، فسقط بالمعاصي حتى أتت على كل أعماله، فضيّع عهد ربه، فضيّعه الله عز وجل، وهو أحوج ما يكون لله، حيث ضعف جسمه، وحوله ذرية ضعافاً، قال الحسن البصري رحمه الله هذا مثلٌ والله قلَّ من يعقله (شيخٌ كبير ضعف جسمه، وكثر صبيانه، احتاج جنّة فجاءها الإعصار فأحرقها، وإنّ أحدكم أفقر ما يكون إلى عمله إذا انقطع من الدنيا).

فالتزام الجماعة خير معين على المحافظة على الأعمال، حيث يبقى الإنسان على مستواه الإيماني، وبقرب المرء من إخوانه، يخنس عنه الشيطان ويبتعد، فالإنسان هو الإنسان ففي زمن رسول الله ﷺ كان في الأفراد بعض مواضع الضعف والنقص التي تقتضي الرعاية والتوجيه، والإيحاء المستمر، والارتقاء بمستوى الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر بين أفراد الجماعة مما يعينهم على الرقابة الدائمة لأنفسهم، والتعاون فيما بينهم لتهذيب نفوسهم وتقويمها، وهذا التوجيه الرباني وهو مهمة الوالدين والمربين في الصغر، ومهمة الجماعة في الكبر، الجماعة التي وضعت يدها على عهد الله، ترعى الركب، وترتفع رويداً رويداً، إلى الكمال المنشود، والابتعاد عن مواقف

---

(1) رواه الترمذي في كتاب المناقب، رقم ـ ٣٦٣٣ ـ.

إحباط العمل، وإفساد النفوس، فبالجماعة تصبير على متاعب ومثالب الطريق، وبالجماعة يتوحد الصف، وبالجماعة يُقهر الشيطان ويُدحر العدو، وبالجماعة تقوى النفوس على مواجهة المواقف وحسن التصرف، ويقوم التكافل الاجتماعي حاجزاً أمام الأعاصير والضياع.

فالقرآن سلطان الله في الأرض، يتحرك بدأب في ميدان الحياة، لينشىء وعياً وحساً ومفاهيماً ونظماً وعبودية مطلقة لله رب العالمين، لا تتراجع ولا تهمل حتى تتحقق معادلة رسول الله ﷺ «**احفظ الله يحفظك**» احفظ الله في عقلك، وفكرك ومشاعرك وجوارحك وأموالك ومن وضعهم الله أمانةً في عنقك، يحفظك الله في أعمالك فيصونها ويضاعفها ويبدِّل سيئاتك حسنات ولا يتخلَّى عنك حتى تستقر في قصرك في جنة الخلد، ويُلحق بك ذريتك التي هي امتدادٌ لعملك الصالح ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَٰنٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَمَآ أَلَتْنَٰهُم مِّنْ عَمَلِهِم مِّن شَىْءٍ ۚ كُلُّ ٱمْرِئٍۭ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ ﴿٢١﴾﴾[1] فيُكرم الله عز وجل الآباء، ويرفع لهم الأبناء، تعويضاً عما شقوا في تربيتهم في الدنيا. فالرياء والنفاق والمنُّ وإيذاء المؤمنين يحرق الحسنات، كما يحرق الإعصار البستان النضر.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَنفِقُوا۟ مِن طَيِّبَٰتِ مَا كَسَبْتُمْ وَمِمَّآ أَخْرَجْنَا لَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ ۖ وَلَا تَيَمَّمُوا۟ ٱلْخَبِيثَ مِنْهُ تُنفِقُونَ وَلَسْتُم بِـَٔاخِذِيهِ إِلَّآ أَن تُغْمِضُوا۟ فِيهِ ۚ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ حَمِيدٌ ﴿٢٦٧﴾ ٱلشَّيْطَٰنُ يَعِدُكُمُ ٱلْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُم بِٱلْفَحْشَآءِ ۖ وَٱللَّهُ يَعِدُكُم مَّغْفِرَةً مِّنْهُ وَفَضْلًا ۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٦٨﴾ يُؤْتِى ٱلْحِكْمَةَ مَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُؤْتَ ٱلْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِىَ خَيْرًا كَثِيرًا ۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٢٦٩﴾﴾ نداء حبيب، وتنبيه لطيف، وأمرٌ من محبٍ ودود، أنفقوا من طيبات ما كسبتم. والكسب لا يكون مالاً فقط فهو يشمل الخلق الطيب والعلم الصادق والصحة الوافرة والشباب والقوة والمال الحلال، وهذا كله يستوجب الإنفاق ويؤكد توجيه النبي الكريم «**اغتنم خمساً قبل خمس شبابك قبل هرمك، وصحتك قبل مرضك، وغناك قبل فقرك، وفراغك قبل شغلك، وحياتك قبل**

---

(١) سورة الطور: الآية ٢١.

موتك»[1] فكل هذا مكتسب فعليك فيه صدقة، والله طيب لا يقبل إلا طيباً، ومما أخرجنا لكم من الأرض، ولا تيمموا الخبيث، انظر إلى فعل الإخراج فهو راجعٌ إلى الله عز وجل، والله طيب ولا يُخرج إلا طيباً، ولكنه يخرج الخبيث لحكمةٍ تربوية، ليرى فعل ﴿تَيَمَّمُوا﴾ وهو راجعٌ إلى العبد المتملك، كيف يُنقّيه الإنسان ويجمعه ليُلقي به إلى أخيه الإنسان متفضلاً عليه. وكانت الكلمات تقطر على القلوب الصافية قطر الماء القراح على الزجاجة الشفافة، فما لبث أن وقف البراء بن عازب رضي الله عنه فقال: (نحن الأنصار نزلت فينا الآيات حيث كنا أصحاب نخلٍ، وكان الرجل يأتي من نخله بقدر كثرته وقلته، فيأتي رجلٌ بالقنو فيعلقه في المسجد، وكان أهل الصفة ليس لهم طعام، فكان أحدهم إذا جاع فضرب بعصاه، فسقط منه البسر والتمر فيأكل، وكان أناسٌ ممن لا يرغبون في الخير، يأتي بالقنو من الحشف والشيص - رديء التمر - فيأتي بالقنو وقد انكسر فيعلقه)[2] وفي رواية أخرى عن البراء بن عازب ﷺ قال: «نزلت في الأنصار، وكانت الأنصار إذا كانت أيام جذاذ النخل[3] أخرجت من حيطانها[4] البسر[5] فعلقوه على حبلٍ بين الاسطوانتين في مسجد رسول الله ﷺ فيأكل فقراء المهاجرين منه، فيعمد الرجل منهم إلى الحشف[6] فيدخله مع قناء البسر[7]، يظن أنَّ ذلك جائز، فأنزل الله فيمن فعل ذلك: ﴿وَلَا تَيَمَّمُوا الْخَبِيثَ مِنْهُ تُنفِقُونَ﴾)[8].

وتعقيب الآية لفتةٌ تربوية هائلة، ولستم بآخذيه إلا أن تغمضوا فيه.

---

(١) صحيح الجامع، ج ١، رقم - ١٠٧٧ -.
(٢) رواه الترمذي في كتاب تفسير القرآن، رقم - ٢٩١٣ -.
(٣) جذاذ النخل: قطع ثماره.
(٤) حيطانها: بساتينها.
(٥) البسر: اسم للتمر قبل أن يصبح رطب.
(٦) الحشف: أردأ التمر.
(٧) قنو التمر: عنقود التمر بما فيه من التمر.
(٨) رواه ابن ماجة في كتاب الزكاة، رقم - ١٨١٢ -.

إن القرآن أشار إلى هيئات النفوس، التي كانت في المجتمع الإسلامي، فهي نفسها موجودة اليوم وغداً وفي كل زمان، والذي ربَّى تلك النفوس من قبل، هو الذي يستطيع أن يُربي النفوس دائماً وأبداً، ولو سلكنا أي طريق آخر في التربية نكون كالذي ينفخ في الرماد.

وهذه طبيعة الشح الغالبة في الطبيعة البشرية، يتخيَّر الساقط والرديء، فيعلقه للفقير والجائع، ويستأثر بالطيب الجيد لنفسه، فكانت الجولة التربوية ومنها أن يقيس الإنسان الأمر على نفسه فهل يقبل ذلك؟ فإن كان لا يقبله لنفسه فكيف يقدمه لأخيه؟ وصاحب الفضل العظيم ينظر فيعجب لحال هذا الإنسان وأنانيته القاتلة، إن التمرة طيبها ورديئها ستقع في يد الرحمن قبل أن تقع في يد الفقير.

ولو أهدي إليكم مثله، لما قبلتموه إلا بإغضاءٍ وحياء، ولا يعجبكم، ولن تشكروا عليه. فكيف تقبلونه والرسول ﷺ يقول: «**لا يؤمن أحدكم حتى يحبَّ لأخيه ما يحب لنفسه**»[1] توازن وعقلانية ويقين. والله غنيّ حميد، غنيٌ عن تمركم ورزقكم، وحميدٌ يحمد ويثيب على الخير ويحبه ويرضاه. ولم تنقض الجولة بعد، بل أراد الله ليبصّرنا بالسبب فنحذره ﴿ٱلشَّيْطَٰنُ يَعِدُكُمُ ٱلْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُم بِٱلْفَحْشَآءِ وَٱللَّهُ يَعِدُكُم مَّغْفِرَةً مِّنْهُ وَفَضْلًا﴾. ويبرز أسلوبٌ تربويٌ آخر، وهو أسلوب المقارنة حيث لا يستويان. الشيطان يعدكم، والله يعدكم، ولب الإنسان وعقله يربآن به أن يركن إلى وعود الشيطان، ولسان المربي يقول: أنسيت عداء الشيطان ومكره؟ وتناسيت فضل الرحمن وكرمه؟ ولكن لا يستفيد من هذا التقرير إلا ذو لبٍ واعٍ، وفطرةٍ سليمة وقلب مطمئنٍ لوعد الله فينال جزاء ذلك، الشيطان يعدكم الفقر، ويأمركم بالفحشاء، والفاحشة كل معصية تفحش وتزيد في الحد، فإذا تخوّف الإنسان الفقر، وقع في فاحشة الشح والبخل، وعدم اليقين بوعد الله بأنه يخلفه، ويدّخره، ويضاعفه. ولكنّ الأمر يحتاج إلى حكمة، ومن يؤت الحكمة فقد أوتي خيراً كثيراً.

---

(١) الصحيحين واللفظ للبخاري في كتاب الإيمان، رقم ـ ١٢ ـ.

وفي الحكمة أقوالٌ، قال ابن عباس الحكمة: القرآن، يعني تفسيره، وأما مجرد القراءة والحفظ، فقد قرأه البر والفاجر. وقال مجاهد الحكمة: العلم والفقه والقرآن. وروى الشيخان عن ابن مسعود ﷺ قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**لا حسد إلا في اثنتين، رجلٌ آتاه الله مالاً، فسلطه على هلكته في الحق، ورجلٌ آتاه الله حكمةً، فهو يقضي بها ويعلمها**»(١). وقال إبراهيم النخعي رحمه الله هي الفهم. ومجمع القول أنها: العلم بالكتاب والسنة والعمل بهما. وقال الإمام مالك رحمه الله: هي الفقه في الدين. والحكمةُ فضلٌ من الله لا يؤتيه إلا لمن أحبه ورضي عنه.

وفي الحديث عن ابن مسعود ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «**إن الله قسَّم بينكم أخلاقكم، كما قسَّم بينكم أرزاقكم، وإن الله ليعطي الدنيا من يحب ومن لا يحب، ولا يعطي الدين إلا لمن أحب، فمن أعطاه الله الدين فقد أحبه، والذي نفسي بيده، لا يسلم عبد حتى يسلم قلبه ولسانه، ولا يؤمن حتى يأمن جاره بوائقه**». قالوا: وما بوائقه يا نبي الله؟، قال: «**غشّه وظلمه، ولا يكسب عبدٌ مالاً من حرام، فينفق منه، فيبارك له فيه، ولا يتصدق به فيقبل منه، ولا يتركه خلف ظهره إلا كان زاده إلى النار، إن الله لا يمحو السيء بالسيء، ولكن يمحو السيء بالحسن، إن الخبيث لا يمحو الخبيث**»(٢). فالله يعطي الدنيا لمن يحب ولمن لا يحب ولكنه لا يُعطي الدين إلا لمن أحب ﴿وَمَن يُؤْتَ ٱلْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِىَ خَيْرًا كَثِيرًا﴾.

﴿وَمَآ أَنفَقْتُم مِّن نَّفَقَةٍ أَوْ نَذَرْتُم مِّن نَّذْرٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُهُۥ وَمَا لِلظَّـٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ ﴿٢٧٠﴾ إِن تُبْدُوا۟ ٱلصَّدَقَـٰتِ فَنِعِمَّا هِىَ وَإِن تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا ٱلْفُقَرَآءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَيُكَفِّرُ عَنكُم مِّن سَيِّـَٔاتِكُمْ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿٢٧١﴾﴾.

وتتوالى الآيات في موضوع الإنفاق والصدقات، والنفقة تشمل كل ما يخرجه صاحب المال من ماله، سواءً كان زكاةً أو صدقة أو تطوع في

(١) رواه البخاري في كتاب الزكاة، رقم ـ ١٣٢٠ ـ.

(٢) رواه أحمد في كتاب مسند المكثرين من الصحابة، رقم ـ ٣٤٩٠ ـ.

الجهاد. والنذر نوع من أنواع البذل، يوجبه الإنسان على نفسه بقدرٍ معلوم، والوفاء به واجب، والنذر لا يكون إلا لله، وفي سبيل الله. وما نُذر لغير الله فهو شرك. والنذر إن أوجبه المسلم على نفسه، فيجب قضاؤه ما دام في طاعة الله. وقد وصف الله عباده الأبرار في كتابه وقال: ﴿يُوفُونَ بِٱلنَّذْرِ وَيَخَافُونَ يَوْمًا كَانَ شَرُّهُۥ مُسْتَطِيرًا ۝٧﴾[1]. فالوفاء واجب، وأداء العهود والمواثيق من علامات الإيمان، ومن خان ونكث وظلم، فليس له ناصرٌ من دون الله، وما كان منتصراً. وإخفاء صدقة التطوع أولى وأحب إلى الله، وأبعد عن الرياء، وهي تدريب فعلي للنفس على الإخلاص ورجاء ما عند الله. بينما يُستحب إظهار الفريضة، لتظهر الطاعة، وتتهادى سحابة العبودية لله. ويتبارى الناس في التسابق لآداء ما عليهم. فينخذل الشيطان، والله لم يحدد وإنما ترك الأمر لأحاسيس المؤمن، وتربيته الإيمانية، فيرى الأفضل، متى يُسر ومتى يعلن، وما دام الأمر قائماً على الإخلاص لله وابتغاء وجهه، فالوعد متحقق بتكفير السيئات، وحسن الجزاء. وقد ذكر ابن عباس رضي الله عنهما في تفسير هذه الآية وقال: (جعل الله صدقة السر في التطوع تفضل علانيتها، يُقال: بسبعين ضعفاً، وجعل صدقة الفريضة علانيتها أفضل من سرها يُقال بخمسة وعشرين ضعفاً)، ومما ورد في صدقة السر ما ثبت في الصحيحين عن أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: **«سبعةٌ يظلهم الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله، إمامٌ عادل، وشابٌ نشأ في طاعة الله، ورجلان تحابا في الله اجتمعا عليه وتفرقا عليه، ورجلٌ قلبه معلقٌ بالمساجد. ورجلٌ ذكر الله خالياً ففاضت عيناه، ورجلٌ دعته امرأة ذات منصبٍ وجمالٍ فقال: إني أخاف الله رب العالمين، ورجلٌ تصدق بصدقته فأخفاها حتى لا تعلم شماله ما أنفقت يمينه»**[2]. وفي سؤال أبي ذر ﷺ للنبي ﷺ أي الصدقة أفضل؟ وجوابه ﷺ: **«سرٌ إلى فقير، أو جهدٌ من مقل»**[3] توجيه تربوي.

---

(١) سورة الإنسان: الآية ٧.

(٢) رواه البخاري في كتاب الحدود، رقم ـ ٦٣٠٨ ـ.

(٣) رواه أحمد في كتاب باقي مسند الأنصار، رقم ـ ٢١٢٥٧ ـ.

﴿لَّيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَاءُ ۗ وَمَا تُنفِقُوا مِنْ خَيْرٍ فَلِأَنفُسِكُمْ ۚ وَمَا تُنفِقُونَ إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ اللَّهِ ۚ وَمَا تُنفِقُوا مِنْ خَيْرٍ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لَا تُظْلَمُونَ ﴿٢٧٢﴾ لِلْفُقَرَاءِ الَّذِينَ أُحْصِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا يَسْتَطِيعُونَ ضَرْبًا فِي الْأَرْضِ يَحْسَبُهُمُ الْجَاهِلُ أَغْنِيَاءَ مِنَ التَّعَفُّفِ تَعْرِفُهُم بِسِيمَاهُمْ لَا يَسْأَلُونَ النَّاسَ إِلْحَافًا ۗ وَمَا تُنفِقُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ ﴿٢٧٣﴾ الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُم بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ سِرًّا وَعَلَانِيَةً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٢٧٤﴾﴾.

إن الأهداف التربوية القرآنية، لتسموا بالإنسان إلى آفاق قد يتعب الإنسان في متابعة النظر إليها إنها آفاقٌ سمحةٌ وضيئة، فافسح صدرك للجميع وابذل الخير والعون لكل من احتاج إليك، فأمر العبد لله، وجزاء المنفق عند الله.

روى أبي حاتم عن ابن عباس رضي الله عنهما: عن النبي ﷺ أنه كان يأمر بألا يُتصدق إلا على أهل الإسلام، حتى نزلت الآية فأمر بالصدقة بعدها على كل من سألك من كل دين.

فالإسلام دين التوازن، فلا يحمل المسلم ماله ويضعه في يد عدوه، ويجعل من الآية متكئاً له، فالمسلم سمحٌ ورحيم، حتى تقوم الآية الأولى ﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ﴾، مسالمون غير محاربين، محاويج يطلبون العون، فنتألفهم بصدقة، وتحدونا الآية ﴿لَّيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ﴾ أما عدونا المحارب الذي غصب الأرض وهدر الدم وهتك العرض، وسواءً هو أو من أعانه ونصره، أنعطيه صدقاتنا ليقتل لا إله إلا الله في قلوبنا؟ فالأمر جدّ مختلف، وقد حذرنا ذلك رسول الله ﷺ بقوله: «**من أعان على قتل مسلم ولو بكلمة جاء يوم القيامة مكتوبٌ بين عينيه آيسٌ من رحمة الله**»(١). وسواءً كانت الإعانة مباشرة أو غير مباشرة.

﴿لِلْفُقَرَاءِ الَّذِينَ أُحْصِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ ...﴾.

(١) رواه ابن ماجه في كتاب الديات، رقم - ٢٦١٠ -.

هذه الآية تصف فئة من المهاجرين الذين تركوا وراءهم في مكة أموالهم وأهليهم، ووقفوا أنفسهم على الجهاد في سبيل الله، وأُحصروا في الجهاد لا يستطيعون الضرب في الأرض ولا التكسب للقمة العيش، كانوا لا يسألون الناس ولا يشتكون، يحسبهم من جهل أمرهم أنهم أغنياء، إنها صورة الفقراء الكرام، صورة أهل الله وخاصته الأتقياء الأنقياء، الذين قام هذا الدين على كواهلهم. وهم صورة فئة من المسلمين موجودة وجود الإسلام، وصفهم رسول الله بقوله: **«تسد بهم الثغور، لا يُعرفون إذا وجدوا، ولا يفتقدون إذا غابوا، يموت أحدهم وحاجته في صدره لا يستطيع لها قضاء»**[(١)]. هؤلاء الفقراء، يُعطون سراً وكلما أتاحت الفرصة، لئلا يُخدش إباؤهم، ولا تُجرح كرامتهم، والله وحده يعلم السرَّ وأخفى.

ما ألطف اللطيف الكريم، وهو يعلمنا حق الإخاء، ويستجيش المشاعر الإنسانية تجاه نخبة من البشر فارغة اليد من الدنيا، مليئة القلب بسكينة الإيمان، باعوا أنفسهم ونذروها لله، هؤلاء سيكفيهم الله من أموال إخوانهم الصادقين الميسورين في سترٍ وتلطفٍ، فلا أولئك يمنّون بجهادهم، ولا هؤلاء يبدون صدقاتهم، فلهم أجرهم عند ربهم ولا خوفٌ عليهم ولا هم يحزنون.

أولئك أصحاب الظلال **«ورجلٌ تصدق بصدقةٍ فأخفاها حتى لا تعلم شماله ما أنفقت يمينه»** وقال عليه الصلاة والسلام **«صدقة السر تطفىء غضب الرب، وتدفع ميتة السوء»**[(٢)].

ولنا وقفة تربوية مع المسألة والسؤال.

فالفطام عن السؤال لفتة تربوية، يجب أن تلتفت إليها الأم أولاً، فتبدأ بنفسها وكما جاء في الحديث عن المغيرة بن شعبة ﷺ قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: **«إن الله كره لكم ثلاثاً، قيل وقال وإضاعة المال،**

---

(١) رواه أحمد في كتاب المكثرين من الصحابة، رقم ـ ٦٢٨٢ ـ.

(٢) رواه الترمذي في كتاب الزكاة، رقم ـ ٦٠٠ ـ.

وكثرة السؤال»[1] فالسؤال لا يعني الحاجة المادية فقط، ولكن سؤال كل شيء، حتى إن بعض الناس إذا خطر بباله شيء، ولا يستطيع مناله، فيسرع إلى جيرانه أو أقربائه، أو أي باب يطرقه ليحقق رغبةً في نفسه، وكثيراً ما يستطيع أن يشتريها، ولكنه يفضِّل أن يكوِن سائلاً متذللاً. نفسيات بشرية تحتاج إلى تقويم وهذه لها صور شتّى، وتتجلى الحاجة أحياناً بأدوات أو مأكولات، ومرة بأعمال خياطة أو حياكة، وكثيراً ما تكون كماليات، فالإنسان المسلم من تمام تربيته، أن يكون دائماً هو المعطي، وليس الآخذ، وإن لم يملك العطاء فلا يمد يده ليأخذ، ولسانه ليسأل، لأن الآداب الربانية والهدي النبوي الشريف يعيب عليه ذلك، حتى أن بعض الصحابة رضوان الله عليهم أخذ رسول الله ﷺ عليهم العهد أن لا يسألوا الناس شيئاً، فكان أحدهم يسقط سوطه وهو على بعيره فينزل ويأخذه، ولا يسأل أحداً أن يناوله إياه وروى مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه قال قال رسول الله ﷺ: **«ليس المسكين بهذا الطّواف الذي يطوف على الناس فترده اللقمة واللقمتان، والتمرة والتمرتان، قالوا: فما المسكين يا رسول الله؟ قال: الذي لا يجد غنىً يُغنيه ولا يُفطن له فيُتصدق عليه، ولا يسأل الناس شيئاً»**[2] وقال: **«من سأل الناس وله ما يُغنيه جاءت مسألته يوم القيامة خدوشاً أو كدوحاً في وجهه**، قالوا: يا رسول الله وما غناه؟ قال: **خمسون درهماً أو حسابها من الذهب»**[3] وقال: **«من سأل وله أربعون درهماً فهو ملحف، وهو مثل سفِّ الملَة ـ يعني الرمل»**[4] الملحف: المُلِح.

والسؤال يدرَّب عليه الصغير من قبل أهله، أو يشجَّع عليه، كما أنَّه يُربّى على عدم السؤال واستنكار فعله.

فعندما يُربّى الطفل إذا رأى طعاماً بأيد الناس فلا بأس أن يقترب

---

(١) رواه البخاري في كتاب الزكاة، رقم ـ ١٣٨٣ ـ.

(٢) رواه مسلم في كتاب الزكاة، رقم ـ ١٧٢٢ ـ.

(٣) رواه أحمد في كتاب مسند المكثرين من الصحابة، رقم ـ ٣٩٩٠ ـ.

(٤) رواه النسائي في كتاب الزكاة، رقم ـ ٢٥٤٧ ـ.

ويطلب أو تطلب له أمه فتكون قد دربته على المسألة، وعندما تزج به في صفوف المدرسة دون أن ترسل معه أدواته ومستلزماته، أو لا تحاسبه على عدم استعمالها مما يفيد أنه استعان بأدوات زملائه، فتكون قد وافقته على المسألة، وبهذا يعيش الطفل الفقر النفسي، وإن كان المال في خزائن والديه كثير، وتنمو عنده بذرة الشح وتطول يده وعينه فهو سيسرق إن تيسرت له السرقة، وسيطلب ويسأل عندما تعترضه حاجة، والطفل عندما تُربَّى فيه النزعة المادية ويُقتَّر عليه، فسيحاول الحصول على المال من أي وجه، وعندها نحصد نتائج التفريط في الأدب القرآني، واستبعاد التربية النبوية عن حياتنا، ثم تصيبنا الحسرة والندم عندما نرى أطفال المسلمين يمتهنون المسألة، ويمدون الأكف الصغيرة يستجدون بها عطف الناس، وتدفع الأمهات بالرصيد البشري الذي اؤتمنت عليه ليكون متسولاً في الشارع ومغتصباً في المدرسة ومادياً في المعاملات.

وليكن المربون على علم أن العفة والتعفف، خلُقٌ كريم يُلقن للطفل منذ شهور عمره الأولى، كما ورد أن النبي ﷺ أتاه تمر صدقة فأخذ الحسين بن علي تمرة من تمر الصدقة فجعلها في فيه، فقال النبي ﷺ: **«كخ كخ أما تعرف أنا لا نأكل الصدقة»**[1] كخ كخ بالفارسية كلمة نهي وتأنيب.

والإسلام نظامٌ متكامل، فلا ينشغل أهله بالجهاد عن التربية، ولا بالفتوحات عن متابعة الصغير، ومراقبة الكبير، ولا بحفظ القرآن عن العمل بنصوصه، وإنما نزل التشريع ليعمل كله في وقتٍ واحد، متناسقاً متوازناً شاملاً، وبهذه الشمولية نشأ ذلك المجتمع الفريد، الذي فتح الدنيا وأسعد البشر، وهذا عمر الفاروق رضي الله عنه الذي مصَّر الله به الأمصار، وامتدت الفتوحات في عهده، هو عمر الذي يعسُّ في الليل متفقداً أحوال الرعية وهو الذي يستقبل الجيوش ويودعها وهو الذي يراقب الولاة ويحاسبهم، وأقام

(١) رواه البخاري في كتاب الجهاد والسير، رقم ـ ٢٨٤٣ ـ.

كل شبرٍ في الدولة بعدله وورعه، ولم يغفل عن موقف، ويوم وردت أغنامٌ على المدينة، وعمر في شغله الذي أذهب عنه النوم والراحة، فيتأمل في طريقه الأغنام، فوجد فيها السمينة والهزيلة، فقال: لمن هذه الأغنام؟ وأشار إلى السمان منها، فقالوا: إنها أغنام عبد الله بن عمر، ووقف أمير المؤمنين وقفة عتاب ومحاسبة، أتربي الناس يا عمر وتعدل بين العباد وتترك ولدك؟ فنادى على عبد الله وقال: ما هذا يا عبد الله؟ دفعت لهم أغنامك فقالوا: أطعموا أغنام ابن أمير المؤمنين، وارعوا أغنام ابن أمير المؤمنين، حتى سمنت أغنامك وهزلت أغنام المسلمين. وما ذنب عبد الله في مثل هذا الأمر! قال: وماذا أفعل يا أبي؟ قال: خذ رأس مالك، وردَّها إلى بيت مال المسلمين. قال: سمعاً وطاعة لأمير المؤمنين. فالأمر أمر إسلام أولا إسلام، وفاقد الشيء لا يُعطيه، فلو لم يكن عمر عدل في نفسه ألف مرة، لما قام العدل في حكمه مرةً واحدة. فالبيت الذي لا يعف عن محارم الله إذا خلا بها فلن تعف أبناؤه عن أي مذلةٍ نفسية أو مادية. لأنّ الذي يحفظ الأطفال ويجعلهم الثمرة الطيبة لجهود الوالدين هو العليم الخبير، الذي يعلم على ماذا تنطوي نفوس هؤلاء الوالدين. فالأمر يحتاج إلى نقاءٍ داخلي، وصدقٍ مع الله. اجتمعت تقوى علي ﷺ بصفاء فاطمة رضي الله عنها فكان الحسن والحسين رضي الله عنهم أجمعين.

الفوائد التربوية:

١ ـ في هذا المقطع حبب الله بالإنفاق ورغَّب فيه، حتى تبيّن للمربي عظم المسؤولية الملقاة عليه في تأصيل هذا الخلق، وغرسه في النفوس الطرية فاستجاش الله عز وجل المشاعر بمنظر العود يحمل سبع سنابل، في كل سنبلةٍ مائة حبة. وفي نفس الوقت نغرس في نفس الطفل أن الله لا يأمرنا بالإنفاق عن عوزٍ وفقر، فهو يضاعف للمنفقين، وأصلاً هو المعطي الأول والرازق على الدوام، ولكن في إخراج المال تربية تحتاجها النفس، ولا تتحقق إلا بالإنفاق.

٢ ـ قد يقول الطفل ما دام الله عنده الكثير، فليعط هو للفقراء ويترك

الناس، ولكن الله بكماله وجلاله، يريد لعباده أن يسموا، ويرتفعوا، ويؤمنوا بالغيب، إيمان اليقين، بأنّ الله جامعهم ليوم القيامة، ليضاعف لهم الأجر والثواب، فلا يُختبر إيمانهم إلا بطريقة البذل والعطاء، وإلا فالقول باللسان سهل وهيّن، والناس كلهم يقولونه، وهذه الطرق التربوية كلها لتصل بالنفس إلى أن البعث بعد الموت والحساب والجزاء حق، كما أنّ الليل والنهار حق، فإذا استقر اليقين بذلك، ارتقى المؤمن إلى درجة الإحسان، والمراقبة لله عز وجل، وأنّه محشورٌ إليه لا محالة، ومحاسبٌ على كل صغيرة وكبيرة.

٣ ـ المحافظة على الأعمال، تنمّي شعور المراقبة، فالمن كلمة تُقال، مثلاً أنسيت يوم أعطيتك كذا؟ أتذكر يوم كذا؟ أو حاجة كذا؟ أو ما شابه ذلك، فهذه كلمات تحبط العمل وتبطله، لأن الله هو المعطي لكل خير، وفضله غير محدود فلمَ يمن العبد بعطاء هو بعض فضل الله عليه؟ فإذا استحضر الإنسان هذه الحقيقة، انضبط سلوكه حتى في العقل الباطن، وحوصرت أفكاره، فلم يعد يفكر إلا في الخير، ويستسلم للحكيم الخبير، وتتحقق المآرب الإيمانية لهذه الآيات.

٤ ـ إن المن خلقٌ سيء، ينشىء استعلاءً كاذباً وإذلالاً للآخذ، وبه يبرز خلق امتهان الإنسان لأخيه الإنسان، وهذا ما يبغضه الله ويكرهه، فالناس كلهم عبيدٌ لله، وقد يكون الفقير المحتاج، أحب ألف مرة إلى الله من المعطي المنّان، فالإسلام لا يقوم على كلمات وحركات آلية تؤديها، فتدخل الجنة، كلا، إنما يقوم الإسلام على إصلاح داخلي، وتفكير بطريقة إنسانية راقية، ونظرة رحمة وعقلانية للبشرية، أنت أيها الغني ولدت كما ولد الفقير، فالمنشأ واحد، وستموت كما يموت، وتدفن كما يُدفن، فنهاية الحياة واحدة، ولدتما عراةً، وستحشران إلى الله عراة، فأين التفاضل؟ أفي هذه السويعات القليلة التي تقضيانها على الأرض، يوم يقول الله عز وجل كم لبثتم؟ تقولون لبثنا يوماً أو بعض يوم؟

إن فرعون وجبروته لطمته موجة في البحر، فجعلته يستغيث، ولو

امتدت إليه يد فقير لقبّلها وتشبّث بها لعلها تنقذه، فلم الكبر في الأرض؟ وفيم نظرة الاحتقار للبشر على أجناسهم وألوانهم، وفقرهم؟ وكل هذه الأسباب مجتمعة من تقدير العزيز العليم ﴿لِّيَبْلُوَكُمْ فِي مَآ ءَاتَىٰكُمْ﴾(١).

٥ ـ ضرب الله للأمثلة، يؤكد لنا أنَّ المثل والقصة مادتان تربويتان، تصغي إليهما العقول، وتنقاد بهما النفوس، فليتق الله كتّاب القصص للأطفال، وليتق الله المربون، أيَّ قصصٍ يضعون في متناول الأطفال، إن الأمثلة التي ساقها الله عز وجل في هذا السياق سهلة وفي متناول اليد، فلو يجربها الطفل بصحبة أمه، فيحضر الحجر القاسي الأملس ويغطيه بالتراب، ويأتي بالتربة الخصبة فيستودعها بعض الحبوب، ويصب الماء على الحجر فسرعان ما يزول عنه التراب وتبدو قساوته فيركنه جانباً؛ لأنه لا خير فيه للاستنبات، ويعلِّق الآمال كلها على التربة الخصبة، لأنها تنبت الزرع، وتجود بالثمر، فما أشبهها بقلب المؤمن حيث يجود بالخير، ويثمر بإخلاص المربي كالأرض الطيبة، حيث يطيب عطاؤها كلما كان نوع البذور أجود، والزارع أمهر، فليتدبر كل مربي حصاده، وهل يعجب الزرّاع ليغيظ بهم الكفار، والسنبلة إذا كانت فارغة من الحب، طالت وعلت، ووقفت منتصبة، وهي خواء لا خير فيها، وعند الحصاد والدّرس تتطاير قشوراً لا قيمة لها. أما إذا كانت مليئة بالحب، ثقلت وانحنت، كأنها تشكر خالقها، وتتذلل بين يدي زارعها، فما أشبهها بعبد صالح آمن وعمل صالحاً، وإذا وقف المتأمل متفكراً، رأى الشموخ الأجوف في السنبلة الفارغة، ورأى انحناءة التواضع والعطاء في السنبلة الملأى، إن في ذلك لعبرة، وتتوالى الأمثلة الربانية لتقرّب الصورة والإحساس من المؤمن، وهو المؤتمن على التربية، وتخريج الأجيال.

٦ ـ موقف عمر رضي الله عنه التربوي، حين سأل فيمن ترون نزلت هذه الآية، فداروا جهلهم بعبارة التخشع، الله أعلم، وأما أحدٌ كان أخشع من عُمر رضي الله عنه، ولكن أين العلم والتفكر؟ فهو يسألهم عن مثَلٍ ساقه الله

(١) سورة المائدة: الآية ٤٨.

لحكمةٍ وموعظة، فكيف يكون الجواب الله أعلم؟؟ نحن بحاجة إلى فقه عمر، حتى نكون على المستوى الإسلامي المطلوب، فلا وجود للجهّال، ولا مبرر لالتماس الأعذار، تحت ستار الخشية من الله، وصدق عمر يتجلّى وهو يشجع الصغير على الكلام، فلم يكن القصد عن عمر إظهار علمه، ليسقط الآخرون بجهلهم، لا إنما هو الإخلاص.

٧ ـ على كل مربي أن يلفت نظر الأطفال للتربية من حولهم، ويفسح لهم المجال ليتعاملوا معها، فيتحقق الإرشاد والإيمان بطريقة عملية ومسلية، فيكون البرهان أقوى، والملاحظة أنفع، وكذلك لفت النظر إلى تفاوت ألوان الخضرة، وتساقط أوراق الشجر في الخريف، ففي كل لفتة دليلٌ على الواحد الديّان، وأن الخلق منه، والعودة إليه ﴿وَكُلُّ صَغِيرٍ وَكَبِيرٍ مُّسْتَطَرٌ ﴿٥٣﴾﴾[1] ﴿وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَٰتِ ٱلْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَٰبٍ مُّبِينٍ﴾[2].

٨ ـ إن القرآن يريد من الإنسان أن يتعامل مع الله، وإن كان في واقعه يتعامل مع البشر، في الأخذ والعطاء والمعاملات وهذا مصداق توجيهه ﷺ **«ألا إن الدين المعاملة»**.

فمن آذى أخاه المؤمن، فأعماله في قبضة ربه، أحبطها إذا شاء، أو انتقم كيفما شاء، وإن كذب عليه أو غشّه، فالعليم الخبير حاضرٌ لا يغيب، وقريبٌ غير بعيد، وإذا ظلمه، فدعوته وشكواه مرفوعة على جناح الريح، ولذلك ما أفلح العباد، إلا إذا قالوا ربنا الله ثم استقاموا، ولن تُسعد البشرية حتى تُربَّى على الاستقامة، ولنعامل الناس ببعض ما يعاملنا به الله عز وجل، وإنّ للشيطان أمنية، يريد أن نقع بها، وهي الكبر والمعصية، لنكون نحن والشيطان عند الله سواء، فالكيّس من تفطّن، وقطع على إبليس أمله.

٩ ـ الحكمة فضلٌ من الله فعلى كل مربٍّ أن يسعى بمن يربيهم

---

(١) سورة القمر: الآية ٥٣.

(٢) سورة الأنعام: الآية ٥٩.

ليكتسبوا الحكمة، فهي سعيٌ، وطلب ومشقة، وتوفيق من الله عز وجل، فلنعمل ما بأيدينا، ولندرب أطفالنا على تحكيم ما يحفظونه من آياتٍ وأحاديثَ في معاملاتهم، ونعوِّدهم في حل مشاكلهم أن يبحثوا عن آية، أو موقف صحابي مشابه، ويدرّبوا على الرضاء بالحكم، إن كان لهم أو عليهم، وتعليمهم الوقوف عند حدود الله. فهذه كلها مدارج في الطريق إلى الحكمة.

١٠ ـ السؤال والمسألة، وقد قيل (السؤال ذل وإن كان من أين الطريق؟)، والعفة والتعفف، سلوكيات من واجبات المربين غرسها في الناس، وأن يكون الطفل دائماً صاحب اليد العليا، والكبير أولى بذلك، واليوم المجتمع الإسلامي يعاني من هذه الظاهرة، ويعاني من تواكل الأغنياء على الفقراء، ويعاني من ذلة في النفوس ترضى بكل مهين مقابل لقمة العيش، وما هكذا النفوس المؤمنة.

١١ ـ على الإنسان المنفق، والمتصدق، أن يتحرى أين يضع صدقته، وإن رُخِصَّ له أن ينفق على كل خلق الله، ولكن المفروض أن يخص المسلم بصدقته الأقرب، والأتقى والأورع. وهناك فئة أحق الناس بالصدقات، وهم من قامت فيهم هذه الصفات الأربع: الإحصار في سبيل الله (الجهاد)، والعجز عن الكسب والتعفف وعدم المسألة. وتتناقص الأولوية بتناقص الصفات. وبعدهم للفقراء المحاويج. ولا بدَّ أن يكون الإنفاق من مالٍ حلالٍ طيب. يُعطى ابتغاء مرضاة الله.

وهناك فتوى خطيرة لفقهاء المذهب الحنفي: من تصدّق بدرهم حرام، ينوي به القربة إلى الله يكفر، وإذا علم به الفقير، فدعا له، يكفر، ومن أمَّن على دعائهما يكفر. فمن كان عنده مال حرام، فلينفقه بنية التخلص منه لا بنيّة الصدقة، وهذا ما أفتى به العلماء بخصوص فوائد البنوك.

﴿ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ ٱلرِّبَوٰاْ لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ ٱلَّذِى يَتَخَبَّطُهُ ٱلشَّيْطَٰنُ مِنَ ٱلْمَسِّ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوٓاْ إِنَّمَا ٱلْبَيْعُ مِثْلُ ٱلرِّبَوٰاْ وَأَحَلَّ ٱللَّهُ ٱلْبَيْعَ وَحَرَّمَ ٱلرِّبَوٰاْ فَمَن

جَآءَهُۥ مَوۡعِظَةٞ مِّن رَّبِّهِۦ فَٱنتَهَىٰ فَلَهُۥ مَا سَلَفَ وَأَمۡرُهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِۖ وَمَنۡ عَادَ فَأُوْلَٰٓئِكَ
أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢٧٥﴾ يَمۡحَقُ ٱللَّهُ ٱلرِّبَوٰاْ وَيُرۡبِي ٱلصَّدَقَٰتِۗ وَٱللَّهُ لَا
يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ أَثِيمٍ ﴿٢٧٦﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ
وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ لَهُمۡ أَجۡرُهُمۡ عِندَ رَبِّهِمۡ وَلَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ ﴿٢٧٧﴾
يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَذَرُواْ مَا بَقِيَ مِنَ ٱلرِّبَوٰٓاْ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ﴿٢٧٨﴾ فَإِن
لَّمۡ تَفۡعَلُواْ فَأۡذَنُواْ بِحَرۡبٖ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦۖ وَإِن تُبۡتُمۡ فَلَكُمۡ رُءُوسُ أَمۡوَٰلِكُمۡ لَا
تَظۡلِمُونَ وَلَا تُظۡلَمُونَ ﴿٢٧٩﴾ وَإِن كَانَ ذُو عُسۡرَةٖ فَنَظِرَةٌ إِلَىٰ مَيۡسَرَةٖۚ وَأَن تَصَدَّقُواْ
خَيۡرٞ لَّكُمۡۖ إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ﴿٢٨٠﴾ وَٱتَّقُواْ يَوۡمٗا تُرۡجَعُونَ فِيهِ إِلَى ٱللَّهِۖ ثُمَّ
تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفۡسٖ مَّا كَسَبَتۡ وَهُمۡ لَا يُظۡلَمُونَ ﴿٢٨١﴾﴾.

المفردات:

سلف: مضى وانقضى. **عسرة**: ضيق في المال.

فنظرة: فمهلة حتى ييسر له الله. **أثيم**: كثير الإثم.

المس: الجنون والممسوس كالمصروع. **ذروا**: اتركوا.

يمحق: ينقص، يمحق الله الربا أي ينقص بركته فيهلك.

الربا لغة: الزيادة يُقال: ربا الشيء إذا زاد ومنه الربوة، **وشرعاً**: زيادة على أصل المال يأخذها الدائن من المدين مقابل الأجل.

يتخبطه: التخبط: الضرب على غير استواء كخبط البعير الأرض بأخفافه، وتخبطه الشيطان أي مسّه بخبل أو جنون.

الدراسة التربوية:

إنّ الفرق بين هذه الصورة الكالحة، والإشراقة السابقة، كالفرق بين الظلمات والنور فالصدقة عطاء وسماحة، وطهارة وزكاة، وتعاون وتكافل.

والربا شحٌ وقذارة ودنس، وأثرةٌ وفردية، والصدقة نزول عن المال بيقين زيادته والتماسٌ لرضا الرحمن، والربا استرداد للمال بزيادةٍ من حرام،

وتكذيبٍ لفضل الله ووعده. والصدقة هي الوجه الطيب، والربا هو الوجه القبيح.

وكان الربا في الجاهلية نوعان: النسيئة والفضل، أما النسيئة فيدفع ماله ويأخذ عليه زيادة، وقد ورد في صحيح البخاري، أن لا ربا إلا في النسيئة، وأما ربا الفضل فهو بيع الشيء بالشيء من نوعه مع زيادة، وقال عليه الصلاة والسلام في خطبة حجة الوداع **«كل رباً في الجاهلية موضوعٌ تحت قدميَّ هاتين»**[(١)].

والربا أمر ممقوت من الله عز وجل، محرمٌ على الأمة التي رضيت بالله رباً، وبالإسلام ديناً وبمحمدٍ نبياً ورسولاً. والإسلام أوجد النظام الإسلامي، الذي يقوم على حفظ الحقوق، وأداء الأمانات، والتكافل والتعاون بين أفراده.

والكفر أكمل مسيرة المشركين الربوية. حيث لا رعاية لحق الله، أو لحقوق العباد، بينما نحن المسلمين تكفينا آيةٌ واحدة، لتشمئز بها نفوسنا، وتنفر من الربا والمرابين. وذلك قوله تعالى: ﴿وَأَحَلَّ ٱللَّهُ ٱلْبَيْعَ وَحَرَّمَ ٱلرِّبَوٰاْ﴾ ولقد حمل القرآن على الربا حملةً مفزعةً، وهدَّد وأوعد، حتى أعلن الله الحرب على آكل الربا، **«ولعن رسول الله ﷺ آكل الربا وموكليه، وشاهديه وكاتبه وقال: هم سواء»**[(٢)].

إن الربا داءٌ عضال، متمكن في النفس، ما لم يهذبها الإسلام وتكون نفس كريمة بفطرتها، فالإنسان جبل على حب المال وجمعه ﴿وَتُحِبُّونَ ٱلْمَالَ حُبًّا جَمًّا ﴿٢٠﴾﴾[(٣)]. وجاء الإسلام ليحارب هذا الخلق الذميم في النفوس، وأبدل الله الناس عن الربا الصدقات والنفقات والهبات والهدايا مما يُفصح عن نفوس طيبة، وقلوب راضية مستسلمة، متوكلة على الله الذي بيده خزائن

(١) رواه البخاري في كتاب البيوع، رقم ـ ٢٠٣٢ ـ.

(٢) رواه مسلم في كتاب المساقاة، رقم ـ ٢٩٩٥ ـ.

(٣) سورة الفجر: الآية ٢٠.

السماوات والأرض، والربا يُعدُّ خلة خبيثة في النفس، وهي الأخذ والزيادة بغير حق. والله عز وجل نفَّر المؤمن بتصوير الموقف الرعيب بقوله ﴿ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ ٱلرِّبَوٰاْ لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ ٱلَّذِى يَتَخَبَّطُهُ ٱلشَّيْطَٰنُ مِنَ ٱلْمَسِّ﴾، فالممسوس مغيَّب عن إدراكه، يقوم الشيطان فيه ويقعد، تتقاذفه قوة كهربية شيطانية رهيبة، حيث سرى الشيطان في عروقه مسرى الدم، فانتفضت جوارحه من السحت الذي نمت فيه، وكل لحم نبت من سحت فالنار أولى به. فالمرابي يتخبط بغضب الله في الدنيا، وسيُصرع به في الآخرة. وقد ذهب معظم المفسرين أن هذا المشهد سيكون واقعاً في الآخرة لا محالة. ولكن سيد قطب رحمه الله يؤكد أنَّ الحرب قائمة بين الله والبشرية الضالّة، بصورها الربوية المختلفة ـ وهذا حق.

والكارثة الكبرى كما يؤكد في الظلال أن النظام الربوي، ألقى في روع كثير من الناس أنه الأساس الاقتصادي، ولا يمكن للناس أن تتخلى عن البنوك وأنظمتها، وأن الداعين إلى التعامل بعيداً عن النظام الربوي، أُناسٌ واهمون، يتخبطون في المستحيل. وهذا كله من أوهام يهود، التي من مخططاتها السيطرة على العالم اقتصادياً، فأرست هذا النظام الظالم، وجعلت البشرية كلها تضل في مؤسساته ومشاريعه، ولو أنَّ الدنيا بإنسها وجنّها، أجمعت أنَّ البنوك الربوية هي النظام الاقتصادي الوحيد، الذي تقوم عليه معاملات الأرض، نقول بثبات المؤمن إنّ هذا الاقتصاد ممحوق وزائل، لأنَّ الله تعهد بمحقه، ولكنَّ الله أمدَّ لأهله، ومكَّن لهم ليبلونا ويبلو أخبارنا، والحق باقٍ، والباطل زاهق، وإن علا وانتفش. وصدق سيد رحمه الله، فالداء المسلّط على العباد اليوم داءٌ لا دواء له، وهو تخبط الأجيال الصغيرة، التي ما ذاقت شيئاً من هموم الدنيا، فهي تكاد تخرج من جلدها، ولا تدري أنّها تتصارع مع السحت الذي ينمو تحت جلدها.

وقواعدنا الذهبية التي نصصَّها الهادي البشير بقوله: «**الذهب بالذهب، والفضة بالفضة، والبر بالبر، والشعير بالشعير، والتمر بالتمر، والملح بالملح، مثلاً بمثل، يداً بيد فمن زاد أو استزاد فقد أربى الآخذ والمعطي فيه**

سواء»[1] وجاء بلال ﷺ بتمر برني - جيد - فقال رسول الله ﷺ: **«من أين لك هذا؟»** قال: عندي تمر رديء فبعت منه صاعين بصاع، فقال عليه الصلاة والسلام: **«أوّه عين الربا، عين الربا، لا تفعل ولكن إذا أردت أن تفعل فبع التمر ثم اشتري به - أي بثمنه -»**[2].

هذا هو الأمر ﴿وَحَرَّمَ الرِّبَوٰاْ﴾ وهذه هي الموعظة ذكرها رسول الله ﷺ، فمن آمن واستسلم، فالحل أن يأخذ رأس ماله، وينفض يديه من كل ما سواه، وإلا فالوعد والوعيد، وعند كل أمرٍ تسمو فئة، ويسقط آخرون حتى تبقى النخبة المختارة، التي استعلت على الباطل، وبها يغيّر الله الدنيا من حالٍ إلى حال. والربا كبيرة من الكبائر التي قد تخلد صاحبها في النار، وروى ابن مسعود ﷺ عن النبي ﷺ: **«إن الربا ثلاثةٌ وسبعون باباً أيسرها أن ينكح الرجل أمّه، وإنّ أربى الربا عرض الرجل المسلم»**[3] قال الحاكم صحيح على شرط الشيخين، وقال ابن كثير رحمه الله: وباب الربا من أشكل الأبواب على كثيرٍ من أهل العلم، وقد قال أمير المؤمنين عمر ﷺ (ثلاث وددت أن رسول الله ﷺ عهد إلينا فيهنَّ عهداً، ننتهي إليه: الجد والكلالة، وأبواب الربا)[4]. ويُفهم من هذا أنَّ هناك أبواباً من الربا، تحتاج إلى فقه أهل الاجتهاد والاستنباط حتى تُعرف، وأصغر قاعدة في قواعد الربا (ما أدى إلى حرام فهو حرام). وروى الإمام أحمد أن رسول الله ﷺ قال: **«يأتي على الناس زمان يأكلون فيه الربا»** قال: قيل له الناس كلهم؟ قال: **«من لم يأكله منهم ناله من غباره»**[5].

وأدخل الحنفية في الربا كل ما كان من أنواع البيوع الفاسدة. ولكل صاحب علمٍ اجتهد تُجمع عليه الأمة فيستنبط فيه حكم الشيء، ولم يقفل

---

(١) صحيح الجامع الصغير وزيادته الإرواء، رقم - ١٣٣٩ -.

(٢) رواه البخاري في كتاب الوكالة، رقم - ٢١٤٥ -.

(٣) رواه ابن ماجه في كتاب التجارات، رقم - ٢٢٦٦ -.

(٤) رواه البخاري في كتاب الأشربة، رقم - ٥١٦٠ -.

(٥) رواه أحمد في كتاب باقي مسند المكثرين، رقم - ١٠٠٠٧ -.

الرسول ﷺ الباب لأنَّ الله يعلم ما سيستحدث من معاملات، وما نزلت آية في كتاب الله لتعطل وينتهي حكمها، فلا بد من أمور تستحدث يُبتلى بها إيمان الناس ليردوها إلى الله ورسوله ويعلمها الذين أوتوا العلم، وفي مثله قال الله عز وجل: ﴿فَسْـَٔلُوٓا۟ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾[1].

﴿يَمْحَقُ ٱللَّهُ ٱلرِّبَوٰا۟ وَيُرْبِى ٱلصَّدَقَـٰتِ﴾، فالصدقة يربّيها الرحمن بيمينه، حتى تكون مثل الجبل، والله يبغض من طبعه الكفر، إن لم يكفر نعمة يجحد غيرها فطبعه كفَّاراً، ومن المستحيل أن يصبح شكَّاراً. وعن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «**من تصدَّق بعدل تمرة من كسبِ طيب ولا يصعد إلى الله إلا الطيب، فإنّ الله يقبلها بيمينه، فيربيها لصاحبها كما يربي أحدكم فلوّه حتى يكون مثل أُحد**»[2]. والمؤمنون العاملون المصلون المنفقون هؤلاء في عهدة الله، عند ربهم الذي ربّاهم بهذا القرآن وتولاّهم، فلا يخافون بجنبه ولا يفزعون، ثم يهيب الله بالمؤمنين المفتونين أن يتقوا الله، ويذروا ما بقي من الربا إن كان هناك إسلامٌ وإيمان.

والتقوى ثوب يحرص عليه المؤمن، ليكون رداءه إذا وقف بين يدي الله، وقد ورد أن عمر بن عبد العزيز ﷺ خرج في جنازة، فوقف بعد الدفن معتبراً ونادى: يا أهل القبور ماذا فعلتم؟ وما هي أحوالكم؟ فأجابه صوت لقد تخرقت الأكفان، وسالت العيون، ورتع الدود، يا عمر اتخذ كفناً لا تبليه القبور، قال: وأي كفن لا تبليه القبور؟ قالوا: كفن التقوى. وهذا ما يشبه حديث النفس في خواطر المؤمن.

وأما الذي يجادل ويكابر ولا يخضع، فيهدده الله بصورةٍ رعيبة، وعبارة تتقطع لها نياط القلوب، فأذنوا بحربٍ من الله ورسوله أي أيقنوا بحربٍ لا هوادة فيها. قال ابن عباس رضي الله عنهما: يُقال لآكل الربا يوم القيامة: خذ سلاحك للحرب، كنايةً عن الهلاك، وإلا فمن له طاقة بحرب الله؟؟ ثم تُلقي الرحمة الإلهية بظلالها، ﴿وَإِن تُبْتُمْ فَلَكُمْ رُءُوسُ

---

(1) سورة الأنبياء: الآية ٧.

(2) رواه أحمد في كتاب باقي مسند المكثرين، رقم ـ ٨٠٣١ ـ.

أَمْوَٰلِكُمْ ﴾، فالباب مفتوح ﴿لَا تَظْلِمُونَ وَلَا تُظْلَمُونَ وَإِن كَانَ ذُو عُسْرَةٍ فَنَظِرَةٌ إِلَىٰ مَيْسَرَةٍ وَأَن تَصَدَّقُوا خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٢٨٠﴾﴾. ففي الجاهلية كان يقول أحدهم لمدينة إذا حلَّ عليه الدَين إما أن تقضي - تردّ عليّ ديني - وإما أن تربي. ولكن الله ندب إلى أكثر من ذلك، وأطيب وهو أن يترك الدائن رأس المال بالكلية، ووعد على ذلك الخير والثواب الجزيل.

قال الحسن البصري وابن سيرين رضي الله عنهما (والله إنّ هؤلاء الصيارفة لأكلة ربا، وإنهم قد أوذنوا بحربٍ من الله ورسوله. ولو كان على الناس إمام عادلٌ لاستتابهم، فإن تابوا، وإلا وضع فيهم السلاح).

وروى الإمام أحمد في مسنده أنّ رسول الله ﷺ قال: **«الربا وإن كثر فإنّ عاقبته تصير إلى قلّ»**[1]. وعن حذيفة بن اليمان رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: **«أتى الله بعبد من عبيده يوم القيامة فقال: ماذا عملت لي في الدنيا؟ فقال: ما عملت يا رب مثقال ذرة في الدنيا أرجوك بها، قالها ثلاث مرات، قال العبد عند آخرها يا رب إنك كنت أعطيتني فضل مال، وكنت رجلاً أُبايع الناس، وكان من خُلقي الجواز، فكنت أيسر على الموسر، وأنظر المعسر، قال: فيقول الله عز وجل أنا أحق من ييسر أُدخل الجنة»**[2]. وروى البخاري عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ أنه قال: **«كان تاجر يداين الناس، فإذا رأى معسراً، قال لفتيانه تجاوزوا عنه، لعل الله يتجاوز عنا، فتجاوز الله عنه»**[3].

وعن عائشة رضي الله عنها زوج النبي ﷺ قالت لها: أم بحنة أم ولد زيد بن أرقم، يا أم المؤمنين، أتعرفين زيداً؟ قالت: نعم، قالت: فإني بعته عبداً إلى العطاء بثمانمائة، فأحتاج إلى ثمنه، فاشتريته قبل محل الأجل بستمائة، فقالت: بئس ما شريت وبئس ما اشتريت أبلغي زيداً أنه قد أبطل جهاده مع رسول الله ﷺ إن لم يتب، قالت: أرأيت إن تركت المائتين،

---

(١) رواه أحمد في كتاب باقي مسند المكثرين من الصحابة، رقم - ٣٥٦٧ -.

(٢) رواه أحمد في كتاب مسند الشاميين، رقم - ١٦٤٤٧ -.

(٣) رواه البخاري في كتاب البيوع، رقم - ١٩٣٦ -.

وأخذت الستمائة؟ قالت: نعم.

﴿فَمَن جَآءَهُۥ مَوۡعِظَةٞ مِّن رَّبِّهِۦ فَٱنتَهَىٰ فَلَهُۥ مَا سَلَفَ﴾ وهي دليل مسألة العينة - العينة أن يبيع الشيء إلى أجل ثم يشتريه نقداً بأقل مما باعه - وفي هذا شبهة التحايل على أكل الربا.

وثبت في الصحيحين عن النعمان بن بشير رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «**إنّ الحلال بيّن وإن الحرام بيّن، وبين ذلك أمورٌ مشتبهات، فمن اتقى الشبهات فقد استبرأ لدينه وعرضه، ومن وقع في الشبهات وقع في الحرام، كالراعي يرعى حول الحمى يوشك أن يرتع فيه، ألا وإنّ لكل ملكٍ حمىً ألا وإنّ حمى الله محارمه**»[1]. «**لعن الله اليهود حرمت عليهم الشحوم فجملوها، فباعوها وأكلوا أثمانها**»[2] الدنيا مهما رابى فيها المرابون، ومهما جمع الإنسان فيها المال من حله وحرامه، فمن ذا الذي يدفع عنه يوم الرجوع إلى الله؟ يوم العرض والحساب ﴿وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفۡسَهُۥۗ وَٱللَّهُ رَءُوفُۢ بِٱلۡعِبَادِ﴾ تحذيرٌ في الدنيا، وتنبيهٌ على العاقبة ﴿ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفۡسٖ مَّا كَسَبَتۡ وَهُمۡ لَا يُظۡلَمُونَ﴾. وأمام هذه النماذج البشرية، والحرب الربانية، يترتب علينا في رحلتنا التربوية، أن نخلع أنفسنا وأولادنا من الشح، ونجعل ديدنهم دائماً الإنفاق رجاء وجه الله والتوكل عليه، ونفزّعهم من كل زيادة يطمعون فيها لنقطع دابر الأمر من أوله، ونذكر أن النار من مستصغر الشرر، ولو رجعنا إلى المصادر الفقهية لنتعرف على حال موظفين البنوك اليوم، وآكلين الربا لتبيّن لنا أنّ أموالهم كلها سحت، فيكون التعامل معهم حرجاً للغاية، وعليه تبدأ غربلة الأصحاب، ونعمل بوصية رسول الله ﷺ: «**لا تصاحب إلا مؤمناً، ولا يأكل طعامك إلا تقي**»[3] إنّ مؤاكلة المرابين وإن كانوا أقرباء فيها نظر والسكن في بيوت تحتها مؤسسات ربوية فيها تخوّف، ولا يأمن مكر الله إلا القوم الكافرون. فمن هانت عليه نفسه، واتخذ قرار الإعراض

---

(١) رواه مسلم في كتاب المساقاة، رقم - ٢٩٩٦ -.

(٢) رواه أحمد في كتاب مسند بني هاشم، رقم - ٢١١١ -.

(٣) رواه الترمذي في كتاب الزهد، رقم - ٢٣١٨ -.

عن آيات الله، فليرحم نفسه فإنه لا طاقه له بذلك، ﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ ﴿٤٠﴾ فَإِنَّ ٱلْجَنَّةَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ ﴿٤١﴾﴾[1] ومن أراد المزيد، فليرجع إلى تفسير الآيات في ظلال القرآن ـ للشهيد سيد قطب رحمه الله.

الفوائد التربوية:

١ ـ إنَّ الإسلام لا يُبيح الربا، وإن دخل تحت ألف اسمٍ واسمٍ، والتمس مُحلّوه ألف عذرٍ ومبرر.

٢ ـ إن النظام الربوي بلاء على الإنسانية، وانحطاط للأمم في اقتصادها ومعاملاتها وهو دليل أكيد على انحطاط أخلاقها، والأخلاق أساس ثابت في الإسلام فحسن الخلق يقرّب من رسول الله ﷺ، وسوء الخلق يُباعد عن رسول الله ﷺ.

٣ ـ كل ما يردده الناس عن فوائد النظام الربوي، إنما هو ترويج لسموم يهودية ترعرعت تحت مظلةٍ خبيثة، وبُثت في مناهل الثقافة العامة. ومنابع المعرفة الإنسانية في مشارق الأرض ومغاربها، وأما أُكذوبة استحالة قيام اقتصاد عالمي على غير نظام ربوي فهي خرافة، روّجتها العصابات الربوية اليهودية، تتنافى مع الخير والسعادة والبركة الذي ستحصده البشرية يوم تتحرك في ظل رشدها وكتاب ربها.

٤ ـ يجب أن يستقر في أعماقنا يقيناً، أن الله يمحق الربا ويربي الصدقات. ويجب أن يرضعها الصغير مع اللبن، وينشأ عليها الأطفال، ويلقنها الكبار للصغار. حتى يقوم جيل ناصح يكون قد كشف اللعبة، وأفشل الحبكة ورفض أن يأكل الحرام. فيكون لنا فضل الثبات، وتعقيم الفكر من كل دخيل خبيث فنحن نعمل، والأجيال تحصل ﴿وَٱللَّهُ مَعَكُمْ وَلَن يَتِرَكُمْ أَعْمَٰلَكُمْ﴾[2].

---

(١) سورة النازعات: الآية ٤٠.

(٢) سورة محمد: الآية ٣٥.

٥ - إن نفسية المرابي نفسية جشعة، فهو لا يرضى بما قسم الله له من الحلال، ولا يكتفي بالكسب المباح، فيسعى لأكل أموال الناس بالباطل فهو ظلومٌ جحود.

٦ - إن العادات الكريمة، إما أن تكون فطرية في الإنسان، فهذا من تمام نعمة الله عليه. وإما أن يكون هناك نقص وشوائب، فمسؤولية الوالدين غرس ما نقص، وإزالة الشوائب وتنقية الفطرة منها، ومن أكرم العادات الكريمة أن يعوّد الطفل الرضى والقناعة بما قسم الله له، وأن يعوَّد الشكر، وأن لا يطمع بما في أيدي الناس، وأن يعلّق رجاءه وأمله بما عند الله، وأن يبتعد عن التفكير في اغتصاب حقوق الآخرين وتبدأ عملية غرس العادات الكريمة، منذ العام الأول للطفل، فيعوَّد أن ينال مما يحب القليل، وأن يأخذ من النصف واحدة واحدة ويشكر كل واحدة. وأن يبذل ما بيده لغيره، ويدرَّب ليوزع على الآخرين بأمانة، ثم يتدرّج في خلق الإيثار يُعطي ولو لم يبق له نصيب. ولذلك فإن الإنسان المحروم من المعاملات الاجتماعية الإسلامية، هو المحروم من الخير، وسيكون أول من يشتكي والديه يوم القيامة، لأنّ هناك عادات لا تقوَّم في الكبر، ومن شبَّ على شيء شاب عليه. هذا لا يعني أن ستصلح البشرية كلها، فمن رضي لنفسه الشقاء لا تنفع معه تربية، ولا تُجدي فيه نصيحة، وسيسبق عليه الكتاب، ولان يتنصّل من المسؤولية إلا من أعذر إلى الله، كما أعذر عيسى عليه السلام عندما سأله ربه يا عيسى بن مريم ﴿ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِى وَأُمِّىَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ ٱللَّهِ قَالَ سُبْحَٰنَكَ مَا يَكُونُ لِىٓ أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِى بِحَقٍّ إِن كُنتُ قُلْتُهُۥ فَقَدْ عَلِمْتَهُۥ تَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِى وَلَآ أَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ﴾[(١)].

ولكن من يُصدَّق بعذره؟ ويصدَّق كما هو الأمر مع عيسى عليه السلام؟ إن التربية مسؤولية وأمانة، وسؤالٌ وحساب. فسيدنا عيسى عليه السلام بلّغ وأنذر وأعذر وصدق، فأعذره الله. فهل صدقنا في تربية أولادنا وأنفسنا كما صدق عيسى عليه السلام في توحيد الله؟

---

(١) سورة المائدة: الآية ١١٦.

٧ ـ إن الله لا يعذر والداً ضيَّع، ولا يعذر ولداً أهمل، فالجميع مكلفٌ ومسؤول عن عمره فيما أفناه، وعن شبابه فيما أبلاه.

﴿فَمَن جَآءَهُۥ مَوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ فَٱنتَهَىٰ﴾، في هذه الآية مجالٌ تربويٌ، وهو تعبيد النفس والهوى. فمجرد سماع الموعظة يكون الاستسلام والطاعة، وهذا لا يأتي بين عشيةٍ وضحاها، وإنما يحتاج إلى جهد تربوي كريم، وأنَّ التردي في الذنب بعد التوبة منه موقف يحتاج إلى خطوةٍ عنيفة.

٨ ـ الصبر والحلم، صفتان حبيبتان إلى الله، تخلّق بهما الأنبياء والصالحون. الصبر على الناس ومعاملاتهم، ومنها الصبر على المعسر، وإغاثة الملهوف، وتفريج الكربة، والعفو عمن ظلمك، هذه كلها من مكارم الأخلاق، وكلها يُدرّب عليها الطفل منذ الصغر، وعلى المستوى الأول من معاملاته مع الأطفال مثله.

هل سينتظر الوالدان ابنهم حتى يكون رجلاً، وصاحب مال، ليروا هل يتحقق فيه هذا الخلق أم لا! إنَّ هذا لا يتفق مع التربية الربانية التي تعالج النفس لتبقى سوية، وتلقنها مؤهلات الاستقامة، والقرآن لا ينتظر الإنسان حتى يبدو عوجه فيقوّمه. والوقاية خيرٌ من العلاج.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا تَدَايَنتُم بِدَيْنٍ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى فَٱكْتُبُوهُ ۚ وَلْيَكْتُب بَّيْنَكُمْ كَاتِبٌۢ بِٱلْعَدْلِ ۚ وَلَا يَأْبَ كَاتِبٌ أَن يَكْتُبَ كَمَا عَلَّمَهُ ٱللَّهُ ۚ فَلْيَكْتُبْ وَلْيُمْلِلِ ٱلَّذِى عَلَيْهِ ٱلْحَقُّ وَلْيَتَّقِ ٱللَّهَ رَبَّهُۥ وَلَا يَبْخَسْ مِنْهُ شَيْـًٔا ۚ فَإِن كَانَ ٱلَّذِى عَلَيْهِ ٱلْحَقُّ سَفِيهًا أَوْ ضَعِيفًا أَوْ لَا يَسْتَطِيعُ أَن يُمِلَّ هُوَ فَلْيُمْلِلْ وَلِيُّهُۥ بِٱلْعَدْلِ ۚ وَٱسْتَشْهِدُواْ شَهِيدَيْنِ مِن رِّجَالِكُمْ ۖ فَإِن لَّمْ يَكُونَا رَجُلَيْنِ فَرَجُلٌ وَٱمْرَأَتَانِ مِمَّن تَرْضَوْنَ مِنَ ٱلشُّهَدَآءِ أَن تَضِلَّ إِحْدَىٰهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحْدَىٰهُمَا ٱلْأُخْرَىٰ ۚ وَلَا يَأْبَ ٱلشُّهَدَآءُ إِذَا مَا دُعُواْ ۚ وَلَا تَسْـَٔمُوٓاْ أَن تَكْتُبُوهُ صَغِيرًا أَوْ كَبِيرًا إِلَىٰٓ أَجَلِهِۦ ۚ ذَٰلِكُمْ أَقْسَطُ عِندَ ٱللَّهِ وَأَقْوَمُ لِلشَّهَٰدَةِ وَأَدْنَىٰٓ أَلَّا تَرْتَابُوٓاْ ۖ إِلَّآ أَن تَكُونَ تِجَٰرَةً حَاضِرَةً تُدِيرُونَهَا بَيْنَكُمْ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَلَّا تَكْتُبُوهَا ۗ وَأَشْهِدُوٓاْ إِذَا تَبَايَعْتُمْ ۚ وَلَا يُضَآرَّ كَاتِبٌ وَلَا شَهِيدٌ ۚ وَإِن تَفْعَلُواْ فَإِنَّهُۥ فُسُوقٌۢ بِكُمْ ۗ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ۖ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱللَّهُ ۗ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿٢٨٢﴾ ۞ وَإِن كُنتُمْ عَلَىٰ سَفَرٍ وَلَمْ تَجِدُواْ كَاتِبًا فَرِهَٰنٌ مَّقْبُوضَةٌ ۖ فَإِنْ

﴿...أَمِنَ بَعْضُكُم بَعْضًا فَلْيُؤَدِّ ٱلَّذِى ٱؤْتُمِنَ أَمَـٰنَتَهُۥ وَلْيَتَّقِ ٱللَّهَ رَبَّهُۥ ۗ وَلَا تَكْتُمُوا۟ ٱلشَّهَـٰدَةَ ۚ
وَمَن يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُۥٓ ءَاثِمٌ قَلْبُهُۥ ۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ﴿٢٨٣﴾ لِّلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ
وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ وَإِن تُبْدُوا۟ مَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُم بِهِ ٱللَّهُ ۖ فَيَغْفِرُ
لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٨٤﴾﴾.

المفردات:

ترتابوا: تشكّوا. **تضل:** تنسى.

يبخس: ينقص. **تبدوا:** تظهروا.

تسأموا: السأم والسآمة الملل والضجر. **أقسط:** أعدل.

وليملل: من الإملاء وهو أن يُلقي عليه ما يكتبه. **أدنى:** أقرب.

فرهان: جمع رهن وهو ما يدفع إلى الدائن توثيقاً للدين.

الدراسة التربوية:

ومع آية الدين، وهي أطول آية في كتاب الله، نلمس توجيه الله لهذه الأمة ولتضع على عينه في جميع حيثيات حياتها، فبعد أن أثبت الحق وبيّنه، وأقرَّ أن المال لا يزيد ولا ينقص إلا بربح أو خسارةٍ، وأنَّ الحرام حرام وإن تعددت صوره ووجوهه، وإن سمّي بأسماءٍ أخرى، كالفائدة أو الرسوم أو الزيادات أو أي اسم مستحدث، فالأسماء لا تحل المسميات. وصدق رسول الله ﷺ **«سيأتي زمانٌ على الناس يسمون الخمر بغير اسمها»**[1] هذا لا يحلها، ولا يعطيها مكانة أخرى في حياة المسلم. فالحلال بيّن والحرام بيّن.

وأما الدَين، وهو القرض الحسن حيث لا ربا ولا فائدة، وإنما هو تفريج كربة مؤمنٍ معسرٍ ابتغاء مرضاة الله، فله آداب وشروط، وصيانة حقوق لئلا يُشرح

(١) رواه أبو داود في كتاب الأشربة، رقم ـ ٣٢٠٣ ـ، ونصه (ليشربنّ ناسٌ من أمتي الخمر يسمونها بغير اسمها).

الإخاء، ويتصدّع البناء، عند أول علاقة مادية. وقد صاغ الله عز وجل الآية على أنها بند تشريعي، ولكن تخللها صعقات تربوية.

أقسط عند الله، فسوقٌ بكم، واتقوا الله. ويعلمكم الله، والله بكل شيءٍ عليم. إنها ليست مادة قانونية نظرية بحتة، يتبعها الإنسان حرفياً وكفى. كلا إنها تشريع يلامس القلوب، ويهز العقول، وتكررت فيها أفعال الأمر، وتصاغر الإنسان أمام تعليم الله، فلا يخرج عن تعاليم الله بجهله، فالآية توجيهٌ في رشد، وهيمنةٌ في رفق، وشدةٌ في عطف، وحزمٌ في قوة، مردود ذلك كله على البشرية لئلا تتردى في الشقاء.

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا تَدَايَنتُم بِدَيْنٍ﴾ إلى مدةٍ معينة فاكتبوه، فأمر بكتابة الدين، ثم يوقع عليها الدائن والمدين، ويشهد على ذلك رجلين فإن لم يتوفر الرجلان فرجلٌ وامرأتان ممن تتوفر فيهما شروط الشهادة ـ من العدل والعقل والعمر ـ والمرأة لم ينتقص الله من شأنها حين أقام المرأتين مكان رجل، وهذا ما يغمز فيه أعداء الله، إنّ الأمر ليس فيه غموض ولا تجريح، وإنما هي طبيعة التكوين الأنثوي، فالمرأة تطغى عليها عاطفتها، فتجعلها دائمة التفكير في أولادها، ومسؤولياتها فيكثر نسيانها، ثم أنها تتعرض لفترات حرجة في أيامها، يتغير فيها مزاجها، كما تتعرض لتغيرات الحمل، والإرضاع، وسهر الليالي، وتعليل الصغير، وتمريض العليل، مما يُتوقع فيها النسيان، فتذكرها أختها التي شهدت معها، وأداء الشهادة فرض. ويعلمكم الله أن تكتبوا دينكم سواءً قليلاً أو كثيراً، لئلا تفسد العلاقات الأخوية، ولكيلا تضيع الحقوق.

واستثنى الله من ذلك التجارة الحاضرة، أي القائمة بوقتها، ثم أكّد وكرّر على الكتابة، لئلا تقعوا في الفسوق والمعصية، والله يعلمنا بعلمه الواسع الذي يعلم ماذا ستكون عاقبة الأمور. ﴿قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا﴾[1] ثم استثنى من هذا أحوال السفر والترحال، فإن لم يجد الدائن كاتباً يكتب،

---

(١) سورة الطلاق: الآية ١٢.

فرهانٌ مقبوضة، أي يعطيه شيئاً بقيمة المال الذي سيستدينه، يرده إليه حين يرد عليه ماله. وإن لم يجد هذا ولا ذاك، وكان الدائن يثق بالمدين، خبيراً بأمانته وتقواه فلا حرج من إعطائه دون كتابة، ولا بد من شاهد حق لا يكتم شهادته أبداً، ولا يخاف في الله لومة لائم.

إن الله يحب أن يقوم بهذا الدين بشر، جِبِلّتهم الأمانة، وسمتهم الصدق، قلوبهم متعلقة بالله، وأبصارهم خاشعة إليه. يعيشون في الأرض، وأرواحهم تحلق من السماء، وإنّ القرآن يملك القدرة على تخريج هذه النماذج البشرية. وفي كل مرة يتحاكم فيها الناس للقرآن، ويتربون بهديه، يتكرر ظهور تلك الأنواع الفريدة، وقد نقلت لنا السيرة العطرة جانباً من التوجيه النبوي الشريف، والحوادث التربوية، مما يجعل النفوس تحن لتلك المعاملات، وتبذل الغالي والنفيس لاسترداد ذلك العز الذي يلوّح من بعيد.

﴿فَإِن لَّمْ يَكُونَا رَجُلَيْنِ فَرَجُلٌ وَٱمْرَأَتَانِ مِمَّن تَرْضَوْنَ مِنَ ٱلشُّهَدَآءِ أَن تَضِلَّ إِحْدَىٰهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحْدَىٰهُمَا ٱلْأُخْرَىٰ﴾ وفي صحيح مسلم عن النبي ﷺ أنه قال: «**يا معشر النساء تصدّقن، وأكثرن الاستغفار، فإني رأيتكن أكثر أهل النار**». فقالت امرأة منهن جزلة: ومالنا يا رسول الله أكثر أهل النار؟ قال: «**تكثرن اللعن، وتكفرن العشير، ما رأيت من ناقصات عقلٍ ودين، أغلب لذي لبِ منكن**»، قالت: يا رسول الله: ما نقصان العقل والدين؟ قال: «**أما نقصان عقلها فشهادة امرأتين تعدل شهادة رجل. فهذا نقصان العقل، وتمكث الليالي ولا تصلي، وتفطر رمضان، فهذا نقصان الدين**»(١).

إنها ليست مطاعن، وإنما اختلاف في التكوين والخلق، حيث المهام التي ستسند إليها، فالمرأة والرجل كيانٌ واحدٌ من نصفين كل نصفٍ يكمّل الآخر، ولا ينازعه، حيث لا قوامة للرجل إلا بوجود المرأة، وبالتالي لا وجود للرجل إلا بوجود المرأة. فالحال حال تكامل وتعاضد، وليس حال تنافرٍ وتناوش.

---

(١) رواه مسلم في كتاب الإيمان، رقم ـ ١١٤ ـ.

﴿وَلَا يَأْبَ ٱلشُّهَدَآءُ إِذَا مَا دُعُواْ﴾ وفي صحيح مسلم قوله ﷺ: **«ألا أخبركم بخير الشهداء؟ الذي يأتي بشهادته قبل أن يسألها»**[1]. وفي الحديث الآخر **«من كتم علماً يعلمه ألجمه الله يوم القيامة بلجامٍ من نار»**[2].

﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ﴾[3] وجاء في الحديث الصحيح الذي رواه الإمام أحمد وغيره عن رسول الله ﷺ أنه **«ذكر رجلاً من بني إسرائيل سأل بعض بني إسرائيل أن يسلفه ألف دينار، فقال: ائتني بشهداء أشهدهم، قال: كفى بالله شهيداً، قال: ائتني بكفيل، قال: قال كفى بالله كفيلا. قال: صدقت، فدفعها إلى أجلٍ مسمى، فخرج الرجل إلى البحر، فقضى حاجته ثم التمس مركباً يقدم عليه للأجل الذي أجّله، فلم يجد مركباً، فأخذ خشبة نقرها وأدخل فيها ألف دينار، وصحيفة معها إلى صاحبها، ثم زجَّج موضعها، ثم أتى بها البحر ثم قال: اللهمَّ إنك قد علمت أني استسلفت فلاناً ألف دينار، فسألني كفيلاً. فقلت: كفى بالله كفيلا، وسألني شهيداً فقلت: كفى بالله شهيداً فرضي بذلك، وإني قد جهدت أن أجد مركباً أبعث إليه بالذي أعطاني، فلم أجد مركباً، وإني استودعتكها، فرمى بها في البحر حتى ولجت فيه. فم انصرف وهو في ذلك يطلب مركباً إلى بلده، فخرج الرجل الذي كان أسلفه ينظر لعل مركباً تجيئه بماله، فإذا بالخشبة التي فيها المال، فأخذها لأهله حطباً، فلما كسرها، وجد المال والصحيفة، ثم قدم الرجل الذي كان تسلَّف منه، فأتاه بألف دينار وقال: والله ما زلت جاهداً في طلب مركب لآتيك بمالك، فما وجدت مركباً قبل الذي أتيت فيه. قال: هل كنت بعثت إليّ بشيء؟ قال: ألم أخبرك أني لم أجد مركباً قبل هذا الذي جئت به قال: فإن الله قد أدّى عنك الذي بعثت به في الخشبة، فانصرف بألفك راشداً»**[4].

فعندما تكون التقوى حادي القلوب، يصلح الله ما بين العبد وما يحيط

---

(١) رواه مسلم في كتاب الأقضية، رقم ـ ٣٢٤٤ ـ.

(٢) رواه أحمد في كتاب باقي مسند المكثرين، رقم ـ ١٠١٩٢ ـ.

(٣) سورة الطلاق: الآية ٣.

(٤) رواه أحمد في كتاب مسند المكثرين، رقم ـ ٨٢٣٢ ـ.

به حتى يسخر له أمواج البحار، والخشب الأصم، إنّها عبرةٌ لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد. ﴿وَلَا تَكْتُمُوا۟ ٱلشَّهَـٰدَةَ ۚ وَمَن يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُۥٓ ءَاثِمٌ قَلْبُهُۥ﴾ وهي شهادة الحق أما قوله ﷺ: «**ثم يأتي قوم تسبق أيمانهم شهادتهم، وتسبق شهادتهم أيمانهم**»[1] فتلك شهادة الزور، وهي كما قال عليه الصلاة والسلام من أكبر الكبائر.

أما شهادة الحق فيجب على المرء أن يبذلها حفاظاً على الحقوق، يبذلها إخلاصاً لرسول الله ﷺ، ويبذلها لإخوانه المؤمنين، إن كانت لهم أم عليهم، وهذا هو الدين الحق، وكما ورد في الحديث الذي رواه الإمام أحمد وأبو داوود والنسائي: أن النبي ﷺ ابتاع فرساً من أعرابي، فاستتبعه النبي ﷺ ليقضيه ثمن فرسه، فأسرع النبي ﷺ وأبطأ الأعرابي، فطفق رجالٌ يقرضون الأعرابي، فيساومونه بالفرس، ولا يشعرون أن النبي ﷺ ابتاعه، حتى زاد بعضهم الأعرابي في السوم على ثمن الفرس الذي ابتاعه النبي ﷺ، فنادى الأعرابي النبي ﷺ فقال: إن كنت مبتاعاً هذا الفرس فابتعه، وإلا بعته، فقام النبي ﷺ حين سمع نداء الأعرابي، قال: «**أوليس قد ابتعته منك؟**» فطفق الناس يلوذون بالنبي ﷺ والأعرابي وهما يتراجعان، فطفق الأعرابي يقول: هلمَّ شهيداً يشهد أني بعتك، فمن جاء من المسلمين قال للأعرابي: ويلك إنّ النبي ﷺ لم يكن ليقول إلا حقاً، حتى جاء خُزيمة فاستمع لمراجعة النبي ﷺ ومراجعة الأعرابي يقول: هلمَّ شهيداً يشهد أني قد بايعتك. قال خزيمة: أنا أشهد أنك قد بايعته، فأقبل النبي ﷺ، على خُزيمة فقال: «**بم تشهد؟**» قال: بتصديقك يا رسول الله، فجعل رسول الله ﷺ شهادة خُزيمة بشهادة رجلين[2].

من مفاهيم هذه الأحاديث والسير، نعلم أنَّ رسول الله هو الترجمان العملي لكتاب الله، فرسول الله ﷺ لم يبطش بالأعرابي، ولم يأمر بمن ينفذ فيه حكماً، ولم يرفع يديه داعياً عليه، مستغيثاً بربه أن يهلكه وهو يكذّب

---

(١) رواه البخاري في كتاب الرقاق، رقم ـ **٥٩٤٩** ـ.

(٢) رواه أحمد في كتاب مسند الأنصار، رقم ـ **٢٠٨٧٨** ـ.

رسول الله، لم يحدث من هذا شيء، بل وقف عليه الصلاة والسلام يراجع ذلك الجلف النكد، ويطلب له الشهداء فقدم خُزيمة واستمع للإثنين وهما غير متكافئين، ولكن العدل يعلمنا أن نسمع من الطرفين، ثم أقبل خزيمة بعد فقهٍ وتفكر، وشهد لرسول الله ﷺ، ولم يندفع رسول الله فرحاً بشاهد عثر عليه، بل أقبل صلوات الله وسلامه عليه على خزيمة وقال: بم تشهد؟ - إياك أن يدفعك حب رسول الله للإنزلاق بشهادة لم ترها وحادثةٍ لم تحضرها، الله أكبر الانتصار على النفس في مواقف الشدّة، ولكن خزيمة لم ينزلق، وإنما تصرّف بإيمان عميق، وخطىً ثابتة - وأجاب: أشهد على صدقك يا رسول الله. وفاز خزيمة، ونال المكافأة لا على تصديق شخص، ولكن على تصديق الحق، لأن رسول الله ﷺ حق، ولا ينطق إلا حقاً، ولا يحكم إلا بالحق، صلى الله عليه وسلم.

﴿لِّلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِۗ وَإِن تُبْدُواْ مَا فِيٓ أَنفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُم بِهِ ٱللَّهُۖ﴾ نعم حقاً وصدقاً لله ما في السماوات وما في الأرض، من يستطيع من الخلق أن يعلم ما فيهن، ولذلك يقيناً واستسلاماً له سبحانه ما في السماوات وما في الأرض، خلقاً وملكاً وتدبيراً وأمراً. ﴿وَإِن تُبْدُواْ مَا فِيٓ أَنفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُم بِهِ ٱللَّهُۖ﴾ وقد أخذ أصحابَ رسول الله ﷺ من هذه الآية أمرٌ شديد، حتى فرّجَ الله عنهم بأن أنزل الآيتين بعدها، ومما ورد في ذلك ما رواه الإمام أحمد عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: لما نزلت على رسول الله ﷺ ﴿لِّلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِۗ﴾ اشتد ذلك على أصحاب رسول الله، فأتوا رسول الله ﷺ ثم جثَوا على الركب، وقالوا: يا رسول الله كلفنا من الأعمال ما نطيق: الصلاة والصيام، والجهاد، والصدقة، وقد أُنزلت عليك هذه الآية ولا نطيقها، فقال رسول الله ﷺ: «**أتريدون أن تقولوا كما قال أهل الكتاب من قبلكم سمعنا وعصينا؟ بل قولوا سمعنا وأطعنا غفرانك ربنا وإليك المصير**» فلما أقرَّ بها القوم، وذلّت بها ألسنتهم، أنزل الله في أثرها ﴿ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ . . .﴾ إلى آخر الآيتين[1]. فبعض الروايات

(١) رواه أحمد في كتاب باقي مسند المكثرين، رقم - ٨٩٧٦ -.

عن ابن عباس رضي الله عنهما تفيد نسخ الآية بالآيتين، وروايات تفيد عدم النسخ، وأخبار ابن جرير الطبري عدم النسخ وقال: لا يلزم من المحاسبة المعاقبة، وأنه تعالى قد يحاسب ويغفر، وقد يحاسب ويعاقب.

وفي الحديث الصحيح عن ابن عمر رضي الله عنهما قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**يدنو المؤمن من ربه عز وجل حتى يضع عليه كنفه، فيقرره بذنوبه، فيقول له: هل تعرف كذا؟ فيقول: رب أعرف، حتى إذا بلغ ما شاء الله أن يبلغ قال: إني قد سترتها عليك في الدنيا، وإني أغفرها لك اليوم قال: فيعطي صحيفة حسناته، أو كتابه بيمينه، وأما الكفار والمنافقون فينادى بهم على رؤوس الأشهاد ﴿هَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ كَذَبُواْ عَلَىٰ رَبِّهِمْۚ أَلَا لَعۡنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾**»[1] والمهم الذي أُجمع عليه أن المؤاخذة في العزم ثابتة، فمن عزم على الكفر فقد كفر. وأما الخطرة دون العزم، فالجمهور على أنها معفو عنها، والقاعدة الكلية: أن النسخ يكون في الأحكام لا في الأخبار.

وروى مسلم عن ابن عباس رضي الله عنهما عن النبي ﷺ فيما يرويه عن ربه تبارك وتعالى قال: «**إنّ الله كتب الحسنات والسيئات، ثم بيَّن ذلك، فمن همَّ بحسنة فلم يعملها كتبت له حسنة كاملة، وإن همَّ بها فعملها كتبها الله عنده عشر حسنات إلى سبعمائة ضعف إلى أضعافٍ كثيرة. ومن همَّ بسيئة فلم يعملها، كتبها الله عنده حسنة، وإن همَّ بها فعملها كتبها الله عنده سيئة واحدة**»[2] وللحديث فقه فمن همَّ بالسيئة، وفشل في عملها، غير الذي همَّ بالسيئة ثم استحضر الخوف من الله عز وجل وهمَّ غير عزمَ، ولذلك فلا يؤخذ الحديث كلماتٍ مبتورة عن معانيها ومدلولاتها. ودليل ذلك ما رواه أصحاب الكتب الستة عن رسول الله ﷺ أنه قال: «**إن الله تجاوز لي عن أمتي ما حدَّثت به أنفسها ما لم تكلم أو تعمل**»[3] وهذا في الخطرة الآثمة إذا

---

(١) رواه أحمد في كتاب مسند المكثرين من الصحابة، رقم ـ ٥٥٦٢ ـ.

(٢) رواه البخاري في الرقاق، رقم ـ ٦٠١٠ ـ.

(٣) رواه النسائي في كتاب الطلاق، رقم ـ ٣٣٨١ ـ.

رفضها القلب، أما إذا قبلها القلب وعزم على فعلها، فالجمهور على أنه يأثم بذلك. ولكنه إن تركها لله، فإن الله يأجره على ذلك.

الفوائد التربوية:

١ ـ نفهم من هذه الآيات أن الإنسان وما يملكه ملكاً لله عز وجل، وأن المال مال الله علينا أن نصرفه، ونتصرف به، حسب القواعد الربانية، التي أنزلها الله في كتابه على نبيه محمد ﷺ.

٢ ـ في القرآن نظام تشريعي كامل متكامل عن الاقتصاد، فمن مبدأ الكسب الحلال واجتناب الحرام، إلى الصدقات الإجبارية والطوعية، وتفريج الكربات المالية على غير أساس ربوي، وأنه من الإيمان وضروراته، ضبط التعامل بين الناس، على مبادىء العدل والحق، والدقة في المعاملات المالية، متحرياً الحلال الطيب، مبتعداً عن الحرام والشبهات.

٣ ـ إن ورود آية الربا بين آيات الإنفاق، وآية الدّين، ندرك منه أنها البديل عن النظام الربوي، فإن الله الذي حرّم الربا، فتح للمسلمين طرق الخلاص منه، طرق الحب، والإخاء، والرحمة، والكسب الحلال، فالربا يُشيع البغضاء والأنانية، والقسوة، والربح الفاحش بالحرام، وإيجاد طبقة ثرية، تلتهم كل شيء ولا ترحم، لتخلف وراءها فقراء، مقهورين، لا يجدون لقمة العيش.

٤ ـ إن آية ﴿وَأَحَلَّ ٱللَّهُ ٱلْبَيْعَ وَحَرَّمَ ٱلرِّبَوٰاْ﴾ يجب أن تكفي الأمة المسلمة لتبتعد عن المؤسسات الربوية بأجسادها، ومساكنها، ومطعمها ومشربها، ومعاملاتها، وعند كل معاملة أخذ وعطاء.

٥ ـ تضرب أمثلة للطفل تقريبية تبين له بشاعة الربا، وتعزز ثقته بالله عز وجل وأنه جل وعلا ما حرّم علينا إلا الخبيث الضارّ، ليرتكز في فطرته، وفي طبعه، النفور من الربا، ومن كل كسبٍ باردٍ لا جهد فيه، ويُحبَّب إليه الكسب الحلال، وأن رسول الله ﷺ قال: «**ما أكل أحدٌ طعامٌ قط خيراً من أن يأكل من عمل يده، وإن نبي الله داوود عليه السلام كان**

يأكل من عمل يده»[1].

٦ ـ الدَين له، شروطٌ وآداب، ويجب أن نربي في الطفل الأدب في أداء الحقوق. ومجيء آية الدين بعد فصلٍ طويلٍ من الآيات التي تنفّر من المسألة، وكثرة الأحاديث النبوية التي تكره ذلّ السؤال، مما يوحي بأن الدين آخر ما يضطر إليه الإنسان، فمتى يستدين الإنسان؟ ومتى يحق له أن يستدين؟ أعند كل شهوةٍ عارمة لأكثر مما في يده، يهب ويستدين وينفّذ شهواته ورغباته؟ كلا، وقد درسنا في سورة البقرة، بأن الدين يحبس صاحبه على باب الجنة، «**وأن الله يغفر ذنب الشهيد كله إلا الدين**»[2] فالدين إذاً حالة لا يلجأ إليها إلا المضطر، فإذا اضطر، واستدان، فهناك خطوات تتبّع، ومحاذيرٌ تجتنب.

٧ ـ أول من يدرب الطفل على الدين أمه، حيث ترسله إلى الجيران عند كل حاجة، ثم يستقر الموضوع في نفسه، بكثرة الحديث بين أمه وأبيه عن الدين، وعندما يبدي الأب عجزه عن أداء الطلبات والكماليات، فتقول له زوجته استدين من هذا، واستلف من ذاك، وهنا يكون الوالدين قد سقطا تربوياً دون أن يشعرا بذلك، فتنزلق قدم الصغير وهو يقف أمام المأكولات الشهية ولا يملك ثمنها، فيستدين من زملائه ليحقق شهوةً تعاظمت بين جنبيه، فإذا أخبر والديه، واجها الموضوع ببرود، ولم ينبّه إلى الخطأ الذي وقع فيه، ولم يُرشد إلى سرعة الوفاء وردِّ الحق، وبعض الناس يستحون من المطالبة بحقوقهم، فيتعلم الطفل المماطلة برد ما استدانه وبالتالي يحتال للتخلص مما عليه، فما أن يستهل حياته، ويغلظ عوده إلا وتجده قد أجاد أكل أموال الناس بالباطل، وإذا به ماهرٌ بالمعاملات المالية، فيأكل مال هذا، ويغتصب مال هذا، فإذا شبَّ وخاض غمار الحياة، زيّن له الشيطان الكسب الحرام، وصعب عليه الإنسلاخ منه، وتوعده الفقر، فيسقط في السحت ومنه في النار.

---

(١) رواه البخاري في كتاب البيوع، رقم ـ ١٩٣٠ ـ.
(٢) رواه مسلم في كتاب الإمارة، رقم ـ ٣٤٩٨ ـ.

٨ ـ يدرب الطفل الاعتماد على نفسه، والتعفف عن السؤال، وأن لا يتطلع إلى ما بأيدي الناس، ودائماً يركز عليه بمبدأ رسول الله ﷺ «**إن عباد الله ليسوا بالمتنعمين**»(١). وأن أول حرية ينالها الإنسان هي أن يتحرر من شهواته وهواه، ويعلم أنّ ما عند الله خيرٌ وأبقى.

٩ ـ يذكِّر الطفل دائماً بمآسي العالم الإسلامي، ليقنع بالنعمة التي بين يديه، ولا يلجأ للدين لتحقيق رغباته.

١٠ ـ إذا اضطر الطفل لاستعارة شيء، أو للاستدانة، يُعوَّد تنفيذ خطوات آية الدين، ليتعلم طريقة الاتباع والطاعة، ويستشعر أنَّ عمله هذا عبادة فيفرح بذلك.

١١ ـ ﴿لِّلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِۗ وَإِن تُبْدُواْ مَا فِيٓ أَنفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُم بِهِ ٱللَّهُۖ﴾ هذه الآية تعتبر من أشد الضوابط السلوكية، والتي ترقى بالعبد إلى مرتبة الإحسان، وهي تعالج تربية الضمير والوجدان قبل الجارحة، وتحتاج من الوالدين والمربين إلى التدريب على النقش على القلوب، لينقشونها في النفوس والمشاعر، ويُخرّجون الأجيال المنشودة، التي تخاف ممن يعلم بما تكنه الصدور وبما يخطر على القلوب. إنها آية الرقابة التي تصف من لا يغفل ولا ينام، ولا يضل ولا ينسى. وبدأت الآية بتعظيم شأن الله إلى ما فوق المدارك البشرية، ليقع في روع الإنسان، بطريق غير مباشر ضعف شأنه، وقلة إدراكه، فإذا كان لله ما في السماوات وما في الأرض، فمن هذا الإنسان بالنسبة لهذا كله؟ وهي آيةٌ تسلسل العبد بضعفه، أمام جبّار السماوات والأرض.

﴿ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلْمُؤْمِنُونَۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِۦۚ وَقَالُواْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَاۖ غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٢٨٥﴾ لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَاۚ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا

(١) رواه الإمام أحمد عن معاذ بن جبل ﷺ في كتاب مسند الأنصار، رقم ـ ٢١٠٨٩ ـ.

﴿ٱكْتَسَبَتْ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَآ إِن نَّسِينَآ أَوْ أَخْطَأْنَا رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَآ إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِنَا رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِۦ وَٱعْفُ عَنَّا وَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَآ أَنتَ مَوْلَىٰنَا فَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٢٨٦﴾﴾.

(صدق الله العظيم)

المفردات:

اغفر لنا: استر عيوبنا وامحها. **طاقة**: قدرة ومقدرة.

اعف عنا: اصفح عن ذنوبنا. **آمن**: صدَّق.

غفرانك: نطلب المغفرة منك. **اكتسبت**: اقترفت الشر.

إصراً: الإصر في اللغة: العنت وهو الثقل والشدة. **كسبت**: عملت الخير.

إليك المصير: إليك المرجع والمآب في القيامة والحساب.

الدراسة التربوية:

في هذه الآيات نهاية المطاف مع سورة البقرة، مع رحلةٍ تربوية عامرة. جمعت القرآن كله، وأجملته، تطرد الشياطين، وتقيم شرع رب العالمين. وتختم المطاف بالتجرد الكامل، والإحاطة التامة، وتقرر الحق الذي لا يتعدد بأن المؤمنين على أثر نبيهم طريقاً واحداً لا ثاني له، فإما أن يؤمنوا كما آمن رسولهم، وإما الكفر والجحود.

﴿ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ﴾ فهذا هو المنهج المرتضى عند الله، وهو الإيمان المقبول، وما عداه فلا شيء. إيمان يليق بالأمة الوارثة لدين الله، القائمة على دعوة الله، الشاهدة على رسول الله. لهم سمتٌ واحد ومقولةٌ واحدة. فالهدي واحد، والرائد واحد ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِى رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾[1] فالكتب والرسل والملائكة طرفٌ من غيب الله المستور، آمنّا وصدّقنا، كما آمن نبينا وصدَّق، والمؤمنون من بعده، وسمعنا

(١) سورة الأحزاب: الآية ٢١.

وأطعنا فالأُذن واعية، والطاعة حاضرة، ربنا هذا الجهد وعليك التكلان، ومنك المغفرة فالمرجع إليك والمصير بين يديك. وعندما خشعت الأصوات للرحمن، وقالوا: سمعنا وأطعنا، تجلّت الرحمة الربانية، واللمسة الحانية. لا يكلف الله نفساً إلا وسعها، والأصل في التشريع أن الإنسان له حقوق، وعليه واجبات. فالحقوق التي له، نالها من كمال الله وعظمته، والحقوق التي عليه هي العبودية الشاملة لله رب العالمين. والإنسان بضعفه، وخطئه، ونسيانه، وتراخيه، أين هو من كمال الله! ليؤدي الذي عليه، كتمام الذي ناله. فلذلك يستر عيبه بالدعاء وذل الاعتذار، ربنا لا تؤاخذنا إن نسينا أو أخطأنا، فنحن الخطاؤون، ونحن المجبولون على السهو والنسيان، فارحم ضعفنا إن جهلنا، أووقعنا في المحظور عن غير قصدٍ منّا. ﴿رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَآ إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِنَا﴾، ربنا إنك أخبرتنا، وعرضت علينا، أغلال بني إسرائيل، وشدّتك عليهم، فيا ربنا لا تعاملنا بما استحقته يهود بكفرها، ونحن تقربنا إليك بالإيمان والتسليم، ﴿رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِۦ﴾، لم يحدّد دعوةً بعينها، لأن قدرة التحمل تختلف من إنسانٍ لآخر فإنه نوع التسليم لله، بأنك خلقتني، وتعلم ضعفي، وتعلم ما أطيق، وما لا أطيق، فلا تحملني برحمتك، مالا أطيق من التكاليف والمصائب والبلاء، واعف عنا، واستر ذنوبنا واغفر لنا، وامحها بفضلك وارحمنا، بأن تثقّل ميزاننا رغم إفلاسنا، أنت مولانا، فنحن رغم الضعف الجهل والنسيان والنقص، ليس في قلوبنا إلا أنت، ولا نعرف التوجه إلا إليك، ولا نُسخّر إلا في سبيلك، ولا أملَ لنا إلا بك، ولذلك فنحن مطمئنون بجنبك، فأنت نعم المولى، ونعم النصير، نتولاك فتتولانا وننصرك فتنصرنا، ﴿أَنتَ مَوْلَىٰنَا فَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾. فهو القصد والاهتمام وهو الرجاء وفيه العمل، أن لا يغلبنا كافر، ولا تظهر للكافرين قوة، ولا تُرفع لهم راية، وأن تجعل ـ ربنا ـ العاقبة للمتقين، والفوز لعبادك المؤمنين. وكما ورد في الأحاديث الصحيحة أن الله قد استجاب لهذه الأمة وأنه سبحانه وتعالى قال بعد كل دعوةٍ «**قد فعلت**»[1].

---

(١) أسباب النزول للواحدي، ورواه مسلم في كتاب الإيمان، رقم ـ ١٨٠ ـ.

وروى ابن ماجه، وابن حبان في صحيحه، والطبراني: أن رسول الله ﷺ قال: **«إن الله وضع عن أمتي الخطأ والنسيان، وما استكرهوا عليه»**(١).

وأخرج مسلم والنسائي عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: **«بينما رسول الله ﷺ، وعنده جبريل، إذ سمع نقيضاً فوقه، فرفع جبريل بصره إلى السماء، فقال: هذا بابٌ قد فُتح من السماء، ما فتح قط، قال: فنزل منه ملك فأتى النبي ﷺ فقال له: أبشر بنورين قد أوتيتهما لم يؤتهما نبيٌ قبلك، فاتحة الكتاب وخواتيم سورة البقرة لم تقرأ حرفاً منهما إلا أعطيته»**(٢).

الفوائد التربوية:

١ ـ إن الله إذا أحب عبداً ألهمه الدعاء، لأن الدعاء هو العبادة. وفي هاتين الآيتين من خواتيم سورة البقرة، مفاصلةً كاملة، وتحديد وجهة، وكأنهما الثمرة الأكيدة لمن تربى بسورة البقرة، فلقد حددوا الوجهة وهي الإيمان، وحددوا الإتباع لرسولهم الكريم، دون تعصبٍ ولا خلل كما أنهم آمنوا بأنّ الأنبياء كلهم صادقون، راشدون، هداةٌ مصلحون، وأن الكتب كلها من لدن الحكيم الخبير. وكل كلمة في هذه الآية تحتاج إلى قلبٍ واعٍ، ويدٍ حانية، تؤكد هذه المعاني، فيمن كتب الله علينا تربيتهم، وحمّلنا مسؤوليتهم، وأنّ الملائكة خلق الله الأخيار، القائمين بين يديه، والمسبحين بجلاله، والمنفذين لأوامره، نؤمن بهم كما وصفهم الله لنا ونصدّق بوجودهم، ومدار هذا الإيمان كله، والبرهان عليه، ﴿سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ﴾. السمع والطاعة، وطلب المغفرة اعترافٌ بالنقص، والجهل، والضعف، وإقرارٌ بالموت والبعث والحساب.

٢ ـ إقرار وضوح المنهج، واتباع الرسول فيه، وتحقيق سمعنا وأطعنا، بنود تحتاج إلى جهد تربوي مركّز، فهي ليست بنود تحفظ، وتحيا معنا

---

(١) رواه ابن ماجه في كتاب الطلاق، رقم ـ ٢٠٣٥ ـ.

(٢) رواه النسائي في كتاب الافتتاح، رقم ـ ٩٠٣ ـ.

ظواهر إيمانية نصدِّق بها، بل هي بحاجة لنحيا بها، ونتحرك في نطاقها، فتزرع في قلوبنا اليقين، وتثمر الخوف من الله، والمراقبة لله عز وجل. بهذا نكون قد حصدنا العمل بسورة البقرة، التي خشي أبو بكر ﷺ أن يحفظها قولاً دون أن يطبقها عملاً.

٣ ـ تعويد الطفل الدعاء، وتحقيق اتقوا الله ما استطعتم، وتحديد الاستطاعة بأحب ما يكون إلى النفس، فإن كان يهفو للشيء ويقوم له فهو يستطيع، واستحضار القاعدة الذهبية «**لا يؤمن أحدكم حتى يكون الله ورسوله أحب إليه من نفسه التي بين جنبيه وماله وولده والناس أجمعين**»(١). فكلما حدّثته نفسه، بضعف الاستطاعة قرّعها بهذا الحديث، وذلك لشحذ الهمم، ولبذل الجهد كله، وبعده ترفع الأكف بالدعاء، والصدق في الرجاء، ومن الله الإجابة، والرحمة والفضل وعليه التكلان. ﴿رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾.

والمجتمعات المحرومة من تلك النعمة، مجتمعات بائسة، ولو غرقت في الرغد المادي، خاوية ولو تراكم فيها الإنتاج، قلقة ولو توافرت لها الحريات، ضالة تائهة وإن رعت القطعان، بينما يتقلب المؤمنون، بطمأنينة السمع والطاعة، وروح الجماعة التي تؤلف القلوب وتقوي العزائم، فيرفع المؤمن دعاءه وفي نفسه وجل، وفي قلبه رجاء وحنين لأهله وإخوانه، حيث خلص من سورة البقرة، وقد استوى عنده الفهم، ووضح له الفقه بأنه لا إسلام إلا بجماعة، ولا جماعة إلا بأمارة ولا أمارة إلا بطاعة، وعلم أن التبعية فردية، وأن الرحمة والواجبات جماعية.

وهكذا فمن جمع حفظ سورة البقرة إلى دراسة تفسيرها إلى العمل بها فقد فاز بحفظ الله ورعايته من شياطين الإنس والجن، وكما ورد في فضلها أحاديث فقد ورد في أثرها أحاديث.

عن جبير بن نفير ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «**إن الله ختم سورة**

(١) رواه البخاري في كتاب الإيمان، رقم ـ ١٤ ـ.

البقرة بآيتين أعطانيهما من كنزه الذي تحت العرش، فتعلموهن وعلموهن نساءكم فإنهما صلاةٌ، وقرآن، ودعاء»[1].

وقد ثبت عند الشيخين وأهل السنن وغيرهم عن أبي مسعود ﷺ أن النبي ﷺ قال: **«من قرأ بالآيتين من آخر سورة البقرة في ليلةٍ كفتاه»**[2].

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين

---

(١) أخرجه الحاكم وصححه البيهقي في الشعب، وفي سنن الدارمي، كتاب فضائل القرآن، رقم ـ ٣٢٥٦ ـ.

(٢) اللفظ للبخاري، كتاب فضائل القرآن رقم ـ ٤٦٢٤ ـ.

المحتويات

الموضوع	الصفحة
الإهداء	٦
تقديم	٩
المقدمة	١٥
الهدف من هذا الكتاب	١٩
خطة العمل في هذا الكتاب	٢٠
القرآن المكي والقرآن المدني	٢٠
فاتحة الكتاب	٢٣
ما ورد في فضلها	٢٥
﴿إياك نعبد وإياك نستعين﴾ عهود ومواثيق ومسؤولية	٣٠
موقف أبي بن كعب بين يدي رسول الله ﷺ	٣٠
الهداية ومسؤولية الوالدين	٣٢
الفائدة التعبدية لسورة الفاتحة	٣٣
الفوائد التربوية من سورة الفاتحة	٣٣
سورة البقرة	٣٥
فضلها	٣٨
صفات المتقين	٤٠
صفات المنافقين ـ وتنفير الأطفال من صفات المنافقين	٤٤
الفوائد التربوية وترسيخ العقيدة في نفوس الأطفال بعيداً عن التخويف من النار	٤٩

الموضوع	الصفحة
تقريب فكرة الموت للأطفال	٤٩
قصة خلق آدم	٥٢
معصية إبليس	٦٧
أدب التوبة وأدب التلقِّي	٦٩
الفوائد التربوية	٧١
بنو إسرائيل ولجاجتهم بعدم الصبر على الماء وعلى الطعام	٩٠
قصة أصحاب السبت	٩٤
الفوائد التربوية	٩٥
بنو إسرائيل وقصة ذبح البقرة	٩٧
الفوائد التربوية	١٠٢
اليهود وقراءة الأماني دون تدبّر	١٠٤
قصة عبد الله بن سلام مع أحبار اليهود	١٠٦
سؤال اليهود للرسول ﷺ عن الخلود في النار	١١٢
الفوائد التربوية	١١٨
بنو إسرائيل والإيمان ببعض الكتاب والكفر ببعض	١٢٠
بنو إسرائيل وقتل الأنبياء	١٢١
الفوائد التربوية	١٢٥
بنو إسرائيل وعبادة العجل	١٢٧
بنو إسرائيل والحرص على الحياة	١٢٨
سؤال اليهود النبي ﷺ عن خمسة أشياء	١٢٩
الفوائد التربوية	١٣١
كبيرة السحر وعلاج القرآن لها	١٣٢
الفوائد التربوية	١٣٥
حكم التشبيه باليهود	١٣٨
الفوائد التربوية	١٤٢
أهل الكتاب وأمانيهم في المسلمين	١٤٣
عمر والقس النصراني	١٤٥

الموضوع	الصفحة
الفوائد التربوية	١٤٧
الطغاة وتعطيل دور المسجد	١٤٧
الإسلام وإرضاء اليهود والنصارى لا يجتمعان	١٥١
صفة الرسول ﷺ في التوراة	١٥١
الفوائد التربوية	١٥٥
مفهوم تلاوة كتاب الله	١٥٧
إبراهيم الإمام ونجاحه في الابتلاء بالكلمات	١٥٩
دعاء إبراهيم عليه السلام	١٦٤
وصية يعقوب عليه السلام لبنيه عند الموت	١٧٠
الفوائد التربوية	١٧٢
متطلبات الثبات على دين الله	١٧٦
الفوائد التربوية وتعريف التقوى	١٧٨
التربية الربانية وتحويل القبلة	١٧٩
النسخ حق لله تعالى	١٨٢
أدب رسول الله ﷺ ورغبة في صدره بالوجه إلى البيت الحرام	١٨٣
تميز الرسول ﷺ وعدم اتباع اليهود	١٨٤
التربية حصن قرآني تتحصَّن به الأجيال	١٨٥
قراءة القرآن والثمرة المرجوّة	١٨٧
الذكر وأحواله	١٨٨
الفوائد التربوية	١٨٩
اليهود والإعلام	١٩١
الشهيد وتكريم الله له	١٩٤
الصفا والمروة وتحرّج المسلمين	١٩٨
التشبه والتقليد وحكمه في الشرع	١٩٩
الفوائد التربوية	٢٠١
مراحل تربوية وعلاجية	٢٠٣
اللعن وحكمه في الشرع	٢٠٥

الموضوع	الصفحة
سيد قطب وقاعدة الألوهية	٢٠٥
مشهد التبرؤ يوم القيامة مشهد مؤلم	٢٠٥
التحريم والتحليل حق لله العظيم	٢١٠
حكم أكل الميتة	٢١٢
الفوائد التربوية	٢١٥
مفهوم البر	٢١٩
القصاص والحكمة الربانية	٢٢٢
حكم الوصية الشرعية	٢٢٤
الصيام وآدابه	٢٢٦
إثم الفتوى الخاطئة مسؤولية السائل والمفتي	٢٣١
الفوائد التربوية	٢٣٢
المسلمون وعلم الفلك	٢٣٧
الإسلام يواجه العادات الجاهلية بعقلانية وقصة الدخول من الأبواب	٢٣٩
وصايا رسول الله ﷺ في الجهاد	٢٤٢
حرمة البلد الحرام	٢٤٣
أبو أيوب الأنصاري والفهم السليم للقرآن	٢٤٤
المواقف التربوية	٢٤٥
تدريب الأطفال على طلب علم الفقه	٢٤٦
الهَدي والسمت والدين مفاهيم تربوية	٢٤٨
الحج يربّي أمة	٢٥٢
الحج مدرسة الجماعة	٢٥٤
الفوائد التربوية	٢٥٧
التمثيل ليس من سمت الدعاة وهيئة الألدّ الخصم	٢٦١
المحنة بين الألدّ الخصم ومن يشري نفسه ابتغاء مرضاة الله	٢٦١
النداء الحاني للدخول في الإسلام	٢٦٣
آداب التعامل مع الإسلام	٢٦٤
الاختلاف المذموم سبب فرقة المسلمين	٢٦٨

الموضوع	الصفحة
الفوائد التربوية	٢٦٨
أدب الإنفاق	٢٧٣
حديث عبد الله بن رواحة ﷺ مع نفسه	٢٧٣
سَرية عبد الله بن جحش ﷺ	٢٧٦
أدب التنفيذ لأوامر الرسول ﷺ	٢٧٦
خطة النبي ﷺ في مواجهة الشرك	٢٧٩
حكم غيبة الفاسق	٢٨١
تحقيق الإيمان واجب قبل تلقِّي القرآن	٢٨٤
الأسرة المسلمة ومحاضن الجيل	٢٨٦
حكم اليمين وأنواعه	٢٩٠
الفوائد التربوية	٢٩١
حكم الهجرة وأقوال الفقهاء	٢٩٤
آداب الخطبة والزواج	٢٩٦
آداب الأسرة المسلمة ومشكلة الإيلاء	٢٩٨
هجران الزوج لزوجته تعدّي لحدود الله	٢٩٩
آداب الطلاق	٣٠١
أول خلع في الإسلام	٣٠٦
الفوائد التربوية	٣٠٨
مفهوم القوامة في الإسلام	٣٠٩
الإرضاع أمر من الله	٣١٤
الطلاق وأحواله ومفهوم المتعة	٣١٧
الفوائد التربوية	٣١٩
آداب المتوفي عنها زوجها	٣٢٢
الصحابة والمواقف الجهادية	٣٢٧
المفاهيم الحقيقة للجهاد	٣٣١
الفوائد التربوية	٣٣٣
قصة داود الطائي وسفيان بن عيينة في طلب العلم	٣٣٦

الموضوع	الصفحة

خصائص الرسل ٣٣٨
آية الكرسي والتوحيد ٣٤٣
الفوائد التربوية ٣٤٩
أبو هريرة ﷺ يتعلم ولو كان من الشيطان ٣٥٠
ميزان أبو هريرة ﷺ في طلب العلم ٣٥١
مفهوم الآية ﴿يخرجهم من الظلمات إلى النور.. ويخرجونهم من النور إلى الظلمات ٣٥٢
إبراهيم عليه السلام ورحلته الإيمانية ٣٥٤
عزير والقرية الخاوية ٣٥٥
الفوائد التربوية ٣٥٨
الإنفاق وآدابه ٣٥٩
موقف الإسلام من المسألة ٣٧٠
الفوائد التربوية وعادة المنّ بالعطية ٣٧٣
لا مكان للجهل في الإسلام ٣٧٥
الكسب الحرام كبيرة مهكلة في الدين ٣٧٧
المحتويات ٤٠٣